

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
المعهد العالي للدعوة الإسلامية
قسم الإعلام



"التعبئة الإعلامية في الحروب الصليبية"

رسالة مقدمة من الطالب

أحمد الدسوقي اسماعيل ســـــــــــــــــرور

"للحصول على درجة الماجستير في الإعلام الإسلامية"

١٤٠٢/١٤٠٣ هـ

إشراف: د . عبد الحليم عويس



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن دعا بدعوتهم ، وجاهد جهادهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فلقد تعارف الناس على مر العصور على أن الحروب الصليبية لم تكن سوى معارك حربية ضارية ، ولم تعرف إلا الطعن والنزال ، ولم تكن تعنى سوى التعبئة العسكرية ، وحشد العدة والعتاد .

وهي وإن كانت لم تعدم ذلك في أية مرحلة من مراحلها ، إلا أنه قد عرفت تعبئة أخرى كانت في الواقع أهم وأخطر من التعبئة العسكرية ، وأعنى بها " التعبئة الإعلامية " الكاملة التي زخرت بالحشد الهائل من الدعوة والدعاية والإعلام ، واستخدمت في ذلك كل الوسائل المتاحة آنذاك لاستقطاب الرأي العام في كل من الجانبين على حد سواء ، الجانب الإسلامي ، والجانب الأوربي النصراني ، وترجع أهمية هذه التعبئة الإعلامية وخطورتها إلى كونها قد مهدت للتعبئة العسكرية ، وأشعلت نارها ونفخت فيها ، ومن ثم كان تأثيرها في الهزيمة والنصر .

لذلك لم تكن هذه التعبئة الإعلامية بالظاهرة العابرة المحدودة الأثر والنتائج ، وإنما هي ظاهرة كبرى وسابقة خطيرة يجب تدبرها ، واستخلاص الدروس والعبر منها ، حتى نستفيد من أخطاء الماضي ونحاول ألا تقع فيها ، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها ، ونتحاشى ما قد يعترض سبيلنا في المستقبل من عقبات وصعاب .

وإذا كان لا بد من تحديد فترة زمنية لأي دراسة علمية ، فإن عنوان هذا البحث " التعبئة الإعلامية في الحروب الصليبية " قد تكفل بذلك ووضع له تحديدًا زمنيًا دقيقًا ، حيث أن التعبئة الإعلامية لم تحدث في تاريخ الحروب الصليبية التي امتدت نحو قرنين من الزمان سوى مرتين :

إحداها : حدثت عند بداية الحروب الصليبية على الجانب النصراني حين اشتعلت أوروبا كلها ضد العالم الإسلامي مستخدمة كل وسائل الدعاية والإعلام ، مهددة بذلك للتعبئة العسكرية ، ولقد بلغ

الصليبيون بتعميشتهم الإعلامية آنذاك قمتها حين استولوا على القدس وأنشأوا بها مملكة بيت المقدس عام (١٠٩٩ / ١٠٩٢) .

الثانية : حدثت على الجانب الإسلامي بد ١٠ بعداد الدين زنكي ، ومرورا بنور الدين محمود في عهد البدايات ، وانتهاء بصلاح الدين الأيوبي التي بلغت في عهد التعبئة الإعلامية الإسلامية الكاملة قمتها باسترداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين عام (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) .

وبين القمتين كانت الفترة الزمنية لهذا البحث ، ولقد بينت ذلك بالتفصيل من واقع النصوص ، ومجريات الأحداث التي شطت الأمة الإسلامية بعد صلاح الدين ، ولست أعني بالانعدام التعبئة الإعلامية بعد صلاح الدين انعدام الوسائل الإعلامية في ذلك العهد ، لأن وجود الوسائل الإعلامية لا يعني أبدا وجود التعبئة الإعلامية أو الأثر الإعلامي لهذه الوسائل ، فقد توجد مثل هذه الوسائل بالفعل وجودا ماديا ، ولكن هذا الوجود المادي لا يعني بحال الوجود المعنوي ذا التأثير الإعلامي لهذه الوسائل .

وإذا سلمنا بأن هناك وسيلة إعلامية قد توفر لها الوجود المادي والمعنوي ، فإن ذلك لا يعني بحال من الأحوال التعبئة الإعلامية كظاهرة مثل تلك التي حدثت في الحروب الصليبية مرتين .

وإنني وإن كنت قد تتبعته الأثر الإعلامي لكل وسيلة من الوسائل الإعلامية على حده ، فلم أكن أقصد بهذا التتبع إبراز الأثر الإعلامي الذي أحدثته هذه الوسيلة أو تلك في الرأي العام الإسلامي أو النصراني من خلال الهيكل العام للتعبئة الإعلامية الشاملة .

ولقد دفعني إلى البحث في هذا الموضوع أكثر من دافع :

الأول : المكانة الخطيرة التي يحتلها الإعلام في عصرنا الحاضر، والأشهر
الفعال الذي يحدثه في الرأي العام العالمي سلما وحربا بما استحدثه
من وسائل إعلامية متعددة بلغت درجة من التطور تجعل أى تقليل من
شأنها كارثة .

الثاني : التأكيد الإعلامى المتواصل الدؤوب على أن هذه الأمة الإسلامية
لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها ، وذلك بالدعوة إلى الله على
بصيرة لإعلاء كلمة الله في الأرض .

الثالث : ضراوة الصراع المتمثلة في التعبئة الإعلامية التي تشنها وسائل الإعلام
الصهيونية والعلمانية على الأمة الإسلامية بقصد تفتيت الرأي العام
الإسلامي وتمزيقه حتى يسهل على هؤلاء تجريد المسلم من عقيدته ، ومن
ثم الإجهاز عليه .

الرابع : إحباط الشعارات الزائفة المزعومة التي أيقظتها أخيرا بعض وسائل الإعلام
المعادية للإسلام والمسلمين مركزة على شعار " فصل الدين عن الدولة " .
حيث يقول موقوفوه : " من أراد الإسلام فله المسجد ، ومن أراد الدولة
فله المؤسسات السياسية " ، وكان أول شيء اعتبروه من السياسة " الجهاد " .
ولقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن جهاد المسلمين في الحروب الصليبية - وهو جهاد
لا شك عظيم - ما قام إلا بالدعوة وما انتصر إلا بالآية الكريمة ، والحدث النبوي
الشريف ، والقذوة الحسنة . كل ذلك في تعبئة إعلامية إسلامية كاملة بلغت قمتهما
باسترداد بيت المقدس من أيدي غاصبيه .

وعندما وفقني الله لاختيار هذا البحث كنت أتوقع الكثير من الصعوبات ، نظرا
لأن علماء المسلمين من القدماء قد تناولوا العديد من جوانب الإسلام المختلفة

التي ملأوا بها بطون الكتب مثل : الجانب الديني ، والسياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، والإداري ، والعلمي ، والثقافي ، والحرسي . إلى غير ذلك من الجوانب الإسلامية التي أشبهوها بحثا ودراسة واستيعابا .

بيد أن هؤلاء العلماء الأجلاء لم يوجهوا مثل هذه العناية إلى جانب إسلامي يعتبر بحق - في نظر الإسلام - من أهم جوانبه ، وأعنى به جانب " الإعلام في الإسلام أو الاتمال بالناس " ومن المصوبات التي واجهتني كذلك تلك التي تختص بموضوع البحث ذاته نظرا لندرة المصادر العربية التي تشير إلى هذا الجانب الإعلامي ومدى تأثيره في الرأي العام الإسلامي أو الرأي العام النصراني أوهما معا ، حيث كان لهذا الجانب الإعلامي أكبر الأثر في نتائج تلك الحروب في الهزيمة والنصر ، وإذا أشارت تلك المصادر إلى بعض ملامح هذا الجانب ، فإنها تشير إليها إشارات عابرة لا تعنى من ورائها إلا مجرد السرد التاريخي الذي لا يعطى الباحث أو القارئ صورة واضحة المعالم عن ذلك الجانب الإعلامي في تلك الفترة المصيرية في حياة المسلمين . بالرغم من أن بعض تلك المصادر قد ذكرت عدة عبارات تؤكد أهمية هذا الجانب على لسان قائد هذه التعبئة الإعلامية صلاح الدين الأيوبي الذي ذكرت المصادر عنه أنه قال : " لا تظنوا أنني ملكست البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضى الفاضل " (١) .

وعند ما طلب بعض المقربين من صلاح الدين أخذ مامع الصليبيين من أسواق ومناج قال لهم : " نحن نجربهم على ظاهر الأمان ، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان ^(٢) وزاد هذا المعنى توضيحا فقال :

" نحن نجربهم على ظاهر الأمان ، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكسات

الإيمان ، بل يتحدثون بما أنفنا من الإحسان " (٣) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ، ص ٢٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ١١٥ .

(٣) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٣٥ .

ولقد قُسمت هذا البحث إلى ثلاثة أبواب وتمهيد تناولت فيه مبحثاً
فى " مصطلحات الدعوة والدعاية والاعلام والرأى العام " نظراً لأهمية هذه
المصطلحات بالنسبة للبحث، ولكونه يدور حولها من حيث حقيقتها، وتكوينها،
ومجالها، ووظيفتها، وبعض صور منها قد بما وحدتها، موضحاً أوجه الاختلاف
والاتفاق بين هذه المصطلحات، مبيناً وجهة النظر الإسلامية فى هذا كله
مستشهداً فى كل ذلك بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

كما خصصت الباب الأول للحدث عن " التعبئة الإعلامية وأثرها فى التصعيد
للحروب الصليبية " وقسمته إلى ثلاثة فصول، تحدثت فى الفصل الأول عن حقيقة
الحروب الصليبية والصليبيين والدافع الحقيقية التى دفعتهم إلى شن هذه
الحملات على العالم الإسلامى، ثم اختتمت هذا الفصل بتغطية تاريخية موجزة
لهذه الحملات، مع التأكيد على الجوانب الإعلامية التى كان لها تأثير بارز فى الرأى
العام على كلا الجانبين.

وتحدثت فى الفصل الثانى عن " الدعاية للحملة من قبل الصليبيين " مبيناً
الأثر الاعلامى الذى أحدثته الكنيسة الأوروبية بزعامة " البابا أوربان الثانى " فنتق
الرأى العام النصرانى حتى استجاب لهذه الدعاية وقام بحملته العسكرية الأولى
على العالم الإسلامى.

كذلك تحدثت فى هذا الفصل عن " حملات العامة التى تزعمها " بطرس الناسك "
وغيره من أجل الدعاية لهذه الحملة، موضحاً الأثر الاعلامى الخطير لتلك الدعاية
الشعبية التى أخذت تسرى فى عروق الرأى العام النصرانى، وتحوله إلى قوة
إيجابية تنشد الغزو والتوسع والانتشار.

وتحدثت فى الفصل الثالث عن " وسائل الدعاية التى استغلها الصليبيون فى

حربهم ضد المسلمين" موضحاً أثر هذه الوسائل في استكمال التعبئة الإعلامية الصليبية ضد العالم الإسلامي ، كاتخاذهم " الصليب " رمزا اعلاميا لستراطماهمم الحقيقية ، ورفع الشعار الصليبي القائل بإنقاذ " بيت المقدس " من أيدي المسلمين بدعوى توفير الأمن للحجاج الصليبيين ، وانتشار الشائعة التي تقول بظهور " المسيح " في بيت المقدس على رأس ألف من التاريخ الميلادي ، وغير ذلك من الشائعات والشعارات الادعائية والرموز الإعلامية .

أما الباب الثاني فجعلته عن " التعبئة الاعلامية في الجبهة الإسلامية " وقسمته إلى ثلاثة فصول ، تحدث في الفصل الأول عن تعزق الرأي العام الإسلامي نتيجة لما ساد الأمة الإسلامية من خلافات ، وبينت الأثر الإعلامي السلبي الذي أصاب الرأي العام الإسلامي من جراء ذلك ، والذي كان له أكبر الأثر في تغلب الحملة الصليبية الأولى على القوى الإسلامية المتطاحنة ، وركزت على المظاهر السلبية التي ظهرت آنذاك في الرأي العام الإسلامي نتيجة لهذه الخلافات التي عمّت قيادته ، وذكرت بعض صور هذه الخلافات ذات الأثر السلبي على الرأي العام في ذلك الوقت .

وتحدثت في الفصل الثاني عن " الركائز الإسلامية التي اعتمد عليها المسلمون في تعبئتهم الإعلامية ضد الصليبيين " مبينا المرحلة التي سبقت الاعتماد على هذه الركائز الإسلامية ، وهي مرحلة انعدام الرؤية التي تمثل عدم الوضوح في الاعتماد على تلك الركائز الثابتة ، وكان من أبرز ظواهر هذه المرحلة ظاهرة التصوف والزهد هربا من المشاركة في الجهاد ضد الصليبيين ، حيث احترف جماعة من الناس حياة الزهد والتصوف والانعطاف عن الناس رفضا للحياة وما فيها ، ومع انتشار هذا المفهوم الخاطي* للدين الحنيف ازداد عدد هؤلاء المتصوفة المنقطعين عن حياة الجهاد وحرب الأعداء* ، أما الظاهرة الثانية فكانت ظاهرة ترك الجهاد

والاستعاضة عنه بالاعتكاف في المساجد للعبادة وتلاوة القرآن الكريم ونفعاً
للخطر الحليبي واعتقاداً منهم بأن هذا يقرّبهم من الله زلفى ، ويغنيهم في نفس
الوقت عن متاعب الكفاح ومشاق القتال .

ثم تدرجت من هذه المرحلة إلى المرحلة التالية ، وهي مرحلة " بداية وضوح
الرؤية والانطلاق من الركائز الإسلامية في عهد " عماد الدين زنكى " و " نور الدين
محمود بن زنكى " وبينت كيف أن فترة عماد الدين زنكى كانت فترة جهاد متواصل
لكسر شوكة الحليبيين ، وزعزعة مكانتهم من نفوس المسلمين .

أما " نور الدين محمود " فقد تحقق في عهده المزيد من الانتصارات العسكرية
المتتالية على الحليبيين . بعد أن تحقق على يديه ما هو أهم من ذلك وأخطر
وأعنى به استمداده من منابع الإسلام الأصيلة في القرآن والسنة الأرضية المناسبة
التي يقف عليها المجاهد ، وتكفله من أدائه واجبه في أحسن الظروف وأكثرها قدرة
على شحن طاقاته .

وأنهت هذا الفصل بالمرحلة النهائية من هذه المراحل وهي " مرحلة
الوضوح الكامل للاعتماد على الركائز الإسلامية في التعبئة الإعلامية في عهد
صلاح الدين " ، حيث تحدثت عن تلك الركائز التي بلغ الاعتماد عليها قمته في عهد
صلاح الدين ، وكان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على رأس هذه الركائز
بطبيعة الحال ، ثم جاء بعد ذلك المسجد والعودة برسالته إلى ما كانت عليه
في صدر الإسلام ، ثم تلاه موسم الحج واستغلاله من قبل صلاح الدين في الدعوة
إلى الجهاد ضد الحليبيين .

وتحدثت في الفصل الثالث عن " الوسائل الإعلامية التي استغلها المسلمون
في تعبئتهم الإعلامية ضد الحليبيين " حيث تناولت في الجزء الأول منه " الوسائل
الإعلامية في الجبهة الإسلامية قبيل صلاح الدين " ، وقد تركّزت هذه الوسائل

فى إنشاء المدارس، وتبادل الرسائل بين الزعماء والقادة، الأمر الذى ساهم بشكل فعال فى الوقوف على أهم الأخبار وآخرها، ومعرفة أفضل الآراء التى تهتم المسلمون، وتعجل بنصرهم، وكان الشمر من الوسائل الإعلامية التى تصدرت التعبئة الإعلامية منذ بدايتها حيث شارك الأئمة فى هزائمها وانتصاراتها، وجاء سقوط بيت المقدس ليكون البداية التى حركت أوتار الشمر، وأحرقت قلوبهم تعبيرا عما يجيش فى صدور الأئمة، وقد أوردت بعض القصائد التى تعبر عن ذلك فى عدة مناسبات، أما الجزء الثانى فقد تناولت فيه "الوسائل الإعلامية التى استغلها صلاح الدين فى تعبئته الإعلامية الكاملة ضد الصليبيين" وقد ركزت فى هذا الجزء على التوسع فى إنشاء المدارس لنشر عقيدة الجهاد وبعثها بين المسلمين، وكذلك مشاركة العلماء والأئمة بأنفسهم فى المعارك حتى يصبحوا قوة إعلامية كبرى بين المجاهدين، وتحدثت عن تأليف الكتب التى تحت المسلمين على الجهاد والغروسة، وبينت كيف تواءم الشمر فى خصائصه وموضوعاته مع مرحلة التعبئة ضد الصليبيين، وكذلك مواصلة الرسائل القيام بوظيفتها فى نقل الأخبار وتبادلها بين زعماء المسلمين وقادتهم.

وأما الباب الثالث فقد تناولت فيه "الرأى العام الإسلامى فى مرحلة التعبئة الإعلامية الكاملة" وتحدثت فى الفصل الأول عن "توحيد الرأى العام الإسلامى على يدى صلاح الدين الأيوبي" حيث ركزت فيه على القدوة الحسنة، وكيف أنها تعتبر من أقوى الوسائل الإعلامية التى يحتاج إليها الدعاة، ثم تحدثت عن الإصلاح العقدي الذى قام به صلاح الدين الأيوبي، فقضى على الإلحاد ونسف قواعد الزندقة، كما قضى على غلاة الشيعة ودعاة الاسماعيلية، وطهر العقيدة من رجسهم، واستكمالا لذلك تحدثت عن إنشاء المكتبات والمدارس لتدريس الدين على مذهب أهل السنة والجماعة، أما الإصلاح الاجتماعى الذى أجراه صلاح الدين

فقد تحدث فيه عن القضاة على مظاهر الخلاعة والمجون في عهد الفاطميين وخاصة في المواسم والأعياد ، والقضاة على بدء المواسم كبدء يوم عاشوراء ، وأنهيت الحديث في ذلك عن القضاة على العديد من الفرائض التي فرضت ظلما وعدوانا على مصر والشام وحجاج بيت الله الحرام ، وتحدثت في الفصل الثاني عن " معركة حطين مفتاح القدس عسكريا وإعلاميا " مبتدئا ذلك بتصور عام للمعركة ، ثم بينت نتائجها العسكرية والإعلامية على كلا الجانبين ، وأثرها في استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين .

أما الفصل الثالث فقد تناولت فيه " مواقف صلاح الدين الإسلامية وأثرها الإعلامي في الرأي العام الأوربي " حيث تحدثت عن شفقة صلاح الدين ورحمته التي تجلت في استجابته الإنسانية لما عانى منه المسنون الضعفاء من الصليبيين ، ورحمته بالنساء والأطفال منهم . وتحدثت عن عدل صلاح الدين وإحسانه حين أذن لرجال الدين النصارى بحمل ماشاءوا من متاعهم وأموالهم ، وإعفاكه من الفدية لأعداد غفيرة من الصليبيين غير القادرين على دفعها ، ثم توجت ذلك كله بالحديث عن الآثار الإعلامية لمواقف صلاح الدين الإسلامية في الرأي العام الأوربي ، حيث استطاع أن يجنى ثمرة تعبته الإعلامية في مجال الدعوة الإسلامية عن طريق إيقاف الرأي العام النصارى على حقيقة الإسلام ، الأمر الذي دفع العديد منهم إلى اعتناق الدين الإسلامي عن اقتناع تام ، وبيّنت كيف أثر كل ذلك على أوروبا النصرانية بإحجامها عن المشاركة في الحملات الصليبية التي شنت على العالم الإسلامي بعد ذلك ، والتي لم يكن لها أن تتم لولا الإغارات المادية والمعنوية المديدة التي وعدت بها الكنيسة كل مشترك في تلك الحملات.

.

لقد اعتدت في إعداد هذه الرسالة على العديد من المصادر والمراجع، وسوف أتناول أهم المصادر التي اعتدت عليها، وكذلك بعض المراجع.

ولقد جاء في مقدمة هذه المصادر كتاب "الروشتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" للمؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥هـ) نظراً لأن هذا المصدر يعتبر تأريخاً دقيقاً لتلك الفترة من تاريخ الحروب الصليبية وخاصة في ذكر التواريخ والأحداث، مع شيء من الإسهاب المفيد الذي يعطى للباحت حرية أكبر في الاختيار، وتظهر بوضوح أهمية هذا المصدر في إبراء الكثير من القمائد الشعرية التي قيلت في تلك الفترة وكذلك العديد من الرسائل الكاطلة التي أنشأها أمراء البيمان في ذلك العصر وجعلوها منها سجلاً دقيقاً لأحداث عصرهم.

وبأتى بعد هذا الكتاب في الأهمية كتاب "الفتح القسي في الفتح القدسي" للمصادر الكاتب الأصفهاني، وقد اهتم هذا المصدر القيم بالفترة الزمنية التي صاحبت استرداد بيت المقدس من الصليبيين، وما أعقب ذلك من انتصارات على يد صلاح الدين، كذلك اهتم بالوصف الدقيق لتلك الأحداث، وقام بحشد أعداد هائلة من الرسائل التي تناولت بالتفصيل كل ما يتعلق بهذه الأحداث المصيرية بالنسبة للأمة الإسلامية، وإن كان أسلوب السجع الذي اعتده المؤلف من أول الكتاب إلى آخره قد أوجد بعض الصعوبات في استخلاص الحقائق التاريخية، إلا أن ذلك لا يقلل من أهميته التاريخية، ولقد اعتدت أيضاً على العديد من كتب التاريخ لكني أستخلص منها الجوانب الإعلامية التي شاركت في تكوين التعبئة الإعلامية على كل من الجانبين الإسلامي والنصراني.

ومن هذه الكتب : "الكامل فى التاريخ" لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ، و"البداية والنهاية" لابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، و"النجوم الزاهرة" لابن تغرى بـردى (ت ٨٧٤هـ) .

وقد اعتدت كثيرا على كتب التراجم عند البحث عن ترجمة شخصية هامة حتى أتبين من خلال هذه الترجمة موقفه من التعبئة الإعلامية الإسلامية الكاملة ، ومن هذه الكتب أيضا كتاب "شذرات الذهب فى أخبار من ذهب" لأبى الفلاح عبد الحى بن العماد (ت ١٠٨٩هـ) ، وكتاب "وفيات الأعيان" لمؤلفه شمس الدين أحمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ) .

أما المراجع التى رجعت إليها فقد كان فى مقدمتها كتاب "الحركة الصليبية" للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، حيث اعتدت عليه فى استخلاص بعض الآراء التى ترجمها المؤلف عن الكتاب النصارى ، مما ساعدنى على مناقشة هذه الآراء والرد عليها ، ومن المراجع التى اعتدت عليها أيضا فى التعبئة الإعلامية الصليبية ، ووسائل الدعاية عند الصليبيين كتاب "الحرب الصليبية الأولى" وكتاب "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس" وكلاهما للدكتور حسن حبشى .

وأضافة الى المراجع التى تناولتها بالتعريف ، فقد استفدت كثيرا من كتب الإعلام الإسلامى والدولى من حيث التعرف على أهم المصطلحات الإعلامية التى وردت فى هذه الرسالة .

هذا ويسرنى أن أسجل فى هذه المقدمة جزيل شكرى ، وعظيم امتنانى إلى الدكتور عبد الحليم عويس الذى أشرف على هذه الرسالة بكل أمانة العلماء ووفائهم ، وبكل إخلاص الدعاة وصدقهم ، والذى لم يدخر وسعا فى النصح والإرشاد والتقويم ، فجزاه الله عنى خير الجزاء وأثابه فى الدنيا والآخرة أحسن الثواب .

كذلك لا يغوتنى أن أقدم خالص شكرى للقائمين على إدارة المعهد العالى
للدعوة الإسلامية والمشرفين عليه الذين أتاحوا لى ولزملائى فرصة الدراسة
والبحث ، وسهلوا أمامنا كل صعب .
والله أسأل أن يوفقنا لما فيه خير ديننا ودنيانا ، وأن يجعل هذا العمل
خالصا لوجهه تعالى ، إنه سميع مجيب .



قال تعالى :

" أَمِنَ أَسَسَ بَنِيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانٍ خَيْرَ أَمٍّ مِنْ أَسَسَ بَنِيَانَهُ
عَلَى شَفَا جَرْفٍ هَارِفَانِهَارِبَهُ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "

(التوبة : ١٠٩)

تمهيد

"مبحث في مصطلحات الدعوة والدعاية والإعلام والرأى العام"

أولا : الدعوة :

- ١ - حقيقة الدعوة
- ٢ - مجال الدعوة
- ٣ - بعض صور الدعوة قديما وحديثا

ثانيا : الدعاية :

- ١ - حقيقة الدعاية
- ٢ - مجال الدعاية

ثالثا : الاعلام :

- ١ - حقيقة الإعلام
- ٢ - بعض صور الإعلام فى المجتمع الإسلامى قديما

رابعا : الرأى العام :

- ١ - تعريف الرأى العام
- ٢ - تكوين الرأى العام
- ٣ - وظيفة الرأى العام
- ٤ - أنواع الرأى العام من النواحي التالية :

- أ - النطاق
- ب - الاستمرار الزمنى
- ج - الظهور والعلانية

أولا : الدعوة

١ - حقيقة الدعوة :

الدعوة فى الواقع هى وظيفة رسل الله جميعا ، حيث بعثهم الله سبحانه وتعالى لتبليغ رسالاته ، " رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما " (١) ، ومن ثم يتحقق قوله تعالى فى كتابه العزيز :

" من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزد وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " (٢) .

تلك هى مهمة الرسل التى تكاد تنحصر أساسا فى إبلاغ الرسالة وحمل أمثاتها ، قال تعالى :

" يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وادعها إلى الله بأذنه وسراجا منيرا " (٣) .

وقال تعالى :

" فهل على الرسل إلا البلاغ المبين " (٤) .

وقال تعالى :

" وما على الرسول إلا البلاغ المبين " (٥) .

(١) النساء : آية ١٦٥ .

(٢) الإسراء : ١٥ .

(٣) الأحزاب : ٤٥ .

(٤) النحل : ٣٥ .

(٥) النور : ٥٤ .

ومن أجل تحقيق تلك المهمة - وهي مهمة الإبلاغ - بعث الله رسوله إلى الناس ليدعوهم إلى الإيمان بالله وإفراده بالعبادة .

ويقصد بالدعوة ، هنا من حيث الموضوع دين الإسلام فهو الأصل الأول من حيث عقائده وشرائعه وسننه ، ثم هناك وسائل التبليغ وطرق الاتصال بالناس وأساليب مخاطبتهم ، وهي تتعدد تعددا كبيرا نظراً لأن الإسلام غير مقصور على العرب وحدهم (١) ، قال تعالى : " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٢) .

والدعوة تقتضى من الداعي نشاطاً فعلياً وقولياً ، وأهل العلم من المسلمين مطالبون بالدعوة إلى دين الله ، وإرشاد الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .

والدعوة رسالة أو نداء . وهذه الرسالة أو هذا النداء لابد له من مدعو محدد الذات والمكان حتى تتم الصفة الموجهة للدعوة ومعرفة المدعو ضرورة من أجل نجاح الرسالة والوصول بها إلى الغاية التي يسعى صاحب الدعوة إلى تحقيقها على الوجه الأكمل والأفضل . والدعوة إذا تمت بين شخص وآخر أو بين عدد قليل من الناس وجها لوجه فهي اتصال شخصي طبعي مباشر .

وقد تتم الدعوة بشكل جمعي ، كالخطابة في المسجد مثلاً أو في مكان عام ، وهي صورة للدعوة بطريقة مباشرة (٣) .

والدعوة ملزمة للداعي أي أنها تضع على طائفة التزاما تجاه من يقسمون بتوجيه الدعوة إليهم وهذا يحتم عليه أن يكون واثقا من مضمون دعوته التي يجب أن تكون راسخة في عقله ثابتة في فكره لتتزل منه منزلة العقيدة . وعندما تصل الدعوة من الداعي إلى هذه المنزلة فإنها بلا شك سوف تفيض منه إلى غيره صادرة عن عقيدة لا تتزعزع ، وقلب لا يميل .

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامي (المرحلة الشفهية) ص ٢٩ - مكتبة الأنجلو

المصرية - القاهرة (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) .

(٢) سبأ : آية ٢٨ .

(٣) د . إبراهيم إمام : المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٠ .

وهذا الالتزام من صاحب الدعوة تجاه مدعوته ومن يدعوهما إليها يستدعي أن تطابق أفعاله أقواله بحيث يصبح قدوة حسنة لمن يدعوهما في القول والفعل ، لأن الدعوة من شأنها أن يستجاب لها ، وهذه الاستجابة من جانبها هي التي تحدد خطوات الداعي الواجب عليه اتباعها في المستقبل وهو ما يطلق عليه الإعلاميون اصطلاح " رجع العدى " والدعوة تقوم أساسا على الاتصال الذي يمكن تقسيمه إلى نوعين رئيسيين من أشكال الاتصال هما :

الاتصال الطبيعي المباشر ، والاتصال الصناعي غير المباشر ، ويمكن تقسيم الدعوة عن طريق الاتصال الطبيعي المباشر إلى ثلاثة أنواع هي :

الاتصال الذاتي ، والاتصال الشخصي ، والاتصال الجمعي .

أما الاتصال الذاتي ، فالدعوة عن طريقه تكون خاصة بالإنسان ذاته صاحب الدعوة فهو الداعي والمدعو في ذات الوقت .

ومعنى ذلك أن الرسالة أو الدعوة في هذه الحالة تصبح منه وإليه ، فهو المرسل والمرسل إليه في آن واحد .

واتصال الإنسان مع نفسه بقصد دعوتها إلى اتباع الخير واجتناب الشر هو ذاته ما أسماه الحق سبحانه بالنفس اللوامة في قوله تعالى :

" لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة " (١) .

وهنا يقع الصراع مريراً بين تلك النفس اللوامة وبين النفس الأمارة بالسوء ، وتقدر ما يكون الإنسان راسخ العقيدة صادق الإيمان بدعوته بقدر ما يكون انتصار النفس اللوامة على النفس الأمارة بالسوء .

والصراع أزلّى بين الخير والشر ، وهو بذلك يصبح المجال الخصب للوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس مرفها في جانب الشر محبها جانب الأمر بالسوء .

لهذا بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ، وكلما تسك الإنسان

بعبادته وفرائض دينه كانت الغلبة فيه للنفس الملوثة على النفس
الأمارة بالسوء في داخله .

وعلى ذلك يصبح من الأهمية بمكان أن يقف الداعية على معالم
النفس البشرية والقوى الموجهة للإنسان ، وأن يعرف شيئاً من كيفية
الوقوف على مكونات هذه النفس والسيطرة عليها ، ومن ثم تغيير مسارها ،
وهنا تكمن خطورة الإعلام والثقافة على توجيه الناس .

أما الدعوة عن طريق الاتصال ، فإنها تقتضى - فى الواقع - قدرة
على ممارسة هذا النوع من الاتصال ، وهذه القدرة تعتبر شرطاً لنجاح
الدعوة واستقطاب المؤمنين بها .

والمهم فى هذا النوع من أنواع الاتصال هو مدى ثقة المدعوين
فى مصدر الدعوة ، لأن هذه الثقة هى الأساس التى يبنى عليه المدعوون
تصديقهم للدعوة أو عدم تصديقهم لها .

٢ - مجال الدعوة :

يعتبر الاتصال الشخصى المباشر أول خطوة من خطوات العمل
فى مجال الدعوة التى يجب ألا تفرق بين طبقة من الناس وأخرى ، ومما
يؤكد ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى نشر الدعوة لا يفرق
بين الأغنياء والفقراء ، ولا بين السادة والعبيد ، وقد حدث ذات مرة
أن اجتمع النبى صلى الله عليه وسلم ببعض السادة يفرهم بالدخول فى
الإسلام ، ويشرح لهم مزايا الدين الجديد ، ثم حدث فى تلك اللحظة
التي كان فيها النبى صلى الله عليه وسلم مشغولاً بهذه المهمة العزيزة
عنده أن دخل عليه رجل أعمى من طاعة الناس هو (عبد الله بن أم مكتوم)
يستزده من أمور الدعوة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم آثر
الاستمرار فى دعوة هؤلاء السادة الكافرين على (ابن أم مكتوم) المؤمن
الموثوق فى دينه حتى يفرغ من دعوة هؤلاء القوم ، وفى هذا الموقف من
مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم نزلت سورة من سور القرآن الكريم يعاتب
الله فيها رسوله عتاباً كبيراً على إيماره الكافرين على هذا الأعمى نظراً للهمة

على دعوة أولئك السادة الكفار ، وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

" هبسى وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تعدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى " (١) .

والاتصال الشخصي يبدأ بين فرد وآخر ، وبين هذين الفردين قد تنشأ الدعوة ، ومن ثم تبدأ بذورها في النماء والانتشار .

وهذا النوع من أنواع الاتصال يتحقق عادة في الجماعات الأولية التي تتمثل في الأسرة ، وجماعات العمل الصغيرة التي يجري فيها الاتصال على نمط أساسه المواجهة والاحتكاك المباشر وجهها لوجه .

وتعتبر الأسرة مجالا خصبا من مجالات هذه الوسيلة من وسائل الاتصال المختلفة ، والدعوة في مجال الأسرة واجب إسلامي ومسئولية كبرى .

قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا " (٢) .

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله نقى أنفسنا ، فكيف لنا بأهلينا ، قال : تنهونهم عما نهاكم الله تعالى عنه وتأمرونهم بما أمركم الله به ، فتكون ذلك وقاية بينهم وبين النار (٣) .

وأما الدعوة عن طريق الاتصال الجمعى فتعتبر أهم ما يميز به الدين الإسلامى ، لأن الشورى بين الحاكم والرعية واجبة فى الإسلام لقوله تعالى : " وشارهم فى الأمر " (٤) ، وتعتبر الشورى لازمة للحاكم لكى تحدث المشاركة فى الأمر بين الجمهور وأهل الشورى والإمام الحاكم

(١) هس : آية من ١ : ١٠ .

(٢) التحريم : آية ٦ .

(٣) . د . إبراهيم امام : الإعلام الإسلامى (المرحلة الشفهية) ص ٣٣ .

(٤) آل عمران : آية ١٥٩ .

في المسئولية ، وهذه المشاركة تجعل الاتصال الجمعي أساساً من أسس الدعوة في الإسلام (١) وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بخمسة وعشرين جزءاً . . جاء في صحيح مسلم :

"حدثنا يحيى بن يحيى قال قرأت على مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءاً" (٢) .

وتعتبر خطبة الجمعة من أقوى وسائل الاتصال الجمعي ، وبأمر الدين بالاستماع إليها في خشوع وتدبر كاملين . وأخيراً نأتى إلى التجمع الأضخم والمؤثر الأعظم ، وأعني به يوم الحج الأكبر ، وفيه يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها مستجيبين لنداء الله مهاجرين بقلوبهم متجردين لعبادة الله ، وذلك بالطريقة التي حددها لهم لا يحيدون عنها قيد شعرة .

والحج يعتبر من أكبر وسائل الدعوة الإسلامية حيث أنه مقرون بكثير من المظاهر الإعلامية والأشكال الداعية التي صحبت أداؤه هذه الفريضة من أولها إلى آخرها (٣) .

ومن الجهود الجبارة التي قام بها الدعاة المسلمون من أجل نشر الدعوة الإسلامية بين الناس عن طريق الاتصال الجمعي يقول (سـير توماس و. أرنولد) :

"ويرجع انتشار هذا الدين - يعني الدين الإسلامي - في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى : إجتماعية وسياسية ودينية .

-
- (١) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامي (المرحلة الشفهية) ص ٣٥ .
(٢) الإمام مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ، المجلد الثالث ص ١٥١ ط ٢ ، عام ١٣٩٢ هـ (دار الفكر - بيروت) .
(٣) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام في صدر الإسلام ص ٨٧ ، ط ٢ عام ١٩٧٨ م (دار الفكر العربي - القاهرة) .

على أن هناك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة ، ذلك العامل هو الأعمال المطردة التي قام بها دعاة من المسلمين وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام ، متخذين من هدى الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة * (١) .

وحيثما يتناول القرآن الكريم الدعوة في آياته فإنه يأمر بالدعوة والإقناع وينهى عن القهر والإكراه .

ويستطيع المتتبع لآيات الله الكريمة التي تناولت الأمر بالدعوة والإقناع ونهى عن القهر والإكراه أن يقف على بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها الداعي لتثمر دعوته وتبلغ غايتها .

وسا يلتفت الناظر في ذلك أن هذه التعاليم وتلك الصفات لا تقتصر على الآيات العكية حيث كان المسلمون لا يملكون أية قوة مادية تحميهم من المشركين وتدفع عنهم الأذى والاضطهاد ، لكن هذه الآيات شملت أيضاً الآيات المدنية التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وقد أصبح على رأس جيش كبير ودولة ذات سيادة وقيادة .

ومن الآيات العكية التي نزلت في ذلك قوله تعالى :

" ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " (٢) ، معنى ذلك أن تكون الحكمة والموعظة الحسنة والأخذ بالرد والاقناع والاعتناع شرطاً من شروط الدعوة الى الله .

وهناك صفات أخرى يضيفها الحق سبحانه في كثير من الآيات الكريمة ، وعلى الداعية أن يتحلى بهذه الصفات التي منها : الثبات على العقيدة ، فلا يتبع أهواء المشركين والضايفين ومن في قلوبهم مرض .

(١) سرتوماس . و . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٧ - ترجمة حسن

ابراهيم حسن وغيره ، (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٢٠ م .

(٢) النحل : آية ١٢٥ .

وعلى الداعية أيضا أن يتحلى بالشجاعة فى الحق ، فيعلن إيمانه
على الملأ ، وأن يحكم بين الناس بالعدل فلا يجور ولا يظلم .

قال تعالى :

" فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل
الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم
لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير " (١) .

ومما نزل فى ذلك على رسول الله والمسلمون بالمدينة فى أوج قوتهم
قوله تعالى :

" فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين
أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما
عليك البلاغ والله بصير بالعباد " (٢) .

وقال تعالى :

" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر وأولئك هم المفلحون " (٣)

" لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازكك فى الأمر وادع إلى
ربك إنك لعلى هدى مستقيم . وإن جادلوك فقل الله أعلم بما
تعملون " (٤) .

لذلك يقول (سير توماس . و . و . أرنولد) :

" وهكذا كان الاسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة ، من الناحية
النظرية والناحية التطبيقية ، وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم
ذاتها ، وكان النبى نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعوة

-
- (١) الشورى : آية ١٥ .
(٢) آل عمران : آية ٢٠ .
(٣) آل عمران : آية ١٠٤ .
(٤) الحج : آية ٦٧ ، ٦٨ .

المسلمين الذين وفقوا الى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار " (١) . ولقد جاء القرآن الكريم مشدداً في الحث على هذه الطرق السلمية في أكثر من آية ، مؤكداً على ضرورة اتباع تلك التعاليم في حزم ، والتعلى بعفوات الدعاة والمصلحين .

قال تعالى :

" واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلاً وذرني والمكذبيسين أولى النعمة وسهلهم قليلاً " (٢) .

وقال تعالى :

" فإن تولوا فإننا عليكم البلاغ المبين " (٣) .

وقال تعالى :

" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلينا وإلهم واحد ونحن له مسلمون " (٤) .

وقال تعالى :

" ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (٥) .

هذه الآيات التي نزلت لتضع للمسلمين أصول الدعوة ، وتحدد للداعية المبادئ والأسس التي تصل به إلى النجاح في دعوته لم تقتصر على السور المكية والمسلمون مستضعفون فحسب ، وإنما نزلت أيضاً وكثرة

(١) سير توماس . وأرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨ .

(٢) المزمل : آية ١٠ ، ١١ .

(٣) النحل : آية ٨٢ .

(٤) العنكبوت : آية ٨٦ .

(٥) يونس : آية ٩٩ .

فى السور المدنية والمسلمون قادرون على حماية الدعوة من أعدائها
المرتصين بها ، بل وعلى إنزال الهزيمة بهؤلاء جميعا من مشركين ومنافقين .
ومن الآيات المدنية التى نزلت والمسلمون فى أوج قوتهم بالمدينة قوله
تعالى :

" لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي " (١) .

وقوله تعالى :

" وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإننا على رسولنا البلاغ
المبين " (٢) .

وقوله تعالى :

" ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واعفح إن الله
يحب المحسنين " (٣) .

ومن تلك الآيات التى ذكرنا يتبين لنا كيف تحقق هذا المثل الأعلى فى
تاريخ الدعوة ، وكيف كان أئمة المسلمين ودعاتهم يطبقون أصول الدعوة
ومبادئها فى حياتهم العملية على أنفسهم قبل أن يطلبوا تطبيقها على الآخرين .
ولقد ظلت الدعوة تأخذ مسارها الطبيعي بعد رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وأثناء الخلفاء الراشدين بصفة عامة ، بحيث كانت الدعوة فى تلك الفترة
تشمل الدولة حكماً ومحكومين إلى أن انتقل الحكم بعد ذلك إلى بنى أمية ،
وهنا حدث تحول ظاهر فى مسار الدعوة بالنسبة للحكام والمحكومين إلى الحد
الذى أصبحت الدعوة فيه أقرب إلى الدعاية منها إلى الدعوة .

وهكذا تتضح لنا صورة الدعوة الإسلامية حين بلغت ذروتها ، واكتسبت
صورتها فى إطار الحاكم والمحكوم ابتداءً من صاحب الدعوة محمد صلى الله عليه
وسلم ، وانتهاءً بالخلفاء الراشدين ومن سار على نهجهم .

(١) البقرة : آية ٢٥٦ .

(٢) التغابن : آية ١٢ .

(٣) الطائفة : آية ١٣ .

ولمزيد من إلقاء الضوء على ذلك أقول إن كل فرد صادق الإيمان من أفراد المسلمين كان يعتبر نفسه في تلك الفترة من تاريخ الدعوة داعياً بكل ما تلتزم به هذه الكلمة من مبادئ وصفات ، وتلك الفترة تعتبر - في حد ذاتها - مرحلة نادرة ولم تتكرر.

٣ - بعض صور الدعوة قدماً وحديثاً :

بعد ذلك جاءت مرحلة الدعوات الإصلاحية على مستوى إمام يظهر داعياً إلى الله سبحانه وتعالى ، ولقد اخترت للتدليل على دعوات الأئمة المصلحين دعوتين هما :

- ١ - دعوة الإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (١) .
- ٢ - دعوة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٢) .

الدعوة الأولى : ظهرت في القرن السابع الهجري حين من الله سبحانه على هذه الأمة بشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، الذي أخذ على عاتقه هداية المسلمين إلى التوحيد الخالص ، والإيمان بصفات الله تعالى دون تأويل ولا تشبيه متبعاً في ذلك عقيدة السلف الصالح .

لقد رأى ابن تيمية أن معظم الأمة الإسلامية قد وقعت فريسة العقائد الباطلة ، وأعمال الشرك بضغط عوامل عديدة منها اختلاطهم بغير المسلمين ، وتأثير العجم ، وتهاون العلماء .

وقد أصبح الدين الخالص والتوحيد النقي وراء حجاب وحجاب ، ونشأ الغلو والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى ، حتى بدأت عقيدة التوسط والتقرب بالآولياء ترسخ وينطبق

(١) والد الشيخ أحمد بن تيمية بحران عام ٦٦١ هـ ، ونشأ منذ صغرة صواماً قواماً يقف عند حدود الله ويتبع أوامره .

(٢) والد الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام ١١١٥ هـ جاهد في سبيل ما اهتدى إليه من حقائق رأى فيها صلاح الأمة الإسلامية .

عليهم ما حكاه القرآن من قول مشركي العرب الأولين : " مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " (١) ، واتخذت قبور الأنبياء والملاحمين مساجد ، وتحقق الخطر الذي كان قد أُنذِر به النبي صلى الله عليه وسلم وشدد النهي عنه (٢) .

وحين شغل الفكر الإسلامي بأفكار أثارها " المتصوفة " تتعلق بصلوة الله سبحانه وتعالى بخلقه ، شتّى ابن تيمية على أصحاب هذه المذاهب حرباً شعواءً أقض بها مضاجعهم ، ونالوا منه عند السلطان والناس ، ونال منهم عند الناس ، ولقد ناقش أقوالهم مناقشة العارف لها الفاحص لدقائقها ، العارف لأسرارها (٣) .

وقد رأى " ابن تيمية " أن الرأي العام الإسلامي قد انشغل بهذه المذاهب دون أن يدرك معناها ، أو أن يقف على الغاية الخبيثة التي تسعى إلى تحقيقها بين المسلمين ، فأراد أن يصل إلى الرأي العام ، ويؤثر فيه بشتى الطرق والوسائل ، فلم يكتف بإبطال تلك المذاهب الضالة بما يقوم به من تأثير عن طريق الدعوة بين الناس ، بل أخذ يفتح تلك المذاهب في نظر العامة الذين غزت هذه الأفكار نفوسهم وإن لم يفهموا معناها بما ينقله عن العلماء الذين لهم منازل خاصة عند العامة في مصر والشام ، والذين قالوا بهطلان تلك المذاهب وفسادها (٤) .

(١) الزمر : آية ٢٣ .

(٢) أبو الحسن علي الحسنى الندوى : الحافظ أحمد بن تيمية ، ص ١٣ ، تعريب : سعيد الأعظمى الندوى - دار القلم ، الكويت ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

(٣) وكان الكتاب قد سبق تأليفه باللغة الأردنية سنة ١٣٧٦ هـ / ١٩٧٦ م : محمود مهدي الاستانبولى : ابن تيمية " بطل الإصلاح الدينى " ص ٥٧ ط ٢ طام ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م - مكتبة دار المعرفة بدمشق .

(٤) الخرج السابق : ص ٦٣ .

وعند ما جاء التتار بمجموعهم إلى الشام عام ٧٠٢ هـ وساوروا دمشق وأرجف المرجفون ، وخرجت القلوب من جنوبها ، واستعدت الجيوش المصرية والشامية لملاقاتها ، وقد أخذ دعة التردد والهزيمة ينشرون الفزع في قلوب الناس ، تعاهد العلماء والقضاة والأمراء وتحالفوا على أن يلاقوا العدو ولا يفروا من دمشق ، وابن تيمية يبعدهم بالنصر متأولاً قوله تعالى مؤنّاه : " ذلك ومن عاقب مثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور " (١) . حتى أنه ليقول حالفاً بالله " إنكم لمنصورون " فيقول له بعض الأمراء قل إن شاء الله ، فيقول : أقولها تحقيقاً لاتعليقا (٢) .

وفي اليوم الثاني من رمضان اصطف الجيشان في ساحة " شقيب " (٣) ، وأفتى ابن تيمية بالفطرمدة قتالهم ، وأفطر هو أيضاً ، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شئ معه ليعلمهم أن إفطارهم ليقوّوا على القتال أفضل ، وكان يروى لهم قوله صلى الله عليه وسلم للصحابه في غزوة الفتح : " إنكم ملاقوا العدو والفطر أقوى لكم " ، ولقد أنزل الله أمره على المسلمين واستظهروا على التتار ، فلما جاء الليل لجأ التتار إلى اقتحام التلّـول والجبال والآكام ، فأحاط بهم المسلمون ، وفي يوم الاثنين رابع رمضان عام ٧٠٢ هـ دخل ابن تيمية دمشق ففرح به الناس ، ودعوا له وهنئوه بما يسر الله على يديه من الخير (٤) .

وأما الدعوة الثانية : فقد ظهرت في القرن الثاني عشر الهجرى حين ظهر إمام مصلح من كرام المصلحين هو الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى أنار الله بصيرته ، وهداه سبيلاً وألهمه التقوى ، فدعا أمته للرجوع إلى الله ، والعمل بكتابه وسنة رسوله ، بعد أن أطال النظر

(١) الحج : آية ٦٠ .

(٢) محمود مهدي الاستانبولى : ابن تيمية " بطل الاصلاح الدينى " ، ص ٤٠ .

(٣) موقع بالقرب من دمشق ، عرفت به هذه الموقعة في التاريخ .

(٤) أبو الحسن على الحسنى القدوى : الحافظ احمد بن تيمية : ص ٦١ .

في حالة مجتمعه وأمته ، فوجد أكثر الناس قد نبذوا أحكام دينهم ،
وعبدوا الطاغوت ، وعظموا شأن القبور ، ولجأوا إلى الأولياء يسألونهم ،
ويستمعون بهم دون الله تعالى .

جاهد الشيخ أول ما جاهد بالقلم والبيان ، فدرس وعلم ،
وخطب ووعظ وكتب وحبر ، وألف الكتب وأملى الرسائل ، ونشرها
في طول البلاد وعرضها ، داعيا إلى الله وإلى توحيده ، وإلى نبذ
الشرك ، ونبذ عبادة القبور ، وإلى طلب العلم ، متخذاً القول المأثور
عن الإمام مالك : " لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها " شعاراً ،
أى بالتمسك بالدين والاهتداء بهديه ، والاستفادة بنوره ، فهو
الذي يسهل أمورها ، ويفتح لها مغلفات الأبواب (١) .

" ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا تزيد عن كونها دعوة إلى
الإسلام الصحيح الذي جاء في القرآن والسنة النبوية الصحيحة فهي
بهذا الإطار ليست بدءاً في كل حركات الإصلاح ، بل هي تلميذة
ومتبعة لحركات الإصلاح السابقة ، كحركة الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-
٢٤١هـ) ، وحركة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) ،
ومحمد بن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) " (٢) .

وكما جاهد شيخ الإسلام أحمد بن تيمية " أهل العقل " من مفكري
المسلمين وأنكر منهجهم من أساسه ، ونال منه ، وردّ على مبتدعيه ،
وأبطل تأثيره بالأدلة النقلية والعقلية ، وانتهى إلى أنه لا سبيل إلى
معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بهما إجمالاً وتفصيلاً واعتقاداً ،

-
- (١) أمين سعيد : سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب - مطابع نجد
التجارية بالرياض ١٣٩٥ هـ .
(٢) د . عبد الحليم عويس : أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الفكر
الإسلامي الإصلاحي بالجزائر ، (مجلة كلية العلوم الاجتماعية) ،
العدد الخامس ١٤٠١ هـ .

واستدلالاته إلا من القرآن الكريم والسنة المهيّنة له والسير في سارها ،
فما يقرره القرآن وما تشرحه السنة مقبول لا يصح رده ، وإنكاره خروج
على الدين ، وليس للعقل سلطان في تأويل القرآن وتفسيره أو تخريجه
إلا بالقدر الذي تؤدي إليه العبارات وما تضافرت عليه الأخبار (١) .

وطى هذا الأساس نفسه قام الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب
يدعو المسلمين إلى أن يردوا كل ما يتعلق بالعقيدة إلى طبيعتها الأولى
حسبما كانت عليه في أيام الصحابة والتابعين فلا يأخذونها إلا من
معينها الأصلي ومنابعها الأولى أى من الكتاب والسنة .

وتتلخص الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب في نقطتين
أساسيتين :

الأولى : تتركز في التوحيد الخالص من كل شائبة ، والثانية تتركز في
محاربة البدع التي تغشت في المسلمين آنذاك .

فأما التوحيد فيرى الشيخ أن الشريعة والحلال والحرام كل أولئك
يؤخذ من منبع واحد هو كتاب الله وليس هناك مصدر آخر بعد ذلك
إلا سنة الرسول الكريم ، وأما كلام المتكلمين والفقهاء في التحليل والتحريم
فليس بحجة مالم يكن مصدره كتاب الله وسنة رسوله .

ويرى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في زيارة قبور الأولياء نوعاً من
الإشراك بالله ، وذهب إلى أن التوسل بهم مفسد لجوهر عقيدة التوحيد .
ولم يقتصر الأمر على الأولياء بل امتد الخطر إلى الاعتقاد في
الجماد أهما .

ولقد اعتبر الشيخ كل ذلك نوعاً من الشرك ولوناً من الوثنية ،
فدعا إلى عدم زيارة القبور إلا للعبظة والاعتبار لا للشفاة والخوسل .

(١) د . مصطفى الشكعة : اسلام بلا مذاهب ص ٥٦١ (دار النهضة العربية -
بيروت) ، ط ١٩٧٣ م .

وأما البدع فقد أطن الشيخ محمد بن عبد الوهاب عليها حريلا لا تعرف
المهادنة ، ذلك لأنها انتشرت بين العامة والخاصة مثل التجمع فسى
الموالد وخروج النساء وراء الجنائز ومهرجان المحمل وإقامة الأذكار
التي يتغنى فيها من يدعون " الصوفية " ويرقصون على نغمات
الأناشيد والمزامير .

وكما كان لدعوة الشيخ خصوم وقفوا في طريقها واستلوا حسامهم
المقضا عليها ، فقد جذبت لها أنصارا وتابعين خارج الجزيرة العربية
نفسها حيث وقف كثير من حجاج الأقطار الإسلامية على طبيعة الدعوة
واقنعوا بها فعادوا إلى بلادهم داعين لها ومبشرين .

ويضيف الدكتور عبد الحليم عويس إلى الإصلاح الذي تحقق على
يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مجال العقيدة ومحاربة البدع ،
المجالات الإصلاحية التالية :

- ١ - رفض الانحرافات التي أقعمت على الإسلام بتأثير جماعة (الصوفية)
التي كانت من أقوى أسباب تخلف العالم الإسلامي .
- ٢ - إنكار زيارة القبور والبناء عليها أو اللجوء إلى الموتى - مهما كان
قدرهم - في تحقيق أمر . . لأن هذا وثنية تدخل في باب الشرك
بالله . أما زيارة القبور دون شد الرحال إلى مقبرة خاصة . .
بهدف التذكر والاعتبار والدعاء للميت والترحم عليه فلا شيء فيه .
- ٣ - فتح باب الاجتهاد عند توافر وسائله - وعدم التعصب لمذهب
معين ، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب
والسنة .
- ٤ - ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي : الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وإحياء فريضة الجهاد التي خمدت في نفوس المسلمين (١) .

(١) د. عبد الحليم عويس : أثر دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب في الفكر
الإسلامي الإصلاحى بالجزائر ، (مجلة كلية العلوم الاجتماعية) ،
العدد الخامس ١٤٠١ هـ .

ثانيا : الدعاية

١ - حقيقة الدعاية :

تعتبر كلمة " دعاية " من أقدم المصطلحات التي صاحبت الدعوة الإسلامية منذ انبثاق فجرها ، فلقد وردت في رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم التي بعث بها إلى كسرى ملك الفرس بدعوه فيها إلى الإسلام ، كذلك وردت في رسالته إلى المقوقس عظيم القبط حيث جاء فيها :

" من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك (بدعاية) الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فعليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب : تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " .

وبالرجوع إلى عدد من معاجم اللغة العربية وجدت أن بعض هذه المعاجم لم يأت بلفظ " دعاية " مصدراً للفعل " دعا " ، واكتفى بذكر لفظ " دعوة " مصدراً لهذا الفعل (١) .

وبعض هذه المعاجم ذكر أن لفظ " دعاية " من الألفاظ المولدة التي استعملها الناس قديماً بعد عصر الرواية (٢) .

وبعضها الآخر ذكر أن هناك رواية أخرى للفظ " دعاية " في رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم وهي : " أدعوك " بدعاية " الإسلام ، وهو

-
- (١) محمد بن أبي بكر الرازي : مختار الصحاح - تحقيق لجنة من طلبة العربية (دار المعارف بمصر) ١٩٧٦ م . مادة (دعا) .
(٢) إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، وغيرهما : المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية (القاهرة) ط ٢ . مادة (دعا) .

مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة " (١) ، والملاحظ أن لفظ "دعاية" لم يرد في القرآن الكريم صراحة أو ضمنا ، ولست أذهب إلى ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور إبراهيم إمام حيث قال :

" ولعل كلمة الدعاية من أقدم هذه المصطلحات جميعا ، وقد عرفناها في تراثنا الإسلامي منذ نزول القرآن الكريم (٢) ، حيث قال تعالى : " يا أيها النبی إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا " (٣) .

معنى ذلك أن الدكتور قد اشتق لفظ "دعاية" من لفظ "داعيا" الذي جاء في الآية الكريمة في حين أن "داعيا" اسم فاعل مشتق من الفعل دعا يدعو دعوة فهو داع ، ويجمع على دعاة . أما لفظ "دعوة" فقد ورد صراحة في أربع آيات من القرآن الكريم ، قال تعالى :

" له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ " إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله وما دعا الكافرين إلا في ضلال " (٤) .

وقال تعالى :

" إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون " (٥) .

(١) ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٧ مادة (دعا) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (بدون تاريخ) ، وقد جاء فيه ما يلي : (وفي رواية أخرى : أدعوك " بدعاية " الإسلام ، وهو مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة) .

(٢) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامي " الرحلة الشفهية " ص ٢٤ .

(٣) الأحزاب : آية ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) الرعد : آية ١٤ .

(٥) البقرة : آية ١٨٦ .

وقال تعالى :

"ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون" (١) .

وقال تعالى :

" لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن السرفين هم أصحاب النار" (٢) .

فما معنى ذلك ؟ معناه - فيما أعتقد والله أعلم - هو أن ذلك من إعجاز القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن هذا الإعجاز القرآني لا يرتبط بزمان ولا بمكان ولا يقف عند حد ، وأن الله سبحانه وتعالى وهو العليم الخبير منزل القرآن قد سبق في علمه أن كلمة " دعاية " سوف ينتهي بها الأمر إلى ما أنتهت إليه اليوم ، وأنها سوف يطرأ عليها معنى الخداع والغش والاستغلال . وإن لم تكن كذلك حين استعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي " لا ينطق عن الهوى " ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يعلم غيب السموات والأرض ، ولا شريك له في علمه .

أما الدعوة فقد ظلت نقية صافية منذ بعث الله الرسل إلى عباده مهشرين ومنذرين . بقيت الكلمة توحى بالحق والصدق والفوز في الدنيا والآخرة ، فلم تشوه بكذب أو خداع أو إثارة أو تخلييل . وذلك على العكس تماما مما توحى به كلمة " دعاية " التي طرأ عليها كثير من معاني الزيف والغش والتشويه وأساليب السياسة .

ولست أذهب أيضا إلى ما ذهب إليه الدكتور عبد اللطيف حمزة حيث يقول :

" ونحن لانسى " إلى الدين إذا قلنا أن العمل الذي قام به

(١) السورم : آية ٢٥ .

(٢) غافر : آية ٤٣ .

الرسول الكريم من أجل هذا الدين هو دعاية طيبة له ما دامت الدعاية في ذاتها لها معنيان على الأقل : الدعاية الطيبة أو البيضاء والدعاية الخبيثة أو السوداء* (١) .

ذلك لأن الدعوة هي الدعوة بصدقها وأمانتها ، ونقاها وصفاء غايتها ، وما تحمله للناس من سعادة الدنيا والآخرة .

والدعاية طراً عليها ما حملته من معاول الهدم والتدمير قاصدة من ورائها توسيع هوة الصراع وإشاعة الفرقة والشقاق بين الأمم والشعوب ، ونشر الأكاذيب والتهميل في الأخبار ، هذل الوعود الكاذبة والأحلام التي يستحيل تحقيقها .

كل ذلك يدل بوضوح تام على أن الدعاية أصبحت الآن كل ذلك لافرق بين طيبة وخبيثة أو بيضاء وسوداء ، فإذا أردنا الدعاية الطيبة والبيضاء دون الخبيثة والسوداء فلماذا لا تكون الدعوة . . . ؟

وإذا أردنا الخبيثة والسوداء دون الطيبة والبيضاء فلماذا لا تكون للدعاية . . . ؟

ولماذا لا يكون الإعلام جامعاً لهما . . . ؟

وهنا يمكن أن يتشعب الإعلام إلى شعبتين :

الأولى : شعبة الإعلام الصادق والأمين والبعيد عن الإثارة والخداع والغش ، الإعلام الذي يعمل على نشر الدعوة بما يبذله رجاله من جهود صادقة في هذا المضمار ، ولا يخشون في الحق لومة لائم والذين يعرفون تماماً غاياتهم العظيمة وأهدافهم السامية ومقاصدهم النبيلة ، الإعلام الذي يبني ولا يهدم ويسمو ولا يهبط ، ويمكن ذلك هو الإعلام الإسلامي الذي نسعى جميعاً لأن نضع أبنه في بناءه العظيم والشامخ - إن شاء الله .

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام في صدر الإسلام ، ص ١٠٤ .

الثانية : شعبة الإعلام المخادع والمتلون والقائم على إثارة العواطف تارة ومخاطبة العقل تارة أخرى ، الإعلام الذى لا يضع ضمن أهدافه الرئيسية خدمة الدعوة والسهر على تنوير الرأى العام بصدق وأمانة ، الإعلام الذى يقف متأرجحاً بين الدعوة والدعاية ولا يميل بوضوح إلى إحداهما .

وأعتقد أن هذه الشعبة من الإعلام لا تكاد تبتعد عن الإعلام الغربى بصفة عامة والإعلام السوفيتى ، وما يجرى فى فلكهما من نظريات إعلامية أخرى فى مختلف أنحاء العالم .

أما كلمة (دعوة) التى يحلو لبعض المؤرخين والإعلاميين إطلاقها على كثير من أنماط الدعاية الدولية أو المحلية ، فلا يتعدى ذلك أن يكون أسلوباً من أساليب التأثير فى الرأى العام ، وأعنى به أسلوب (تحويل الأنظار) .

إن كلمة (دعاية) تشير الشكوك والريب فى نفوس الرأى العام ، فإذا استبعدنا كلمة (دعاية) ، وأخذنا بكلمة " دعوة " كان ذلك مدعاة لتحويل أنظار الرأى العام عما توحى به كلمة " دعاية " من معانى الشك والريبة ، وأساليب الكذب والخداع .

٢ - مجال الدعاية :

لقد وجدت أن أفضل الوسائل للوقوف على مجال الدعاية تكمن فى تتبع ودراسة مختلف التعاريف التى خرج بها علينا رجال الإعلام المتخصصون .

وإذا تتبعنا غالبية آراء هــسـثـولـا* الإعلاميين فى (الدعاية) استطعنا أن نقف على المجال الخصب الذى تجد فيه الدعاية مرتعها ، وأن نخرج بهذا الانطباع الذى خرجت به منذ قليل عن كلمة دعاية ، وما أصبحت تعمله من معان سيئة وظلمات فاسدة ، وأهداف غير نبيلة .

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة :

" والذي لا شك فيه أن الدعاية قوة سياسية كبيرة في وسعها أن تقيم دولة وأن تهدم أخرى ، وفي وسعها أن تنشر مذهبها وأن تقتل آخر ، ومن ثم كانت الدعاية هي الدعاة التي قامت عليها جميع الدول الإسلامية فمنذ انتهى العهد بدولة الخلفاء الراشدين ، وكان من أقوى العوامل التي جعلت للدعاية كل هذه القوة والأهمية انقسام المسلمين إلى فرق دينية وحرص كل واحدة منها على أن تظهر على جميع الفرق الأخرى " . (١) .

ويقول الدكتور ابراهيم إمام :

" وتستخدم الدعاية كل الأدوات المتاحة وتتوغل في جميع مظاهر الحياة ، وتغزو كل مظاهر الفكر والعمل ، وتنسج حول الأفراد والشعوب شباكاً من الضغط النفسي والاجتماعي بأشكالها المختلفة ، فإذا هم ضحايا أو فرائس دون وعي أو إدراك لكيفية الوقوع فـنـسـي الفخ " . (٢) .

ويقول في موضع آخر :

" وتستخدم الدعاية التجارية للترويج للسلع والمنتجات ورفع المبيعات ، وتؤثر هذه الدعاية بالإعلان متوجهة إلى الفرائز والانفعالات وخاصة الغريزة الجنسية فتحيط السلع بـصور النساء العاريات حتى ولو كانت السلع لا تتعلق بذلك " . (٣) .

ويقول الدكتور محي الدين عبد الحليم :

" الدعاية فن يستند إلى إثارة العواطف وخلق حالة من حساسات التوتر الفكري التي تؤدي إلى تشويه التتابع المنطقي للذات الفردية ، وبالتالي للوصول إلى موقف ما كان من الممكن أن يصل إليه الفرد

-
- (١) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام في صدر الإسلام ، ص ١٠٧ .
(٢) د . ابراهيم إمام : الإعلام الإسلامي " المرحلة الشفهية " ، ص ٢٧ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٦ .

بنطقه الصادرى* (١) .

ويقول (والتر ليبان) :

"الدعاية هي محاولة التأثير فى عقول الجماهير ونفوسهم والسيطرة على سلوكهم لأغراض مشكوك فيها ، وذلك فى مجتمع معين وزمان معين" (٢) .

الدعاية إذن من واقع التعاريف المختلفة لرجال الإعلام هي - الآن - احتيال وغش وضغوط نفسية واجتماعية وإثارة للغرائز الجنسية وتشويه للتتابع المنطقي وخلق حالة من حالات التوتر الفكرى . وتتجسد بوضوح كل هذه الأوصاف والنعوت قديما عند استعادتنا للدعاية الصليبية التى قام بها البابا أوربان الثانى ضد العالم الإسلامى وتولى نشرها بين الجماهير المخدوعة « بطرس الناسك » و« والتر الغفس » وغيرهما .

ثم تتجسد حديثا عند استعادتنا للدعاية النازية أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية ومانتج منهما من خراب ودمار لمعظم بلدان العالم آنذاك .

ثم تأتى الدعاية الصهيونية لا لثرت النازية فحسب ، بل ولتتفوق عليها أيضا من حيث التفنن فى قتل الأبرياء وتشريد الشعوب والحرق والتدمير والسلب والنهب ثم خداع العالم بعد ذلك كله بدعايتها التى ورثتها أيضا عن النازية فإذا هى أمام العالم مغلوطة على أمرها محاطة من كل جانب بأعدائها .

ولا يختلف الحال بالنسبة للدعاية الشيوعية الماكرة والرأسمالية الغربية الفاسدة .

(١) د . محى الدين عبد الحليم : الإعلام الإسلامى وتطبيقاته العملية

ص ٧٥ ، (مكتبة الأنجلو بحصر) طام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٢) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام له تاريخه ومذاهبه ، ص ٣٣ (دار الفكر

العربى - القاهرة) ١٩٦٥ م .

من ذلك كله يتضح لنا أن الدعاية تختلف كل الاختلاف عن
الدعوة ، فالدعوة حق وصدق ، وهي تعنى الإعلان عن العقيدة
وتعمل على تحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة ، وتقوم على
تقديم الحقيقة للعقل ، كما تقوم على أساس من الصراحة ، وتستند على
مبدأ المناقشة التي قد تؤدي إلى الاقتناع ، حيث تفرغ الحجة بحريّة
كاملة دون خلق أي غشاوة في عناصر التجاوب المنطقي .

قال تعالى :

" قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد
إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله
فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" (١) .

أما الدعاية فهي على العكس من ذلك تماما ، إنها تفرغ نفسها
فرضا لا من طريق العقل والتفكير السليم ، بل من طريق الكذب
والتحويه أو المبالغة أو الاختلاق أو الشائعات المفروضة بعد أن
تكون قد سمت إلى شل قوة التفكير في الجماهير ، وإيقاظ غرائزهم
بالعبث بها من طريق القصص الخرافية والصور العارية والأكاذيب
المكررة " (٢) .

(١) آل عمران : آية ٦٤ .

(٢) ن ، محي الدين محمد الحليم : الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية ، ص ٨٠ .

ثالثا : الإعلام

١ - حقيقة الإعلام :

الإعلام قديم قدم الإنسان نفسه ، ضارب جذوره في أعماق الزمن ، دائم مادام هناك إنسان يلتقى بأخيه الإنسان أو يسمع عنه . والإعلام الذى بدأ مع الإنسان سوف لا ينتهى إلا معه ، ذلك لأن الإنسان هو مادة الإعلام ، وعليه فلا إعلام بدون إنسان ولا إنسان بدون إعلام .

لا يمكن لمجتمع سها مختلف فى تقدمه أو تخافه أن يجهل الإعلام لأن الإنسان لا يكفيه أن يقف على أخبار نفسه فقط ، بل يتعدى ذلك إلى أخبار غيره لما بينهما من لقاات وعلاقات .

وحتى لو لم توجد مثل هذه اللقاات والعلاقات فإن فى داخل الإنسان دافعا فطريا هو حب الاستطلاع والرغبة فى معرفة كل ما هو جديد عليه ، والعمل على استكشافه ، ولولا هذا الدافع الفطرى فى الإنسان ما تحركت الحياة من مكانها خطوة واحدة نحو ما نلسمه الآن من ضروب التقدم والازدهار .

ولقد عرفت المجتمعات البدائية الإعلام بأساليبه البسيطة ، كالمناداة فى الطرق أو من أعلى الجبال والتلال أو إشعال النار فوق رؤوس الجبال ثم بأتى بعد المجتمعات البدائية المجتمعات المنزوية التى عـرف الإنسان فيها بفطرته مواطن الكلأ ومطالع النجوم وأخبار القبائل المجاورة وبعضا من تقاليدها وعاداتها .

ولقد ظلت بعض هذه الوسائل والأساليب الإعلامية القديمة باقية فى عصرنا الحديث لأنها مازالت تؤدى وظيفتها بنجاح كبير كما هو الحال فى المساجد والحج والعهدين والبعثات المختلفة .

وأكبر دليل على ذلك الخطابة التي ظلت تستخدم بنجاح في العصر الحديث ، وتعتبر وسيلة الاتصال الشخصي من أنجح الوسائل الإعلامية التي استخدمت في شتى العصور ، والتي ظلت إلى اليوم تؤدي نفس الدور الفعال التي كانت تؤديه .

ومن المسلم به أن لكل مجتمع من المجتمعات إعلامه الذي يناسب عقيدته ويتماشى مع عاداته وتقاليده ، وإلا كان ذلك الإعلام دخيلا عليه بعيدا عنه ، لم يثبت في أرضه ولم يزد هربين أفراد . وفي اعتقادي والحالة هكذا أنه لا بد من حدوث واحد من اثنين :

إما أن يذوب المجتمع ويتلاشى من الوجود شأنه في ذلك شأن المجتمعات التي أبادها الله بذنوبها لأن الاتصال بين أفرادها كان اتصالا مدمرا لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر .

وإما أن يتغلب المجتمع على كل ما يعترضه من معوقات فيفسر إعلامه حتى يتلاءم مع معتقداته ومبادئه ويصبح عضوا لا ينفصل عنه ، يتفاعل معه في أفراد وأترابه ، في انتصارات وهزائمه وفي أمانيه وآماله ، في طموحات وتطلعاته .

وإذا كان من المسلم به أن لكل مجتمع إعلامه الذي يناسبه ، فمن المسلم به أيضا أن الإعلام في المجتمع الواحد يختلف من وقت إلى آخر .

فالإعلام على سبيل المثال في المملكة العربية السعودية في وقتنا الحاضر يختلف اختلافا كبيرا عن الإعلام فيها منذ عشر سنوات ، والإعلام فيها منذ عشر سنوات كان يختلف اختلافا ملحوظا عما كان عليه منذ عشرين عاما .

وهكذا الحال بالنسبة لكل مجتمع من المجتمعات الأخرى في العالم .

وفى ذلك يقول الدكتور محى الدين عبد الحليم :

" ولسنا هنا فى موضع الحديث عن نظم الإعلام المختلفة ، ولكننا أردنا أن نؤكد أن الإعلام وإن اختلف باختلاف الزمان أو باختلاف المكان أو نظم الحكم المختلفة ، وظروف كل مجتمع — المجتمعات ، إلا أنه على أى حال لا يستطيع مجتمع إنسانى أن يحيا بدونه كما لا يوجد عصر من العصور خلا من الإعلام " . (١)

وفى العصر الحديث أصبح الإعلام جزءا من حياة الناس فى شتى أنحاء العالم ، وترجع أهمية الإعلام إلى أن الحكومات تعلم تمام العلم أنها لى تحظى بتأييد المحكومين يجب عليها أن تقوى الاتصال بينها وبينهم ، وأن تزودهم بالمعلومات والحقائق التى تشعرهم بأنهم يشتركون معها فى الحكم ، وأن العلاقات بينها وبينهم تزداد قوة وتوثقا كلما زود الحكام الرأى العام بالمعلومات والحقائق التى تتصل بأمورهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية بدول العالم .

والعكس صحيح وهو أن هذه القوة وهذا التوثق سرعان ما يتلاشى كلما حدث تعتمهم إعلامى بين الحكام والمحكومين ، وقد تنعدم الثقة تماما بين الطرفين إذا اكتشف الطرف المحكوم أن حكامه يضللونهم بالمعلومات التى يزودونه بها من وقت لآخر .

ولقد اختلف المفكرون فى وضع تعريف دقيق لمفهوم العمل الإعلامى ، كما اختلفت الدول تبعاً لأنظمة الحكم القائمة بها فى فهم الإعلام وتفسيره .

إلا أن هناك شبه اتفاق يكاد لا يختلف عليه أحد تقريبا فى المبادئ والأسس التى يقوم عليها الإعلام وهى : (٢)

١ - الحقائق التى تدعها الأرقام والإحصائيات .

(١) د . محى الدين عبد الحليم : الإعلام الإسلامى وتطبيقاته العملية ص ١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢١ .

- ٢ - التجرد من الذاتية والتعلل بالموضوعة في عرض الحقائق .
- ٣ - الصدق والأمانة في جمع المعلومات من مصادرها المختلفة .
- ٤ - التعبير الصادق عن الجمهور الذي يتوجه إليه الإعلام .

ومعنى ذلك أن الإعلام الذي يفقد عنصرا من هذه العناصر أو أكثر يصبح إعلاما مهتورا لا يؤدي مهمته على الوجه الأمثل ولا يحقق الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه .

ويتلخص ذلك الهدف في التعريف الذي قدمه العلامة الألمانية " أتوجروت " والذي عبر فيه تعبيرا مختصرا وشاملا عن معنى الإعلام وعن بعض أهدافه .

قال " أتوجروت " في تعريفه للإعلام :

"إنه التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت" . (١)

وهذا التعريف وإن كان قد بين معنى الإعلام إلى حد كبير ، إلا أنه لم يبين بوضوح معظم الأهداف التي يسعى الإعلام إلى تحقيقها .

لذلك أضاف الدكتور محي الدين عبد الحليم قائلا :

"إن الهدف من الإعلام هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي تساعد على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير وميولهم واتجاهاتهم" (٢) .

ولا يمكن أن تتحقق أهداف الإعلام بصورة تامة إلا من خلال عملية إعلامية تشتمل على العناصر الخمسة التالية :

- ١ - المرسل للرسالة الإعلامية .

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام له تاريخه ومذاهبه ، ص ٢٣ .
(٢) د . محي الدين عبد الحليم : الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية ص ٢٢ .

- ٢ - الرسالة الإعلامية .
- ٣ - الوسيلة التي تقوم بنقل هذه الرسالة .
- ٤ - المستقبل للرسالة الإعلامية .
- ٥ - الاستجابة للرسالة الإعلامية .

وقد لخص "هارولد لازويل" عملية الاتصال في عبارته التالية التي تحمل كل عناصر العملية الإعلامية الخمسة ، وهذه العبارة هي :
" من ؟ يقول ماذا ؟ بأى وسيلة ؟ إلى من ؟ وإلى أى تأثير ؟ " (١) .

ما تقدم يتبين لنا بوضوح الفروق الكبيرة بين كل من الدعاية والإعلام والتي يتلخص بعضها فيما يلي :

- ١ - المعلومات في الدعاية مصدرها يكون مجهولا ، بينما في الإعلام يجب أن يكون المصدر معروفا دائما .
- ٢ - تهدف الدعاية فيما تهدف إلى إضعاف روح المشاركة عند الجماهير وبالتالي تعمل على فرقة روح التعاون بين هذه الجماهير وبين حكامها ، كما تعمل على إشاعة روح اليأس والسلبية ، أما الإعلام فيهدف فيما يهدف إلى توسيع المشا ركة الجماهيرية بقصد التوصل إلى إشراك الجمهور في وضع القرار .
- ٣ - أسلوب الدعاية لا يتفق مع الأخلاق والمثل العليا ، كالكذب والتمويه أو المبالغة أو الاختلاق أو الشائعات المغرضة لكى يسلك الرأى العام سلوكا معيناً ، أما أسلوب الإعلام الطمئطم فإنه يتحرى الأمانة ، وينهج نهجاً أخلاقياً أو يجب أن يكون كذلك حتى لا ينحدر بمستواه إلى مستوى الدعاية .
- ٤ - تعمل الدعاية جاهدة على تحقيق مآرب معينة وأهداف محددة مع التضحية بكل شئ* فى سبيل تحقيق هذه المآرب والأهداف ، فهى لا تعنى بإيقاظ الجماهير كما هو الحال فى الإعلام ، بسبل على العكس تعمل على تخديرهم وشل قوة التفكير فيهم ، وإيقاظ

غرائزهم في العبث بها عن طريق القصص الخرافية والصـور
المعارية والأكاذيب المكررة

تلك بعض الفروق الرئيسية التي أجمع عليها تقريبا علماء الإعلام
من واقع التعاريف المختلفة لكل من "الإعلام" و "الدعاية" ، ولا شك
أنها فروق تضع النقاط على الحروف بالنسبة للإعلام والدعاية .

وأود قبل أن أسوق بعض الأمثلة من صور الإعلام في المجتمع
الإسلامي قديما أن أنوه بما ذكره الدكتور عبداللطيف حمزة في هذا
الصدر بقوله :

"إن الجهود التي بذلها النبي صلى الله عليه وسلم في ميدان
الاتصال تسمى "الدعوة" وإن الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون
في هذا الميدان يمكن أن تطبق على أثرها اسم "الإعلام" ذلك أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان قد أدى الأمانة وقام بالرسالة وفرغ من مرض
الدين الخاتم على الناس ، أما الخلفاء الراشدون من بعده فكان عليهم
واجب آخر لا يصح أن نسميه دعوة ، ولكن نطلق عليه اسما آخر هو
(الإعلام) في سبيل نشر الدعوة" (١) .

٢ - بعض صور الإعلام في المجتمع الإسلامي قديما :

يكاد لا يفتقد المجتمع الإسلامي في كل عصر من عصوره الصور
الإعلامية التي كان لها تأثيرها على مسار الدعوة الإسلامية ، وسوف أقتصر
الأمثلة التي أود أن أسوقها من صور الإعلام في المجتمع الإسلامي قديما
على صورتين :

الأولى : مستمدة من عصر الخلفاء الراشدين ، والثانية : مستمدة من
عصر الحروب الصليبية في عهد صلاح الدين الأيوبي .

(١) د . عبداللطيف حمزة : الإعلام في صدر الاسلام ، ص ٣٩ .

ولنبداً بالصورة الإعلامية الإسلامية المستمدة من عصر الخلفاء الراشدين ، والتي تمت على يدى أبى بكر الصديق أول خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعدة .

ولقد بدأ أبو بكر خلافته بما يشبه المؤتمر السياسى الكبير الذى كان الغرض منه اختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى حضره كثير من زعماء المهاجرين والأنصار ، وام يكذ يتخلف زعيم منهم من الحضور ، حتى " سعد بن عبادة " زعيم الخزرج - وكان مريضاً فى ذلك اليوم - فحمله قومه إلى مكان المؤتمر ليعطى كلمته فيه - والذى يعنينا من هذا المؤتمر ليس جانبه التاريخى ، فهذا الجانب قد تناولته بالبحث كتب التاريخ على اختلافها ، وإنما الذى يعنينا هو جانبه الإعلامى الذى غير الموقف رأساً على عقب ، والذى يدل الوضع المتأزم المشحون بالتناحر والتنافس على الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وضع رضى قنوع يفخر محبة وأخوة وسلاماً .

تكلم زعيم الأنصار سعد بن عبادة مهيئاً حق الأنصار فى الخلافة دون المهاجرين معدداً مآثر الأنصار على الإسلام والمسلمين .

وبعد أن انتهى سعد بن عبادة من كلمته وقف أبو بكر يخطب فى الناس موضحاً حق المهاجرين فى الخلافة ، وأن الله سبحانه وتعالى قدم المهاجرين على الأنصار فى كتابه العزيز مستشهداً بقوله تعالى :

" والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه - بإحسان " (١) .

ولم يكتف أبو بكر فى هذا الموقف العصيب بمخاطبة العاطفة وحدها عند الأنصار ، بل راح يخاطب عقولهم أيضاً حين قال :

" إن هذا الأمر إن تولته الأوس نافسته عليهم الخزرج ، وإن تولته الخزرج نافسته عليهم الأوس ، وإن العرب لاتدين إلا لهذا الحى من قريش ، هم أوسط العرب نسباً وداراً " (٢) .

(١) التوبة : آية ١٠٠ .

(٢) ابن هشام : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ج ٤ ، ص ٣٣٩ - تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد (دار الفكر) .

ثم تلاه أبو عبيدة وهو أحد زعماء المهاجرين أيضا فقال :
" كنتم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بدّل وغير " .
بعد ذلك وثب عمر بن الخطاب فأخذ بيد أبي بكر وبايعه ، فوثب
الجميع من طلبة الصحابة يتسابقون إلى البيعة .
ثم بايعه زعيم الأوس " بشير بن سعد " وهو يقول :
" كرهت أن أنازع قوما في حق جعله الله لهم " .
ورأى الحاضرون من الخزرج هذه الحركة فلم يبق لهم عزم وراء
ذلك فتزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطأوا زعيمهم المريض " سعد بن
عبادة " .

وماتت الفتنة في مهدها وكفى الله المؤمنين القتال .
كل ذلك كان نتيجة طبيعية للحركة الإعلامية الإسلامية الكبيرة
التي قام بها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة في الساعات المناسبة ، وهذا ما يسميه
الإعلاميون المحدثون " حسن التوقيت " .
ولو قدر لهؤلاء الثلاثة أن يتأخروا حينما سمعوا باجتماع الأوس
والخزرج للتشاور لغابت منهم الفرصة واندلعت نيران الفتنة ، ولا يعلم
إلا الله ماذا تكون عواقبها .

ثم يأتي دور " القدوة الحسنة " في هذا الموقف العصيب حين ظهر
قادة المهاجرين أمام الناس بالمظهر الملائم ، فلا تنافس بينهم طسبي
الخلافة ، ولا تهافت منهم على الإمارة ، ولا جفاء منهم لأحد من الأنصار ،
ولا تنكر منهم لما لهؤلاء من فضل على الإسلام (١) .

والصور الإعلامية الإسلامية في حياة أبي بكر لا تنتهي ، والتي من
أبرزها أيضا موقعه من حركة الردة .

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام في صدر الإسلام ، ص ٢١٠ .

تلك الحركة التي تعتبر من أخطر الحركات الذي تعرض لها الإسلام والمسلمون والتي خشي عمر بن الخطاب على أبي بكر منها — فنصحه بقوله :

"إلزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بمقاتل العرب".

فما كان من أبي بكر بحاسته الإعلامية وغيرته الإسلامية إلا أن صاح في عرقه قائلاً :

"والله لو منعتموني قتالا كنتم تؤذونه لرسول الله لقاتلتكم دونه".

وما قاله أبو بكر في هذا الشأن أيضاً :

"والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة".

وهذا يكون الخليفة الأول قد أعطى للمسلمين كلهم أعظم درس تعلموه في حياتهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن الدين كل لا يتجزأ ، وأن من تهاون في جانب منه فلا بد له من أن يتهاون فيها جميعاً ، وأن القوة الحقيقية هي دائماً مع الحق ومع المتسككين بعقيدتهم ، والذين لا يتهاونون في شيء منها أو يتساهلون في أداء فريضة من فرائضها مهما تعرضوا في سبيل ذلك للمخاطر والأهوال .

ولننتقل بعد ذلك إلى الصورة الإعلامية الإسلامية الأخرى التي تمت طلي يدي القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي محرر القدس — أيدي الصليبيين .

وليس هناك في الواقع أبرز من الصورة الإعلامية الإسلامية التي تجسدت عند دخوله القدس منتصراً بحد سيفه ، معطاً صليبيهم منكساً أعلامهم رافعاً راية لا إله إلا الله محمد رسول الله .

دخل صلاح الدين القدس وصورة الأسر القريب لا تفارقه عندما دخلها الصليبيون وحولوا بيت المقدس إلى مخاضة من دماء سبعين ألفاً من المسلمين ومع ذلك لم يشأ صلاح الدين القائد المسلم وهو نفسى أوج

انتصاره أن ينتقم ، لأنه مسلم ولأن الإسلام لا يعرف الانتقام عند الانتصار ، إنما يعرف العفو عند المقدرة .

فعل صلاح الدين ذلك لأنه يريد أن يقدم لأعداء الإسلام قبل غيرهم مبدأ من مبادئ الدعوة الإسلامية وهو مبدأ " القدوة الحسنة " .

وأى قدوة حسنة فى العالم أجمع تستطيع أن تفعل ما فعله صلاح الدين الأيوبي القائد المسلم المنتصر بأسرى الصليبيين ومهاجرينهم ؟ .

بقى عدد الأسرى الصليبيين كبيراً ، إذ لم يشأ قاداتهم أن يجمعوا من الفدية إلا بالقدر الذى يكفى لتحرير سبعة آلاف من الفقراء فقط .

ولو شاءت الكنيسة أن تفتدى جميع الأسرى لما عجزت عن ذلك ، بل كان فى استطاعتها تأمين الفدية لألوف عديدة من فقراء النصارى لو أن أثرياءها كانوا أكثر وفاء لأبناء دينهم .

لكن صلاح الدين الأيوبي القائد والداعى المسلم بأبى إلا أن يقوم بحركة إعلامية إسلامية كان لها ما بعدها عند أعدائه ، وتتلخص هذه الحركة الإعلامية الباهرة فى الإعلان عن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز .

ولما أقبل نساء الفرنج اللاتي افتدين أنفسهن ، وقد امتلأت صونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين : أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباءهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر ؟ أجاب بأنه قد وعد بإطلاق سراح كل من فى الأسر من أزواجهن أو آباءهن ، وبذل للأرامل واليتامى من خزائن العطايا كل بحسب حالته . فكانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الفرنج (١) .

تلك صورة عظيمة من صور الإعلام فى المجتمع الإسلامى تمت على يدى القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي ، ومن حق أى منصف أن يتساءل : أى صورة إعلامية تستطيع أن تلوى رسالتها على الوجه الأكمل أكثر من تلك الصورة ؟ .

وأى رسالة إعلامية تستطيع أن تتلقى تأثيرها الفوري أو أن يسمع رجع صداها أسرع من تلك الرسالة ؟

(١) بسام العسلى : صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٧١ ط ٢ (دار النفائس - بيروت) ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

رابعاً : الرأى العام

١ - تعريف الرأى العام :

اختلف الفقهاء والعلماء ورجال الإعلام فى تعريف الرأى العام تعريفاً يتفق ووجهة نظر هؤلاء جميعها بالرغم من اتفاقهم على أهمية الرأى العام .

وأغلب الظن أن هذا الاختلاف فى تعريف الرأى العام يرجع إلى اختلاف النظرة إلى الرأى العام نفسه تبعاً لاختلاف طبيعة التخصص العلى لرجال الفكر أو السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو علم النفس . ومن هنا أصبح من الصعب تعريف الرأى العام تعريفاً جامعاً مانعاً ، وذلك للأسباب التى سبق ذكرها علاوة على أن غموض الرأى العام فى حد ذاته ، واحتمال وجود تعريفات كثيرة له تتعدد بتعدد الآراء ، وتباين بتباين النظرة إلى الرأى العام .

ومن أهم التعريفات التى ظهرت للرأى العام :

١ - " إنه ميول الناس نحو قضية ما ، لو كان هؤلاء الناس من فئة واحدة " ، وهذا هو رأى العلامة " دوب " .

ولكن كلمة ميول لها أكثر من معنى ، كما أن الرأى العام ليس مجموع الآراء الفردية ، ولكنه نتيجة النقاش بين الأفراد (١) .

٢ - ويقول " جيمس " ت . يونج " فى تعريف الرأى العام :

" الرأى العام هو الحكم الاجتماعى لجماعة ذات وعى ذاتى على موضوع ذى أهمية عامة بعد مناقشة عامة مقبولة " .

وهذا التعريف يرتبط بالنظرة الاجتماعية للرأى العام ، ولا يعطى مفهوماً واضحاً للرأى العام . كما أن عبارات هذا

(١) د . محمد عبد القادر حاتم : الإعلام والدعاية " نظريات وتجارب " ص ١٢٣ (مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة) ١٩٧٢ م .

التعريف ينقصها التحديد . فمثلا عبارة (جماعة ذات وعى ذاتى) هل يقصد بها جماهير الشعب أم جماعة محدودة ؟ وأيضا عبارة (بعد مناقشة عامة مقبولة) لم يحدد لنا مدى هذا القبول ومعناه ، ومتى تصبح هذه المناقشة العامة متكاملة وصالحة لأن ينتج عنها رأى عام (١) .

ونلاحظ أيضا أن عبارة (موضوع ذات أهمية) لا تعطى التحديد المطالب التعريف على محدد ، فمثلا هذه الأهمية من الذى يحددها .. ؟ هل هو الحاكم وحده .. ؟ أو أصحاب الحل والعقد فى الأمة .. ؟ أو هما معا .. ؟

ثم هذه الأهمية لمن تكون .. ؟ قد تكون هذه الأهمية للحاكم دون المحكومين على أساس أنه القائم على الأمر والمتحكم فيه ، وهناك تتدخل وسائل الإعلام المختلفة بما لها من هيمنة وتأثير على الناس فتزيف الحقائق أو تقلبها ، ومن ثم تؤثر فى الرأى العام كليا أو جزئيا فلا يكون هناك - والحالة هذه - رأى عام ، بل رأى خاص هو رأى الحاكم يظن برأى اجتماعى عام حتى ينال القبول والرضى العام .

٣ - ويقول " مینار " :

" الرأى العام هو مجموعة الاتجاهات والمشاعر التى يكونها قطاع كبير من الناس فى مسألة عامة وفى فترة معينة تحت تأثير الدعاية " (٢) .

ونلاحظ أن عبارة " مجموعة الاتجاهات والمشاعر " هى عبارة شاعرية أكثر من أن تكون عبارة واقعية تتصل بالأرض والناس .

-
- (١) د . سعيد سراج : الرأى العام (مقوماته وأثره فى النظام السياسى - المعاصرة) ص ٤ (الهمية المصرية العامة للكتاب) ١٩٧٨ م .
- (٢) د . أحمد بدر : الرأى العام (طبيعته وتكوينه وقياسه ودوره فى السياسة العامة) ، ص ٤٨ (مكتبة غريب - القاهرة) بدون تاريخ .

فالاتجاهات تختلف وتتبدل ما بين لحظة وأخرى ذاتيا أو خارجيا . كذلك كلمة المشاعر فهي مبهمه تتأثر بالأهواء والغايات أكثر من تأثرها بالحقيقة المجردة .

فالموت حق علينا جميعا ، والإنسان ودیعة الله طــــى الأرض يستردّها فى أى وقت يشاء ، تلك حقيقة لا ريب فيها ، لكن معظم المشاعر الإنسانية قد تنسى تلك الحقيقة فتسرف فى الهلع والجزع لدرجة قد تفقد معها تلك النفوس صوابها . مثالنّا على ذلك ما حدث لدى بعض الشعوب حينما مات أحد الزعماء فيها فخرجت ملايين من البشر لتشيعه فى مواكب فاقدّة الوعى مجنونة الاهتمامات ، وكأنّ العالم قد فقد وجوده بموته ، وكأنّ الزمان قد توقّف .

فهل يعتبر هذا الذى حدث وقد استند إلى العواطف والمشاعر رأيا عاما مستنيرا يعتد به ويدعو إلى الثقة والاطمئنان ؟ . . . ويأتى قول " مینار " فى التعریف " تحت تأثير الدعاية " وذلك من وجهة نظرى هو أخطر مأخذ على هذا التعریف .

فالدعاية لا تترك للرأى العام حرية فى اختيار القرارات السّتی تهمه بحيادية تامة بحيث تتم بعيدا عن التّزین أو التّزيف أو التّرجيح خاصة ونحن نعلم كيف اتخذ فى بعض الدول وتحت تأثير الدعاية المزيفة الكثير من القرارات التى تخالف أحكام الشرع ، وتناقض العقائد ، وكيف استطاعت الدعاية أن تأسر تلك القرارات شوب الشرعية بعد أن زيفت ذلك للرأى العام وضلّلته .

٤ - ويرى العلامة " فلوید ألبورت " :

" أن الرأى العام ، تعبیر جمع كبير من الأفراد عن آرائهم فى موقف معين يهم غالبية لها تأثير فى الموقف " .

وهذا التعریف يختلف عن رأى " وب " الذى يلتفت إلى ميول

الناس بينما " البورت " يتحدث عن التعبير العلى لميول
الناس سواء كان هذا التعبير رأيا أو سلوكا صريحا واضحا (١).
ولكنى أقول بأن الاختلاف بين تعريف " دوب " وتعريف
" البورت " ليس بذى شأن كبير ، لأن الميول هى المرحلة
الأولى للتعبير عن تلك الميول ، فهى إذن الأصل فى عملية
التعبير .

وحتى إذا بقيت الميول ميولا فقط دون تعبير على عنها
فهى تصبح بذلك جانبا سلبيا للرأى العام لا يؤثر فى شىء على
مجرىات أمورء عالم يخرج إلى حيز التعبير العلى .

وإذا كانت الميول هى المرحلة الأولى للتعبير ، فإنها بذلك
تكون هى الأصل فى عملية التعبير ابتداء من الميول ، وطى
ذلك فإن التعبير يمثل المرحلة الثانية فى تلك العملية .

وهناك بعد ذلك مرحلة ثالثة هى مرحلة التأثير الفعلى
الذى سوف تنعكس نتائجه على سار الرأى العام ومجرىات الأمور
فيه .

ويتقدر ما يكون الميل مندفعاً يكون التعبير جارفا ، ويتقدر
ما يكون التعبير جارفا يكون التأثير .

والقرآن الكريم جاء معبرا عن ذلك أصدق تعبير حينما قال
سبحانه :

" والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات
أن تميلوا ميلا عظيما " (٢) .

فإن الذين يتبعون الشهوات لا يريدون من المؤمنين مجرد
الميل إلى الشهوات ، إنما يريدون منهم أن ينتقلوا من مرحلة
التعبير العلى عن ذلك وهو الانغماس فى تلك الشهوات

(١) د . محمد عبدالقادر حاتم : الإعلام والدعاية " نظريات وتجارب " ، ص ١٢٤ .

(٢) النساء : آية ٢٧ .

ثم تنتهى الجماعة المؤمنة بعد ذلك إلى المرحلة الأهم والتي يهدف إليها الذين يتبعون الشهوات وهى مرحلة التأثير، وهذه المرحلة هى مرحلة الدمار والنهاية للمجتمع المسلم.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله ، فى ذلك :

” وأما ما يريد الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الفرائض من كل عقال : دينى أو أخلاقى أو اجتماعى . . يريدون أن ينطلق السعار الجنىسى المحموم بلا حاجز ولا كابح ، من أى لون كان . . السعار المحموم الذى لا يقر معه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معه بيت ، ولا يسلم معه عرض ، ولا تقوم معه أسرة . يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم ، ينزوا فيها الذكرا على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحياة أو مطلق الوسيلة . كل هذا الدمار ، وكل هذا الفساد ، وكل هذا الشر باسم الحرية - وهى فى هذا الوضع - ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة . وهذا هو الميل العظيم الذى يحذر الله المؤمنين إياه ، وهو يحذرهم ما يريد لهم الذين يتبعون الشهوات ، وقد كانوا يبدلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية فى هذا المجال الأخلاقى ، الذى تفوقوا فيه وتفردوا بفعل المنهج الإلهى القويم النظيف . وهؤلاء ماتريد اليوم الأقلام الهابطة والأجهزة الموجهة لتحطيم مابقى من الحواجز فى المجتمع دون الانطلاق البهيمى ، الذى لا عاصم منه ، إلا منهج الله ، حين تفرغ العصبية المؤمنة فى الأرض - إن شاء الله ” (١) .

هـ - ويقول الدكتور عبد القادر حاتم فى تعريفه للرأى العام :

” الرأى العام هو الحكم الذى تصل إليه الجماعة فى قضية ما ذات اعتبارا ”

وبشترط لتحقيق ذلك شروط من أهمها :

- أن تكون هناك مناقشات وافية حول القضية .

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن - ط دار الشروق ، المجلد الثانى ج ٥ ص ٦٣١ ، ٦٣٢ .

- أن تكون القضية مثارة بكل حقائقها ، عن طريق القادة أو أجهزة الإعلام والدعاية ، أو عن طريق الجماعات والهيئات العامة .

- أن يكون الاتجاه الذى تتخذه الجماعة فى هذه القضية متفقاً تماماً مع المعتقدات العامة للناس مثل العقيدة الدينية أو الوطنية أو القومية أو غيرها من العقائد التى يعتنقها الشعب (١) .

وهذا التعريف للرأى العام لا يختلف كثيراً عن التعريفات التى سبقته من حيث الغموض وعدم التحديد والدقة فى مدلول بعض الكلمات التى وردت فى التعريف . فمثلاً قوله : " الرأى العام هو الحكم الذى تصل إليه الجماعة " .

هذا الحكم الذى صدر باسم الجماعة يبدل على وجود قضية مطروحة ، وما دامت هناك قضية فلا بد من وجود طرفين أو أكثر فى هذه القضية .

والأسئلة التى تفرض نفسها أمام ذلك تتلخص فيما يلى :

من ذا الذى أوجد هذه القضية ومن ذا الذى طرحها ؟ .
من ذا الذى ناقش هذه القضية ومن ذا الذى حكم فيها ؟ .
على أى أساس صدر مثل هذا الحكم ، ومن ذا الذى يضمن عدله ونزاهته وحرية ؟ .

إن الذين أوجدوا هذه القضية وقاموا بطرحها بشر ، والذين ناقشوها وأصدروا الحكم فيها بشر .

وما دامت القضية بشرية دماً ولحماً من البداية كان لابد لها فى النهاية من أن تخضع لمعايير البشر من حيث الظلم والانحراف واتساع الهوى .

قال تعالى :

" أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون " (٢) .

(١) د . محمد عبد القادر حاتم : الإعلام والدعاية " نظريات وتجارب " ص ١٢٤ .

(٢) المائدة : آية . ٥٠ .

وقال تعالى :

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " (١) .

وقال تعالى :

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " (٢) .

وقال تعالى :

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " (٣) .

إن الأمثلة على ظلم البشر وانحرافهم واتباعهم الهوى كثيرة
مهما ادعى بعض هؤلاء العدل والنزاهة والحرية .

أمريكا وهى - كما يزعمون - زهية العالم الحر ، ورائدة
الديمقراطية الغربية ، والفروض أن يكون رأى العام فيها - وهو
عند المؤلف الحكم الذى تصل إليه الجماعة - حراً لا تدخل فيه ،
صادقاً لا زيف فيه ، نزيهاً لا شك فيه .

أمريكا هذه حدث فيها ما يدهش ذلك كله ويثبت عكسه ، وأقصد
به ما عرف فى حينه بفضيحة " ووترجيت " على سبيل المثال .

إن الغش والخداع والتجسس على مقر الحزب المعارض لا يترك
مجالاً للشك فى أن الديمقراطية الغربية التى يتشددون بها ما هى إلا
خداع للنفس ، وأن الحكم الذى صدر فى حينه باسم رأى العام
ما هو إلا حكم مزيف قد بنى على الغش والخداع ، وأن الذين أصدروه
ما هم إلا حفنة من المزيفين والغشاشين .

وللأسف الشديد عندما يقرأ القارى قول الدكتور حاتم : " ونحن
نرى من وجهة نظرنا أن " رأى العام هو الحكم الذى تصل إليه الجماعة
فى قضية ما ذات اعتبار ما " يعتقد هذا القارى بما لا يدع مجالاً
للشك أن هذا التعريف للرأى العام هو محض اجتهاد منه .

(١) المائدة : آية ٤٤ .

(٢) المائدة : آية ٤٥ .

(٣) المائدة : آية ٤٧ .

ولكن عندما يقرأ نفس القارىء تعريف "جيمس يانج" للرأى العام لا بد أن يعدم لتطابق التعريفين تطابقاً تاماً .

يقول "جيمس يانج" :

"الرأى العام هو الحكم الاجتماعى الذى يعبر عن مجتمع واع بذاته ، وذلك بالنسبة لسألة عامة لها أهميتها . . على أن يتم الوصول إلى هذا الحكم الاجتماعى من طريق مناقشة عامة " (١) .

إن تلك الشروط التى وضعها "جيمس يانج" لكى يصدر هذا الحكم الاجتماعى هى نفس الشروط التى فرّعها الدكتور حاتم للحكم فسى تعريفه ، والتى سبق ذكرها فى موضع سابق .

ولقد توج الإسلام الرأى العام بالمعاني والقيم السامية فى وقت كانت الدول الغربية غارقة فى بحار من ظلمات الجهل ، والتأمل لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم يجد اهتمام الدعوة الإسلامية بالرأى العام ، فقال تعالى مخاطباً نبيه :

"ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " (٢) .

وبمثل اهتمام رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالرأى العام فى القرآن الكريم الذى يبدو واضحاً فى قوله تعالى :

"فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر " (٣) .

وقد نهج الخلفاء الراشدون هذا المسلك فى أسلوب حكمهم ، وليس أدل على ذلك من قول أبى بكر أول الخلفاء الراشدين فى أول خطبة له :

"إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمنى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمنى على باطل فقومونى " ، وأكد عمر بن

(١) د . أحمد بدر : الرأى العام " طبيعته وتكوينه وقياسه ودوره فى السياسة

العامة " ، ص ٤٨ ، ص ٤٩ .

(٢) آل عمران : آية ١٥٩ .

(٣) آل عمران : آية ١٥٩ .

الخطاب ثانياً الخلفاء الراشدين هذا المبدأ حين أعلن أمام جميع المسلمين : " أصابت امرأة وأخطأ عمر " (١) .

إن ذلك هو موقف الإسلام من الرأي العام ، ذلك الموقف الذى يتضمن :

- ١ - الرفق بالمحكومين وعدم ترفع الحاكم عليهم بحال من الأحوال .
- ٢ - مشاورتهم فى الأمر والعفو عن أساءتهم .
- ٣ - المساواة الكاملة فى الحقوق والواجبات بين الحاكم والرمية .
- ٤ - الرجوع إلى الحق واجب على كل مسلم لافرق فى ذلك بين الحاكم والمحكوم .
- ٥ - مراجعة الحاكم إذا أخطأ واجب على الجماعة المسلمة .
- ٦ - معارضة الأمة بالحقائق واجب على الحاكم المسلم لا تفرط فيه .

٢ - تكوين الرأي العام :

يتكون الرأي العام نتيجة لعناصر كثيرة هى فى الأصل مقومات تكوين الرأي الفردى ومن العسير أن يحدد المرء على وجه الدقة كيفية تكوين الرأي العام ، ومعظم الإنتاج الفكرى فى هذا المجال ما زال إنتاجاً نظرياً ، ولم تصل نتائج الدراسة فيه بعد إلى حقائق ثابتة تعتمد على التجارب العلمية الدقيقة .

وإذا كان الرأي العام يتكون فى الأصل نتيجة لتكوين رأى الفردى ، والإنسان الفرد يتكون رأيه بعد انصهار العناصر التى تصنع أفكاره وعواطفه ، فقد وصل علماء الإعلام إلى أن هذا الرأى يتكون كما يلى (٢) :

١ - نتيجة النشأة والبيئة .

(١) . د . محى الدين عبد الحليم : الاعلام الاسلامى وتطبيقاته العملية ، ص ١٠٠ ، ٩٩ ، هذا ويتشكك بعض المؤرخين فى هذه القصة ، وإن كان العقاد قد اعتمدها فى كتابه (صقرية عمر) .

(٢) . د . محمد عبد القادر حاتم : الاعلام والدعاية " نظريات وتجارب " ، ص ١٢٨ .

- ٢ - نوعية الطبقة الاجتماعية التى ينتسب إليها الفرد .
 - ٣ - نوعية الثقافة .
 - ٤ - تأثير وسائل الاتصال .
 - ٥ - أهمية تأثير الدين والتقاليد الموروثة .
 - ٦ - أهمية المدرسة والبيت .
 - ٧ - أهمية التجارب الإنسانية الماضية .
 - ٨ - الظروف التى يعيشها ويفكر فيها للمستقبل .
- ولقد حاول العديد من العلماء تحديد أثر البيئة فى حياة الإنسان فنجد الباحث " هيج " مثلاً يحدد مظاهر أثر البيئة فى حياة الإنسان فيما يلى :

- ١ - أثر البيئة فى صفات الإنسان وخصائصه الجسدية .
 - ٢ - أثرها فى سكنه وملبسه وغذائه .
 - ٣ - أثرها فى حرفته .
 - ٤ - أثرها فى مختلف نواحي النشاط الاقتصادى .
 - ٥ - أثرها فى مدى تقدم الحضارة .
- ما تقدم نرى مدى تغلغل البيئة الطبيعية فى حياة الإنسان وتصرفاته ومسار نشاطه فى كافة النواحي ، ليس هذا فقط بل تؤثر البيئة فى ازدهار الحضارات أو تخلفها (١) .
- والمناخ أثر كبير فى تكوين الرأى العام ، ففي البلاد المشمسة ذات السماء الصافية يتقارع الناس الحجاج فى الأسواق والعراء ، بينما فى البلاد الباردة المعتمة المليئة بالضباب البارد ينحصر نشاط الرأى العام فى أماكن مغلقة كما هو مشاهد فى بلاد الشمال .

(١) د. سعيد سراج : الرأى العام " مقومات وأثره فى النظم السياسية المعاصرة "

ويصعب في الجو البارد القارس جمع المواطنين في مكان واحد ،
ومشكل المناخ طابع كل أمة على حدة - كما أن مناخ كل إقليم أو منطقة
مثل حوض البحر الأبيض المتوسط - مثلا - تعطي للشعوب التي تعيش
فيها أو حولها طباعا خاصة ، وأخلاقيات محددة تؤثر تأثيرا كبيرا
على اتجاهات الرأي العام وطرائق تكوينه ، ووسائل التأثير فيه .
وبذلك نجد المناخ يؤثر في شخصية الأمة وكذلك في حركتها
السياسية (١) .

وليس المناخ فقط هو صاحب التأثير على الشعوب والرأي العام
في مجال البيئة الطبيعية - بل نجد الإقليم له أيضا تأثير كبير في
تكوين الرأي العام . فطبيعة الإقليم وموقعه الجغرافي يؤثران على
التنشئة الاجتماعية للأفراد ، ويحددان حياة الأفراد سواء بالنسبة
للحرف التي يمارسونها أو لعلاقاتهم الاجتماعية داخل المجتمع .

إن الإقليم الصحراوي يؤثر على حياة أفراد تأثيرا واضحا ،
أما الإقليم الزراعي فيكون تأثيره على حياة أفراد ، عكس الإقليم الصحراوي ،
وكذلك الحال بالنسبة للإقليم الصناعي .

لا شك أن كلا من المناخ والإقليم له تأثيره الفعال في تكوين الرأي
العام ، ولكن هناك عوامل أخرى لا تقل أهمية عن المناخ والإقليم في
تكوين الرأي العام . عوامل ظاهرة وأخرى خفية ، عوامل مادية وأخرى
معنوية ، لذلك حين يتحدث العلماء ورجال الإعلام عن الرأي العام ،
فكأنهم يتحدثون عن شبح ذي سلطة وقوة سيطرة ولكنها معنوية . . قوة
لا يجد المواطنون والعلماء وأصحاب السلطة إلا أن يتجاهلوا معها
ويطيرونها .

كثيرا ما نسمع أو نقول العبارات التالية : " الرأي العام يتوقع " ،
" الرأي العام يطالب " ، " الرأي العام يكتسح كل معارضة " ، ونحن

حين نسمع ذلك أو نقوله إنما نعنى أن هناك قرارات هامة سوف تتخذ بواسطة الجمهور عن طريق رجال الدولة أو القيادات التى توجد على رأس السلطة.

والقائد الحكيم لا يستطيع تجاهل رأى العام فيما يتعلق بالرجال الذين سوف يمسكون بدفة الأمور تحاشيا لحدوث أخطاء ترتكب باسم رأى العام ، أو سوف تكون هذه الأخطاء نادرة إذا حدثت .

وكل هذه العوامل التى تعمل على تكوين رأى العام لا تعمل منفردة ، بل تعمل مجتمعة مع وجود بعض التفاوت فى التأثير تبعاً لتفاوت المجتمعات وتباينها .

ولا تكاد تعرف ظاهرة اجتماعية تتأثر بها حولها من الأشياء كما تتأثر ظاهرة رأى العام . ذلك أنه العروة التى تنعكس عليها صورة المجتمع بكل ما فيه من عقائد وتقاليد وعادات وأفكار وآراء وأخبار تأسى من هنا وهناك (١) .

وإذا كنا قد ذكرنا بعض العوامل التى يتكون منها رأى العام ، والتى يمكن أن توضع تحت قائمة العوامل المادية الخارجية ، وأقصد بها عوامل البيئة كالمنح والإقليم ، فإن هناك عوامل أخرى - من وجهة نظرى - هى العوامل المعنوية الداخلية ، وهى العوامل التى تتفاعل من داخل المجتمع ذاته ، والتى يمكن ذكر أهمها فيما يلى :

١ - الهمس والشائعات :

والهمس والشائعات من أدوات الدعاية لا الإعلام فى أغلب الأوقات ، إلا إذا تهامس الناس فى الأمور الصحيحة التى لا يستطيعون أن يصرحوا بها فى وسائل الإعلام المختلفة ، والهمس والشائعات تؤثران تأثيراً قوياً فى مسار رأى العام عن طريق التأثير فى الخاصة والعامة من الناس ، وخاصة فى أثناء الأزمات

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الاعلام والدعاية ، ص ٣٨ (دار الفكر العربى ، القاهرة) ط ٢ ، ١٩٧٨ م .

السياسية أو الاقتصادية ، أو في أوقات الحروب . والناس فيهم الكثير من يميل إلى تصديق الشائعات دون محاولة منهم للوقوف على الحقيقة ، وقد لا يكتفى أحدهم بتصديق الشائعات حسبي يضيف إليها من عنده ، ويأتي بعده من يضيف إليها شيئا آخر وهكذا .

وهنا يكمن الخطر كل الخطر من الشائعة مهما كانت بسيطة في أول أمرها (١) .

ووجود الشائعات قد يرجع إلى إيجاد خبر لا أساس له من الصحة ، أو إلى تلفيق خبر لا نصيب له من الصدق ، أو إلى مبالغة مقصودة وتزويد واضح في نقل خبر له وجود أصلا .

٢ - الزعماء السياسيون والمصلحون الاجتماعيون :

وهؤلاء قسمان :

الأول : يعمل على مساهمة الأمة والعمل على تحقيق أهدافها الموجودة أصلا لدى الرأي العام للأمة دون أن يحاول هذا النوع من القادة أن يفرض عليها تجديدا أو تغييرا قد يصطدم بالرأي العام للأمة ، وهؤلاء القادة هم أسرع نجاحا وأقوى تأثيرا في اتجاه الرأي العام خاصة في المجال السياسي .

الثاني : يعمل على إيجاد تغيير واضح ومؤثر في اتجاه الرأي العام للأمة ، وهؤلاء القادة هم الدعاة المصلحون الذين يعملون على إصلاح المجتمع عقديا ومعاربة الخرافات والبدع التي كثيرا ما تؤثر في الأمة تأثيرا مدبرا .، وهؤلاء الدعاة يكونون عادة أبطأ نجاحا لكنهم أعمق تأثيرا في ضمير الأمة .

(١) المرجع السابق .

٣ - التراث الحضارى :

والمقصود بالتراث الحضارى كل ما يحيط بالأمة من تجارب وخبرات قديمة وتاريخ سياسى وثقافى واجتماعى وأدبى وفنى .

وتعتبر المعتقدات الدينية أولا وأخيرا أهم هذه العوامل فى الحقيقة ، وسبب هذا التراث الحضارى للأمة يكون استمساكها بالعقيدة أو برأى من الآراء ، أو بفكرة أو بعرف من الأعراف .

ويعتبر عامل التراث الحضارى عاملا من أخطر العوامل فى تكوين الرأى العام الثابت للأمة ، ولما كان الدين الإسلامى هو أهم عناصر هذا التراث الحضارى للأمة العربية فإن الشيوعية قد عجزت عن غزو العالم العربى غزوا مذهبيا على نحو ما فعلته فى بعض البلاد الأوربية والآسيوية ، ذلك أن الدين الإسلامى يقف عقبة كأداة ضد الشيوعية ، وسيبقى الحال هكذا مادامت الأمة الإسلامية متمسكة بدينها الحنيف ضد هذه المذاهب الهدامة .

لذلك اهتمت رسالة الإسلام بجماهير الرأى العام وحفـل القرآن الكريم فى كثير من آياته بهذه الجماهير كما حدد أساليب مخاطبتهم ، ويؤكد الإسلام على ضرورة الرجوع إلى الرأى العام للاستعانة به فى مختلف الأمور ، فقال تعالى :

” وأمرهم شورى بينهم ” (١) .

وجعل حكم الرأى العام على المؤمن رقيبا على أعمال المسؤولين ومحاسبتهم ، بعد الله ورسوله (٢) .

(١) الشورى : آية ٣٨ .

(٢) د . محى الدين عبد الحليم : الإعلام الإسلامى وتطبيقاته العملية ، ص ١٧٢ (إلا أننى أعترض على ما جاء فى عبارة الدكتور) ، حيث قال : ” وجعل حكم الرأى العام على المؤمن شريكا لحكم الله ورسوله فى تقيهم أعمال المسؤولين ومحاسبتهم ” ، واعتراضى على العبارة السابقة يستند إلى قوله تعالى من سورة الكهف ، آية ٢٦ ” ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا ” .

فقال تعالى : " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله
والمؤمنون " (١) .

من هنا نشطت الدعوة الإسلامية لكسب الرأى العام فسى
أنحاء الأرض المختلفة إلى جانب الدين الإسلامى دون تهديد
أو إكراه ، قال تعالى :

" لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى " (٢) .

ويقول عز من قائل :

" ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكفره
الناس حتى يكونوا مؤمنين " (٣) .

وبذلك يكون الإسلام قد أكد من أول وهلة على حرية الرأى ،
وحرية العقيدة ، ودعا الناس للتعبير فى حرية تامة عن آرائهم
دون الانسياق خلف آراء الآخرين .

وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى :

" حدثنا أبو هاشم الرقاعى محمد بن يزيد ، حدثنا محمد بن
فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع ، عن أبى الطفيل عن حذيفة
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكونوا إمعة
تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم
إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا " (٤) .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(١) آل عمران : آية ٦٤ .

(٢) البقرة : آية ٢٥٦ .

(٣) يونس : آية ٩٩ .

(٤) الترمذى : الجامع الصحيح سنن الترمذى - تحقيق : إبراهيم عطوة

عوض ، (كتاب البر والصلة باب ما جاء فى الإحسان والعفو) ج ٤ ،

ص ٣٦٤ ، ط (دار إحياء التراث العربى - بيروت) ط ١٣٨١ هـ /

١٩٦٢ م .

وقال الألبانى فى " مشكاة المصابيح " الإسناد ضعيف وقد
صح من ابن مسعود موقوفاً (١) .

وما اجتماع السقيفة ، وما دار فيه من حوار بين المهاجرين
والأنصار لا اختيار خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إثر وفاته ،
واختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أول خليفة لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ، إلا علامة قوية على اهتمام الإسلام برأى
الناس وهذا الشورى فى أخطر أمر من أمور دينهم ودنياهم ،
ألا وهو أمر الخلافة .

فى الوقت نفسه نجد الساجد قد جاءت مع الإسلام كمنابر
لتوجيه الرأى العام ، وتضامن المسلمين وتآلفهم ، ولكنى
يتدارسوا فيه شئون دينهم ودنياهم (٢) .

لذلك نرى الإسلام قد اهتم بالإنسان وحياته وتصرفاته
وحرياته وآرائه إلى الحد الذى لا يتعدى فيه حدود الله فى كل
زمان ومكان .

" فإنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين وما قبله وما
بعده " (٣) .

ذلك لأن القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان ، وهو آخر
الكتب السماوية المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى ، ووضع للبشرية
قواعد العدل والمساواة والتكامل الاجتماعى ، ليس للمسلمين فحسب
وإنما للبشرية جمعاء (٤) .

-
- (١) محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى : مشكاة المصابيح - تحقيق : محمد
ناصر الدين الألبانى (كتاب الآداب - باب الظالم) ج ٣ حديث رقم
٥١٢٩ ط ٢ (المكتب الإسلامى - بيروت) ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- (٢) د . سعيد سراج : الرأى العام (مقوماته وأثره فى النظم السياسية المعاصرة) ،
ص ١٠٣ .
- (٣) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم ، ص ٦ (دار السلام - القاهرة) .
- (٤) د . سعيد سراج : الرأى العام (مقوماته وأثره فى النظم السياسية المعاصرة) ،
ص ١٠٤ .

٣ - وظيفة الرأي العام :

إن الفكرة العامة عن اتجاه الرأي العام ووظيفته في نظام سياسي معين ، تعتمد على المعتقدات السائدة التي يعتنقها الناس في المجتمع .
ومادامت وظيفة الرأي العام تتحدد بالنظام السياسي . . فما هي هذه النظم السياسية ، وما هي وظيفة الرأي العام في كل منها . . ؟
الواقع أن كثيرا من الباحثين يرون أن هذه النظم السياسية تميل إلى الاستقطاب في شكلين أساسيين هما في الشكل الديمقراطي - الدستوري ، والشكل التسلطي .

وعلى الرغم من هذا الاستقطاب في النظم السياسية ووظيفة الرأي العام في كل منها ، فهناك درجات واسعة من الاختلاف والاتفاق بين هذه النظم والنظريات .

١ - النظام الديمقراطي " الدستوري " :

يفترض هذا النظام أن السلطة السياسية تتكون من مجموعة من الهيئات التمثيلية التي تتركز على حكم الأغلبية وعلى رضا المحكومين وعلى حق المعارضة السياسية .

كما يسمح هذا النظام السياسي بالتجمع الاختياري للأفراد ، في أي شكل من أشكال التنظيم بما يتفق مع التحقيق الجماعي للأهداف التي لا يستطيع تحقيقها الأفراد بأنفسهم (١) .

وعلاوة على ذلك فإن هذا النظام يضع في اعتباره احترام بعض الحقوق والواجبات الأساسية للمواطن .

والنظام الديمقراطي يعتبر الرأي العام مصدراً للدساتير والقوانين ، وهو الذي يصدق عليها ويؤيدها ويحافظ على تطبيقها لأنها ترعى مصالحه وحاجاته ولأنها نابعة منه .

(١) د . أحمد بدر : الرأي العام " طبيعته وقياسه ودوره في السياسة العامة " ص ٨٤ ، ٨٥ .

فإذا رأى الرأى العام أن هذه القوانين لم تعد تسير تطوره
أو أنها تقف فى وجه مصالحه واحتياجاته سارع بتعديل هذه
القوانين أو تعطيلها أو إلغائها .

وأخيرا يمكن القول بأن الرأى العام فى النظام الديمقراطى
" الدستورى " يعتبر سندا للهيئات والمؤسسات الاجتماعية .
ذلك لأنه يسهل على هذه الهيئات تأدية رسالتها الحضارية
والثقافية ، والمؤسسة أو الهيئة الاجتماعية التى لا يسندها
الرأى العام لا تستطيع أن تحصل على ما تريده من الدعم العالى ،
والاعتمادات السنوية من الميزانية ، بل قد تخطر مثل هذه
المؤسسات التى لا تحظى باحترام الرأى العام وتأييده إلى تصفية
أعمالها وإلغائها (١) .

٢ - النظام التسلطى :

يشور هنا تساؤل : هل يوجد رأى عام فى النظام التسلطى ؟
ولن نجد فما دوره فى العمل السياسى ؟ وما مدى إيجابيته ؟
فى النظام التسلطية المبنية على وضع قيود على الحريات ،
ومنع الرأى المعارض من الظهور ، يسود الرأى العام الذى يتكون
بعد أن تستقطبه السلطة الحاكمة بالعديد من الأفكار والاتجاهات
التي تبشها هذه السلطة لتقنع الرأى العام بالنظام القائم .

ولم يستطع النظام الماركسى أن يستميل الرأى العام داخل
الاتحاد السوفيتى ، إلا بعد أن أقام " ستالين " ستاره الحديدى
حتى لا تتسرب آراء وأفكار ومبادئ العالم الخارجى إلى الشعب
السوفيتى قبل أن يتمكن الحزب وأجهزة دعايته من الانتهاك من
عملية " غسيل المخ " التى يخطط بها ، وغرس المبادئ الماركسية
فى الأذهان (٢) .

(١) المرجع السابق : ص ٦٨ .

(٢) شاكر ابراهيم : الإعلام ووسائله ودوره فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ،
ص ٤١ ، (مؤسسة آدم للنشر والتوزيع) ١٩٧٥ م .

وتتشمل هذه المبادئ في أن الساطة السياسية تنبج من مصدر معين فوق الشعب ، ولا يسمح بتشكيل تنظيمات عنانة الرأى أو النشاطات السياسية فى عطيات تكوين السياسة التى سيحكم بها الأفراد ، إلا فى حالات ترضى بها السلطة وتحت التحكم المباشر للحاكم الشرعى أو الجماعة الحاكمة .

وعلى ذلك يمكن القول بأنه إذا كان الرأى العام يعتبر مصدر القوانين فى النظام الديمقراطى " الدستورى " ، فالنظام التسلىطى يفرض على الرأى العام القوانين التى يراها هو ملائمة له ، والتى تضمن لهذه السلطة التسلطية البقاء فى الحكم .

ولذا كان العرض السابق لوظيفة الرأى العام قد ركز على الجوانب التى تتجدد داخل إطار نظام سياسى معين ، فهناك بعض الوظائف التى تنسحب على جميع المجتمعات على اختلاف نظمها السياسية ، وأهم تلك الوظائف ما يلى : (١)

١ - الرأى العام يعنى المثل الإنسانية والقيم الاجتماعية والمعايير والمبادئ الأخلاقية السائدة فى مجتمع معين ، مؤكداً بذلك النسيج الحضارى لأمة من الأمم .

٢ - الرأى العام يحفظ الروح المعنوية ويملؤها حيوية . . وخصوصاً عندما تتعرض الدولة لخطر غزو خارجى .

وهاتان الوظيفتان السابقتان توضحان تأثير الرأى العام على حياة الجماعة ككل لايتجزأ .

أما تأثير الرأى العام على الأفراد كأفراد وكأعضاء فى هذه الجماعة فيتركز فيما يلى :

١ - تعود الأفراد على الطاعة الاجتماعية ، وانصياعهم لما هو سائد فى المجتمع من القيم والتزام الفرد بسلوك اجتماعى يرضى عنه المجتمع .

(١) د . احمد بدر : الرأى العام (طبيعته وقياسه ودوره فى السياسة العامة)

٢ - تهذيب أنانية الفرد وضبطها ، وذلك لأن الرأي العام يساعد المؤسسات العقابية أو العلاجية على إتمام رسالتها في تهذيب أنانية الفرد ومنعه من الخروج عن الجماعة ونظامها .

والرأي العام هو المجال الذي يعمل في نطاقه أى عمل إعلامى وقد اهتم الإسلام بجهاهير الرأي العام اهتماما كبيرا ، وحفل القرآن الكريم فى كثير من آياته بهذه الجماهير فى حياتهم العامة والخاصة .

لم يترك القرآن الكريم صغيرة أو كبيرة إلا جعلها للبشرية منهاجا فى الحياة الدنيا ، وطريقا للنجاة فى الحياة الآخرة .

ففى السلم حيث تمر الحياة اليومية بالحركة ، وتتشابك العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، لا يترك الإسلام الناس سدى ، يتصرفون فى حياتهم كيفما شاءوا ، بل يحدد لهم منهاج العمل الذى يجب أن يلتزموا به جميعا دون استثناء أو تمييز .

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مناط الخير فى الأمة الإسلامية ولولاها لما أصبحت خير أمة أخرجت للناس .

قال تعالى :

" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " (١) .

ولن يتأتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الا حينما يأخذ كل مسلم طيقاته أداء المهمة الإعلامية التى كلفه بها ربه ، والتى تتمثل فى الدعوة إلى الله حيث ميز القائمين بها وقربهم إليه عن سواهم .

قال تعالى :

" ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين " (٢) .

(١) آل عمران : آية ١١٠ .

(٢) فصلت : آية ٣٣ .

وفي السلم أيضا يستمر العطاء الرباني دون انقطاع حتى تبقى
الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس .

ومادام المؤمن هو القدوة الحسنة أصبح لزاما عليه أن يأمر نفسه
أولا بالبر والخير والمعروف ، ويلتزم بذلك في سلوكه الخاص والعام ، ثم
بأمر بعد ذلك غيره حتى يطاع أمره ويستجاب نهيه .

قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله
أن تقولوا مالا تفعلون " (١) .

قال تعالى :

" أأأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم " (٢) .

وفي مجال التعامل البشري حيث توجد الحسنة والسيئة يقول
تعالى في كتابه العزيز :

" ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا
الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم " (٣) .

إن الحسنة لا يستوى أثرها - كما لا تستوى قيمتها - مع السيئة
والعبر والتسامح ، والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر ،
يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة ، فتقلب من الخصومة إلى الولاء ،
ومن الجراح إلى المين (٤) .

هذا هو الرأي العام الذي يريده الإسلام ، الرأي الذي يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويلتزم بما يقول ، ويقابل السيئة بالحسنة
ويتعاون على البر والتقوى ولا يتعاون على الإثم والعدوان .

(١) الصف : آية ٣ .

(٢) التوبة : آية ٣٤ .

(٣) فصلت : آية ٣٤ .

(٤) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مجلد ٥ ، ج ٢٤ ، ص ٣١٢١ .

إن النفاق آفة من أخطر الآفات التي تصيب الرأى العام فتشل
فعاليتها وتقتل إيجابيتها ، وتصيبه بالضعف والانحطاط .
لذلك حفل القرآن الكريم بالآيات التي تكشف المنافقين وتفضحهم ،
وتبين للمؤمنين أساليبهم وتسخر منهم .
قال تعالى :

" وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم
قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويهدم فسي
طغيانهم يعمهون " (١) .

ويحدد القرآن الكريم موقع المنافقين من الآخرة ، وأى نوع من
المذاب ينتظرهم .
قال تعالى :

" إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم
نصيرا " (٢) .

فى الدرك الأسفل من النار . . إنه مصير يتفوق مع شقطة الأرض التي
تلحقهم بالتراب ، فلا ينطلقون ولا يرتفعون . شقطة المطامع
والرفائب ، والحرص والحذر ، والضعف والخور ، الشقطة التي تهبط بهم
إلى موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين . والوقوف فى الحياة ذلك الموقف
المهين : " مذهبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء " . فهم
كانوا فى الحياة الدنيا يزاولون تهينة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير
" فى الدرك الأسفل من النار " بلا أعوان هنالك ولا أنصار . . وهم كانوا يوالون
الكفار فى الدنيا ، فأنى ينصرهم الكفار ؟ (٣) .

(١) البقرة : آية ١٤ ، ١٥ .

(٢) النساء : آية ١٤٥ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، مجلد ٢ ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

إن ذلك قليل من كثير لمفهوم الإسلام للرأى العام وما يجب أن يكون عليه فى السلم حيث يتعامل الجميع فيما بينهم .

أما مفهوم الإسلام للرأى العام أثناء الجهاد فهو نفس المفهوم له أثناء السلم ، فالفتوحات الإسلامية لم يكن هدفها العدوان والاستيلاء على أراضى الغير ، ولكنه التطلع النفسى الذى يثيره حق الدعوة فى نفوس أصحابها ، فقد خرجت الجماعة الإسلامية داعية إلى الله يملؤها هذا الإحساس الذى يحوج فى صدور الدعاة ويتدفق فى أعماقهم .

لذلك أمر القرآن الكريم الجماعة المسلمة بالإعداد للحرب حتى ترهب أعداء الله وأعداءها ، قال تعالى :

• وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم* (١) .

ولكن أى الفئات يجب على الجماعة المسلمة قتالها .. ؟ يقول تعالى فى الفة الأولى :

• قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون* (٢) .

ويقول تعالى فى الفة الثانية :

• الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا* (٣) .

ويقول تعالى فى الفة الثالثة :

• وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون* (٤) .

(١) الأنفال : آية ٦٠ .

(٢) التوبة : آية ٢٩ .

(٣) النساء : آية ٧٦ .

(٤) التوبة : آية ١٢ .

ويقول تعالى فى الفئة الرابعة :

" وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " (١) .

وللجهاد فى الإسلام أسباب ودوافع حددتها الشريعة سبحانه وتعالى وأوجبها على الجماعة المسلمة فلا تتجاوزها .
قال تعالى :

" وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين " (٢) .

وقال تعالى :

" قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين " (٣) .

وقال تعالى :

" أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير " (٤) .
وهكذا يتضح أن الجهاد فى الإسلام هو فى حد ذاته وسيلة ضرورية لنشر الدعوة الإسلامية والحفاظ عليها فى كل وقت .

كذلك يظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن الجهاد فى الإسلام تحكمه أخلاقيات هذا الدين ، فكانت وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر من بعده لقادة الجيوش بعدم قتل النساء والأطفال والشيوخ وعدم هدم المنازل وقطع الأشجار وارتكاب المعاصى وأن يحسنوا معاملة الأسرى وعدم الغدر بهم .

(١) البقرة : آية ١٩٠ .

(٢) البقرة : آية ١٩٣ .

(٣) التوبة : آية ١٤ .

(٤) الحج : آية ٣٩ .

٤ - أنواع الرأي العام من النواحي التالية :

أ - النطاق :

ينقسم الرأي العام من ناحية النطاق إلى :

- رأى عام محلى أو وطنى ، وهو الرأى الذى يسود غالبية الشعب الواحد حول قضية عامة يدور حولها النقاش والجدل ، وتحتاج إلى قرار يتخذ بشأنها ، لأنها تمس المصلحة العامة .

والرأى العام المحلى أو الوطنى يتنوع تبعاً لنوعية الأفراد المطلوب معرفة آرائهم حول هذه المشاكل والقضايا التى تخصهم ، ومثل هذا الرأى العام هو ما يسميه البعض بالرأى العام النوعى (١) ومنه على سبيل المثال :

- الرأى العام الزراعى :

وهو الرأى السائد بين الفلاحين والمهتمين بشئون الزراعة ورغبة منهم فى إيجاد الحلول المناسبة لقضاياهم واحتياجاتهم ، والتعبير عن وجهة نظرهم تجاه أفضل السبل التى تؤدى إلى تطوير وسائل الزراعة من أجل انتاج أفضل .

- الرأى العام الصناعى :

وهو الرأى الذى يسود أفراد المجتمعات الصناعية بحثاً عن حل للمشاكل التى قد تنشأ فى المناطق الصناعية ورغبة فى تطوير إنتاجها وتحسينه بصفة مستمرة والعمل على حماية الصناعة الوطنية من المنافسة الأجنبية .

- الرأى العام التجارى :

وهو الرأى السائد بين المشتغلين والمهتمين بالتجارة الداخلية والخارجية ، والعمل على تنمية هذه التجارة ، وفتح الأسواق الجديدة أمامها سواء فى الداخل أو الخارج .

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام والدعاية ، ص ٣٣ .

- رأى عام إقليمي :

وهو الرأى الذى يسود عدة شعوب متجاورة جغرافيا وترتبطها أهداف ومصالح مشتركة ، ومن أمثلته البارزة : الرأى العام العربى الذى سرعان ما يتوحد أمام القضايا المصيرية التى يرى أنها سوف تؤثر عليه فى المدى القريب أو البعيد سواء فى المجال الداخلى أو الخارجى .

ومن أمثلته أيضا : الرأى العام الأوروبى الذى كثيرا ما نسمع عن تأثيره فى مسار الأحداث الدولية الهامة .

ولا شك أن الرأى العام الإقليمى له تأثيره الفعال فى مجريات الأمور داخل الإقليم وخارجه خاصة إذا توحد أمام القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغير ذلك من القضايا التى قد تمس أمن الإقليم واستقراره .

- رأى عام دولى أو عالمى :

ويعتبر الرأى العام الدولى أو العالمى ظاهرة واضحة — من مظاهر المجتمع الدولى المعاصر ، وطاملا مؤثرا فى توجيه السياسة الدولية ، ولقد تبلورت ظاهرة الرأى العام الدولى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حيث اتحدت شعوب العالم من أجل وضع حد لسفك الدماء ، ومحاولة حل المشاكل الدولية بالطرق السلمية ، لذلك أنشئت عصبة الأمم عام ١٩١٨م .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية بدمارها الذى شمل معظم أنحاء العالم فازدادت الرغبة فى التعاون المتبادل بين الشعوب فقامت هيئة الأمم المتحدة لتحل محل عصبة الأمم .

وللرأى العام الدولى تأثير كبير فى كبح جماح الدول المعتدية والتى ترغب فى التوسع والسيطرة على باقى الشعوب ، وهو بذلك يعتبر أحد الضوابط التى تحد من السلوك السياسى للدولة .

ب - الاستمرار الزمني :

ينقسم الرأي العام من حيث مدى دوامه واستمراره إلى عدة

أنواع : (١)

- رأي عام دائم أو رأي عام كلي :

وهو الرأي الذي يركز على قاعدة تاريخية وثقافية ودينية
ويشترك فيه كل أفراد الجماعة ، ويمتاز بالاستقرار والثبات جيلا بعد
جيل .

كالرأي العام العربي وكراهيته للصهيونية والاستعمار ، والرأي
العام الصهيوني وتعصبه لإسرائيل . مثل هذا النوع من الرأي
العام يتصف بصفة الدوام والاستمرار .

ومثل هذا النوع من الرأي العام هو الذي ساد العالم
الإسلامي أثناء الحروب الصليبية حتى بلغ ذروته في عهد صلاح
الدين مما ساعد على هزيمة الصليبيين واسترداد بيت المقدس
منهم .

- رأي عام مؤقت :

وهو الرأي الذي ينشأ نتيجة حادث عارض ، وينتهي دوام
هذا الرأي بمجرد إيجاد الحل المقبول لهذه المشكلة أو هذا
الحادث ، وتمثله الأحزاب السياسية والهيئات ذات الأهداف
والبرامج المحددة ، ومتى انتهت هذه الأحزاب أو الهيئات
انتهى هذا النوع من الرأي العام .

وهذا النوع من الرأي العام لا يصلح - بصفة عامة - لأن تقوم
عليه دراسات على عكس الرأي العام الدائم الذي تقوم عليه
الدراسات العميقة من جانب المشتغلين بمجالات قياس ودراسة
الرأي العام (٢) .

(١) فلاد دياب : الرأي العام وطرق قياسه ، ص ٩ (مطابع الدار القومية)

١٩٦٢م

(٢) د . سعيد سراج : (الرأي العام مقوماته وأثره في النظام السياسية المعاصرة)
ص ١٤٠

- رأى عام يومى :

وهى الفكرة اليومية التى يعتنقها معظم أفراد الجماعة نتيجة
لأحداث مفاجئ ، أو كارثة حلت بالجماعة أو حدث سياسى خطير ،
وهذا النوع من رأى العام متقلب من يوم إلى آخر (١) .

والرأى العام اليومى يمثل باستمرار الحركة الدائرية
والمستجددة للرأى العام لدى الشعوب ، وتحركه وسائل الإعلام
والشائعات والمصالح المباشرة للشعوب .

ج - الظهور والعلانية :

ينقسم الرأى العام من ناحية الظهور والعلانية إلى نوعين : (٢)

- رأى عام ظاهر :

وهو الرأى العام الذى يتم التعبير عنه صراحة بأى أسلوب
ممكن ، وهو يتم فى الدول التى تتمتع شعوبها بالحرية والديمقراطية
وممارسة حرية الرأى وحرية التعبير وحرية الفكر دون قيود .

كذلك حين يتمكن الشعب من التعبير عن رأيه بوسائل الإعلام
المختلفة فى موضوع معين فرأيه بذلك يعتبر رأيا ظاهرا أو صريحا .

- رأى عام غير ظاهر أو (كامن) :

وهو أن يقف الشعب من قضية ما موقفا سلبيا أو يتخذ منها
موقفا معينا ويحدث ذلك عادة - فى الدول التساطية السق
تحرم شعوبها من الحقوق والحريات ، وخاعة حرية الرأى وحرية
الفكر وحرية التعبير .

ويظل الرأى العام كامنا وغير ظاهر حتى تتاح له فرصة للظهور
والعلانية .

(١) د . احمد بدر : الرأى العام (طبيعته وتكوينه وقياسه ودوره فى السياسة العامة) ص ٦١ .

(٢) د . محمد أبو زيد : سيكولوجية الرأى العام ورسائله ، ع ٣ هامش (عالم الكتب)

والرأى العام فى الإسلام لا يعرف غير الظهور والعلانية ، لا يعرف الغموض أو السلبية أو عدم الاكتراث ، كل فرد فى الجماعة المسلمة له دوره الإيجابى الذى يجب عليه أن يؤديه ، كتمان الحق منه فى الإسلام .

قال تعالى :

" ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون " (١) .
وإذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم ما يهدى المرء وما يكتسب ، فكيف للمؤمن أن يكتسب فى نفسه ما ينفع به الجماعة المسلمة أو يدفع به شراً عنها ؟ . . .

قال تعالى :

" ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون " (٢) .
بعد ذلك يبين الله سبحانه وتعالى أن العقاب الذى يتناسب وحجم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى هو الطرد من رحمته سبحانه .

قال تعالى :

" ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه
فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " (٣) .

أما فى سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء فى الجامع الصحيح للإمام مسلم (باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ،

(١) البقرة : آية ٤٢ .

(٢) المائدة : آية ٩٩ .

(٣) البقرة : آية ١٥٩ .

وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب .

" حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع عن سفيان ، وحدثنا محمد بن الثني ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة كلاهما عن قيس بن سام عن طارق بن شهاب ، وهذا حديث أبي بكر قال : أول من بدأ بالخطبة قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة ، فقال قد ترك ما هنالك ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان " (١) . وإذا كان أضعف الإيمان هو تغيير المنكر بالقلب ، فمعنى ذلك أن تغيير المنكر بالقلب إيمان ، لكن إيمانه أقل من تغيير المنكر باللسان ، وتغيير المنكر باللسان أقل إيمانا من تغيير المنكر باليد .

من ذلك يتضح أن الرأي العام الاسلامي رأى إيجابيا لاسلمية فيه ، صريح لا التواء فيه ، ظاهر لا غموض فيه ، ثابت لا تغيير فيه لأنه إذا أحب فهو يحب في الله ، وإذا كره فهو يكره في الله ، يحكمه كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

(١) الإمام مسلم : الجامع الصحيح (المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت) المجلد الأول ج ١ ، ص ٥٥ .

الباب الأول

التعبئة الإعلامية الأوروبية وأثرها في التمهيد
للحروب العالمية

الفصل الأول

"تصور عام للحروب الصليبية التي شنها نصارى أوروبا على الأمة الإسلامية"

- ١ - حقيقة الحروب الصليبية ..
- ٢ - من هم الصليبيون ؟
- ٣ - دوافع الحروب الصليبية ..
- ٤ - الحملات الصليبية التي تنالت على العالم الإسلامى ..

١ - حقيقة الحروب الصليبية :

الحروب الصليبية هي تلك الحملات العسكرية التي شنها
نصارى الغرب الأوروبى على العالم الإسلامى ، وقد بدأت عام (٤٩١هـ/
١٠٩٨م) بالحملة الصليبية الأولى ، حيث بلغ الصليبيون قمة تفوقهم
العسكرى والإعلامى باحتلالهم بيت المقدس عام (٤٩٢هـ/١٠٩٩م) فى
حين بلغ المسلمون بقيادة صلاح الدين قمة انتصارهم العسكرى والإعلامى
باستردادهم بيت المقدس عام (٥٨٣هـ/١١٨٧م) .

وبين القسطين كان للتعبة الإعلامية أثرها فى الهزيمة والنصر ،
وهذا ما سوف يغطيه هذا البحث على كل من الجانبين .

٢ - من هم الصليبيون ؟ .

الصليبيون هم أولئك النصارى الذين اتخذوا من أطماعهم
السياسية ستارا لغزو المسلمين تحت أردية زينوها بصورة الصليب الذى
أطلق عليه " البابا أوربان الثانى " " صليب الصليوت " أو " صليب
الخلاص " .

كما أنهم لقبوا الحرب التي خاضوها ضد المسلمين " حرب
الصليب المقدس " ، ومن هنا عرفوا بالصليبيين .

والصليبيون أيضا هم أولئك النصارى الذين ستروا أطماعهم ،
الدينية تحت فيض من الحماسة الدينية الكاذبة التي انطلقت من أفواههم
وتردد صداها فى جنبات أوروبا :

" إنهبوا وقتلوا أعداء الله ، بالعار المسيحيين ، ان أعداءهم
لم يزالوا من عهد بعيد ناصبين سرادقات نفوذهم على سوريا وأرمينيا ، بل
ارتكبوا ما هو أدهى من ذلك وأمر ، إن أنهم اختلسوا قبر المسيح ذلك
العهد العجيب لإيماننا " (١) ، ولكى يزيدوا من حماسة الجماهير

(١) محمد رضا بك : الخيمة الأدبية للسياسة الغربية فى الشرق (الحروب
الصليبية " حقائق هامة لم تنشر ") ص ٦٦ ، ط ٢ - دار بوسلامة للطباعة
والنشر - ترجمة محمد بورقيبة ، محمد الزمرلى ، ٢١٩٧٧ .

واندفاعها لإشعال هذه الحرب اختلقوا شائعة إعلامية مؤداها أن ميسى عليه السلام سوف يظهر في بيت المقدس على رأس ألف من التاريخ الصلياني ، الأمر الذي كان من نتائجه ازدياد عدد الحجاج النصارى إلى بيت المقدس زيارة غير مألوفة ، ولقد تزعم هذه الدعوة وأشعل ناراها الراهب " بطرس " الطقب " بطرس الناسك " ، وكان أكبر معضد لها " البابا أوربان الثانى " الذى وعد كل من يشترك فى الحملة بإنقاذ بيت المقدس بدخول الجنة وأذاع أن الساهمة فى هذه الحرب تكفير عن كل الذنوب والآثام التى أرتكبها الإنسان فى حياته .

وهكذا التهبّت المواقف الدينية لنصارى أوروبا فخرجوا إلى الشرق الإسلامى رجالا ونساء وأطفالا مدفوعين برغبتهم فى دخول الجنة وتكفير ذنوبهم السالفة كما وعدهم " البابا " .

وبالرغم من تكتمهم فى بداية الأمر لنواياهم الشريرة إلا أن ذلك لم يدم طويلا حيث كشفت تلك النوايا ، وظهر ما كانوا يخفونه تحت الرصاص وأصبح الكثير منهم ممن تحمسوا للدين مهيدا للشهوات والأطماع . فارتكبوا أبشع الجرائم ما أثار طيهم النصارى الذين مروا بهلادهم وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس ، وسرعان مادب الخلاف بين الزعماء الصليبيين ، فظهرت بينهم العداوة والبغضاء ، فاقتتلوا فيما بينهم اقتتالا شديدا . وفى ذلك يقول بعض المؤرخين أن الصليبيين قتلوا فقدوا أكثر من سبعين ألف مقاتل منهم قبل أن يتمكنوا من الاستيلاء على موقع إسلامى واحد .

٣ - دوافع الحروب الصليبية :

لقد أنزاق كثير من المؤرخين للحروب الصليبية فى المبالغة عن سوء أحوال النصارى الموجودين فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى ، وما تعرضوا له من اضطهاد ووحشية ، وكيف أن كنائسهم خربت ، وأديرتهم أغلقت ، وطقوسهم عطلت ، فضلا عما لاقاه حجاج

بيت المقدس النصارى من عقبات ، وما تعرضوا له من معاملة سيئة
من حكام البلاد الإسلامية التى مروا بها كما يدعون .

ومن الواضح أن هذا المدخل للحروب الصليبية مدخل مغلل
بعيد عن الحقيقة والتاريخ ، ليس فقط بسبب ما يشتمل عليه من مبالغات
معظمها لا أساس له من الصحة ، بل أيضا لأن الدخول إلى تاريخ
الحركة الصليبية من هذا الباب الوهمى كفىل بأن يصرف الباحث عن
المدخل الحقيقى للموضوع (١) .

والواقع أن للحروب الصليبية دوافع كثيرة أبعد ما تكون عن
الاضطهاد المزعوم الذى قيل بأن النصارى قد عانوا منه على أيدي
المسلمين .

وهذا الواقع هو الذى يسوقنا إلى أن نتطرق باختصار شديد إلى
الدوافع الحقيقية التى كانت وراء تلك الحملات الصليبية التى شنها الغرب
النصرانى على العالم الإسلامى .
الدافع الدينى :

ليس المقصود بهذا الدافع أبدا هو ذلك الشعور الدينى الصادق
الذى يجعل من دعاة هذه الحملات الصليبية نصارى مخلصين جرفهم
شعور التقوى والورع إلى هجرة الأوطان والأهل فى سبيل تحقيق رسالة
دينية سامية تتلخص فى أنهم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها من أجل غرض واحد
هو خدمة الصليب والاستشهاد فى سبيله .

إنما المقصود بهذا الدافع الدينى هو ذلك الادعاء الدينى الكاذب
الذى حركه رجال الدين جميعا ، سواء أكانوا الباهوات الذين لقبوا
بخلفاء المسيح أو هؤلاء الذين خرجوا مدفوعين للاشتراك فى حرب لقبوها
بحرب الصليب المقدس . فالباهوية بلغت فى القرن الخامس الهجرى -

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ - ص ٢٩ ، ط ٣
(مكتبة الأنجلو المصرية) ١٩٧٨ م .

الحادى عشر الميلادى درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ بحيث فكرت فى أن تجعل نفوذها عالميا من حيث الهيمنة والنفوذ وسط السلطان .

" وأخيرا جاء استنجاد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوروبى ضد السلاجقة فى القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى ليمتج فرصة ذهبية للبابا للظهور فى صورة الزعيم الأوحد للشعوب المسيحية كافة فى صراعه ضد المسلمين" (١) .

هذا عن البابوية ، أما عن جمهرة المسيحيين الذين خرجوا واستجابوا لنداء البابا من أجل محاربة المسلمين فلم يكن الدافع الدينى الصادق هو الهدف الرئيسى للغالبية العظمى من الصليبيين .

وقد اعترف كثير من الغربيين بأن أكثر الذين خرجوا فى الحروب الصليبية قد تركوا بلادهم إما بدافع الفضول ، وإما للخلاص من حياة الفقر التى كانوا يحيونها فى بلادهم ، وإما للتهرب من ديونهم الثقيلة ، وإما للفرار من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، وإما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية ، ومن ثم رغب بعض أمراء أوروبا فى الحصول على أرض جديدة فى الشرق أكثر خصوبة وأحسن استقرارا (٢) .

وهكذا يبدو أنه إذا أردنا أن نقف على الدوافع الحقيقية لتلك الحملات الصليبية ، فعلينا بالبحث فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى غرب أوروبا فى القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى .

(١) المرجع السابق : ج ١ ، ص ٣٣ .

(٢) د . فايد حماد محمد عاشور : جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ،

ص ٨١ (مؤسسة الرسالة - بيروت) ط ١ عام ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

الدافع الاقتصادى :

تشير جميع الوثائق المعاصرة إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى غرب أوروبا فى أواخر القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى . فالمؤرخ المعاصر (جيورج نوجنت) يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعاني من مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى وأن هذه المجاعة جعلت من النادر وجود الغلال وارتفعت أسعارها ارتفاعا فاحشا ما ترتب عليه حدوث أزمة فى الخبز (١) ، وهكذا لم يكن عجبا أن أصبحت الحملة الصليبية الأولى جموعا غفيرة من المعدمين ، والفقراء والساكين وطريدى القانون ، وجميعهم كانوا يفكرون بهوى من بطونهم لا بهوى من دينهم .

هذا من فرنسا ، وما سادها آنذاك من وضع اقتصادى غاية فى السوء . أما عن إيطاليا فكانت مشاركة الصليبيين فيها بدافع من مصالحهم التجارية فى نقل المؤن والأسلحة وكافة الإمدادات إلى الصليبيين بالشام نظرا لطبيعة إيطاليا التجارية وأسطولها البحرى الكبير وطيه فليس غريبا أن تصطبغ الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة اقتصادية مادية — استغلالية واضحة .

الدافع السياسى :

ظهر واضحا أن الدافع الاقتصادى كان ضمن الدوافع التى أسهمت فى مشاركة الغالبية العظمى من نصارى الغرب فى الحروب الصليبية . وإذا كان ذلك شأن الغالبية العظمى منهم فما بال أولئك الذين خرجوا من ملوك أوروبا وأمرائها وفرسانها للمشاركة فى تلك الحروب ؟ . أما عن الملوك فقد شاركوا فى الحروب الصليبية لأنهم كما يقول التاريخ لم يخرجوا من بلادهم لحرب المسلمين إلا تحت ضغط البابوية

(١) د . سعيد عبدالفتاح حاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، ص ٣٤ .

والحاحها ، بل وتهديدها في كثير من الأحيان . ومن أبرز الأمثلة على ذلك هو ما حدث للإمبراطور " فردريك الثاني " الذي أخذ البابوات واحدا بعد آخر يلحون عليه في الخروج على رأس حملة صليبية الى الشرق ضد المسلمين ، لكن الإمبراطور أخذ يحاطل مرة بعد أخرى لأنه لا يرى دافعا يدفعه إلى القيام بمثل ذلك ، وهنا أخذت البابوية تتوعد وتهدد حتى أصدرت ضده قرار الحرمان والطرده (١) .

وعندئذ لم يجد الإمبراطور بداً من الخروج وهو مكروه على رأس فئة قليلة من رجاله قاصدا الشام .

وأما عن الأمراء الذين أسهموا في الحروب الصليبية فقد خرجوا جريا وراء أطماعهم السياسية التي لم يتمكنوا من تحقيقها في بلادهم . ذلك لأن الوضع السياسي المرموق لم يكن يتأتى إلا بالقدر الذي كان يملكه الأمير من الأرض .

ويرجع ذلك إلى أن الإقطاع بأكمله لم يكن ينتقل بعد موت صاحبه إلا إلى أكبر الأبناء ، مما يحرم باقي الأبناء من الارث .

وكانت أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام هؤلاء الأمراء المحرومين من الأرض ، ومن الجاء والسلطان .

وهذا يفسر لنا الكثير من الخلافات والحروب التي كثيرا ما كانت تقع بين الأمراء على السلطة والمراكز الهامة أثناء الحملات الصليبية .

(١) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٩٥٧ .

الحملة الصليبية التي تنالت على العالم الإسلامي

الحملة الصليبية الأولى :

وصلت حملة صليبية على رأسها "بطرس الناسك" إلى مدينة "نيقية" سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م وكانت تحت حكم ملج أرسلان الذي استطاع أن ينزل بهذه الحملة هزيمة فادحة إذ لم ينج من الصليبيين سوى ثلاثة آلاف من خمسة وعشرين ألف مقاتل (١). وما أن علمت أوروبا بذلك حتى أرسلت ثلاثة جيوش قوية تمكنت من الاستيلاء على مدينة "قونية" عام ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م بعد أن دافع المسلمون عنها دفاعاً مستميتاً ، ولقد أغرت هذه الانتصارات جموع الصليبيين ، فتوجه جزء منها إلى شطوط الفرات واستولى على "الرها" وأقام بها أول إمارة صليبية سنة ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م.

أما الجزء الآخر فقد اخترق سوريا واستولى على كثير من المدن صلحاً ، حتى وصل إلى أنطاكية عام (٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م) ثم استولى عليها بعد جهد جهيد ، وأقام بها الإمارة الثانية .

ولما تم النصر للصليبيين ساروا قاصدين بيت المقدس مارين بحماسة وحماس وغيرها ، وكان أهالي هذه المدن يقابلونهم بالترحاب خوفاً من شرهم وغدرهم. ثم تغابلت بعد ذلك جيوش الصليبيين وساروا إلى فلسطين مارين بعكس ، واتجهوا إلى بيت المقدس وحاصروه ثم استولوا عليه بعد حصار دام "ثلاثة" وأربعين يوماً (٢) ، وكان ذلك في شعبان ٤٩٢ هـ - ١٥ يوليو ١٠٩٩ م ، وأقاموا مملكة صليبية بالقدس .

وقد أقترف الصليبيون أبشع الجرائم في بيت المقدس ، حيث قتلوا آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب ، ذلك أن الصليبيين لم يتركوا مسلماً في

(١) المرجع السابق : ج ١ ، ص ١٣٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - المجلد الثامن - حوادث ٤٩٢ هـ -

ص ١٨٩ (دار الفكر - بيروت) ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

الطرق أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه واستباحوا دمه ، ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتسب به من الساميين وعددهم أكثر من سبعين ألفاً منهم جماعة من أئمة المسلمين ومجاهداهم وزهادهم ومن فارقوا الأوطان وجاوروا ذلك الموضع الشريف (١) .

ولم ينكر المؤرخون الصليبيون أنفسهم هذه المذبحة الرهيبة ، فقد ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الأحداث أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون ، لم يستطيع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه (٢) .

وقصاصاً من هذه المذبحة الرهيبة لم يهدأ للمسلمين بال ، ولم ترقأ لهم عين ، فبدأوا الجهاد من ساعتهم . وهذا ما يدحض ادعاءات بعض الكتاب الغربيين التي تقول بأن المسلمين لم يحققوا انتصاراتهم على الصليبيين إلا بعد أن انشق الصليبيون على أنفسهم ، ودب فيهم الوهن والترهل .

وهذا الادعاء مردود على مدعيه بدليل أن المسلمين هم الذين اكتشفوا طريق النصر وسلكوه منذ الوهلة الأولى فتحقق لهم النصر في الوقت الذي كان فيه الصليبيون في أوج قوتهم ونشوتهم باستيلائهم على بيت المقدس عام ١٠٩٢ هـ - ١٠٩٩ م .

- ففي عام ١٠٩٤ هـ - ١١٠٠ م أي بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بحامين استطاع المسلمون الأتراك أن ينصبوا كميناً "لجوهيمند" أمير أنطاكية وأن يوقعوه في الأسر ، ولم يستطع "بارون" بقواته أن يفك من أسره الذي أوقعه فيه الملك غازي كمشكين ، ولم تهدأ حروب الملك غازي ضد الصليبيين حتى استطاع أن يحتل "ملطية" وأن بأسر صاحبها سنة ١٠٩٤ هـ - ١١٠١ م .

- وفي عام ١٠٩٥ هـ - ١١٠٢ م جهز الوزير الأفضل جيشاً قوامه العرب ، والسودان بقيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل ، واتجهت الحملة إلى "مصدقان" وتمركزت فيها ، ثم اتجهت إلى مهاجمة "اللد" "الرملة" "بازدر" ، لتهديد "بافا" بيت المقدس كذلك .

(١) المصدر السابق : المجلد الثامن - حوادث ١٠٩٢ هـ ، ص ١٨٩ .

(٢) د . سعيد محمد الفتاح طاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٣٨ نقلاً عن :

(ريموند د. وأجيليه) .

وخرج إليهم "بلدوين الأول" واستطاعت جيوش الفاطميين أن تهزم "بلدوين" وتقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم ذهبت جيوش المسلمين إلى الرملة وفرض "بلدوين" واستعاد المسلمون الرملة من الصليبيين بعد أن قتلوا منهم مئات وأسروا مئات .

- وفي عام ٤٩٨ هـ - ١١٠٥ م جهز الوزير الأفضل جيشا كبيرا جمـعـل قيادته لابنه سناء الملك بعد أن أعد الأفضل أسطولا بحريا لمساندة الجيش من البحر .

ومع أن هذا الجيش لم ينتصر على الصليبيين إلا أنه أستطاع أن يقـصـض مضاجعهم ويشعرهم بعدم الاستقرار في بلاد المسلمين .

- وفي عام ٤٩٩ هـ - ١١٠٥ م أغار "طفتكين" أمير دمشق على الجليل وأصابته جهوشه قائدها "هيو" بجرح خطر أودى بحياته .

- وفي عام ٥٠٤ هـ - ١١١٠ م استطاع الفاطميون أن يعملوا إلى أسوار بيت المقدس ذاتها (١) .

- وفي عام ٥٠٦ هـ - ١١١٣ م شن مودود أمير الموصل هجوما على الصليبيين في "طبرية" قتلوا فيه وغنوا كثيرا منهم .

- وفي عام ٥١٣ هـ - ١١١٩ م قاد أياغازي جيشا إسلاميا واتجه نحو الصليبيين لانقاذ حلب من الأمير الصليبي "روجر" الأنطاكي .

ودارت بين الجيشين معركة انتهت بتدمير الجيش الصليبي كله ، وقتل "روجر" في المعركة .

- وفي عام ٥١٨ هـ - ١١٢٣ م استطاع بلك الأرتقي أن يأسر "بلدوين الثاني" عند أورشليم وقد كان "بلدوين" في طريقه لفاك أسر "جوسلين" أمير الرها فذهب إليه أسيرا وظل بلك قابضا على ملكي الرها وبيت المقدس .

(١) المرجع السابق: ج ١ ص ٢٩٧ نقلا عن : (رنسيان) .

- وفي عام ٥٢٩ هـ - ١١٣٥ م بدأ زنكى يوجه هجماته ضد الصليبيين ويستولى على كثير من البلاد التي استولى عليها الصليبيون ويعيد إليها أهلها .

- وفي عام ٥٣٠ هـ - ١١٣٦ م أغار نائب زنكى "سوار" على الصليبيين فسمى إمارة أنطاكية حتى وصل إلى اللاذقية .

وتقول المراجع إنه أغار على مائة قرية صليبية وعاد معه "مايزيد" على سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وحصان ومقر وغنم، وأما ما سوى ذلك من الأقمشة والعين والحاى فيخراش عن الحد" (١) .

- وفي عام ٥٣١ هـ - ١١٣٧ م أغار المسلمون بقيادة "تراوش" قائد العسكر فى دمشق على إمارة طرابلس فقتلوا أميرها "بونز" وأسروا عددا كبيرا من أتباعه فضلا عن الغنائم الوفيرة التي حصل عليها المسلمون (٢) .

- وفي عام ٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م حاصر عماد الدين زنكى الرها وأستطاع أن يستعيد لها من الصليبيين ، وقد لقي المسيحيون من حسن المعاملة الإسلامية ما أشعرهم بسماحة الإسلام وعدالة زنكى .

- وفي عام ٥٤٢ هـ - ١١٤٦ م استطاع نور الدين محمود أن يستعيد الرها بعد أن استولى عليها الصليبيون عقب موت عماد الدين زنكى .

ولقد حاصرها نور الدين محمود حصارا مريرا ودارت المعارك بين الطرفين فقتل عدد كثير من الصليبيين ، وكان من بين القتلى "بلدوين" نفسه . ومن هنا لم يستطيع الصليبيون الصبر طويلا على هذه الهزائم المتكررة فأرسلوا فى طلب النجدة وكانت الحملة الصليبية الثانية .

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، المجلد الثامن - حوادث ٥٣٠ هـ -

ص ٣٥٣ .

(٢) البصدر السابق: المجلد الثامن ، حوادث سنة ٥٣١ هـ ، ص ٣٥٧ .

الحملة الصليبية الثانية :

بدأت هذه الحملة عام ٥٤٣ هـ - ١١٤٧ م بقيادة أكبر دولتين في أوروبا آنذاك وهما فرنسا وألمانيا . وكان على رأس الحملة ماك الدواشين "لويس السابع" ملك فرنسا ، و"كتراد الثالث" ملك ألمانيا .

وكان للحملة هدفان :

الأول : الوقوف في وجه نور الدين محمود واسترداد مدينة "الرها" منه .

الثاني : تأمين الإمارات الصليبية التي تأسست في الشام كله .

لكن الحملة انصرفت عن هدفها السابقين إلى مهاجمة دمشق وإقامة إمارة صليبية جديدة ، بيد أن الصليبيين ارتدوا عنها مدحورين .

لذلك أطلق المؤرخون على هذه الحملة لقب الفشل والخيبة .

ولقد أدى فشل هذه الحملة إلى زعزعة الثقة في الصليبيين ، وضرب هيبتهم ، بينما ازداد المسلمون ثقة بأنفسهم وارتفعت روحهم المعنوية ، وأغراهم النصر بمزيد من النصر ، وازداد إيمانهم بأن وحدة المسلمين هي الطريق الوحيد الذي سوف يؤدي بهم إلى بيت المقدس ، ثم طرد الصليبيين من بلاد المسلمين كافة .

ولقد أكد بعض المؤرخين أن فشل هذه الحملة كان النقطة التي تحول عندها نصر الصليبيين إلى بداية الهزيمة والزوال عن العالم الإسلامي كله .

- ففي عام ٥٤٤ هـ - ١١٤٨ م سار نور الدين إلى حصن "حارم" وهو الإفرنج فخر به ونهب سواده ، ثم سار إلى حصن "آنب" وقاتل الصليبيين قتالا شديدا وهزمهم وقتل منهم خلقا كثيرا منهم "رايموند" صاحب أنطاكية .

" ووقعة آنب" هذه كانت عظيمة وقد أكثر الشعراء القول فيها " (١) .

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدواشين ج ١ ص ٥٨ (دار الجيل - بيروت) بدون تاريخ .

- وفي عام ٥٤٦هـ - ١١٥٠م وقع "جوسلين الثاني" أسيرا في قبضة المسلمين وسلموه لنور الدين وظال معتقلا تسع سنوات، وقد فرح المسلمون بأسره فرحا عظيما لأنه سبب لهم متاعب كثيرة، وكان صعب المراسر كثير الغدر والخيانة شديد الوطأة على الساميين. وقد تغنى الشعراء بأسر "جوسلين" كثيرا ونظموا في ذلك القمائد الطوال (١).

- وفي عام ٥٥٠هـ - ١١٥٥م استطاع نور الدين أن يضم إلى أملاكه دمشق، وبذلك اتحدت الشام كلها تحت ملك نور الدين.

وامتد بصر نور الدين إلى تنسيق العمل مع مصر حتى يكون جبهة قوية ومتحدة ضد الصليبيين.

- وفي عام ٥٥١هـ - ١١٥٦م حاصر نور الدين قلعة "حارم" وهي من أمتع قلاع الصليبيين واستولى عليها لكنه تخلى عنها بعد ذلك.

- وفي عام ٥٥٢هـ - ١١٥٧م دارت معارك حامية بين الساميين وأعدائهم كان النصر فيها حليف المسلمين.

- وفي عام ٥٥٣هـ - ١١٥٨م أرسل الملك الصالح طلائع بن رزيك إلى فلسطين حملة عسكرية في البر وأخرى في البحر، وخرج إليهم الصليبيون بقيادة "أموري" صاحب عسقلان، وقد استطاع المصريون أن يوقعوا بالصليبيين عند غزة هزيمة ساحقة، وأن يأسروا من الغنائم والجنود وأدوات القتال ما لا يحصى. ورجع الجيش المصري ظافرا منصورا (٢).

- وفي عام ٥٥٨هـ - ١١٦٣م أجبر نور الدين "عموري الأول" ملك بيت المقدس على الانصراف عن مصر، وذلك بأن قام بعدد من الهجمات وفهاجم "حارم" وهاجم إمارة طرابلس، ولكي يفوت على الصليبيين أطاعهم في مصر قوام

(١) محمد سيد كيلاني: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ص ١٨ (مطبعة دار الكتاب العربي - مصر) ١٩٤٩ م.

(٢) المرجع السابق: ص ١٩.

بإرسال حملة بقيادة أسد الدين شيركوه الذى اصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي لنجدة شاور الذى استقرت له الأمور بعد ذلك . لكنه غدر بوهوده لنور الدين وطالب شيركوه بالخروج من مصر واستنجد بالصليبيين لتحقيق ذلك الهدف .

- وفى عام ٥٥٩ هـ - ١١٦٤ م وأثناء انشغال عموري الأول بمهاجمة مصر قام نور الدين بمهاجمة " أنطاكية " و " حصن حارم " ، ودارت بينه وبين الصليبيين معركة حامية فى " أرتاح " هزم فيها الصليبيين هزيمة منكرة وأسر جميع أمرائهم الذين اشتركوا فى المعركة : " بوهيمند الثالث " ، " أمير أنطاكية " ، ريموند الثالث " أمير طرابلس " ، جوسلين الثالث " ، " وهيو الثامن " ، وحاكم قليقية ، ثم استولى على " حارم " وعلى " بانياس " فى هذه السنة .

- وفى عام ٥٦٥ هـ - ١١٧٠ م واجه صلاح الدين حملة عابية فى مصر تحالف الصليبيون مع البيزنطيين وهاجموا " دمياط " فأرسل إليها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشد فيها كل من عنده ، وأمدهم بالطال والسلاح والذخائر وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج " (١) .

وأخيرا استطاع صلاح الدين بخبرته ومعونة نور الدين له ، وما قام به نور الدين من هجوم على الصليبيين فى الشام أن يوقع الهزيمة بالصليبيين ويجبرهم على أن يعودوا بالخرى والغسل من حيث أتوا ، وذلك عزز مكانة صلاح الدين فى مصر .

- وفى عام ٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م سار صلاح الدين إلى دمشق لتوحيد صفوف المسلمين بعد أن استنجد به المسلمون فى دمشق ووعدوه بتسليمها له . وبذلك استطاع صلاح الدين أن يوحد بين مصر والشام ليكتب الله له النصر على أعداء الإسلام والمسلمين .

(١) أبو شامة : الروشتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ - حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

- وفي عام ٥٧٥ هـ - ١١٧٩ م أصبحت جيوش المسلمين خطرا على الصليبيين
بهدد كيانهم ووجودهم في بلاد المسلمين .

الأمر الذي جعل " بلدوين " يخرج لمانزلة صلاح الدين والاصطدام به
دفعاً للخطر المتوقع منه قبل وقوعه .

والتقى الجيشان عند " تل القاضي " في سهل " مرج عيون " . فكان النصر
حليف صلاح الدين حيث قتل من الصليبيين الكثير وأسر الكثير ، ولم ينج — من
الموت أو الأسر سوى " بلدوين " نفسه .

بعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى الحصن الضخم الذي أقامه الصليبيون
والذي كان يعرف " بـ حصن الأحزان " وتمكن من تسويته بالأرض ، وأقام السلطان
في منزلته حتى هدوا الحصن إلى الأساس ، وطم جب ماء معين كانوا حفروه في
وسطه ورى فيه القتلى ، وكان عند السلطان رسول القمص معافى وهو يشاهد
بلمية أهل ملقة . (١)

- وفي عام ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م أهد صلاح الدين جيشا كثيفا واتجه به إلى
الأردن لتأديب " أرناط " الذي حدثته نفسه باحتلال المدينة المنورة واعتدى
على قافلة للحجاج المسلمين ، واستولى على أموالها وأسر بعض رجالها . بعد
أن نقل الصليبيون نشاطهم الهدام إلى الشاطئ المقابل للبحر الأحمر —
أي شاطئ الحجاز —

فعظم البلاء وأفضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر
عظيم .

- وفي عام ٥٧٩ هـ - ١١٨٣ م تحركت جيوش صلاح الدين من دمشق فعبرت
نهر الأردن ثم زحفت على " بهسان " واستولت عليها في سهوة ، ثم عسكر صلاح —
الدين عند " عين جالوت " .

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ١١ حوادث سنة ٥٧٥ هـ .

- وفي عام ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م أخذ صلاح الدين من دمشق يجمع جيوشه من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر استعدادا لخوض المعركة الفاصلة بينه وبين الصليبيين ، ففي نفس العام اتجه صلاح الدين إلى مهاجمة "أرناط" فسار إلى الكرك والشوبك حيث حاصر "أرناط" حصارا شديدا .

وحدث اشتباك بين المسلمين والصليبيين قرب "مغورية" انتصر فيها المسلمون ، ثم أسرع صلاح الدين متجها إلى طبرية حيث استولى عليهم دون قلعته ، وبعد ذلك عسكر صلاح الدين عند قرية حطين الوفيرة الماء والمراعى .

وهنا حرك الصليبيون جيوشهم ، واتجهوا إلى قرب حطين في هضبة تسمى "قرون حطين" وهم في أشد حالات العطش والإرهاق . هذا بالإضافة إلى أن المسلمين أشعوا النار في الأعشاب والأشواك التي تكسو الهضبة .

" وكانت الريح على الفرنج فحطت حر النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال . . . " (١)

والتقى الجيشان ، وما هي إلا كرة حتى استطاع المسلمون أن يأسروهم ومنهم الملك وأخوه "أرناط" صاحب الكرك .

" وكثر القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا ، وما أعيتت الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بشئ هذه الواقعة " (٢)

وبرّ صلاح الدين بقسمه ، فقتل "أرناط" بعد أن رفض الإسلام ديناً له وقد قتله بيده جزاء تهجمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وجراته على التفكير في مهاجمة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة . وتمكن المسلمون من الاستيلاء على "صليب الصليبوت" .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ص ١٧٨ حوادث ٥٨٣ هـ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٧٨ ، حوادث ٥٨٣ هـ .

• "والم يؤسر الملك حتى أخذ "صليب الصليبوت"، وأهلك دونه أهل الطاعوت وهو الذي إذا نصب وأقيم ورفع وسجد له كل نصراني وركع • وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، فهو معبودهم ومسجودهم" (١)

وهكذا كانت حطين من أعظم انتصارات صلاح الدين والمسلمين، وكانت النهاية الحقيقية للوجود الصليبي في بلاد المسلمين •

الحملة الصليبية الثالثة :

استطاع صلاح الدين أن يحقق ملام عظيما في السنوات القليلة الواقعة بين ٥٨٣هـ - ٥٨٦هـ - ١١٨٧م - ١١٩٠م •

ففي مستهل ٥٨٦هـ - ١١٩٠م لم يبق للصليبيين من مملكة بيت المقدس إلا مدينة "صور"، ومن إمارة طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة "أنطارطوس"، وحصن الأكراد وحصن المراكز الأخرى الثانوية • ومن إمارة أنطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب (٢) •

• وهكذا بدا البنيان الصليبي الكبير وكأنه أقيم على شفا جرف هارء فانهار به فجأة قبل أن ينقضى على إقامته قرن واحد من الزمان (٣) •

لذلك كتب البابا "جريجورى الثامن" كتابا إلى ماوك انجلترا وفرنسا وألمانيا يحثهم على حرب المسلمين • وكان من أبرز أهداف هذه الحملة احتلال القدس من جديد • وقد اشترك في هذه الحملة كل من الإمبراطور "فردريك الأول" الألماني، و"فيليب أغسطس" الفرنسي، و"ريتشارد - قلب الأسد" الإنجليزي •

(١) العباد الأعفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ٨٤ - تحقيق : محمد محمود صبح (الدار القومية) بدون تاريخ •

(٢) د • سعيد عبد الفتاح طاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٨٠٥ نقلا عن "جروسيه" •

(٣) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٥٠٨ •

وإذا كان البابا " جريجورى الثامن " قد توفى فى ديسمبر عام ١١٨٧ م دون أن يرى ثمار دعوته ، فإن خليفته " كايمنت الثالث " أسرع إلى الاتصال بهؤلاء الملوك والأباطرة من أجل القيام بهذه الحملة الصليبية الثالثة .

وفى صيف سنة ٥٨٦هـ - ١١٩٠م أبحر ملكا فرنسا وإنجلترا على رأس جيوشهما الصليبية ليقتضى كل منهما فصل الشتاء فى جزيرة صقلية ، وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يمكن لنفسه فى البلاد التى انتزعها من الصليبيين بالشام (١) .

أما امبراطور ألمانيا " فردريك بربروسا " فكان أسرع إلى العمل على الرغم من كبر سنه ، فتحرك سنة ٥٨٥هـ - ١١٨٩م على رأس جيش منظم كبير قدره بعض المؤرخين بمائة ألف محارب ، سالك الطريق البرى إلى القسطنطينية عبر هنجاريا (٢) وقد استطاعت الحملة الألمانية الوصول إلى " بلاد ابن لاون " - أى أرمينيا الصغرى - رغم ما تعرض له الألمان من معاصب عديدة .

وكان أن رحب " ليو الثانى " أمير أرمينيا بالألمان وقدم لهم كل ما احتاجوا إليه من مساعدات .

وام يلمت أن أدى اقتراب ذلك الجيش الصليبي الكبير - تحت قيادة امبراطور الغرب - من الشام إلى إثارة جو من الرعب والفرع فى البلدان الإسلامية فبادر صلاح الدين بإعلان الدعوة للجهاد ، وطلب المعونة من أمراء المسلمين ، كما أرسل القاضى بهاء الدين ابن شداد إلى بغداد لطلب المعونة من الخليفة الناصر لدين الله العباسى (٣) .

على أنه لم يلمت أن حدث حادث مفاجئ قلب الموقف رأسا على عقب ورفع عن صلاح الدين كابوس الخطر . ذلك أن " فردريك بربروسا " فرق فجأة

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٨١٢ نقلا عن : " رنسان " .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٨١٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ص ١٥١ .

أثناء عبوره نهرا صغيرا فى " قيايقيه " وعليه فقد أفلت زمام الجيش الألماني بموت قائده ، واختل نظامه .

لذلك لم يعد هناك خطر من أن تقع بلاد الشام الإسلامية بين فكى الكماشة نتيجة لضغط الصليبيين الألمان من ناحية الشمال والصليبيين الفرنسيين والانجليز من ناحية هنا .

وبالرغم من تمزق الجيش الألماني بعد موت قائده " فردريك " إلا أن ابنه الذى تولى قيادة الجيش بعده استطاع أن يتجه بجنوده إلى هنا فحاصرها مشاركا بذلك بقية طوائف الصليبيين فى حصارها (١) .

وكان على رأس هذه الطوائف " جاى لوزجنان " ملك بيت المقدس الذى أسره صلاح الدين فى حطين ، ثم وعد بإطلاق سراحه ، وكان أن أفرج عنه فعلا بعد أن تعهد " لوزجنان " ألا يشهر فى وجهه سيفا أبدا ويكون غلامه ومملوكه طليقا أبدا .

وكان اوصول " فيليب أوغسطس " ملك فرنسا إلى هنا أثر كبير فى نفوس الصليبيين الذين اهتمجوا لوصول هذا الجيش ، وأظهروا الفرح والسرور خاصة وأن وصول " فيليب أوغسطس " إلى الشام جاء فى الوقت الذى شهد ازدياد سوء موقف المسلمين أمام هنا وداخلها (٢) .

ولقد توحدت صفوف الصليبيين أمام هنا رغم الحزازات والخفائن القديمة بين ملكى فرنسا وانجلترا ، وبذلك استطاع الصليبيون الاستيلاء على هنا عام ٥٨٧هـ - ١١٩١م بعد أن استعصت عليهم زهاء عامين .

عاد بعد ذلك ملك فرنسا إلى بلاد ، فتولى زمامة الصليبيين ملك انجلترا " ريتشارد قلب الأسد " .

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ١٥٦ .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٨٣١ .

واستطاع "ريتشارد" أن يستولى على "حيفا" و"أرسوف" بعد معركة حامية مع المسلمين بقيادة صلاح الدين في "أرسوف".

وطمع "ريتشارد" بعد هذا النصر فزحف على بيت المقدس ، وعلّم بأن صلاح الدين قد أحكم مداخل بيت المقدس ، فيشر من الاستيلاء عليها . وكانت ظروف إنجلترا قد اضطربت ، ووصلته أخبار سيئة تؤكد ثورة أخيه "حنا" ضده ، مما تطلب منه سرعة العودة إلى بلاده (١) . خاصة بعد أن تهدد أمل "ريتشارد" في الاستيلاء على بيت المقدس ، في نفس الوقت الذي داهمه المرض ، الأمر الذي اضطره إلى عقد صلح الرملة عام ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م ، وكان يوم الصلح يوما مشهودا .

وفي عام ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م توفي صلاح الدين ، فحزن المسلمون لموته حزنا شديدا ، وهكاه الشعراء والكتاب والمؤرخون . فقد توفي في يوم صيب لم يحب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما يعلمه إلا الله تعالى .

حتى المؤرخون الأوروبيون أفرطوا في الترحم على صلاح الدين والإشادة بقوته وعدله وتسامحه ، واعترفوا أنه أعظم شخصية شهد لها عصر الحروب الصليبية قاطبة (٢) .

الحملة الصليبية الرابعة :

تعتبر هذه الحملة في نظر كثير من المؤرخين نتيجة مباشرة لوفاة صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م ، ولقد تولى منصب البابوية سنة ٥٩٤ - ١١٩٨ م رجل من أخطر الشخصيات التي وليت هذا المنصب في العصور الوسطى ، هو البابا "أنوسنت الثالث" الذي وضع لنفسه وللكنيسة وللبابوية برنامجا ضخما ،

(١) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٨٥٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٨٧٤ - نقلا عن "رنسيان" .

على رأسه مشروع محو آثار حروب صلاح الدين في الشرق ، واغتصاب بيوت المقدس مرة أخرى من الساميين (١) .

وام يكد يمر على تولية " أنوسنت الثالث " مهام منصبه أشهر قليلة حتى دعا للحملة الصليبية الرابعة .

وسرعان ما أخذت الاستعدادات للحملة الصليبية الرابعة تسير سيرا سريعا بفضل جهود جماعة من المتحمسين والدعاة ، لم يقلوا في حماستهم من دعاة الحملة الصليبية الأولى (٢) .

وكانت الخطوة الأولى أمام الصليبيين هي تحديد وجهة الحملة ، وقد ظهر رأيان حول هذا الموضوع :

الرأى الأول : كان لصغار النبلاء وعامة الفرسان الذين رأوا أن تكون وجهتهم بلاد الشام ليشقوا طريقهم مباشرة إلى بيت المقدس .

الرأى الثانى : وكان لكبار الأمراء والقادة الذين رأوا أن تكون وجهتهم مصر أولا ثم الشام بعد ذلك ، لأن مصر هي مركز المقاومة الحقيقي ضد الصليبيين بالشام ، والمخزن الكبير الذى استمد منه الأيوون مواردهم البشرية والمالية في محاربة الصليبيين (٣) .

ولقد كانت الغلبة في ذلك لأصحاب الرأى الثانى ، وبذلك كانت مصر مقصد الحملة الصليبية الرابعة .

احتشد الصليبيون في البندقية في صيق ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م ، وبينما يستعد الصليبيون للاتجاه نحو مصر ، إذا بثورة تنشب في القسطنطينية تطيح بالامبراطور " اسحق الثانى " ، فيفر ابنه " انكسيوس " إلى الغرب طالبا المساعدة من

(١) د . سعيد عبدالفتاح حاشور : أوروبا في العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ، (مكتبة الأنجلو المصرية) ١٩٧٨ م .

(٢) د . سعيد عبدالفتاح حاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٩١ . نقلنا عن : " مهنود " .

(٣) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٨٩٣ . نقلنا عن : " جروسيه " .

"البابا" ، ومن الصليبيين عارضا في مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ،
ومساعدة الصليبيين ضد مصر .

وهكذا انخرقت الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الأساسى ورسالتها
الدينية ، فاتجهت ضد القسطنطينية ، واستولى عليها الصليبيون عام ١٢٠٤ هـ /
١٢٠٤ م ، وعندئذ نسى الصليبيون أنهم فتحوا بلدا مسيحيا ، وأنهم اقتحموا
أكبر مركز ظل يحمل لواء المسيحية فى الشرق طوال تسعة قرون ، فانساحوا
فى طرقات المدينة وشوارعها كالجراد المنتشر ، يقتلون من صادفهم من الرجال
والنساء والأطفال ، بحيث لم يقع بصرهم على تحفة أو ثروة إلا نهبوها ولم
يتركوا أثرا فنيا أو أدبيا إلا أفسدوه ودبروه (١) .

ولا هم الصليبيون الذين حملوا شارة الصليب لخدمة المسيحية ومعاربة
المسلمين ، وقد تمنى شاهد عيان اسمه " نكتار خونياتر " أن لو كانت
العاصمة البيزنطية سقطت فى يد المسلمين بدلا من سقوطها فى أيدي الصليبيين
وذكر أن المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس لم يفعلوا بالمسيحيين والبيوت
المسيحية مثلما فعله الصليبيون بأهل القسطنطينية وكنائسها (٢) .

وإذا كان هذا هو شأن الصليبيين مع الكنائس ، فإنه لم يكن غريبا أن
يحرقوا الجامع الذى كان للمسلمين فى القسطنطينية ، وهو الجامع القديم الذى
بنى فى عصر بنى أمية والذى سمح الامبراطور البيزنطى بإقامة الخطبة فيه عام
٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م عندما تحسنت العلاقة بينه وبين صلاح الدين .

وعلامة القول أن الحملة الصليبية الرابعة قد ارتكبت جرما بالغا لا يغفره
التاريخ - فى حق الحضارة الأوروبية وفى حق الفكرة الصليبية ذاتها ، وأن -
ما ارتكبه رجال الحملة الصليبية الرابعة من حماقات لمثبت أن البيزنطيين كانوا

(١) د . سعيد عبدالفتاح طاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ . ص ٨٩٦ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٨٩٧ . نقل عن : " فاسيليف " .

على حق عندما نظروا منذ أول الأمر إلى الحروب الصليبية على أنها غزوات
بربرية همجية (١) .

ويلاحظ بعض المؤرخين أن الحماسة الصليبية قد فترت بعد الحملة
الصليبية الرابعة وأنها زادت من البغضاء والعداء بين الكنيستين الشرقية
والغربية ، وحرمت الصليبيين بالشام من مساعدة إخوانهم المسيحيين في
القسطنطينية وقت الشدة ، وجعلت الطريق البري إلى الشام أصعب منالاً
وأشد خطورة على الصليبيين من ذي قبل .

وهكذا أدت الحملة الصليبية الرابعة - بطريق مباشر أو غير مباشر -
إلى إضعاف مركز الصليبيين بالشام ، وخراب ديارهم وإفقار بلادهم من المقاتلين
وهي الحملة التي من المفروض فيها أن تنجد الصليبيين بالشام .
لذلك لا عجب إذا قرر أحد مؤرخي الحروب الصليبية " أن الحملة
الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها " (٢) .

الحملة الصليبية الخامسة :

لم تستقر الأمور بين المسلمين والصليبيين بعد فشل " الحملة الصليبية
الرابعة " ، ذلك لأن الصليبيين أسرعوا إلى نقض مهادنتهم مع المسلمين حينما
آنسوا في أنفسهم القدرة على شن حملة صليبية جديدة على العالم الإسلامي ،
وتلك كانت طبيعتهم . ففي سنة ٦٠٤ هـ - ١٢٠٧ م " كثر الفرنج الذين
بطرابلس ، وحصن الأكسراد ، وأكثروا الإغارة على بلدة حمص وولاياتها
ونازلوا مدينة حمص ، وكان جمعهم كثيراً " (٣) . وفي هذه السنة أيضاً أخذ
أهل قبرص الفرنج عدة قطع من أسطول مصر ، وأسروا من فيها ، فأرسل
العادل إلى صاحب عكا في رد ما أخذوا (٤) .

(١) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٩٠٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٩٠١ . نقلاً عن " جروسيه " .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٩٦ .

(٤) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ٢٩٧ .

ولقد تم للسلطان العادل الأيوبي ما أراد .

وكان من نتيجة تلك الحروب التي خاضها العادل مع الصليبيين ونال فيها منهم أن أسرع "بوهيمند الرابع" صاحب طرابلس إلى طلب الصلح فأجابه العادل " ، ذلك .

كما طلب الملك " حنا دى برين " عقد معاهدة صلح مع العادل مدتها ست سنوات ، غير أن " حنا دى برين " أخذ يدبر مع الصليبيين حملة لغزو مصر عقب انتهاء الهدنة مباشرة .

وما أن انتهت الهدنة حتى كانت دعوته قد أشرفت ، وبدأت الحملة الصليبية تشق طريقا نحو الشرق .

كما دعا البابا "أنوسنت الثالث" لحملة صليبية جديدة سنة ١٢١٣ م ، وأعلن أن هذه الحملة يجب أن تتجه نحو الشام مباشرة .

وصلت الحملة الصليبية إلى الشام سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٧ م بقيادة "ليوبولد السادس" ملك النمسا ، و "أندريه الثانى" ملك هنغاريا ، ثم لحق بهما "بهايمو" ملك قبرص واجتمعوا بعكا من ساحل الشام ، وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر ، فسار منها إلى الشام ، ووصل إلى "الرملة" ومنها إلى "اللد" للوقوف فى وجه الصليبيين (١) .

ولم يلبث الفرنج أن قصدوا "قلعة الطور" وكادوا يملكونها ، إلا أن صمود المدافعين عنها حال دون ذلك .

وبعد أن انتهى الصليبيون من حصار "قلعة الطور" اتجهوا قاصدين غزو مصر ، فساروا فى البحر إلى "دمياط" حتى نزلوا على الساحل بالقرب منها ، وبينما الحرب دائرة بين المدافعين عن "دمياط" والصليبيين إذ توفي السلطان العادل الأيوبي فى جمادى الآخرة من سنة ٦١٥ هـ - ١٢١٨ م فضعفت نفوس الناس بموته .

(١) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ٢١٤ .

وقد خلفه ابنه البكر الملك الكامل فى حكم مصر ، وابنه الملك المعظم فى حكم دمشق ، وكان على الكامل مهمة طرد الصليبيين من مصر ، فى حين قام " المعظم " بحراسة جبهة الشام (١) .

وبالرغم من ذلك استطاع الصليبيون أن يحيطوا " دمياط " ، وأن — يقاتلونها برا وبحرا . فدام القتال ، واشتد الأمر على أهلها ، وأخيرا — وبعد حصار دام تسعة أشهر كاملة — لم تستطع " دمياط " الاستمرار فى مقاومة حصار الصليبيين ، فاقتحمها الغزاة فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ .

وبذلك يكون المسلمون قد وقعوا بين نارين : الحملات الصليبية المتعاقبة عليهم من الغرب ، وجموع التتار المتدفقة عليهم من الشرق ، والتي وصلت إلى نواحي العراق وأذربيجان ، وإيران وغيرها (٢) .

وهنا " بذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان ، وطبرية ، وصيدا ، وجبله ، واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط ، فلم يرضوا ، فاضطر المسلمون إلى قتالهم " (٣) .

واستعد الصليبيون للزحف على القاهرة ، فتقدم الجيش الصليبي وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هى : بحيرة المنزلة شرقا ، وفرع دمياط غربا ، والبحر الصغير جنوبا (٤) .

ولم يلبث المسلمون أن قطعوا السدود ، فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت أكثر الأرض المحيطة بهم بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يستطيعون العودة عن طريقه إلى دمياط ، ولكن السلطان الكامل استطاع أن يقطع خطط الرجعة على الصليبيين ، وبذلك تجمد موقفهم ، فلا هم يستطيعون العودة إلى دمياط ، ولا هم يستطيعون القتال فى الوحل بعد أن بلغت المياه ركبهم — وأخيرا لم يبق أمام الصليبيين سوى الصالح بعد أن " طينوا الهلاك " (٥) .

(١) د . سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ — ص ٩٢٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ — ص ٣١٧ .

(٣) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ٣١٨ .

(٤) د . سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ — ص ٩٣٨ .

(٥) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٩٣٩ .

وبذلك اضطر الصليبيون إلى الجلاء دون مقابل ، وكما قال ابن الأثير :
" وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ورد ، إلى أربابهم ،
وأعطى المساكين ظفرا لم يكن في حسابهم ، فإنهم كانت غاية أمانهم — أن
يسلموا البلاد التي أخذت منهم (أى من الصليبيين) بأشام ليعيدوا
دمياط ففرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها " (١) .

الحملة الصليبية السادسة :

كان للارتباط الذى حدث بين أبناء السلطان العادل الثلاثة :
الكامل والمعظم والأشرف ، أثره القوى فى تغلب المسلمين على الحملة
الصليبية الخامسة .

ولكن هذا الارتباط لم يلبث أن انفرط عقده بين الأخوة سنة ٦٢٢ هـ —
١٢٢٣ م نتيجة لأطماع المعظم عيسى وجشعه ، وانتصار بعض الأخوة إلى
الآخر ، مما كان سببا فى وجود خلاف حاد أوشك على التحارب والتقاتل ،
ولقد حدث بعض من هذا فعلا عندما قبض المعظم على أخيه الأشرف فى دمشق
ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته فى الاستيلاء على حمص
وحماه ، ثم فى مهاجمة أخيهما الثالث وهو الكامل فى مصر (٢) .

على أن وجه الخطورة فى هذا النزاع الذى نشب بين أبناء العادل ،
هو أن الفريقين المتنازعين استعانوا بقوى خارجية ، فاستنجد الملك الكامل
بالامبراطور " فردريك الثانى " واستنجد " المعظم " بالسلطان " جلال
الدين منكبرتى " شاه خوارزم ، معاندة لأخيه الكامل ولأخيه الملك
الأشرف (٣) .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٨ .
(٢) د . سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٥٤ .
(٣) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٩٥٦ .

خرج " فردريك الثانى " من بلاده قاعدا الشرق معتمدا على فكرة واحدة ، هى الحصول على بيت المقدس من الملك الكامل مقابل ما يقدمه له من مساعدات ضد أخيه الملك المعظم صاحب دمشق ، ولكن " فردريك " أصيب بخيبة أمل شديدة عندما وصل إلى الشام فوجد أن الموقف تبدل بوفاة المعظم ، واتفاق أخوية الكامل والأشرف على اقتسام بلاده ، بل أن الكامل خرج فعلا من مصر على رأس جيشه واحتل بيت المقدس ونابلس سنة ٦٢٥ هـ - ١٢٢٨ م (١) .

وأصبح الوضع فى منتهى الحرج بين الملك الكامل و " فردريك الثانى " ، فالملك الكامل لم يعد فى حاجة إلى مساعدة " فردريك " بعد الاتفاق الذى تم بين أبناء الملك العادل الأيوبيين ، ولكن العادل سبق له أن اتفق مع " فردريك " على تسليمه بيت المقدس فى مقابل حمايته من الغارات الداخلى الكامن فى الخلاف بينه وبين إخوته ، والخطر الخارجى الكامن فى تربع الخوارزمية بملكه .

وإذا حضر " فردريك " إلى الشرق لكى يدقق بوعده من الكامل ما عجزت عن تحقيقه الحملات الصليبية السابقة وهو استرداد بيت المقدس خاصة وأن " فردريك " خرج من بلاده محروما من الكنيسة مغضوبا عليه من " البابوية " بسبب رفضه الخروج على رأس حملة صليبية تحت رايتها ، وفضل بدلا من ذلك الحضور إلى الشرق بجهود الشخصية ووعد الكامل له .

ولو كان " فردريك " يعلم أن الكامل سينكث بوعده نتيجة للتفسيرات التى حدثت لما خرج أصلا إلى الشرق أو لاستعد استعدادا جديا ، لحرب المسلمين ، وجلب معه جيشا كبيرا للدفاع عن كيان الصليبيين (٢) . من ذلك يتضح لنا مدى الحرج الذى وقع فيه كل من الكامل و " فردريك " على حد سواء ، ووجود الرجلان أنه لابد من حدوث اتفاق بينهما دفعهما لهذا الحرج ووفاء بالوعد المملنة سابقا بين الرجلين .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ٢٧٧ .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٩٦٤ .

وأمام هذا الوضع الخطر لم يجد " فردريك " غير الاستعطاف والتذلل للسلطان .

ولم تلبث تلك الاستعطافات أن آتت أكلها وأفاحت في التأثير على الكامل ، وهو السلطان الذى سبق أن عرض مراراً عليهم أخذ بيت المقدس مقابل الجلاء عن دمياط ، ويبدو واضحاً أن ما قام به " فردريك الثانى " من تحصين يافا ، جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى اتفاق الإمبراطور وبقيّة الجموع الصليبية بالشام للقيام بعمل حربيّ ضده ، وهو الشعور الذى فسره " المقرئى " بقوله إن الكامل " خاف من غائلته عجزاً عن مقاومته " (١) .

لهذه الأسباب مجتمعة استطاع الطرفان أن يبرما بينهما اتفاقية للصالح مدتها عشر سنوات . وتقضى بتسليم بيت المقدس إلى " فردريك " بالإضافة إلى " مواضع يسيرة من بلاد " ، ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والقدس وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين ، ولا يسام إلى الفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التى استقرت معه ، وتسام الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه ، يسر الله فتحه ، وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه " (٢) .

ويغفل المقرئى مدى الأسى الذى حل بالمسلمين لسماع خبر تفريط الكامل فى بيت المقدس فيقول :

" فاشتد البكاء وهظم الصراخ والعمويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان . . . فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء ، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، وكثرت الشفاعة عليه فى سائر الأقطار " (٣) .

(١) المرجع السابق : ج ٩ ، ص ٩٦٦ . نقلاً عن : " المقرئى " السلوك ، ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٧٨ .

(٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ٩٦٨ . نقلاً عن " المقرئى " السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

وبهذه النهاية المؤلمة انتهت الحملة الصليبية السادسة ورجع "فردريك الثاني" إلى بلاده بعد أن استطاع - مع ضعف إمكاناته - أن يحقق من المكاسب ما عجزت عنه جهود "ريتشارد قلب الأسد" بإمكاناته الضخمة، ملاحظة أن "فردريك" حصل على بيت المقدس بمجرد وعد دون أن يدخل معركة أو يخسر رجلاً واحداً .

الحملة الصليبية السابعة :

منذ عقد الملك الكامل الصالح الذي أبرمه مع "فردريك الثاني" امبراطور ألمانيا ، وأمور البيت الأيوبي تزداد اضطراباً .

ثم توفي الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٨ م بعد قضاءه على مؤامرة إخوته التي استهدفت القضاء عليه ، وخلفه في حكم مصر ابنه الصالح أيوب ، وزاد الانقسام بين أبناء البيت الأيوبي وتصدعت مكانته ، مما أطمع الصليبيين في عمل مضاد جديد .

خاصة وأن الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، والناصر دأود صاحب الأردن ، والناصر ابراهيم ملك حمص ، قد عقدوا العزم على غزو مصر بمساعدة الصليبيين ، فجمعوا قواتهم عند غزة ، ومضى المنصور صاحب حمص بنفسه إلى عكا وطلبها فأجابوه (١) . وذلك لإغراء الصليبيين بالمشاركة في غزو مصر .

وهنا لم يجد الصالح أيوب بداً من الاستعانة بالخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م ضد هؤلاء الذين هزموا على غزو مصر بمساعدة الصليبيين .

ولم تكن دعوة الصالح أيوب تصل إلى الخوارزمية حتى اندفع عشرة آلاف منهم في فرحة كبرى نحو بلاد الشام الصليبية ، واقتحموا بيت المقدس في شهر صفر سنة ٦٤٢ هـ - يوليو ١٢٤٤ م ، واستولوا عليه ، وقضوا على كل معالم النصرانية فيه ، وطاردها منه الصليبيين إلى غير رجعة ، وبذلك عاد بيت المقدس نهائياً

(١) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ (المؤسسة المصرية العامة) " بدون تاريخ " .

إلى المسلمين ، ولم يقدر الجيش نصراني أن يقترب منه بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى (١) .

وهنا ثارت ثائرة الغرب ضد المسلمين لاستيلائهم على بيت المقدس من جديد ، مما ترتب عليه مجيء " الحملة الصليبية السابعة بقيادة " لويس التاسع " ملك فرنسا إلى الشرق .

ولقد اتخذت الحملة الصليبية السابعة طابعاً فرنسياً بحتاً ، فقائدوها ملك فرنسا ، واشتركوا فيها غالبيتهم الساحقة فرنسيون مما جعلها بعيدة عن الصيغة الدولية (٢) .

وقد وصلت حملة " لويس التاسع " إلى قبرص سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م ومنها تحركت إلى دمياط سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م ، فوصلتها في أوائل شهر يونية من نفس العام الميلادي ، وكان الملك الصالح أيوب قد حصّن دمياط أثناء وجود " لويس التاسع " في قبرص ، ودافعت دمياط دفاعاً مستميتاً إلى أن استولى الرعب على أهل دمياط ، فتركوا مدینتهم بها فيها هاربين تاركين أبواب المدينة مفتوحة ، فدخلها الصليبيون دون قتال ، وهكذا صادفت الحملة الصليبية السابعة نجاحاً كبيراً في الاستيلاء على دمياط ، والواقع أن سقوط دمياط بهتلك السهولة كان " مصيبة أم بجر مثلها " (٣) .

بعد ذلك شرع الصليبيون في الزحف على القاهرة في ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩ م ، ولقد اختاروا أن يسلكوا طريق الدلتا ، وهو طريق كثير الترع والقنوات .

ولم يكد الصليبيون يشرعون في الزحف على القاهرة حتى توفي السلطان الصالح أيوب في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م ، ولقد أخفت زوجته خبر وفاته حتى

(١) د . سميد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية - ج ٢ ، ص ٩٩٨ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ، ص ١٠٠٥ . نقلاً عن : " ستيفنسون " .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

لا يؤثر في نفوس الناس ، فيزداد الصليبيون أملاً في النصر ، واستطاع جزء من الجيش الصليبي دخول المنصورة بقيادة أخى " لويس التاسع " وهدمى " روبرت دى أرتوا " ، إلا أن المسلمين تحت قيادة " بيبرس البندقدارى " ، استطاعوا تدمير مقدمة الجيش الصليبي بعد " أن حملوا على الفرنجة حملة زهزت وهدمت بنيانهم ، وأناخوا عليهم حرباً دراكاً وقتلاً واهلاكاً ، فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسمائة ، وولوا منهزمين " (١) وكان على رأس القتلى " روبرت دى أروا " نفسه .

بعد ذلك ازداد موقف الصليبيين سوءاً في سرعة واضحة ، حيث انتشرت بينهم الأمراض وقلت المؤن ، وفقدوا نسبة كبيرة من فرسانهم في معركة المنصورة ، وهنا حاول " لويس التاسع " المساومة لعله يدرك شيئاً يحفظ عليه ماوجه ، غير أن مساومته لم تجد أذناً عند المسلمين ، واضطر " لويس التاسع " إلى التراجع نحو دمياط ، في الوقت الذى " أهدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسراً " (٢) .

وعندما وصل الجيش الصليبي إلى " فارسكور " الواقعة على الطريق بين المنصورة ودمياط شن المسلمون هجومهم الرئيسى على الصليبيين ، وأوقعوا بهم هزيمة ساحقة ، ووقع الجيش الصليبي بأجمعه تقريباً بين قتلى وأسرى ، وكان من جملة الأسرى " لويس التاسع " نفسه الذى سيق مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن فى دار " فخر الدين ابراهيم بن لقمان " ، ولقد تم الصلح بين الطرفين بشروط أملاها المسلمون وقبلها الجانب الصليبي دون مساومة ، ويقضى هذا الصلح بدفع مبلغ ضخيم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسى على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسى نفسه ، واتفق على أن تكون مدة هذا

(١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٢ . نقلاً عن :

العيني (بدر الدين محمود) : فقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان

(مخطوط بدار الكتب المصرية) حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٤ .

المعاهدة عشر سنوات ، وتسلم المسلمون دمياط في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ م ،
وفادرها " لويس التاسع " في ٨ مايو ١٢٥٠ م فوصل عكا في الثالث عشر من
نفس الشهر (١) .

هكذا انتهت الحملة الصليبية السابعة دون أن تحقق شيئا مما كانت
تطمع فيه ، وظهر في الأفق الإسلامي دولة قوية هي دولة المماليك .

وهكذا انتهت الحملات الصليبية على العالم الإسلامي ، تلك الحملات
التي وضع لها المؤرخون حدودا من السنين والشهور والأيام .

واقدا رأينا من خلال سرد الوقائع الحربية التي تخللت تلك الحملات
أن النصر كان دائما في ركاب المسلمين ما كانوا معتصمين بحبل الله ، رافعين
راية الجهاد ، تاركين خلافاتهم وراء ظهورهم .

وهذا ما حدث للمسلمين في عهد " عماد الدين زنكي " وابنه " نور الدين
محمود " ومن بعدهما " صلاح الدين الأيوبي " الذي بلغ بالنصر غايته حين
استرد بيت المقدس من أيدي غاصبيه .

ورأينا من خلال سرد تلك الوقائع الحربية كيف استطاع أبناء السلطان
العادل الأيوبي ، وهم : الكامل والمعظم والأشرف أن يتعاونوا فيما
بينهم حتى تغلبوا على الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة ، وأن يردوهم
على أعقابهم خاسرين .

ذلك لأن الرأي العام في هذه الحالة يكون الدرع القوي الذي يحمي
قاداته المخلصين ، واليد القوية التي تقف وراء النصر ، والكف السخية التي
تعطى بلا تفتير .

(١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٣٤ .

وعلى النقيض من ذلك تماما ، رأينا بوضوح من خلال تلك الوقائع الحربية كيف انقلب النصر إلى هزيمة نتيجة لما ساد الرأي العام الإسلامى من تمزق وخلاف على أيدي قاداته ، لأن الرأي العام فى مثل هذه الحالة سرعان ما ينقلب إلى قوة سلبية أمام الأحداث المصيرية نتيجة فقدان القوة الفعالة فى داخله .

وهذا ما حدث عند بدء الحملات الصليبية التى بلغت غاية نصرها باستيلائها على بيت المقدس ، فى الوقت الذى كان الخلاف فيه على أشده بين أمراء المسلمين فى الشام ، والتفسخ ينفجر فى عظام الدولة الفاطمية والرأي العام فى مصر .

ويبلغ أمر الخلاف والتمزق غايته حين انفرد عقد الارتباط بين أمراء السلطان العادل الأيوبي ، وأخذ كل واحد منهم يحارب الآخر ، وقال الأخطر من ذلك كله أن كل واحد منهم أخذ يستعين بقوة أجنبية طامعة ضد الآخرين ، ويبلغ الأمر بالملك الكامل بن العادل الأيوبي فى مقابل ذلك أن يسام بيت المقدس إلى "فردريك الثانى" الصليبي ، إلى أن استطاع الخوارزمية السامون استرداده نهائيا من أيدي الصليبيين ، فوضعوا حدا لهذا التمزق ، على الأقل فيما يتعلق بالحفاظ على هذا المكان المقدس فى أيدي المسلمين .

الفصل الثانى

"الدعاية للحملة من قبل الصليبيين"

- ١ - الهابا "أوربان الثانى" وعلان الحرب الصليبية.
- ٢ - حملات العامة التى تزعمها "بطرس الناسك" وغيره من أجل الدعاية للحملة الصليبية.
- ٣ - الرؤى والتنبؤات وأثرهما فى بث الحماسة الدينية عند الصليبيين.

١ - البابا " أوربان الثاني " وإعلان الحرب العليبية :

نادرا ما نجد دعوة من الدعوات ، أو دعاية من الدعايات سواء منها القديم أو الحديث ، قد لقيت من النجاح قسطا دون أن تتوافر لها من العوامل الزمنية والمكانية والاجتماعية ما يمكنها من إحراز مثل هذا القسط من النجاح .

وحتى تصبح هذه العوامل قادرة على تحقيق النصر ، كان لابد لها أن تصل إلى درجة معينة من النضوج والكمال لتكون ذات فاعلية في حينها ، وإلا فإفاداتها وان استثمارها وأصبحت لا تصلح لشيء .

وما ينطبق على الدعوة في هذا الشأن ينطبق على الدعاية سواء بسواء .

والكى أقدم الدليل على أن العوامل يجب توافرها قبل كل شيء لتتمكن أى دعوة أو دعاية من إحراز نصيب من النجاح ، اخترت مثالين من الدعوات الإصلاحية قديما وحديثا ، هما دعوة الإمام الشيخ ابن تيمية ودعوة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب التى بدأت فى نجد من الجزيرة ، ثم ما لبثت أن نشرت لواءها خفاقا فوق الجزيرة كلها ، بهل وتردد صداها فيما وراء الحدود .

ولقد تناولت كلا من الدعوتين بشيء من التفصيل فى التمهيد الذى بدأت به هذه الرسالة ، أما الدعاية ، فقد اخترت لها مثالين من تاريخنا الإسلامى أيضا :

الأول : الدعاية التى صاحبت قيام الدولة العباسية برايتها السوداء ، ورجالها المتحمسين الذين استثمروا أحسن استثمار كل العوامل الزمنية والمكانية والاجتماعية فى ذلك الوقت ، فأثمرت دعايتهم وآتت أكلها .

وكانت معركة "الزاب" سنة ١٣٢ هـ هي التي دقت المسمار الأخير في نعش الخلافة الأموية، وأقامت صرح خاتمة جديدة، هي خلافة بني العباس التي استمرت أكثر من خمسة قرون من الزمان. وكتب التاريخ ملوثة بتفصيل ذلك لمن أراد أن يستزيد أو يتحقق (١).

الثاني : الدعاية التي صاحبت الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، والتي وجدت كل العوامل الداخلية والخارجية مواتية للقيام بها ضد المسلمين في حينها .

ولا شك أن تلك الدعوات الإصلاحية، أو الدعايات قد توفرت لها العوامل الزمنية والمكانية والاجتماعية المناسبة لإنجاحها .

والرأى عندي أن هذه العوامل تشبه إلى حد كبير الحقيقة الإعلامية في خصائصها . فكما أن الحقيقة الإعلامية يجب أن تأتس في إبانها لا تتأخر ولا تتقدم كذلك الحال بالنسبة لهذه العوامل الزمنية والمكانية والاجتماعية لأي دعوة أو دعاية مهما اختلفت الأهداف والغايات .

والدعاية إلى الحملات الصليبية وهي موضوع فصلنا هذا شأنها في ذلك شأن سائر الدعايات الأخرى من حيث توافر العوامل الزمنية والمكانية والاجتماعية المناسبة ، تلك العوامل التي أكسبت الحملة الصليبية الأولى قسطا من النجاح عند بدايتها .

فهناك حيث الجانب الصليبي كانت عوامله الزمنية والمكانية والاجتماعية عوامل إيجابية دافعة تبشر بالتقدم والغلبة .

وهنا حيث الجانب الإسلامي ، كانت عوامله الزمنية والاجتماعية عوامل سلبية مشبعة تنذر بالتقهقر والهزيمة مع الأسف الشديد .

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الطبري ، ج ٧ ، ط ٣ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف بمصر) بدون تاريخ : ص ٤٣٢ ، وما بعده .

فالعوامل الزمنية على الجانب الاسلامي كانت في حينها عوامل مقبلة لأعداء
الإسلام مدبرة للمسلمين ، ففي ذلك الزمان تناحرت قوى المسلمين
وتناشرت ، وتجمعت فيهم طوائف الشر وتكتلت ، وهبت كل طائفة تقاتل
بعضها الآخر من أجل سلطة زائفة ، أو قطعة من طين ، كالحروب التي
دارت بين المسلمين في الشام حين أخذ يقاتل بعضهم البعض الآخر ،
بينما الصليبيون في بيت المقدس (١) ، وإذا كان الزمان كذلك ، فماذا
عن المكان . . ؟

كان المكان ملائما غاية الملاءمة على كلا الجانبين ، فعلى الجانب
الصليبي كان المكان ضيقا حرجا لا يكاد يستوعب من يعيش فيه أو يعطيهم
بعضا من الأمن والعطاء ، كان مكانهم موحشا توشك أن تنعدم فيه
الروح والحياة ، ولا جدال في أن مثل ذلك المكان لا بد أن يدفع أهله
العاجزين عن إصلاحه إلى البحث عن مكان آخر أكثر أمنا وعطاء ، وأمتع
للروح وأشبع للحياة ، وهل هناك مكان هذه صفاته غير مكان المسلمين
آنذاك . . ؟

مكان ضم على تراه آثار الأنبياء ومهابط الوحي ، وتجمعت فيه
مناسك العبادة ومواطن التوبة والمغفرة ، وفاخر لبنا وعسلا .

أما العوامل الاجتماعية على الجانب الاسلامي ، فقد لوحظ أنه
في الوقت الذي كان فيه المجتمع على الجانب الصليبي مجتمعا وحيدا
بين طبقاته المعائب ، وجمعت بين أفرادها الرغبة في التخلص من الضنك
والعسر ، وشدت بين هراء الآمال والغايات الواحدة طلبا للحياة أفضل
ولو كانت عن طريق الغزو والاعتداء .

كان المجتمع الاسلامي في غالبية مجتمعاته توافرت فيه عوامل التمزق ،
والتفتت وهم فيه الاستهتار وعدم المبالاة بأي حدث . مجتمعا فقيرا

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ - ص ١٩٣ ، ص ٢٠٦ ، ص ٢٠٧ ، ص ٢١٦ .

إحساسه بما حواه ومن حوله ، لا يكاد يشعر بالخطر المحدق ، إختاط عليه ما يجب أن يفعله وما يجب ألا يفعله ، مجتمعا استفحل شـسره وتضائل خيره .

وما لاشك فيه أن مجتمعا كهذا تصبح حياته كماته ، ووجوده كعدمه ، إنه مجتمع حقت عليه لعنة الله والناسر أجمعين .

قال تعالى :

" له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإن أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال " (١) .

وقال تعالى :

" ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم " (٢) .

وقال تعالى :

" وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بمرءك بذنوب عباده خبيرا بصيرا " (٣) .

وقال تعالى :

" أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير " (٤) .

(١) الرعد : ١١ .

(٢) الأنفال : ٥٣ .

(٣) الاسراء : ١٦ ، ١٧ .

(٤) آل عمران : ١٦٥ .

كان ذلك على الجانب الإسلامى .

أما على الجانب الصليبي فقد توافر لديه الزمن المواتى لشحن مثل تلك الحملات العسكرية على العالم الإسلامى .

زمن توافرت فيه للكنيسة قوة روحية ومادية لم يسبق أن توافرت لها من قبل .

زمن اختلطت فيه الروح عند الكنيسة بالمادة اختلاطا أفقدها التوازن والعدل ، حيث كشر رجال الكنيسة عن أنبيائهم النهممة ليهتلعوا كل ما عند المسلمين من روح ومادة . كان ذلك الزمان زمانهم . أما المكان فاحيكن فى غالبية إلا جديها ، ومكان المسلمين فى غالبية كان خصيبا . كان مكانهم غاية فى البخل والتقتير ، عمت به المجاعات آنذاك ، فهلك منهم من هلك ، وبقي منهم من بقى ليهتعل صدره حقدا وحسدا على الإسلام وأهله (١) .

وأما عن المجتمع الصليبي ، فبالرغم من تكتله ضد الدماء الإسلامى ، وتأجيل خلافاته فى سبيل اتفاقه العاجل على غزو العالم الإسلامى ، وذلك الفزوال الذى ساعدت على نجاحه حالة المجتمع الصليبي نفسه آنذاك ، فقد كان مجتمعا نشأ على التفرقة والتعصب ، ونخر فى عظامه سوس النظام الاقطاعى الذى كان يفرق فيه بين الإبن الأكبر وسائر الأبناء فى الإرث ، إذ كان يورث أكبر الأبناء كل شئ ولا يعطى للآخرين شيئا منه ، وفى الوقت الذى كان فيه هذا المجتمع يقيس المجد والشرف بقدر ما يملك الفرد من مال وجهيد ، ومن هنا أخذ هؤلاء المحرمون يبحثون عن المال ، ويشتاقون إليه حتى وقع نظرهم عليه فى العالم الإسلامى الذى يفيض لنا وعسلا (٢) .

من ذلك كله يتضح لنا أن الحملات الصليبية جاءت فى الزمن

(١) د . فايد حماد هاشور : جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية ، ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٨١ .

الموتى والمكان الملائم والحالة الاجتماعية المناسبة ، سواء على الجانب الإسلامى أو الجانب الصليبي .

ولو قدر لمعامل من هذه العوامل أن يختل لما صادفت الحملة الصليبية الأولى ذلك النجاح الذى أحرزته على العالم الإسلامى وبلغ قمته باستيلائها على بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م .

يتبقى بعد ذلك العنصر الرئيسى والأهم وه الذى قام بقطف الثمرة واستغلال هذه العوامل وتنفيذها فى الوقت المناسب تماما ، وأعنى بذلك العنصر الكنسى الذى تمثل فى رجال الكنيسة المهيمنين على العمارة بأسرها آنذاك فى العالم الصليبي .

ولقد انبرى من هؤلاء رجل يدعى البابا "أوربان الثانى" الذى تمثل فيه طغيان الكنيسة وجبروتها وتسلطها على الملوك والأمراء والفرسان ليسهموا بحملاتهم ضد الإسلام وأهله .

وفى الوقت نفسه طاف كثير من الادياعيين الشعبين بالبلاد طولا وعرضا يؤلبون الناس على المستوى الجماهيرى ، ويحثون فيهم الحماسة للمشاركة فى هذه الحملات الصليبية على العالم الإسلامى .

وقام رجل من هؤلاء الادياعيين يدعى "بطرس الناسك" ببيت الأكاذيب وينشر الأباطيل ضد المسلمين ، حاملا على عاتقه النصيب الأوفى لإشعال الرغبة فى نفوس الطبقات الدنيا بشتى الطرق والوسائل .

أما البابا "أوربان الثانى" فقد استطاع أن يستغل نزوح العوامل الزمنية والمكانية والاجتماعية على كلا الجانبين لتأليب الناس فى بلادهم ، وحشد مختلف الطاقات لغزو العالم الإسلامى .

وكأنى به ، وقد وقف تماما على مقدار درجة قياس رأى العام النصرانى لدعوته ، ما أظهر تأثير كلماته فى الخطاب الذى ألقاه بمجمع "كلير مونت" بفرنسا عام ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م ، حيث تجسد هذا التأثير فى صحيفة

السامعين جميعا " هكذا أراد الله " ، هذه الصيغة التي اتخذوها شعارا لهم فيما بعد ، وكان من صدى كلماته أن هب (أديمارمونييل) أسقف "بوى" وركع عند قدمي هذا البابا حاملا صاييه ليعرف بعد ذلك بأنه أول من حمل الصايب ، مما حدا بالبابا أن يجعله قائد الحملة الروحية .

وكان (لأديمار) من التأثير على المساهمين في الحرب ما تفصح عنه كتابات المؤرخين ممن شاهدوا الحملة ، يستوى في هذا الأشسراف منهم والدهما على السواء (١) .

وحتى نقف على تلك النفوس المفعمة بالتعصب والكراهية ، وتفهم بالحد والطمع في العالم الإسلامى الذى كما يفواون يفيض لبنا وعسلا ، لابد لنا أن نقرأ معا ما قاله البابا "أوربان الثانى" من افتراءات وأكاذيب على العالم الإسلامى فى خطابه "بكيرمونت" :

" يا شعب الفرنجة . . شعب الله المحبوب المختار ، لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى ورفى فى تلك البلاد المسيحية ، وغربها بما نشره فيها من أعمال الساب والحرائق .

واقعد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن هذبوهم أشنع تعذيب ، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم ، ولقد قطعوا أوعال مائة اليونان ، فانتزعوها منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من تقع تبعية الانتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم - أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم

(١) د . حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى . ط ، دار الفكر العربى بالقاهرة ، ص ٥١ - عام ١٩٥٨ م .

آخرين بالمجد في القتال وبالبسالة العظيمة ، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم ٢٠٠ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم . أمجاد " شارلمان " وعظمته ، وأمجاد غيره — من ملوككم وعظمتهم — فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا (١) الضريح الذي تمتلكه الآن أم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست .

لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم . ذلك بأن هذه الأرض تسكنونها الآن ، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم " إن " أو "شليم " أرض لا نظير لها في شامها ، هي فردوس المباهج ، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم ، وشقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى في ملكوت السموات " (٢) .

(١) هذه هي عقيدة الكنيسة الكاثوليكية في السيد المسيح ، وحاشا لله من ذلك ، إذ أن عقيدتنا نحن المسلمين في السيد المسيح أنه عهد من عهد الله ، بشر كامل البشرية وأحد أنبيائه .

(٢) د . محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ (مؤسسة الرسالة — بيروت) ط أولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م نقلا عن : (لول ديورانت) في قصة الحضارة .

حقاً إن الكفر ملة واحدة ، لا فرق بين اليهودية والنصرانية في
عدائهم للإسلام وأهله . فكما أن اليهود حرقوا من قبل وصاياهم
العشر ، وفسروها تفسيرات تتفق ونفوسهم التي فطرت على الشر
وجبلت على الحقد والانتقام ، كذلك الحال بالنسبة للنصارى فى
سلوكهم تجاه الإسلام والمسلمين .

وحتى لا نبتعد فى ذلك عما نحن بصدده فسوف نشئ — مع
البابا "أوربان الثانى" فى خطبته "بكثير مونت" ، لنرى هل هذا
الرجل الصليبي ومايد هو إليه يختلف فى شئ عن اليهود وما يدعون
إليه ... ؟

هل يختلف أولئك عن هؤلاء فى عدائهم للإسلام والمسلمين ؟
وحتى أجيب عن تلك التساؤلات فى موضوعية تامة وجدت لزاماً
على أن أتقيد بما جاء فى خطاب "البابا أوربان الثانى" "بكثير
مونت" لأناقشه بحياد وعدالة ، من جانبه الإعلامى ، إذ كان هذا
الخطاب حدثاً إعلامياً بالدرجة الأولى ، وكل حدث إعلامى له
طريقته فى الإعلام منه .

كان خطاب البابا "أوربان الثانى" حدثاً إعلامياً من حيث
اتصاه بال جماهير والتأثير فيهم بكل ما أتيح له من وسائل إعلامية فى
ذلك العصر .

وإذا دققنا النظر فى هذا الخطاب وجدنا من الزاوية الإعلامية
أن الصليبيين قد وعوا إلى حد كبير بعضاً من استراتيجية الحروب
والتي منها المبدأ المعروف "إعرف عدوك قبل أن تبدأ به" .

ويظهر لى أن المسلمين فى تلك الفترة المبكرة من الحروب
الصليبية كانوا لا يبالون كثيراً بهذا المبدأ مع أنه مبدأ إسلامى ،
والدليل تلك النتائج التى أسفرت عنها الحروب الصليبية فى بدايتها

والتي بلغت قمتها بالاستيلاء على بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م .
وحيث أن وسائل الإعلام الحديثة لم يكن لها وجود في ذلك
الوقت ، فقد عمل الصليبيون منذ اللحظة الأولى لغزوهم على أن -
يستحدثوا من الوسائل العظيمة في الإعلام ما يقوم بنفس الدور الذي تعمله
وسائل الإعلام الحديثة ، جاهدة في تحقيقه ، وساهمة بكل ما لديها
من إمكانيات لتصل أهدافها إلى غايتها .

وكان من أبرز الأهداف التي عمل الصليبيون على تحقيقها عليها
بوسائل اعلامية هدف التخريب المعنوي للمجتمع الإسلامي ، من ذلك
أنهم عمدوا إلى أسلوب هذا التخريب المعنوي بإشاعة الفاحشة والاعتداء
على الأعراض ، ونشر الأخبار المفضة عن القتل والتعذيب الجماعي
الذي سيفعلونه بالمسلمين بحثا للربح في نفوسهم ، وذلك من
طريق الاتصال بالجماهير ، وبث الأخبار المبالغ فيها بين صفوفها بهشتي
الوسائل المتاحة في ذلك الوقت .

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : " لقد عرف الناس في البيئات
القديمة كلا من الإعلام والدعاية ، ولكن بالصور والوسائل التي تناسبها ،
كما عرف الناس في تلك البيئات القديمة كلا من الإعلان والعلاقات العامة
والتعليم بالصور والوسائل التي تتناسب معها وهكذا " (١) .

والمجتمعات القديمة كان يسهل فيها الاتصال بالجماهير لضيق
رقعتها بالقياس إلى المجتمعات الحديثة ، ومن ثم يسهل في المجتمعات
القديمة اتصال الأفراد بعضهم ببعض .

لذلك فعل خطاب البابا " أوربان الثاني " فعله السحري ففى
الجماهير المتعطشة للغزو والدماء ، وانتشر فيهم انتشارا كان مسن

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الاعلام في صدر الاسلام ، ص ٢١ .

نتائج تلك الحروب الصليبية التي هزت العالم الإسلامى وغزت أرضه ،
وأجبرته على أن يعيد تقويم نفسه من جديد .

ونظرا لخطورة هذا الخطاب على المستوى الإعلامى فسوف أتناوله
بالنقد من جوانب ثلاثة :

الأول : الأكاذيب المطفة التى ألصقها الخطاب بالمسلمين من حيث
معاملتهم السيئة للحجاج الصليبيين على حد زعمهم ، ومحاولة
الرد على تلك الأكاذيب من واقع ما كتبه بعض الكتاب النصارى
الأكثر إنصافا .

الثانى : القتل والسلب والغفينة والبغضاء وتحريم ذلك كله على المسلمين
الصليبيين وإباحته فى نفس الوقت بين المسلمين .
الثالث : الأطماع الدنيوية التى ينضح بها الخطاب من أوله إلى آخره .
الجانب الأول :

وهو الجانب الخاص بالتهمة الباطلة التى ألصقها الخطاب
بالمسلمين ، وللرد على هذه التهمة يكفى أن كثيرا من المؤرخين النصارى
يجمعون على أن حجاج الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة من أهل الشرق
والغرب على السواء لم يصادفوا شيئا من العنت أو الإرهاب - أو
الاضطهاد من جانب المسلمين الأوائل ، ويكفى أن أسوق هنا
دليلا جاء من نصرانى مثلمهم ، وهو يتلخص فى الخطاب الذى بعث به
أسقف بيت المقدس نفسه فى القرن التاسع الميلادى ، الثالث الهجرى
إلى بطرك القسطنطينية ، وكان قبل وقوع أية حملة صليبية فى الشرق ،
وفيه يشير بوضوح إلى حسن معاملة المسؤولين المسلمين للنصارى ،
وأنهم لا يستعملون معهم أى نوع من أنواع العنف أو القسوة (٢) .

(١) د . هـ اللطيف حمزة : الإعلام فى صدر الإسلام ، ص ٢١ .

(٢) د . هـ حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٢٥ - نقلا عن : "رسميان" .

الجانب الثانى :

القتل والسلب والصفينة والبغضاء وتحريم ذلك كله بين الصليبيين وإباحته فى نفس الوقت بين المسلمين .

وقد جاء كل ذلك فى خطاب البابا " أوربان الثانى " حيث قال :
" طهروا قلوبكم إذن من الأدراى ، واقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذللك الجنس الخبيث وتلكوها أنتم " .

وقال أيضا : " لقد آن الزمان الذى تحولون فيه ضد الإسلام تلك الأسلحة التى اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر ، لأخذ الشار من بعض إهانات . فالعرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هى الأخذ الشار من إهانات ضد البشر ، بل من الإهانات الصادرة ضد الله " (١) .

الجانب الثالث :

الأطعام الدنيوية التى ينفخ بها خطاب البابا " أوربان الثانى " من أوله إلى آخره بغير مواربة أو مداراة .

ولقد جاء كل ذلك فى خطاب البابا حيث قال :

" انتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتلكوها أنتم ، إن " أورشليم " أرض لا نظير لها فى شامها ، هى فردوس السباح . " .

وقال أيضا :

" إن هذه الأرض التى تسكنونها الآن ، والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز من أن تجود بها يكفكم من الطعام " . هؤلاء هم النصارى ومن قبلهم كان اليهود ، فهل هناك فرق بينهم فى عداوتهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين ؟

(١) د . طى عبد الحليم محمود : الفوز والعليى والعالم الإسلامى ، ص ٢٦ . ط :

دار عكاظ (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) .

إن ما جاء في خطاب البابا " أوربان الثاني " يتم بوضوح وجلاء
عن أخلاق الفزاة المعتدين الذين لا يهمهم سوى القتل والتشيل ، والحرق
والتدمير .

أما الفاتحون والدعاة المصلحون فلا يهمهم سوى إعلاء كلمة الله
في الأرض ، لا قتل ولا تشيل ، ولا سلب ولا نهب ، ولا حرق ولا
تدمير ، بل عدل وسواوة ، وهداية وإرشاد . إنه الفرق الكبير بين
الفتح والغزو .

ونضفي مع الأدلة لنبيين الفروق الشاسعة بين الغزو المعتدى
والفتح المهتدى ، والدليل على الغزو المعتدى هو الغزو الصليبي نفسه
وما جاء في خطاب البابا " أوربان الثاني " من أهداف هذا الغزو ورمائه .
أما الدليل على الفتح المهتدى فنأخذ له دليلين من الإسلام :

الأول : جاء فيما أخرجه مسلم في صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه
قال :

" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أُمِّر أميراً على جيش
أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم
قال اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا
ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت هدوك ممن
المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلل) فأيتهم ما أجابوك
فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل
منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ،
وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم مالم المهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ،
فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين
يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم في
الغنمة والغنيمة شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا
فلسلم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، فإن هم

أبوا فاستمعن بالله وقاتلهم —م (١) .

الثاني : جاء في كتب التاريخ وتناقلته كتب الأدب وهو في الوصية التي أوصى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائده المظفر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين سيره بجيش المسلمين إلى العراق قال عمر رضي الله عنه :

"أما بعد فإنني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال . . فإن تقوى الله أفضل المعدة على العدو وأقوى المكيمة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكون أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصرون المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدونا ليس كعدوهم ، ولاعدتنا كعدوتهم ، فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

فاعلموا أن عليكم في سيركم حافظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم . ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا : إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا . فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله " .

ثم قال رضي الله عنه : " وأسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم " (٢) .

وكان هذا دأب عمر مع قواده وأمرائه . وواقد رلقادة المسلمين اليوم أن يدرسوا هذه الوصية ويطبّقوها على أنفسهم بادي ذي بسدر لتغير وجه التاريخ ، وتغيرت صفاته ومعالمه ، واتصلت حلقاته وطادت كما كانت بلا فواصل أو حدود .

(١) الامام مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي المجلد ٦ ، ج ١٢ ، ص ٣٧ ، ٣٨ (باب تأمير الامام على البعوث) .

(٢) احمد بن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ، ص ٩٢ ، تحقيق : محمد سعيد العربيان ، " دار الفكر - بيروت " . بدون تاريخ .

ونواصل السير مع الخليفة الثاني للمسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه حتى نصل معه الى النقطة الفاصلة بين الإسلام وغيره ، بين الفتح المهتدى والغزو المعتدى ، بين وصايا عمر بن الخطاب تلك الهادية المستنيرة ، وبين خطبة "أوربان الثاني" تلك الغاوية الشريرة .

إن هذه الأدلة التي أسوقها للمتفرقة بين الغزو والاعتداء من جهة ، وبين الفتح والهداية لإعلاء كلمة الله من جهة أخرى تشمل في نظري أحداثا اعلامية بجانب كونها أحداثا تاريخية .

ذلك لأن هذه الأحداث تُظهر بوضوح ما للقذوة الحسنة من تأثير إعلامي خطير في الرأي العام المحلي والخارجي مما يسهل على الدعاة مهمتهم الشاقة ، ويفتح أمامهم قلوب الناس وعقولهم .

قال تعالى :

" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " . (١)

تلك هي سمات الفتح لإعلاء كلمة نزل بها التشريع السماوي ، ونزل بها المسلمون إلى ميدان التطبيق العملي ، فقصة ابن عمرو بن العاص مع المصري القبطي معروفة حين اعتدى ابن عمرو بن العاص إبان حكمه مصر على أحد المصريين الأقباط فهدده القبطي بشكايته لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب ، فلم يأبه ابن عمرو بن العاص لذلك وقال : أنا ابن الأكرمين ، فلما كان موسم الحج وقد ذهب عمرو وابنه إلى مكة كان القبطي في اثرهما ، ودخل إلى الخليفة وهدده عمرو وولده ، فشكا إليه ما قد وقع عليه وأعاد على سمع أمير المؤمنين كلمة ابن الأكرمين ، فغضب عمر بن الخطاب غضبا شديدا ، ونظر إلى عمرو قائلا جملته الخالدة : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " ؟

ثم ناول الشاكى سوطا وقال له اضرب ابن الأكرمين كما ضربك .
سبحان الله ، ألا ينبغى لمن يعيش فى القرن الخامس عشر
الهجرى أن يطوى القرون إلى الوراء ليرجع بخياله إلى بداية القرن
الأول الهجرى ويتصور مدى الأثر الإعلامى الذى خلفه عدل عمر فى
أقطار مصر آنذاك حينما رجع ذلك القبطى وابنه وأعادوا كراما رأياه من
عمر رضى الله عنه على مسامع أقطاب مصر .

لم تكن لديهم إزاحة سموة ولا مرثية ، ولا صحف ولا وكالات
للأنباء كما لدينا الآن ، بل كان لديهم إخباريون يتناقلون الأخبار بين
الناس ، وتلك كانت وسيلتهم الإعلامية الرثيصة .

ولا شك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد بلغ القمة فى استثمار
هذه الوسيلة الإعلامية المباشرة آنذاك . إنه الفتح المبين لنشر عقيدة
التوحيد بين الناس ، وليس الغزو المشين لنشر الكفر والفساد وإشاعة
الظلم والطفغان بين البشر .

ولكن ما لنا نوغل فى تاريخ الدعوة الإسلامية بعيدا ونحن نتوقع
من قائل أن يقول :

إن ذلك كان فى صدر الإسلام وقد تم على أيدي الخلفاء الراشدين
وباقي الصحابة والتابعين ، وأين نحن من هؤلاء ؟

حقا أين نحن من هؤلاء ، ولكن ما ذا من صلاح الدين الأيوبي ؟
إنه ليس من الصحابة ولا من التابعين ولا من تابعى التابعين ، لكنه
تبعهم بإحسان بعد خمسة قرون أو تزيد .

ألا يصلح هذا الرجل لأن يكون مثلا حيا للفتح المسلم الذى
أبته عقيدته الإسلامية أن يحذو حذو الفزاة الصايبيين حينما فتحوا
بيت المقدس فقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال ومثلوا بجثثهم بلا ذنب
ارتكبوه إلا أنهم مسلمون . . ؟

الأمر الذى لم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار حقيقته ،
فذكر (وليم الصورى) أن بيت المقدس شهد عند دخول الصليبيين مذبحه
رهبة حتى أصبح البلد "مخافة واسعة من دماء المسلمين أشارت
خوف الغزاة واشمئزازهم" (١)

واقعد باغ عدد الذين أجهز عليهم الصليبيون من المسلمين عند فتح
بيت المقدس أكثر من سبعين ألفا حسب ما ذكره ابن الأثير (٢) .

ولم يذكر المؤرخون المسلمون هذا العدد من شهداء المسلمين
فحسب ، بل ذكره أيضا المؤرخون النصارى الشرقيون مثل "ابن العبرى
الطلى" الذى ذكر بالحرف الواحد "ولبت الفرنج فى البلد أسبوعا
يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا"
(٣) .

كان ذلك بعض ما فعله الغزاة الصليبيون بالمسلمين عند فتحهم
بيت المقدس . فمادنا فعل الفاتح المسلم صلاح الدين الأيوبي عند
استعادته بيت المقدس من الغزاة الصليبيين قتلة السبعين ألف مسلم ؟
كانت بالقدس إحدى نساء الملوك من الروم وقد ترهت وأقامت
به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير ، ولها من الأموال
والجواهر النفيسة شئ عظيم وكثير فطلبت الأمان لنفسها ومن معها ،
فأمنها وسيرها ، وكذلك أيضا أطلق ملكة القدس التى كان زوجها أسير

(١) د . سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ، ص ١٨٩ .

(٣) د . سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، ص ١٣٧ ، نقلا

عن : "ابن العبرى" فى تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧ .

صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ، ونياية عما كان يقوم
بالملك ، وأطلق ماله وحشمها ، وأستأذنته في المسير إلى
زوجها ، وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس ، فأذن لها فأتته
وأقامت عنده .

" وخرج " البطريق الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال
البيع منها الصخرة والأقصى والقيامة ما لا يحصى إلا الله تعالى . وكان
له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له صلاح الدين ، فقبل له
ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين ، فقال : لا أغدربه " (١) .

لم يكتف صلاح الدين بذلك بل أعلن أنه سوف يطلق سراح
كل شيخ وكل امرأة عجوز .

ولما أقبل نساء الفرنج اللائي افتدين أنفسهن ، وقد امتلأت
عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مسيرهن بعد
أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر ، أجاب
بأنه وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن ، وبذل للأرامل
واليتامى من خزائن العطايا كل بحسب حالته ، والواقع أن رحمته
وعطفه كانا على نقيض أفعال الفزاة الصليبيين المعتدين في الحملة
الصليبية الأولى .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ١٨٤ .

(٢) بسام العسلى : الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ، ص ١٣٤ - ط ١
(دار النفائس - بيروت) ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٢ - حملات العامة التي تزعمها " بطرس الناسك " وغيره :

كان المجتمع الصليبي قبيل وأبان القيام بهذه الحملات العسكرية على العالم الإسلامي ينقسم إلى طبقات متفاوتة كل التفاوت ليس فقط من ناحية المال أو الجاه أو السلطان ، فهذا موجود بين بني البشر جميعا في كل زمان ومكان ، لكن هذا التفاوت كان على أشده — حيث الاستغلال والظلم ، استغلال الإنسان وظلمه لأخيه الإنسان .

والقرآن الكريم الذي نزل من أجل سعادة البشر جميعا قد أوضح هذا التفاوت في المال أو الجاه أو السلطان وأقر ذلك ، لكنه في نفس الوقت أنكر التفاوت في الإنسانية وحرم الاستغلال والظلم ، استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

قال تعالى مقرا هذا التفاوت المادي بين بني البشر كحقيقة لا تقبل الجدل :

" أهدم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون " (١) .

وقال تعالى في ذلك أيضا :

" والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبينعمة الله يحدون " (٢) .

وقال تعالى ساويا بين البشر جميعا في الإنسانية جاعلا مناط التفضيل بينهم التقوى وليس المال أو الجاه أو السلطان :

" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير " (٣) .

(١) الزخرف : ٣٢ .

(٢) النحل : ٧١ .

(٣) الحجرات : ١٣ .

كان هذا التفاوت في المجتمع النصراني على أشده من حيث
السيادة والعبودية ، السيادة المطلقة التي لا تعرف من معنى السيادة
إلا استعباد الإنسان ، والعبودية المطلقة التي لا تعرف من معنى
السيادة إلا الخضوع للإنسان .

ومن هذا المنطلق انشطرت الدعوة للحروب الصليبية إلى
شطرين :

الأول : بقيادة الكنيسة وقد انضوى تحت لوائها الملوك والأمراء والنبلاء
والقادة والفرسان ، واستطاعت الكنيسة أن توجع النفوس
وتحرك العواطف بدعوتها إلى إنقاذ الأراضي المقدسة ، لما فسى
إنقاذها من روعة في أخيلة الفروسية الأوروبية .

والأدلة كثيرة على تلك الحالة العاطفية التي غمرت فروسية
الأوروبيين وهي تتأهب لخوض هذه الحرب استجابة لنداء البابا
" أوربان الثاني " الذي جعل محور خطابه في مجمع " كلير مونت"
استعادة بيت المقدس والأراضي المقدسة .

والجدير بالذكر أن الكنيسة قد أضفت على طبقة الفرسان كثيرا
من أسلوبيها الروحي وهي تستعد لشن هذه الحرب العدوانية على
المسلمين ، لذلك ابتكرت شتى مظاهر القداسة التي أضفتها إعلامها
على طبقة الفرسان ، من ذلك على سبيل المثال ضرورة اغتسال
المتأهل للفروسية بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحيى ليله بالصلاة ، حتى
إذا أقبل الصبح قصد الكنيسة حيث يعترف بذنوبه وخطاياها ، ثم
يتناول العشاء الرباني ، ويتلو عليه القس واجبات طبقة أي أن الفارس
يصبح صليبيًا بمعنى الكلمة .

ولا عجب أن تكون للكنيسة هذه الساطة الماي في تحرير
الحروب الصليبية لأن الكنيسة في تلك الفترة من الزمان ، فترة الحروب

الصليبية بلغت درجة من النفوذ فى المعالم جماعات من البابا فى نظـر
المسيحيين ملك الملوك وأمير الأمراء .

ومع التهديد بسلاح الحرمان والطرـد من رحمة الكنيسة استطاع
البابا أن يخضع الجميع عن طريق هذه الشعارات الإعلامية الرهيبة .

فأخذ البابا منذ ذاك الوقت يماثل ملوك أوروبا وأمراءها على
أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها ، وهذا أيضا يعتبر شعارا إعلاميا
مؤثرا يجسد رغبة الكنيسة فى الهيمنة والسيطرة ، وعلى ذلك فقد
اعتبر البابا نفسه رأس المعالم المسيحية أجمع ، فأخذ يمد أنفه إلى
كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى لغرب أوروبا ، زيادة على
الهيئات الدينية .

واقـد كانت لهذه الشعارات الإعلامية التى أخذت الكنيسة
تنشرها هنا وهناك وتدخلها فى نطاق التطبيق العملى آثار بعيدة .
المدى فى مضاعفة نفوذ الكنيسة ، الأمر الذى سهل أمامها الطريق
لكى تقود الحروب الصليبية وأن تدعو إليها . وأن تعتبرها حربا من
أجل الكنيسة ، وأن تسميها - بناء على هذا الاعتبار - الحرب المقدسة
أو حرب الصليب أو حرب الخلاص .

الثانى: بقيادة الادعائين من العامة والنسوى تحت اوائه طبقات
الشعب الدنيا التى وجدت فى الحروب الصليبية متنفسا لها من
الكبت والحرمان اللذين تعانى منهما ، ومنطلقا لها من الذل والهوان
اللذين يحيطان بها من كل جانب .

ولقد وجدت الكنيسة ومن ورائها الملوك والأمراء والنهلاء والقادة
أنه من العار عليهم أن يلتحقوا بهذه الحملة من العامة ، والعامة من
جانبيهم عرفوا مكانتهم فاستقلوا بحطبتهم ، والكنيسة من جانبيها هى الأخرى .
باركت ذلك الوضع وشجعت رغبة منها فى ألا يتخلف أحد عن الفـوز
مهما كانت مكانته من المجتمع .

وأستطيع أن أقول بعد ذلك بأن دعوة الكنيسة في نظري كانت تمثل الإعلام الرسمي للدولة الذي يأمر فيطاع ، والذي يوجه فيمتنع ، والذي يملك من الإمكانيات والوسائل ما لا يقدر على امتلاكها إلا هي وحدها .

أما الادعائيون من العامة فكانوا يمثلون في نظري الإعلام الشعبي المشارك لإعلام الدولة أو الإعلام الرسمي ، لأن هذا الإعلام الشعبي الجارف أو قدر له أن يتعارض أو يتقاطع مع إعلام الدولة لتفسير الوضع وانقلب الحال .

لقد سار الإعلامان أثناء تلك الفترة جنباً إلى جنب في خطين يلتقيان من أجل تحقيق هدف واحد هو القضاء على الإسلام في مقر داره ، وهذا الهدف هو نقطة الالتقاء بين الخطين المتماثلين ، وبذلك يصبح الإعلامان إعلاماً واحداً تلقائياً .

وهذا ما حدث تماماً عند ما التقت الحطتان في القدس واستوليا عليه من أيدي المسلمين في الحرب الصليبية الأولى .

ولقد قام هؤلاء الادعائيون من العامة بجهود كبيرة واسعة النطاق في الدعاية لمشروع الحرب المقدسة ، مستخدمين في ذلك شتى الوسائل من اختلاق الأكاذيب وتضخيم الأخبار وتلفيق التهم من أجل كسب الرأي العام الأوروبي واشترائه عن بكرة أبيه في تلك الحرب العدوانية .

ويذكر التاريخ دائماً على رأس هؤلاء الادعائيين اسم "بطرس الناسك" ، وهو رجل متقدم في السن حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس ، لكنه تعرض في الطريق لبعض المصاعب الشخصية فعاد إلى بلده دون أن يحقق أمنيته ، مما ترك أثراً في نفسه ، ويظهر أن حماسة "بطرس الناسك" وفصاحته وهيئته الغريبة وثيابه المهلهلة وقديسه العاريتين وحماره الأعرج جعلت كلها منه شخصية إعلامية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والديماغوج في غرب أوروبا .

واقـد طفق " بطرس الناسك " يتجول بين بادان أوروبا راكبا
حماره الأعرج تارة أو بغلته الهزيلة تارة أخرى قابضا بيديه على رمزه
الإعلامى وهو الصليب مناديا بالحرب المقدسة أو حرب الصليب فى
الطرقاـت والأزقة والكنائس والأديرة شارحا ما يقاسيه نصارى الشرق
من ألوان العذاب تحت حكم المسلمين ، مستغلا فى ذلك وسيلة
إعلامية من أهم وسائله المؤثرة فى الجماهير وهى وسيلة الاتصال الشخصى
المباشر .

يقول المؤرخون إن " بطرس الناسك " ادخر فى ذهنه من قوة
التأثير ما كان يثير الرجال ويحرك مشاعرهم ، ولكى يكون تأثيره فى الناس
أقوى واثارته لهم أشد ، قام بإحاطة نفسه بجو غريب من السلطنة
والنفوذ .

وهروى " جيمرت فوجيننت " الذى يعرفه شخصا فيقول :

" مايردده " بطرس " أو يعقله ، يتراى على أنه من
صنع الله " (١)

ولقد أدرك " بطرس الناسك " تلك الفكرة الشائعة عن نفسه بين
الناس ، فذهب فى تصوير ما يعانى منه النصارى على أيدي المسلمين
مذاهب أبعد ما تكون عن الحقيقة ، إذ زعم أن المسلمين يعتدون
على الحجاج النصارى ، ويستولون على أموالهم ويفتكون بهم ومن معهم
لا يرحمون شيخا ولا طفلا ولا امرأة .

لهيكن " بطرس الناسك " من ذوى المكانة أو الخطر ، ولكن ليس
من شك فى أنه كان قديرا على مخاطبة جمهور الرعاى من شعوب
فرنسا ، وكان من دأبه السير حافى القدمين فى ثياب قدرة ، ولعلـه

(١) د . على عبد الحليم محمود : الفوز الصائى والعالم الإسلامى ، ص ٢٩
نقلا عن : " ستيفن رنسيان " ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

واحد من الذين كانوا يطلقون عليهم لفظ "المجنونيين" الذين كانت تحفل بهم العصور الوسطى ، وكانوا كلما ازدادوا قذارة ازداد إيمان العامة بهم ، وليس أدل على أنه كانت به "جذبة" من أنه كان يقتصر في طعامه على السمك فلم يعرف عنه أنه تناول اللحم أو الخبز ، وكانت هذه مدعاة لالتفاف الجماهير حوله والإيمان بأن في أثواب هذا الرجل قديسا حتى لمصغه من التقى به أنه كان " نصف ملهم " .

لذلك استطاع "بطرس الناس" أن يجمع حوله خمسة عشر ألف صليبي على أقل الروايات ثم يسير بهم ليساهم في القضاء على الإسلام وأهله حسبما كانوا يأملون .

ولكن الدعاة المصلحين الذين باعوا أنفسهم لله وخرجوا ابتغاء مرضاته تعالى ليفوزوا بإحدى الحسنين ، الشهادة أو النصير لاتهمهم الدنيا في شيء ، ولا يؤثر فيهم ما قد يصيبهم في سبيل الله من جوع أو ظمأ أو نصب .

قال تعالى :

" قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . قل هل تترهبون بنا إلا إحدى الحسنين ونحن نترهبكم بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم تترهبون " (١) .

وقال تعالى :

" الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا " (٢) .

أولئك هم الذين يقاتلون في سبيل الله ، أما أولئك الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت والذين خرجوا ابتغاء عرض دنيوى أو شرف قبيلى

(١) التوبة : آية ٥١ ، ٥٢ .

(٢) النساء : آية ٧٦ .

فإنهم لا يصمدون أمام الشدائد وسرعان ما تنهار عزائمهم وتخور قواهم ويولون الدبر .

وهذا ما حدث لزعم حطة الرعاع " بطرس الناسك " نفسه عندما أصيب جيش الصليبيين بهجاعة فتاة أمام قلعة " أنطاكية " ولم تقف عند حد موت البعض بل تعدتها إلى أعمال أدت إلى إضعاف السروح المعنوية .

وفي تلك الظروف الحرجة والأوضاع الصعبة ، أخذ بعض الصليبيين يفرون من المعركة ويتسللون خفية ، ولم تقتصر هذه الظاهرة على الجنود المغمورين ، بل ان (بطرس الناسك) نفسه و (ولیم النجار) أمير (ميلون) إختفيا فجأة ، فجد (تنكريد) في آثارهما حتى قبض عليهما ، وأعادهما إلى المعسكر الصليبي بعد أن وبخهما علناً لهروبهما ، وأخذ عليهما تعهدا بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس " (١) .

" كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فذهب جفاً ، وأما ما ينفع الناس فيك في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال " (٢) .
حقاً لقد كان " بطرس الناسك " وأمثاله زبدا فذهبوا جفاً .

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، ص ١٨٨ ،
د . حسن حبشي : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٥٥ .
(٢) الرعد : آية ١٧ .

٣ - الرؤى والتنبؤات وأثرهما فى بث الحماسة الجماهيرية :

عندما تتأزم الأمور وتحتدم الأحداث وتختلط الحقيقة بالخيال
تكثر الرؤى والتنبؤات وتنتشر الشائعات .

والملاحظ أن لكل أمر من الأمور رؤيا تناسبه ، ولكل حدث من
الأحداث نبوة توافقه ، فإذا كانت الأحداث تنبئ بالخطر وتنذر
بالشر ظهرت النبوءات لتحاول أن تدفع هذا الخطر والخوف بعيدا
عن الجماهير الذمومة ، وإذا كانت الأمور تسير نحو الهاوية جارفة
معها روح الجماهير المعنوية فإن رؤيا مناسبة قد تسك بالزمام ، وترفع
من روحه وتشد من عزائه وتقوى من أمله .

وما دام رأى العام والهدف الرئيسى الذى يسعى إليه الإعلام
فى كل زمان ومكان ، يعمل على احتوائه والتأثير فيه ، فإن كل ما يتصل
بالرأى العام هو فى نظرى إعلام .

من أجل ذلك يحاول الإعلام جاهدا أن يصل إلى هدفه الرئيسى
الذى يتركز فى رأى العام بشتى الوسائل والأساليب وتذكر منها طسى
سبيل المثال :

التكرار والملاحقة : والحقيقة أن هذا الأسلوب فى مخاطبة رأى العام
هو أحد الأساليب الشائعة التى تسلكها الدعاية فى شتى
المجالات ، وخاصة إذا اتجهت إلى مخاطبة الأحاسيس والمشاعر لتصبح
فى النهاية فكرا عند المخاطبين .

الإثارة العاطفية : وهذا الأسلوب فى مخاطبة رأى العام قد لا يلتزم بتوصيل

الحقائق إلى رأى العام بحدى ، ذى بد ، مما يستدعى
إثارة العاطفة عن طريق الكذب والتضليل والخداع ، ولكن يضمن استمرار
وضوله إلى أهدافه لاهد أن يعمل على توجيه الجماهير ، وعدم السماح
بوصول آراء مخالفة أو دعاية مضادة .

تحويل انتباه الجماهير : ويأتى هذا الأسلوب فى مخاطبة الرأى العام

حين يصعب فى أحيان كثيرة معارضته فى فكرة أو موضوع معين ، لأن معارضة الجماهير ، والوقوف أمام التيار الجارف لن يكون مجديا حتى ولو كان الرأى العام على خطأ .

وفى مثل هذه الحالة لا يجد المسئولون عن طريق أجهزة الإعلام سوى تحويل انتباه الجماهير إلى موضوع آخر يكون مساويا للموضوع المشار أو ربما كان أكثر أهمية منه .

والرأى والتنبؤات تدخل من وجهة نظرى ضمن الأسلوب الثانى وهو أسلوب الإثارة العاطفية للرأى العام .

وتعتبر الرأى والتنبؤات عنصرا هاما من عناصر الحرب الباردة ، أو الحرب النفسية ، وهى الحرب التى يلجأ إليها الغزاة لتمهيد أو تثبيت الحرب الساخنة * الحرب العسكرية * ، وهذا الأسلوب فى مخاطبة الرأى العام يعتبر من الأساليب التى تعود أصولها التاريخية إلى الماضى السحيق ، ومن أبرز الأمثلة على هذا الأسلوب موضوعنا هذا ، أى (الحروب الصليبية) التى استخدمت الدين معوانا لها فى إثارة الرأى العام كمبرر لشن هذه الحرب العدوانية التوسعية .

ثم لجأت بعد ذلك إلى الرأى والتنبؤات لتثبيت أركانها فى العالم الإسلامى عن طريق رفع الروح المعنوية للمقاتلين حين كانت تنزل بهم نازلة أو تحقيق بهم كارثة .

ففى * أنطاكية * طال حصار الصليبيين داخلها حتى شححت المؤنة والأقوات واشتد بهم الضنك ، وأجتهد قوام الدولة كبريغا صاحب

الموصل في تشديد الحصار عليهم ، فساءة حالتهم " ولم يبق لهم ما يأكلونه ، وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر " (١) . واستمر الحال على ذلك حيث تتالت الضربات على الصليبيين ، وحلت بهم بقى منهم في أنطاكية ساعات رأوا فيها رؤيا العين ماينتظرهم من مصير قاتم وهزيمة نكراء .

وهنا لم يجد الصليبيون بدا من اختلاق نبوءة أو رؤيا ترفع من روحهم المعنوية وتعهد إليهم بعضا من قواهم الخائرة وعزمهم المنهكة .

وكانت النبوءة التي انتشرت بين جيش الصليبيين من أنهم سيمتصرون على جيش كربوفا انتصارا ساحقا ، ولم يجدوا أحدا ينسبون إليه تلك النبوءة إلا أم كربوفا نفسه في حديث دار بينهما على حد قول مخلق النبوءة .

وجاء في أخبار تلك النبوءة المزعومة أن أم كربوفا جاءت من حلب وسألت ابنها وهو يحاصر أنطاكية قائلة : " أحقا يا بني ما سمعته .. ؟ " فسألها : " وماذا سمعت يا أماء .. ؟ "

قالت : " علمت أنك ماض لمحاربة جيش الفرنجة "

فأجابها : " لقد علمت الواقع . "

فقالت له : " أستحلفك يا بني بجميع الأرباب (٢) وحقوق طبيعتك السمحة أن ترجع عن قتال الفرنجة ، وأتوسل إليك يا ولدي الحبيب أن تستمع إلى نصائحي وألا تحاول مطلقا التفكير في قتال الأمة المسيحية أو الشروع في منازلتها . "

فلما سمع كربوفا هذه النصائح من أمه أجابها خائفا : " ماذا

تقولين يا أماء وما الذي تحكيه ؟ أترك مجنونة أو مستك لومة ؟ إن

- (١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٨٧ (أحداث سنة ١٢٩١ هـ) .
- (٢) هذه العبارة تظهر بجلاء أن هذه المعادثة كانت من وحي خيال كاتبها ابتداء ، والخطأ فيها لا يحتاج إلى دليل على جهل كاتبها المطبق وجهل أهل العصور الوسطى في الغرب بالإسلام وحقيقته وهي أن جوهره التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى .

معى كثيرا من الأمراء الذين لا يتوافر مثلهم للمسيحيين صفارا كانوا أم كبارا .

فأجابه أنه : " يا بني العزيز : إن النصارى لا يستطيعون الوقوف أمامك فى الحرب وأعرف أنهم عاجزون عن النهوض لقتالنا ، إلا أن ربهم يحارب دائما فى صفوفهم كما أنه يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهارا حماية الراعى لقطيعه ، ولا يرضى لأمة ما أن تسبهم بأذى سوء أو شقوة ، وأن إليهم ليؤذى كل متطلع لمقاومتهم ، والواقع أنك إذا بدأت بحربهم يؤت بالخسارة الفادحة والعار المقيم ، وستفقد كثيرا من فرسانك المخلصين وتخلف وراءك كل غنيمتك هاربا بينما يلاحقك الفزع الشديد .

أجل إنك لن تموت فى هذه المعركة بل فى بحر السنة ، ذلك لأن الرب فى غضبه لا يدين قورا من أساء إليه بل يمهله ويؤجل حسابه إلى اللحظة التى يشارها ، هو ذاته - فينتقم منك أظن انتقام . ولهذا السبب أخشى أن يراك مستحقا العذاب الشديد ، لكننى أقول لك إنك ستفقد كل ما تملكه الآن يداك .

وتتابع النبوءة قائلة إن كربوغا تأثر غاية التأثير بما سمع وأجاب أنه على كلامها بقوله : " يا أسمى الغالية : أتوسل إليك أن تذكرى لى من ذا الذى أنبأك بكل هذا القول عن الشعب المسيحى ؟ .. ومــــن أنبأك أن ربه يحبه إلى هذه الدرجة حتى ليمده بمثل هذه القوة فى القتال ؟ .. ومن ذا الذى حمل إليك أن الغلبة ستكون لهؤلاء المسيحيين عابثا أمام أنطاكية وأنهم سيستولون على غنائمنا ويهضون فى آثارنا عقيب نصرهم المؤزر علينا ، ومن قال لك أن الغلبة سوف تخترمنى فجأة فى سنتى هذه ؟ ..

فأجابه : " لقد تبعتك - والأسمى يرمضنى - من حلب ، تلك المدينة العظيمة التى استطعت فيها عن طريق التدقيق والبحوث الحاذقة

من مطالعة النجوم وساءلة الكواكب والبروج الإثنى عشر والتنبيؤات
العدة ، فأنبأتني كل هذه الظواهر أن الشعب المسيحي سيقهرنا
أنى كنا ، وأنى لأضطرب فزعا وحزنا مخافة أن أحرم منك .
فأجابها كربوفا : " لن أكف عن قتالهم حتى ولو كان الأمر
كما تزعمين " (١) .

من الواضح أن هذه الحادثة لا تحتاج إلى كثير عناء لتفنيدها ،
ووصفها بأنها خرافية ومن وحى خيال المؤلف وأوهامه ، لأن كربوفا
كان قائدا مسلما وأنه كانت امرأة مسلمة .

فهل يمكن لعقل ولو كان أقرب إلى الجنون أن يصدق ما جاء في
هذه الحادثة الخرافية ؟ وهل يمكن لهذه الأم السليلة أن تكون
داعية للصليبية أكثر من الصليبيين أنفسهم وهي تقرأ قول الله في كتابه
العزیز ؟ :

" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم
أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القسوم
الظالمين " (٢) .

وهل يمكن لهذه الأم السليلة أن تستشير النجوم وتساءل الكواكب
والبروج ، وهي تقرأ قول الله في كتابه العزیز ؟ :

" وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر
وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس
إلا فى كتاب مبين " (٣) .

(١) د . حسن حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٧٦ و ٧٧
(دار الفكر العربى) ١٩٥٨ م (وهو مترجم عن كتاب " الجستا " كتبه
شاهد بيان كان ضمن الحملة الصليبية الأولى وقد تناول الفرنج
والحجاج النصارى الذين شاركوا فى تلك الحملة) .

(٢) المائدة : ٥١ .

(٣) الأنعام : ٥٩ .

وهل يمكن لهذه الأم السلسلة أن تتنبأ بالموعد الذى سيحدث فيه
ابنها وهى تعلم علم اليقين أن لكل أجل كتاب وأن الأعمار بيد الله ،
وأنه قال سبحانه فى كتابه العزيز ؟ :

"إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام
وما تدرى نفس ما ذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله
عليهم خبير " (١) .

تتالت الضربات بعد ذلك على الصليبيين فى أنطاكية وهم
محاصرون فيها ، ولقد أدركوا تمام الإدراك أنه إذا هانت عزائمهم
وخارت قواهم أدى ذلك إلى فنائهم ، غير أن لكل نفس طاقة لا تستطيع
أن تتحمل أكثر منها ، وتأكد الزعماء الصليبيون أن الروح المعنوية
للجيش الصليبي فى انهيار مستمر ، وأيقنوا أن لابد لهم من حدوث
معجزة .

فكانت المعجزة هى " الحرية المقدمة " . .

ذلك أن أحد دعاة الصليبيين واسم " بطرس بارتلميو " زعم
أن القديس " اندراوس " تبنى له فى نومه فى الأشهر الخمسة الأخيرة
خمس مرات ، أمره فى الأولى أن يمشى إلى " ريموند كونت صنجيل " ليعبره
بأن الحرية التى طعن بها المسيح - حسب زعمهم - مدفونة فى كنيسة
القديس بطرس بأنطاكية وزعم " بارتلميو " أكثر من ذلك أن القديس أخذ
إلى حيث الحرية مطمورة وأخرجها له ليقطع الشك عنده باليقين ثم
أعادها إلى مكانها ، غير أن " بارتلميو " لم يصدق بأمر القديس " أندراوس " الذى
ظهر له بعد شهرين مؤنبا إياه ، وأمره أن يمشى إلى المعسكر
لينسئ المسئولين أن جميع القديسين سوف يحاربون إلى جانبهم ، غير
أن مكانته المتواضعة من الأمراء والقادة جعلته يتردد فى الإفضاء
برؤياه خوفا من أن يكذبه ، وكانت المرة الخامسة والأخيرة حيث صاح
الأمراء غدا هذا اليوم بالرؤيا .

ويقول "بارتلميو" إن "القديس أندراوس" جاءه وقال له : "لماذا لم ترفع الحرية من باطن الأرض كما أشرت عليك ؟ ألا فاعلم أنه لن يفلسب قط قوم يحملون هذه الحرية معهم في القتال ."

سبحان الله : إنه التوقيت الدقيق للافضاء بهذه الرؤيا ، لقد جاءت في وقتها تماما يوم ١٠ يونيو سنة ١٠٩٨ م / ٤٩١ هـ .

كان الخوف قد استولى على نفوس الصليبيين في ذلك اليوم ، وكانوا يتوقعون الموت بين لحظة وأخرى على يدي كربوغا ، الذي شدد عليهم الحصار حتى عمت المجاعة واشتد الهول ، فلم يجد بعض الصليبيين وعلى رأسهم ريموند كونت صنجييل "مفرا أمام وضعهم المتدهور — أن يصحبوا "بارتلميو" ويتوجهوا معه إلى كنيسة "القديس بطرس" ، وظلوا يحفرون طول يومهم على مشهد من الحجاج المتجمعين حتى عثروا على الحرية في النهاية ، وكان العثور عليها يوم ١٤ يونيو سنة ١٠٩٨ م / ٤٩١ هـ ، فهلل القوم لمرآها وتلقوها بفرح شديد وهيبة عظيمة ، وعمت المدينة بهجة شاملة وارتفعت روح الفزاة المعنوية .

وهذا هو بعينه ما كان مقصودا من اختلاق تلك الرؤيا في ذلك الوقت بالذات الذي كان الصليبيون ينتظرون فيه الموت أو الأسر .

ولقد أرجع الصليبيون بطبيعة الحال أسباب انتصارهم في أنطاكية إلى هذه الحرية التي كما ادعى صاحب الرؤيا المزمومة أن جيشا يحملها معه لا يمكن أن يهزم أبدا .

أما المؤرخون المسلمون فيقولون بشأن هذه الحرية : إن راهبا مطاعا من الفرنجة — وكان داهية من الرجال — قد دفن حرية في مكان ما بالكنيسة ، ثم أدخلهم الموضع ومعهم عاتتهم والصناع وحفروا جميع الأماكن فوجدوها (١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٨٧ .

تلك كانت حقيقة الحرية الخرافية ، ولا شك أنها أدت دورها
الإعلامي كاملا في حينه فرفعت من الروح المعنوية الصنهاية المسلمين .
أما الأسباب الحقيقية التي كانت وراء انتصار المسلمين ففى
أنطاكية بعد أن أحيط بهم من كل جانب وبعد أن أوشكوا على
الهلاك فلا يرجع الفضل فيها إلى الحرية المزعومة ، ولا إلى شجاعة
المسلمين وسالتهم ، ولا إلى معارضة القديسين بجانبهم كما تزعم رؤسهم
ولكنها تعود بالدرجة الأولى إلى الجانب الإسلامى ولما وقع فيه من
خلاف وفرقة ، وما حل به من خلل وفساد .

وتتلخص هذه الأسباب فى أن جيش المسلمين بقيادة كربوفا كان
يعانى خلا واضحا فى صفوفه مما طاد عليه بالخسارة ، وبخاصة وأن
رضوان ملك حلب رفض المشاركة فى الجيش الإسلامى الذى خرج لاسترداد
أنطاكية من المسلمين مما خلق جوا من القلق والاستياء فى صفوف
المسلمين .

كذلك كان من هذه الأسباب تعنت كربوفا واستبداده برأيه وعدم
الأخذ برأى الجماعة حين أشار عليه بعض الأمراء والمسلمين ألا يمكن
المسلمين من الخروج متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك ، ونصحوه بأن
يقتل كل من يخرج منهم فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل . فقال :
" لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم مجتمعين " .

وبذلك أضاع كربوفا الفرصة ، إذ تكامل الصليبيون وأنزلوا الهزيمة
بالمسلمين " لما طلمهم كربوفا أولا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم ،
وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوفا ، فانفض عنه كثير من الأمراء ، وعند هذا
لجأ كربوفا هو الآخر للفرار ، وذلك عمت الكارثة " (١) .

ومرة أخرى تعود الروى من جديد أمام " عرقه " حيث وقف " ريمون
الصنجيلى " عاجزا عن اقتحامها ، فعزَّ عليه ذلك ، وأدرك أن زعماء

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٨٧ ، أحداث سنة ١٢٩١ هـ .

الصلبيين الآخرين يعارضونه ويلحون عليه فى الزحف على بيت المقدس ،
وخشى أن يعمدوا إلى إثارة رجاله ضده ، وإن ذاك يوقع فى يده وتفوت
عليه فرصة القيادة الحربية .

حينذاك جاءت النجدة - ولعله كان قد رتبها - فى شخصية
صاحب رؤيا الحرية المزعومة " بطرس بارتلميو " الذى كانت تترى (١)
عليه الرؤى كلما حزب كبار الصليبيين أمر ، فعمد " بطرس " إلى حمل
الحجاج النصارى على الوقوف إلى جانب صاحبه " ريموند الصنجيلسى "
بوجوب الهجوم على عرقه بدعما كعادته أن القديسين " أندراوس " و
" بطرس " جاءا ، فى نومه فى صحبة السيد المسيح وطلبا منه سرعة
الهجوم على " عرقه " .

لكن المتشككين لم يستطيعوا كتمان شكهم فى صدق " بطرس
بارتلميو " وجهروا به ، فحاجبهم " بطرس " أن يمر بالنار فإن سلم كان
بها وإلا فلا داعى للترتب فى طرابلس ، واضطر " بطرس " والحالة هكذا
أن يمر بالنار ، لكنه لم يلبث أن مات بعد بضعة أيام متأثرا بجراحه .

ولقد أدى موته إلى إجماع الرأى على رفع الحصار عن عرق دون أن
يتمكنوا من اقتحامها ، ولم تنفعهم رؤيا " بطرس بارتلميو " ولا ادعاءه
بزيارة القديسين " اندراوس " و " بطرس " بصحبة السيد المسيح .

وإذا كان " بطرس بارتلميو " قد هلك فهناك أكثر من " بطرس "
سوف يظهر برؤياه المزعومة فى كل زمان ومكان .

وإذا كان للرؤى دخل فى موقف الصليبيين أمام أنطاكية من قبل ،
فقد كان لها دخل فى هذه المرة أيضا حول بيت المقدس عندما أخذ
المسلمون من جانبهم مهاغتون العدو بهجمات طارئة قصيرة المدى على
غير توقع ، فكان ذلك أشد خطرا على الصليبيين من الحرب النظامية .

(١) تترى : كلمة أصلها وترى ، وهى اسم ، قلبت الواو تاء فصارت تترى ومعناها
متابعة .

ولما كان المسلمون يدركون انعدام الماء عند المهاجرين وسفرهم سافة ستة أميال في طلبه فقد راحوا ينصبون لهم الكناثر في الطريق ، وآذوهم بذلك إيذاً شديداً هلك من جرائه جمع فقير منهم ، ما سلا قلوب الصليبيين باليأس وأضعف روحهم المعنوية إلى حد كبير ، وهنا يبدو الصليبيون في أسس الحاجة إلى رؤيا مزعومة تعيد إليهم بعضاً من قوتهم الخائرة ، لكن "بطرس بارتلميو" قد هلك ولا بد من إيجساد "بطرس" جديد يقوم بهذه المهمة ، ووقع الاختيار على أحد القسيس واسمه "بطرس ديزيد بيريوس" الذي ذكر أن أسقف بوى" الراحل تجلى له في النوم طالبا إليه أن يأمر الصليبيين بالكف عن أنانيتهم ، وأن ينفذوا تلك الأثر التي يأبسون التخلي عنها وأن يصدقوا النية في أداها ما نهضوا من أجله ، وأنه يأمرهم بالخروج حفاة في موكب يسرون به حول أسوار بيت المقدس متوجهين بقلوب صافية إلى الله حتى يواتيهم النصر المهيمن الذي يقدره بعد تسعة أيام من ذلك الموكب ، ولقى هذا الحليم تعديقا طاماً بين جماعات المحاربين كبارهم وصغارهم فراحوا ينفذون ما أوصى به الأسقف للقسيس ذلك لأن تلك الرؤيا المزعومة جاءت في وقتها تماماً لكي تشد من العزائم الواهنة وتؤلف بين القلوب المتنافرة وتبث الأمل في نفوس المحاربين اليائسة .

كل ذلك من أجل القضاء على الإسلام وأهله آنذاك حتى ولو تحول السجد الأقصى إلى بركة من الدماء كما فعلوا بعد أن نكثوا بعهد كان "تكريد" قد قطعه على نفسه لجماعة من المسلمين أنهم على حياتهم . فكانت تلك الواقعة لظخة في تاريخ الصليبيين كما يقول "جروسية" (١) . كما أنها جعلت "الصليبيين لا يذكرونها إلا وتقشع أهدانهم فرطاً واشمئزازاً منها" على حد تعبير المؤرخ الصليبي "وليم الصوري" فلم يرحموا شيخاً الهرم ولا عالماً لفضله ولا طفلاً لضعفه ، ولا امرأة لعجزها .

وهكذا يفعل أعداء الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان ما لم يعتصم المسلمون بحبل الله جميعاً ، ويجاهدوا في سبيل الله حق جهاد .

(١) د . حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ١٧٩ هـ نقلاً عن : "جروسية" .

الفصل الثالث

"وسائل الدعاية التي استغلها الصليبيون في حربهم ضد المسلمين"

- ١ - اتخاذ الصليب رمزا اعلاميا لستر الأطماع الحقيقية للصليبيين .
- ٢ - رفع الشعار الإعلاني الصليبي القائل بإنقاذ بيت المقدس من المسلمين بدعوى توفير الأمن للحجاج المسلمين .
- ٣ - انتشار الشائعة التي تقول بظهور المسيح في بيت المقدس طس رأس ألف من التاريخ الميلادي .

١ - اتخاذ الصليب وغيره من الرموز الإعلامية ستارا يخفى وراءه الصليبيون
أطماعهم الحقيقية :

ساد الرأي العام الأوروبي في العصور الوسطى الكثير من العوامل
الفكرية التي أثرت فيه ودفعته إلى القيام بهذه الحروب التوسعية ضد
العالم الإسلامي ، وكان من أبرز هذه العوامل في الظاهر العامل الديني
فقد دأب إلى هذه الحروب رجال الدين بحماسة شديدة ، وأحاطوا
بمعانيهم ورعايتهم ، وقدم إليه الهبات كل عون وساعدة .

الأمر الذي طبع فكرة الحروب الصليبية بطابع الدين مظهرها ، والطابع
التوسعي سلوكا ومخبرا ، حيث ارتبطت الحروب الصليبية بمبدأ محاربة
المسلمين ودفع خطرهم أينما وجدوا .

والرغم من المثل الدينية التي سادت الرأي العام الأوروبي في
تلك العصور ، وتحكمت فيه حتى سميت " عصور الايمان " إلا أن ظروف
الحياة للغالبية العظمى من أهالي أوروبا اضطرتهم إلى أن يعيشوا
حياة دنيوية بعيدة عن " الديرة " وغيرها من طقوس الحياة الدينية ، وقد
ظل هذا الفارق يشعر بفراغ ديني كبير حتى وجد ضالته أخيرا في
الحروب الصليبية ، وهي الحروب التي ستتيح له فرصة تقبيل الصخرة التي
صلب عليها المسيح (١) ، والتي ستكفيه من السجود أمام قبره ، وبـ
دخول الجنة نفسها . . . إلى غير ذلك من ضروب الإغراء الكفيلة بأن
تحرك مشاعر كل مسيحي مخلص في تلك العصور (٢) .

وأمر طبيعي أن يعطى الرأي العام الأوروبي بهذه الصبغة
الدينية التي سادت القرون الوسطى .

(١) تلك هي عقيدة المسيحيين في نبي الله عيسى عليه السلام ، والتي
تخالف عقيدتنا نحن المسلمين حيث يقول الله في كتابه العزيز -

" وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم " .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ج ١

، ص ٢٨٨ نقلا عن : " رنسيان " .

والرموز الإعلامية في ذلك شأنها شأن أي جانب من جوانب الحياة التي تسر الرأي العام وتؤثر فيه ، وبالتالي كان لزاما عليها أن تكون دينية الصبغة حتى تستطيع تأدية دورها كاملا من حيث تأثيرها في الرأي العام واستقطابه ، وكل ذلك من أجل تحقيق هدف معين تسعى إليه السلطة الحاكمة أو المتحركة آنذاك وهي الكنيسة .

وهذه الرموز هي التي يطلق عليها بعض الإعلاميين كلمة " الأنماط " والأنماط ليست في حقيقة الأمر سوى رموز تستخدم على نطاق واسع في عملية تكوين الرأي العام ، حيث تصبح الألوان إذا رمزت إلى شيء معين وكذلك الهيئة المميزة والأعلام ، رموزا إعلامية .

وتتبع هذه الأنماط أو الرموز الإعلامية الشائعة من خاصيتين نفسييتين أساسيتين هما :

خاصية تحويل المجردات إلى محسوسات ، وخاصية التبسيط ، فاستخدام الأنماط في عملية التفكير ضرورة يلجأ إليها العقل لتبسيط العملية وتنظيمها ، وتعتبر الأنماط عادة من مجموعة من الأفكار السابقة المكتسبة من الأحداث التاريخية للجماهير والتي جمدت مع الزمن .

ومن مزايا استخدام الأنماط أو الرموز الإعلامية سهولة التذكر وسهولة الترويج وسهولة الإثارة ، وخاصة على النطاق الجماهيري الواسع وهذه المزايا نفسها هي التي تجعل منها سلاحا خطيرا ذا حدين (١)

فالعباسيون مثلا حين قاموا بدعايتهم ضد الدولة الأموية جعلوا من اللون الأسود رمزا إعلاميا لهم يشير شجونهم ويدفعهم إلى الأسى والحزن ، ويذكروهم دائما بما حل بآل البيت من قتل وظلم على أيدي بعض الحكام الأمويين ، ومن هنا لقب العباسيون بأصحاب الرايات السوداء .

ثم جاءت الحملات الصليبية على العالم الإسلامي مستغلة الرموز الإعلامية المتعددة في تحريك الرأي العام الأوروبي وإثارة مشاعره ودفعه

(١) د . مختار التهامي : الرأي العام والحرب النفسية ج ١ : ص ٨٢ (دار المعارف بمصر) ط ٣ (١٩٧٤ م) .

إلى أن يتذكر دائماً أنه صليبي .

لذلك أخذ كل واحد من هؤلاء الفزاة الصليبيين يخطط على رداءه الخارجى صليبا من القماش الأحمر القانى ، ومن ثم أطلق عليهم اسم "الصليبيين" ، كما أطلق على الحروب التى شاركوا فيها اسم "الحروب الصليبية" .

ويتضح مما جاء فى كتب التاريخ أن العديد من الصليبيين قد حرص قبل الحروب الصليبية بقرون على اقتناء مثل هذه الرموز التى أطلقوا عليها "الآثار المقدسة" ، ومن ثم كانت المحافظة عليها ، وتجميع الرأى العام النصرانى حولها عن طريق إشاعة الكثير من القصص والأساطير فيها والتحويل من قدرتها ، والتركيز على أن هذه الرموز أو الآثار المقدسة تظهر النفس من أدرانها ، وتكفر عنها الآثام والذنوب .

ولم تقتصر فكرة القداسة على بيت المقدس أو الآثار المقدسة وحدهما ، بل شملت كل مكان ظهر فيه قديسون شهداء ومباركون على حد زعمهم .

من ذلك على سبيل المثال ما نطالع من أن الملكة "هيلانة" - والدة قسطنطين - قد حجت إلى بيت المقدس فى القرن الخامس الميلادى حيث عثرت حسب زعمها على خشبة الصليب المقدس فى موضع كان من المواضع التى يحج إليها النصارى فى العصور الوسطى .

كما نطالع أيضا أن الإمبراطورة "يودوكيا" هجرت حياة السلاط الإمبراطورى واعتزلت فى بيت المقدس شفاءً لجراح نفسها ، وعملت على العناية بالآثار المقدسة ، فأخذت تجمع كل ما تصل إليه يداها ، وتهمس به إلى القسطنطينية (١) .

ولقد ظلت الأجيال تتوارث هذه الآثار المقدسة كرموز إعلامية لها

(١) د . حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ١٨ نقلا عن :
"بيورى" .

من التأثير القوي ما يجعلها تستقطب الرأي العام وتؤثر فيه . برز ذلك
جليا في أثناء انعقاد مؤتمر "كثير مونت" بفرنسا حيث خطب البابا
"أوربان الثاني" خطبته المعروفة مما ظهر أثرها في ركوع "أديماردي مونتيل"
أسقف بوي "تحت قدسي البابا حاملا عليه مقلا إياه ، وكان أول من حمل
الصليب ، فجعله البابا قائد الحطة .

وحين بلغ الصليبيون من الانهيار المعنوي حدا بدا معه أنهم
موشكون على التسليم وهم محاصرون في "أنطاكيا" ، لم يجد الصليبيون
بداً من استغلال هذه الرموز الإعلامية في تغيير الوضع إلى صالحهم
وكانت قصة "الحرية المقدسة" والتي سبق الحديث عنها في الفصل
الأول عند الكلام عن "الرؤى والتنبؤات وأثرهما في بث الحماسة
الجماعية" .

ولقد انطلت هذه الفرية على الصليبيين آنذاك فرفعت من روحهم
المعنوية المنهارة حين أشيع بينهم أن هذه الحرية لن يهزم جهش
يحملها .

وبلغ الصليبيون قمة إيمانهم بهذه الرموز حول "طبرية" حين
أحاط بهم صلاح الدين الأيوبي من كل جانب ، ولم يجدوا سبيلا
أمامهم إلى الفرار .

"ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الإسلام عليهم ، وسير ذلك الجيش
إليهم ، علموا أن قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله ، وأن الإيمان كله قد
برز إلى الشوك كله ، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا وانتخبوا ،
ودخل القصر معهم بعد أن دخل عليه الملك ورى بنفسه عليه ، وصفوا
راياتهم بصفورية ولووا الألوكة ، وحشدوا الفارس والراجل والرامي والناهل
ورفعوا صليب الصليبيات ، فاجتمع إليه عباد الطافوت وخلال الناسوت
واللاهوت ، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقاليم ، وصلبوا للصليب
الأعظم بالتعظيم ، وما صاهم من له صي" (١) ٢

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٧٦ .

هذا هو الرمز الإعلاني بتأثيره الخرافي على عقول هؤلاء الذين يعتقدون أنه سر قوتهم ، والكامن وراء نصرهم أو هزيمتهم .

ولقد تستحكم هذه الرموز الإعلامية أو الآثار المقدسة من أصحابها حتى تلك عليهم عقولهم ، وتحيلهم شيئا فشيئا إلى عبادتها أو أقرب من ذلك ، ويعبر أبو شامة في "الروستين" عن ذلك أصدق تعبير فيقول : " ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصليبيات ، وأهلك دونه الطافوت ، وهو الذي إذا نصب وأقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، وقد فلقوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ، وأعدوه ليوم الرفع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود ، فإذا أخرجته القسوس ، وحطته الرؤوس ، تبادلوا إليه وانشالوا عليه ، ولا يسع أحدهم منه التخلف ، وللمتخلف عن أتباعه فسي نفسه التصرف ، وأخذ عندهم أعظم من أسر الملك ، وهو أشد معابها لهم في ذلك المعترك ، فإن الصليب السليب ما له عوثر ، ولا لهم في سواء فرض ، والتأله له عليهم مفترض ، فهو إليهم ، تعفر له جباههم ، وتسبح له أفواههم ، يتفashion عند احضاره ، ويتعاشون لإيماره ، ويتلاشون لإظهاره ، ويتفاضون إذا شاهدوه ، ويتواجدون إذا وجدوه ، ويهذلون دونه المهج ويطلبون به الفرج ، بل صافوا على مثله صلبانا يعبدونها ، ويخشعون لها في بيوتهم وشهدونها ، فلما أخذ هذا الصليب عظم معابهم ، ووهت أصلابهم ، وكان الجمع المكسور عظيما ، والموقف المنصور كريما ، فكانهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يؤسهم المعصيب ، فهلكوا قتلا وأسرا ، وملكوا قهرا وقسرا " (١) .

وإذا كان دهاء الصليبيين قد اتخذوا من الآثار المادية المحسوسة رموزا إعلامية يسيطرون بها على الرأي العام ويؤثرون فيه ويحركونه فأنهم لم يكتفوا بذلك ، بل لجأوا إلى أسلوب آخر في استغلال هذه الرموز

(١) أبو شامة : الروستين ج ٢ - ص ٧٨ ، ص ٧٩ .

الإعلامية عليه يكون أكثر تأثيراً في نفوس الجماهير ، كما زعم أحد سفار القواد الألمان واسمه "إميخ" لورد "ليزنجين" في منطقة الرين ، وكان "إميخ" هذا رجلاً يدرك مدى تأثير الخرافة على جماهير الشعب التي نهضت للحرب ، فزعم أنه أصبح ذات يوم ليجر صليها مرسوماً على جسده (١) .

وبذلك ازداد المؤمنون به ، وانشالت الجموع تحت لوائه ، واستطاع بهذه الحملة أن يخاف من أتباعه ويقوى عزائمهم ، ويدفعهم إلى الدفاع عن الصليب في حرب الصليب .

وبعض الصليبيون في استغلال هذه الرموز الإعلامية التي يرجعون إليها الفضل في أي انتصار يحرزونه دون النظر إلى أي أسباب أخرى .

من ذلك أن الصليبيين حينما وصلوا إلى مدينة (أزنيق) عاصمة كل بلاد آسيا الصغرى ، وشرعوا في مهاجمة المدينة من جميع نواحيها ستخدمين الأبراج الخشبية لهدم أبراج المنطقة ، وتم لهم ما أرادوا ، أرجعوا كل ذلك إلى الصليبان التي كان يتسلح بها "ريوند" قائد المعركة ، ويقول شاهد عيان - كما يزعمون -

"ولما كان ريوند" مسلحاً من جميع الجهات بعلامة الصليب فقد اشتد في الهجوم على أعداء الرب وكر عليهم كرة باسل وتمكن من قهرهم والظهور عليهم ، فلانوا بالفرار مخلفين وراءهم كثيراً من الموتى غير أن جماعة أخرى من الترك أقبلوا لنجدة الأولين ونفوسهم تغيى بالسرور والفرح بالنصر المحقق ، ولما كانوا في شدة النشوة فقد شرعوا في النزول بالتتابع من ذروة تل مرتفع ، لكنهم كانوا كلما نزلوا واستقروا في مكان ضربت أعناقهم بأيدي رجالنا الذين أخذوا يغمسون رؤوسهم ، القتلى في المقاليع ثم يقدفون بها إلى المدينة ليهشوا الذعر بين سكانها الأتراك" (٢) .

(١) د . حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ص ٦٥ نقلاً عن : "ألبرت دو أليكس" .

(٢) د . حسن حبشي : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٣٤ .

حدث كل ذلك من أهل الصليب باسم الصليب وبفضل ما كان يتسلح به "ريموند" من الصليبان حسب ما يزعم شاهد العيان الصليبي . .

والصليب كرمز إعلامي فرضه البابا "أوربان الثاني" فرضا على الخارجين لحرب الإسلام وأهله ، بل وجعله قانونا من قوانين هذه الحرب حين قال في خطابه "بكلير مونت" :

"إن كل مشترك في هذه الحملة لا بد أن يحمل علامة الصليب ولا بد أن يجعل على كتف سترته صليبا من نسيج أحمر اللون ، وكل من يتخذ الصليب ينهض أن يوفى بوعده بالسير إلى بيت المقدس ، فإذا لم يوف تعرض للقطع من الكنيسة أو الطرد منها إذا استدعى الأمر ذلك " .

ولقد رأيت من وجهة نظري أن طاعة الغزو الصليبي للعالم الإسلامي لم يكتفوا باتخاذ الرموز الإعلامية من المادة فحسب ، بل راحوا يضغطون على هذه المادة نوطا من الحياة حتى تصبح أكثر تأثيرا في سلوك الجماهير واتجاهاتها رغبة في السير قدما نحو الأهداف المرسومة لها .

ولقد رأيت من وجهة نظري أيضا أنهم لم يكتفوا بإضفاء الحياة على المادة لتصبح رمزا إعلاميا أكثر تأثيرا فحسب ، بل راحوا يستغلون الإنسان نفسه ليكون رمزا إعلاميا متحركا يفكر ويتكلم ويؤثر .

ومن أبرز هذه الرموز الإعلامية البشرية "بطرس الناسك" نفسه ، تلك الشخصية التي أحاطت نفسها بجو إعلامي كان تأثيره على الجماهير قويا وعنيفا .

درج "بطرس" على أن يسير حافي القدمين تارة وقد ارتدى ملبس رثة ، وتارة أخرى يركب حماره الأهرج قابضا بيديه على الصليب مناديا بحرب الصليب المقدس في الطرقات والأزقة والكنائس والأديرة شارحا بتأثر ونحيب ما يقاسيه مسيحيو الشرق من ألوان العذاب تحسنت حكم

المسلمين ، وكان هذا "الأدعائى" لا يتناول طعام الخبز أو اللحم ،
ويجعل غذاءه من السمك .

وهوى " جيبيرت نوجنت " الذى يعرفه شخصيا فيقول : " ما يردده
بطرس أو يعقله ، يتراءى على أنه من صنع الله " (١) .

أما الرمز الإعلامى البشرى الثانى فهو الفارس الذى سوف يخرج
لمحاربة المسلمين حيث اصطبغ الأعداد لرتبة فارس بكل مظاهر
القداسة ، فيغتسل المتأهل للفروسية بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحس
ليلته بالصلاة ، حتى إذا أقبل الصبح قصد الكنيسة كي يعترف بذنبيه
وخطاياها ، ويتناول بعد ذلك "العشاء الربانى" .

كل هذا الإعداد كان يحدث فى جو إعلامى مؤثر وموجه لمشاعر
الجهاديين المتحمسة لغزو العالم الإسلامى والمتعطشة لدماء
المسلمين .

(١) د . على عبد الحليم محمود : الفزو الصليبي والعالم الإسلامى ص ٢٩ ،
نقلا عن : " ستيفن رنسيهان " تاريخ الحروب الصليبية ١/١٦٩ .

٢ - رفع الشعار الإعلامي الصليبي القاتل بإنقاذ بيت المقدس من

أيدي المسلمين :

تعتبر الكلمات المستخدمة شعارات ذات أهمية خاصة ففى مجالات السياسة والإعلام إلى جانب الحكم .

كما تعتبر مقاطع الأناشيد الوطنية أو العبارات المتوارثة التى تفيض بالحكمة والتجربة هى العملة المتداولة بالانسية لعطية الاتصال الجماهيرى .

ولقد كانت الشعارات منذ الزمن القديم مادة أساسية ففى المجالات الدينية والسياسية ، ومن ثم ارتبطت الشعارات بالحركات الشعبية الجماهيرية . . وكانت الشعارات المتعلقة بالاتجاهات السياسية مثل الشعارات الشهيرة - الحرية والمساواة والاخاء - ذات أهمية وأثر بالغ فى التغيير السياسى والاجتماعى أو فى محاولة هذا التغيير .

ومنذ القدم لجأ القادة والزعماء فى أنحاء متفرقة من العالم إلى استخدام الشعارات المكتوبة أو المنطوقة أداة للتحكم والسيطرة على شعوبهم أو على شعوب أخرى خارج حدودهم ، بل واستخدمت الشعارات فى أحيان كثيرة أداة من أدوات الصراع من أجل القوة .

والباحث الذى يسعى إلى الوقوف على رأى العام لمجتمع من المجتمعات عليه أن يقف أولاً على شعارات واتجاهات وأنماط وسلوك الجماهير .

وهذا هو ما ينبغي على من يقوم بوضع خطة إعلامية أو توجيهه حملة إعلامية ، إن يقوم القادة والرؤساء بدور هام فى تكوين الرأى العام عن طريق نشر العديد من الشعارات المعبرة عن الآمال

والاتجاهات والآراء التى تدور فى خيال الناس، وتعيد ما تمزق من تماسك الرأى العام ووحدته .

وقائد الأمة الناجح هو القائد المحبوب من الجماهير ، ولهذا فهو أداة قوية فى تغيير اتجاهات الرأى العام والتأثير فيه ، إذ أن الناس فى الغالب يتأثرون فى آرائهم واتجاهاتهم بالقيادة المحبوبين ، فيحاولون ترديد شعاراتهم والاهتداء بخطاهم .

ومعظم الشعارات التى يطلقها بعض القادة والزعماء المميزين والتى تأخذ عادة نصيبها من الانتشار هى فى الواقع أسلوب من أساليب الحرب النفسية ، واستخدام الحرب النفسية كأسلوب يهمل للقوات المحاربة ، أو استخدامها أثناء السلم لتعزيز قدرة المحاربين وزيادة فعاليتهم أثناء القتال الفعلى . . هو أسلوب قديم كالتاريخ ذاته .

والحرب النفسية عن طريق الشعارات والخطب هى عملية اتصال أكبر من الدعاية ، فهى دعاية مربوطة بالخطط العسكرية والسياسية والاقتصادية ، ويمكن أن تسبق أو تكمل الحملات العسكرية وهى بهذا المعنى " حرب هجومية يخوضها جيش بأسلحة فكرية وعاطفية من أجل تعظيم قوة المقاومة فى جيش العدو وفى السكان المدنيين " (١) .

إن عامل الدعاية " من الباب إلى الباب " له أهمية كبيرة فى التأثير على الرأى العام ، والشعارات من حيث سهولة حفظها وترديدها وإذاعتها فى فترات متقاربة جداً من الزمن ، وكتابتها باستمرار على صفحات الجرائد والمجلات أو على جدران المباني أو على لافتات تعلق فى الشوارع والبيادين ، تعتبر عنصراً هاماً من العناصر المكونة لدعاية " من الباب إلى الباب " حتى يظل الهدف الكامن وراء هذه الشعارات فى فكر الجماهير دائماً من وقت خروجها

(١) د . أحمد بدر : الإعلام الدولى ، دراسات فى الاتصال والدعاية الدولية ، ص ٢٩٢ (مكتبة غريب بالقاهرة) ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

فى الصباح إلى أن تعود فى المساء وبشكل دائم ومستمر .
لقد جاءت الحروب الصليبية بشعاراتها العديدة التى اتسمت
بالطابع الدينى ، والتى تضمنت بعض العبارات الأثيرة أو الفقرات
المأخوذة من الإنجيل ، ولقد فطن دعاة تلك الحروب ودعاتها إلى
المدى البعيد والأثر الشديد الذى يمكن أن تتركه هذه الشعارات
فى صفوف الرأى العام .

فمنذ اللحظة الأولى وأثناء التمهيد لشحن تلك الحروب أطلق
دعاتها طيها اسما اعتبره الغزاة من فورهم شعارا يرددونه " حرب
الصليب المقدس " وهذا الشعار حرك النفوس الخاملة وأشعل النار
الهامة وساقهم جميعا للتحرك من أجل هذا الصليب المقدس أو
" صليب الخلاص " الذى أخرجه البابا " أوربان الثانى " فى مؤتمر
" كلير مونت " وقدمه على أنه علامة الفداء المقدسة ، وقال احملوه على
هواتقكم ، أو على صدوركم ، وليشرف فوق أسلحتكم وفى رؤوس سناجقكم .
ولم يترك الحضور إلا أن صاحوا جميعا فى صوت واحد مرددين
شعار الغزو " صليب الخلاص " ، الخلاص من المسلمين الفاضحين
(حسب ادعائهم) والتحرر من المسلمين " هذا الجنس الطعسون
المحرور من رحمة الرب " (١) والقضاء على هؤلاء المسلمين الذين
أطلق عليهم دعاة الصليبيين الغزاة لقب " الرماح والشرقيين والفلماني
الوثنيين " (٢) .

ومن الشعارات التى أطلقها الصليبيون على حربهم مسرع
المسلمين شعار " حرب الصليب المقدس " وما دامت هى حرب ،
وما دامت هذه الحرب من أجل الصليب المقدس فلن يفيدهم بعد
ذلك أن يسلكوا أى طريق أو يتخذوا أى وسيلة لتحقيق ذلك الهدف
الذى من أجله أطلقوا كل هذه الشعارات :

(١) د . حسن حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٠ .

"اعملوا ما وسعكم الجهد واصطنعوا كل وسيلة للاتحاد فسي
سهل دين المسيح ونشر الصليب المقدس لأنكم إذا أرضيتم الرب اليوم
انقلبتم أغنياً موفوري الثراء" (١) .

تلك كانت تعاليم قادة الغزاة الصليبيين وأوامرهم لمن جنسوا
لمحاربة المسلمين الفاصبين على حد زعمهم .

ومنذ اللحظة الأولى للدعوة إلى شن تلك الحروب الصليبية
على العالم الإسلامي ودهاة الصليبيين بطلقوا الشعارات تلو
الشعارات لتظل عالقة في أذهان الغزاة صباح مساء تحقيقاً للمبدأ
الإعلامي المعروف وتطبيقاً له ، " من الباب إلى الباب " .

ولقد حرص دعاة الحروب الصليبية على ألا يعطوا أية فرصة
للجماهير لتأخذ أنفاسها خوفاً من أن تقف على الحقيقة الكاشفة
وراء الأهداف الحقيقية لتلك الحروب .

ويعتبر الشعار الصليبي " هكذا أراد الله " من أهم
الشعارات التي أطلقها الصليبيون أثناء الدعوة لتلك الحروب ، حيث
ظل هذا الشعار يتردد على ألسنة الجماهير طوال مدة نشوبها .
ويقول مؤلف كتاب " الجستا " عن ذلك الشعار ومدى تأثيره
في القادة والجنود :

" أما "بوهيموند" - أحد قادة الصليبيين الألمان - الذي كان
موجوداً إذ ذاك في حصار جسر " سكاكارد " ، فقد علم بمقصد
جماعة مسيحية من الفرنجة لا يحصيها العدد ، وأنها عازمت على
المضي إلى ضريح السيد ، وأقسمت على شن الغارة على الشعب
الوثني ، فجد " بوهيموند " في الاستفسار عن نوع السلاح الذي
ستعمله هذه الطائفة في القتال وعن الشعار المسيحي وهتاف
التجمع الذي تهتف به الممارك فقيل له :

(١) المرجع السابق : ص ٤٠ .

"إنهم يستعملون سلاحاً ملائماً للحرب، ويحملون صليب المسيح على أحد الكتفين أو فيما بينهما، وأما هتافهم الذى يرددونه جميعاً فى نفس واحد فهو : هكذا أراد الله ، هكذا أراد الله ، هكذا أراد الله ."

ويستطرد مؤلف "الجستا" فيقول : وفى الحال امتثالاً "بوهيموند" بالروح القدس وأمر بتجزئة عمالة شحنة كان يرتديها إلى أجزاء صغيرة وأن تعمل صلباناً (١).

والراجع من استقراء كتب التاريخ أن هذا الشعار "هكذا أراد الله" قيل أول مرة فى اجتماع "كلير مونت" بفرنسا أثناء إلقاء البابا "أوربان الثانى" خطابه الشهير على الجمع المحتشدة مما ظهر أثرها فى صحة السامعين جميعاً "هكذا أراد الله" وسرهان ما جاء إليه "أديمار دى مونتهيل" أسقف "بوى" وركع عند قدميه وكان أول من حمل الصليب، فجعله البابا قائد الحملة الروحية، وكان "أديمار" من التأثير على الساهمين فى الحرب ما تفصح عنه كتابات المؤرخين من شاهدوا الحملة، يستوى فى هذا الأشراف والدهما على السواء .

ومن الشعارات التى كان لها أكبر الأثر أيضاً فى التعبئة الإعلامية للحروب الصليبية الشعار الذى أطلقه قادة الصليبيين على المسلمين آنذاك شعار : "أعداء السيد الرب" .

إن فـالـمـسـلـمـون أعداء ، وأعداء من ؟ أعداء السيد الرب ، وهذا نوع من التبرير الذى قد يلجأ إليه الفرد والجماعات فى كثير من الأحيان .

والتبرير نوع لا شعورى من خداع النفس عن طريق تفسير بعض ألوان من التفكير والسلوك غير المنطقى الذى يمارسه بناءً على أسباب قد تبدو مقبولة عند الرأى العام بغض النظر عن الأسباب والدوافع

(١) د . حسن حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٢٥ .

الحقيقية الكامنة وراء هذا اللون من التفكير والسلوك .

يستغل السياسيون ورجال الدعاية والإعلان والعلاقات العامة هذه الخاصية العقلية استغلالا كبيرا لكسب الرأي العام عن طريق إشاعة سيل من المبررات القوية بدلا من توضيح الأسباب الحقيقية المختلفة وراءها دعوة معينة أو إجراء ما (١) .

وخاصية التهريр تفسر كثيرا من ألوان التناقض التي نصادفها في عالمنا الحديث سواء في سلوك الأفراد أو الجماعات .

فعلى أساس من التهريرات المصطنعة التي يروجها أصحاب المصالح الخاصة يحارب أبناء الوطن الواحد بعضهم بعضا ، وتخترع وسائل الفتك والابادة الجماعية وتستخدم ضد السالمين والأطفال والشيوخ والنساء والعجزة ، وتساق الجيوش إلى حروب ظالمة في أنحاء شتى من العالم .

والحروب الصليبية ما هي إلا مثال من أبرز الأمثلة التي جعلت من التهريرات شعارا يخفى وراءه الأهداف الحقيقية لذلك الغزو الظالم .

وكان من أكثر المتحمسين لتعميق شعار " أعداء السيد الرب " في صفوف الرأي العام تلميذ " بطرس الناسك " الروحي " جوتشالك " الألماني الذي لم يدخر وسعا في دعوة أبناء جلدته الألمان إلى محاربة المسلمين الذين أطلق عليهم الصليبيون شعار " أعداء السيد الرب " .

وكان رجوع صدى هذا الشعار قويا على الرأي العام الأوروبي آنذاك ، حتى أن الغالبية العظمى من النصارى اعتبروا مشاركتهم في تلك الحروب هي عين الطاعة للسيد الرب ، وبغاية الانتقام له من أعدائه المسلمين فضلا عن تكفير الذنوب والخطايا .

(١) د . مختار التهامي : الرأي العام والحرب النفسية ج ١ ، ص ٨٤ .

ومن الشعارات التي نالت قسطاً كبيراً من التقدير والاحترام ذلك الشعار الذي اقتبسه الصليبيون من الأناجيل التي جاء فيها - كما يزعمون - على لسان عيسى عليه السلام :

" إن أراد أحد أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني " (١) أخذ دهاة الصليبيين يركزون على هذا الشعار تركيزاً قوياً في كل مكان ، مما أحدث حركة عظمى شملت جميع أنحاء فرنسا الحالية ومعظم الأقطار الأوربية ، وسرعان ما تمكن الشعار من صفوف الرأي العام وسيطر عليه فكان كل ذي قلب طاهر وروح سليمة صادق النية في اتباع السيد والسير وراءه مخلصاً في حمله الصليب لا يتوانى عن المبادرة إلى الضريح المقدس (٢) .

لذلك لم يكف هذا الشعار يشبع بين الناس بمعناه المحرف حتى يبادروا في التواللحظة إلى خياطة الصليبان على أكتافهم الهمسني قائلين إنهم - عن بكرة أبيهم - يرددون متبعة خطى السيد واقتفاء أثره ، مؤملين أن تمكنهم تلك الخطى من استرداد القوة من الشعب الوثني .

لم يكن القصد بطبيعة الحال ما زعموا أنه ورد على لسان عيسى بن مريم " إن أراد أحد أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني " هذا المعنى العدواني الذي أشاعه دهاة الصليبيين بين الناس .

فالسيد المسيح عليه السلام رسول من رسل الله تعالى وتعاليم الرسل جميعها واحدة لا يختلف جوهرها في شيء حيث

(١) ألا يجوز أن تكون العبارة غير المحرفة هي : " إن أراد أحد أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويتبعني " ؟

فالتحريف يكون بإتيان عبارة (ويحمل صليبه) لأن عيسى عليه السلام لم يصلب ولم يقل بالصلب .

(٢) د . حسن حبشي : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ١٧ .

لا تتعدى عن كونها تعاليم الخير والسعادة لكافة البشر في الدنيا والآخرة فإسناد هذا الكلام إليه تحريف ظاهر فهل يمكن لعقل غير متعصب ولا متحيز أن يتصور بحال من الأحوال ذلك المعنى الذى أوله دهاء الصليبيين وأشاهوه بين الناس ؟

وهل يعقل أن عيسى بن مريم وهو رسول من رسل الله كان يرضى بما فعله أتباعه بالمسلمين من قتل الشيوخ والنساء والأطفال وسلب الأموال ونهب الديار والتخريب والتشيل بالقتلى ووضع رؤسهم فى المقاليع ثم قذفها إلى المدن لبث الرعب فى نفوس الناس ؟

وهل يعقل أن يكون عيسى بن مريم وهو رسول من رسل الله قد جاء فى شريعته ما يبيح لأتباعه وضع الأطفال فى السفافيد على النار والتلذذ برؤسهم وهم يحترقون ؟

وهل يعقل أن يقر عيسى بن مريم وهو رسول من رسل الله بما فعله أتباعه حين وضعوا سيوفهم فى اللاتذنين بالحرم الشريف من المسلمين فتسيل دماؤهم حتى خاض المفيرون فيها إلى ركبهم ، واستحال المسجد الأقصى إلى بركة من الدماء كان منظرها مشيئرا للمفيرين أنفسهم كما أنها جعلت " الصليبيين " يذكرونها إلا وتتشعر أبدانهم فزقا واشمئزازا منها " على حد تعبير المؤرخ الصليبي "وليم الصوري" ، فلم يرحموا شيخا لهرمه ، ولا طالما لفضله ، ولا طفلا لضعفه ، ولا امرأة لمجزها (١) .

وأى " حمل للصليب " هذا الذى يزعمون أنه جاء على لسان السيد المسيح ؟

وهل يتحدث المسيح عن الصليب - قبل أن يصلب ؟
إن هذا دليل تحريف صريح فى النص ودليل قاطع على تزيفه ؟

(١) د . حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ١٧٩ .

فعل الصليبيون كل ذلك بالمسلمين بعد أن حرقوا ما جاء على لسان عيسى بن مريم وفسروه تفسيراً يتفق ونفوسهم التي جبلت على الشر وطبعت على العدوان وسفك الدماء ، ولو لم يحرقوه لما اتخذوه شعاراً يعتقدون به ويصلبون وينهبون ، ولو لم يحرقوه لفهموا معناه الحقيقي وأدركوا أن عيسى عليه السلام يدعوهم إلى أن يتبعوه حيث إنكسار الذات وحب الخير وإشاعة الأمن والسلام باتخاذهم عليه السلام قدوتهم وهو معهم ، واتخاذهم تعالى في الخير والمحبة دستورهم بعد أن رفعه الله إليه .

لم يكتف الصليبيون بتحريفهم هذا الشعار الذي اقتبسوه من الإنجيل فقط ، بل أولوا العديد من أقواله كتاباً وبلغهم قول عيسى بن مريم لتلاميذه : " سأريكم كم ينهض أن تتألموا من أجل اسمي " .

لقد اتخذوا هذا القول شعاراً لهم أشاعوه بين الناس ليبرروا لهم الخروج في تلك الحروب العدوانية بعد أن أولوا معناه " بتفسيرهم لمعنى التألم من أجل اسم المسيح بالتألم من أجل الغزو والتوسيع والاعتداء ، لا بالتألم من أجل السلام والخير والمحبة بين البشر .

كذلك أولوا ما جاء على لسان السيد المسيح : " إنكم ستأخذون ميراثاً عظيماً " واتخذوه شعاراً لهم يرغبون به أبناء جلدتهم لكسب يخرجوا لغزو المسلمين والقضاء عليهم ، وبذلك يصبحون الورثة الشرعيين للمسلمين .

لقد فسر الصليبيون عبارة " الميراث العظيم " على أنها غزو الشرق الإسلامي والاستيلاء على تلك البلاد التي تغنيهم لبناء ومسيلاً ، ولم يفسروها على معناها الحقيقي الذي يتضمن ميراث الرسالة وتعاليم السيد المسيح لتلاميذه التي كانت تغنيهم رحمة وسلاماً ، شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء والرسل .

٣ - انتشار الشائعة التي تقول بظهور السيد المسيح في بيت المقدس على رأس ألف من التاريخ الميلادي :

إهتم الإعلاميون في كل مكان وزمان بالشائعات فوضعوا لها التعاريف المختلفة ، وبينوا طريقة ظهورها وطبيعتها والعوامل التي تساعد على انتشارها ، وحددوا أنواعها ، ورسوموا الخطط المتعددة لمقاومتها .

كل ذلك يرجع إلى أن الشائعات تعتبر من أهم الأسلحة في أوقات الحروب بصفة خاصة لأنها تثير عواطف الرأي العام وتؤجج مشاعره أو تعمل على بلبلة الأفكار وبث الرعب في نفوس الأعداء .

ومن هنا كان لها أهمية كبرى في الدعاية السوداء ، والشائعات كثيرا ما تتغير وتتبدل أثناء تداولها شأنها في ذلك شأن أي شيء لا يقوم على أساس ، فقد يطلق "رجل الدعاية" شائعة من الشائعات فتصل إليه معرفة بعد وقت معين .

وبقي السؤال الأهم : ما الشائعة ؟

" الشائعة هي الترويج لخبر مختلق لا أساس له من الواقع ، أو تعمد المبالغة أو التهويل أو التشويه في سرد خبر فيه جانب ضئيل من الحقيقة أو إضافة معلومة كاذبة أو مشوهة لخبر معظمه صحيح ، أو تفسير خبر صحيح والتعليق عليه بأسلوب مغاير للواقع والحقيقة ، وذلك بهدف التأثير النفسي في الرأي العام المحلي أو الإقليمي أو العالمي أو القومي ، تحقيقا لأهداف سياسية أو اقتصادية أو عسكرية على نطاق دولة واحدة أو عدة دول أو النطاق العالمي بأكمله " (١) .

(١) د. مختار التهامي : الرأي العام والحرب النفسية ج ١ ، ص ١٠٣ .

وهناك تعريف آخر للشائعة يقول : " الشائعة فكرة خاصة يعمل رجل الدعاية على أن يؤمن بها الناس ، كما يعمل على أن ينقلها كل شخص إلى الآخر حتى تشيع بين الجماهير جميعها " (١) .

ويمكن تعريف الشائعة أيضا بأنها الأقوال والأحادِيث والروايات التي يتنقلها الناس دون التثبت من صحتها ، وهي ظاهرة نفسية لها دلالة ، ولها معنى ، ولها دافع خاصة دفعت إلى ظهورها وسببت سرعة انتشارها بين الناس .

ويمكن تقسيم الشائعات إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول - شائعات الأحلام أو الأمانى : وهي تنتشر بين الناس لأن لهم حاجات ورغبات وآمالاً في تحقيقها ، وهي عبارة عن تنفيس لهذه الحاجات والآمال والرغبات .

النوع الثانى - شائعات الخوف : وهي تنتشر بين الناس في وقت فزعهم وخوفهم ، فالإنسان في حالة الخوف على استعداد لأن يتوهم أمورا كثيرة لا أساس لها من الصحة ، وهو على استعداد أيضا لأن يفسر الحوادث العادية تفسيرات خاطئة يطمحها عليه الخوف والوهم كذلك فهو على استعداد لأن يصدق كل ما يقال وله أساس بموضوع خوفه وقلقه ، وتنتشر الشائعات في وقت الأزمات والحروب .

النوع الثالث - شائعات الكراهية : وهي التي تصدر لتعبر عن شعور الكراهية والبغض ودافع العدوان التي تجيش بها نفوس بعض الناس (٢) .

وتعتبر الشائعات وسيلة مؤثرة من وسائل الدعاية ، ويوجد كثير من يعتقدون بأن الشائعات لها نفس تأثير الراديو والمحاكاة .

(١) د . محمد عبد القادر حاتم : الإعلام والدعاية " نظريات وتجارب " ،

ص ١٧٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٨٠ .

ومن وجهة نظري أرى أن الشائعات قد تصل إلى أكثر ما يصل إليه المذيع والصحافة في تأثيرها ، ذلك لأنها قد تغطي جزءاً من الناس لا يملك المذيع فيستمع إليه ، ولا يقدر على القراءة والكتابة فيطلع على الصحف .

وهناك رأى يرى أن الشائعات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأساطير بل يعتبر بعض الباحثين الشائعات أساطير معدلة .

وتقوم الشائعات بوظيفة أساسية في دعم التماسك الداخلي وتأكيد الشعور بالعزة والنصر ، كما أن شائعات الكراهية تعمل على شق صفوف العدو وهدوئ روح اليأس بين أفراد .

ويرى بعض الخبراء في الدعاية والحرب النفسية أن الشائعات جزء من الحرب النفسية ومقاومتها هي جزء من مقاومة الحرب النفسية ذاتها (١) .

وما دنا بصدور الكلام عن ماهية الشائعات وأنواعها وأسباب اختلافها والطرق المناسبة لمكافحتها فقد رأيت استكمالاً للكلام أن أبين موقف الإسلام من الشائعات مستمداً هذا الموقف من آيات الله الكريمة .

وقد جاءت الشائعة على صيغة اسم الفاعل مشتقة من الفعل يشيع أى ينتشر وذلك فى الآية الكريمة التى تبين بوضوح حكم الله فىمن يحب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، والفاحشة قد تشمل القول أو الفعل أوهما معاً .

قال تعالى فى كتابه العزيز :

" إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (٢) .

وجاءت الشائعة مرة أخرى فى القرآن الكريم بمعنى الإرجاف ونشر البلبلة بين الناس .

(١) د . احمد بدر : الرأى العام " طبيعته وتكوينه وقياسه " ص ١٣٦ .

(٢) النور ١٩ .

قال تعالى في كتابه العزيز :

"لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . طاعونين أمينا شقوا أخذوا وقتلوا تقتيلا " (١) .

وتزحف الجيوش الصليبية بكل ضراوتها وشراستها على العالم الإسلامي ستغاة ماوسعها الاستغلال كل ما يمكن استغلاله من أسلحة مادية ومعنوية ، وكانت الشائعات من أهم أسلحة الحروب النفسية التي استغلها الصليبيون في حربهم ضد المسلمين .

وتتالت الشائعات شائعة تلو الأخرى بحيث كلما خبت شائعة أوقدوا غيرها ليفسدوا في الأرض .

قال تعالى في كتابه العزيز :

" كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين " (٢) .

ولقد مارس الصليبيون كل أنواع الشائعات في صفوفهم تقريبا ليتمكنوا من السيطرة الكاملة على محاربيهم معركة تلو المعركة وخاصة في أوقات المعن والشدائد .

فنراهم تارة يخلقون " شائعات الأحلام أو الأمانسي " إذا استبد بهم العجز عن تحقيق ما يريدون .

ونراهم تارة يخلقون " شائعات الخوف " إذا أحيط بهم من كل جانب ورأوا الموت ماثلا أمامهم لا يحيد عنهم .

ونراهم تارة أخرى يخلقون " شائعات الكراهية " يهشونها في النفوس لتظل مشتعلة بالكراهية والبغض ملوثة بالحق والظغينة على الإسلام وأهله .

(١) الأحزاب : ٦٠ ، ٦١

(٢) المائدة : ٦٤

وما يجدر ذكره أن هذه الشائعات بأنواعها الثلاثة هي على سبيل المثال فقط . ومن المعروف تاريخياً أن إقبال النصارى على الحج إلى الأماكن المقدسة قد بلغ قايته في القرن العاشر الميلادي ، وهو الفترة التي شهدت انحسار النفوذ العربي في السيطرة على كثير من نواحي البحر المتوسط ، وكذلك ضياع بعض الموانئ في جنوب فرنسا وإيطاليا ، وفقدان جزيرة كريت .

وقد شكلت هذه الأحداث طاملاً نفسياً كبيراً أوحى إلى نصارى أوروبا بأن عصر السيادة الإسلامية قد زال . مما جعل نفوس النصارى تتجه أكثر إلى قبر المسيح لأداء الحج وتقديم الشكر على بداية زوال السيادة الإسلامية .

وشهدت فلسطين أعداداً من الحجاج النصارى لم يسبق لها أن شاهدتهم من قبل ، وذلك لأن شائعة على جانب كبير من الأهمية والخطورة سادت أوروبا آنذاك وهي :

" أن نهاية العالم قد دنت ، وأن المسيح سيظهر للمؤمنين به على رأس الألف من السنين التي غبرت " .

ولم يقتنع بعض الحجاج النصارى برغبتهم في الحج والزياره فقط ، بل راح الكثير منهم يؤثر البقاء في فلسطين حتى يوافيهم الأجل في المكان والزمان الذي سيشهد ظهوره على بن مريم .

كان لهذه الشائعة تأثيرها القوي على الرأي العام النصراني وكانت بمثابة التصعيد الكبير للغزو الصليبي الذي أعقب تلك الفترة من الزمن . وكانت هذه الشائعة من النوع المخلوق الذي لا أساس له من الواقع . وجاء اختلاقه بهدف التأثير النفسي على الرأي العام النصراني تحقيقاً لأهداف سياسية واقتصادية وعسكرية .

ولجأ الصليبيون المرة تلو الأخرى لإطلاق الشائعات .

من ذلك أن الصليبيين عندما احتلوا قلعة " أنطاكية " أطلقوا شائعة في حينها تعزو هذا النصر إلى قدرة فوق طاقة البشر ، ولسج بهم الزعم إلى حد القول بأن القديسين " جورج " و " ديمترى " ساهما بنفسيهما في القتال ، حيث أبصر " البعض " كتيبة تنزل من السماء عليها هالات قدسية من النور تقدمت الصفوف وتسلفت السلالم والأسوار ومرت فأصمت (١) .

وأود قبل انتقالنا من هذه الشائعة إلى غيرها أن نلاحظ كلمة " البعض " وهذا البعض من الناس هم الذين نسب إليهم رجالات الدعاية الصليبيون رؤية الكتيبة التي نزلت من السماء بقيادة القديسين " جورج " و " ديمترى " ، فمن يكون هذا " البعض " من الناس ؟

لم يذكر لنا التاريخ أحدا من هذا " البعض " الذى شاهد وأخبر . إنما جاءت كلمة البعض تأكيدا للشائعة ونوشيقا لها حتى لا يرتاب أحد من سيسمع بها أو يروج لها .

ولكن تمنى الصليبيون لو أنهم استيقظوا ذات يوم فلا يهضرون أحداً من المسلمين ، ولكن ما دام هذا الأمر فوق طاقتهم فلا أقل من أن يلجأوا إلى نوع من الشائعات سواء الإعلاميون " شائعات الأمانى أو الأحلام " .

وهذا النوع من الشائعات يعبر عادة عن أمانى وأحلام يكون من الصعب أو المستحيل تحقيقها .

ومن ذلك ما جاء من أن الصليبيين وهم فى " هرسك " كر عليهم الترك المسلمون وقتلوا منهم جمعا غفيرا ، ومن استطاع النجاة لجأ إلى " هرسك " وألقى بعضهم بنفسه فى البحر .

ويقول مؤلف " الجستا " : " ولقد لاذ غيرهم إلى الأحراج والجهال تخفيا بها فانطلق الترك فى آثارهم وكدسوا الأخشاب لحرقهم

(١) د . حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى عن ١٤٦ .

هم والمدينة معا " .

وهنا كان لابد من شائعة تخرج ، ولكن من شائعات " الأمانى
أو الأحلام " يرويها مؤلف " الجستا " فيقول :

" غير أن النصارى الذين احتلوا المدينة أشعلوا النار فى
أكدا من الخشب ، وهب اللهب ناحية الترك ، فأهلك بعضهم حرقا
بينما حفظ يسوع المسيح رجالنا من أن تعتد اليهم تلك النيران بعد
أن حال بينها وبينهم بنفسه " (١) .

ولقد سرت هذه الشائعة بين الصليبيين سرمان النار التى
اختلفتها الشائعة والتى نسبها الصليبيون الى معجزة قام بها السيد
المسيح بنفسه على حد زعمهم وافترائهم على الأنبياء والرسل .

وتستمر الشائعات فى التتالى حتى لا تترك للمقاتلين فرصة
التفكير بعيدا عن الشائعات والأساطير والأحلام .

ففى وقعة (اسكى شهر) التى جرت بين المسلمين والصليبيين
يقول مؤلف " الجستا " :

" لقد أحاط بنا الترك من كل جانب وأخذوا فى قتالنا
ورمينا بالحراش ورشقنا بالنبال من سافة بعيدة عجيبة ، وهجزنا عن
احتمال وطأة هذا العدد الفغير من الأعداء " .

ولكن لم يلبث شمل الصليبيين أن التأم وانتظمت صفوفهم
واكتمل استعدادهم للهجوم على المسلمين وانتزع النصر منهم .

ويستطرد مؤلف " الجستا " فيقول :

" وعند اقتراب فرساننا بادر الترك والعرب والشرقيون والغلمان
وجميع الشعوب البربرية الى الهرب السريع من مضائق الجبال ومنافذ

(١) د . حسن حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٢٢ .

السهول ، وكان عدد الترك والفرس والرعاع والشرقيين والغلمان وغيرهم من الوثنيين يبلغ ثلاثمائة وستين ألف مقاتل " (١)

وهنا يأتي دور الشائعة لتزويد الغزاة بمزيد من القوة لاستئناف العدوان والاستيلاء على الأرض التي تفيغر لبنا وصلنا ، وارثكاب أبشع الجرائم من أجل تحقيق مآربهم العدوانية وحقوقهم المزعومة بدعوى أن محسى بن مريم يحارب معهم جنباً إلى جنب بعد أن وعدهم بأنه لن يتغلى عنهم حتى يحرروا قبره المقدس من أيدي الشعب الوثني ومن ثم القضاء على الإسلام وأهله .

يقول مؤلف " الجستا " عن تلك الشائعة :

" وما كان لأحد من رجالنا أن ينجو هذا اليوم لولا وجـود السيد معنا في هذه المعركة ولولا أنه أرسل إلينا على جناح السرعة الجيش الآخر (٢) . فقد استمر القتال بدون انقطاع من الساعة الثالثة حتى الساعة التاسعة ، إلا أن الرب العظيم الحنون الرحيم لم يرض أن يهلك فرسانه أو أن يقعدوا في أيدي أعدائهم ، فبعث إلينا هذه النجدة على جناح السرعة " .

-
- (١) د . حسن حبشي : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٤٠ .
(٢) يفسر د . حسن حبشي " الجيش الآخر " بأن المقصود به هو جيش " ريموند كونت صنجيل " ، ولقد حاولت جهدي أن أجود دليلاً من الكتاب المترجم يؤيد هذا التفسير ، غير أنني وجدت أكثر من دليل يؤيد ما ذهب إليه من أن القصد من " الجيش الآخر " هو جيش بعث به السيد المسيح شأنه في ذلك شأن الكتبة التي هبطت من السماء وطبها هالات من نور والتي قادها القديسان " جورج وديمتري " بنفسهما .

وما يؤيد أيضاً ما ذهب إليه هو ما جاء في الترجمة نفسها من أن " ريموند كونت صنجيل " كان منذ بداية الواقعة ضمن الجيش الصليبي الذي تعرض في البداية إلى ضغط شديد من جيوش المسلمين وجاء أيضاً في هذه الترجمة أن " ريموند كونت صنجيل " كان على الجناح الأيسر للجيش الصليبي في تلك المعركة منذ بدايتها ولم يكن جيشاً طارئاً . =

وكعادة الصليبيين عندما يشتد بهم الكرب وتهبط روحهم المعنوية إلى الحضيض لا يجدون غير ادعاء الرؤى والأحلام ، واختلاق الشائعات لتخرجهم مما هم فيه من كرب وشدة .

من ذلك أن الصليبيين بلغوا حدا من اليأس لم يسبق لهم أن بلغوه من قبل وهم حول " أنطاكية " والمسلمون يشددون عليهم الحصار من كل جانب وحامية القلعة تهاجمهم ليل نهار ، ولم يعد يسمح لأحد منهم أن يأكل ما معه من خبز أو يشرب ما معه من ماء .

هنا كان لابد أن تلعب الشائعة دورها كاملاً كما لعبت الرؤى والأحلام دورها كاملاً من قبل .

يقول مؤلف " الجستا " عن تلك الشائعة الجديدة :

" ولما أقبل الليل لاحت في السماء نارا مغيرة من الفسـرب وأخذت في التدانى حتى سقطت وسط الجيش التركى ، فاستولى الذهول

ويؤيد ما ذهب إليه أيضا قول مؤلف " الجستا " :
" وما كان لأحد من رجالنا أن ينجو هذا اليوم لولا وجود السيد معنا " وجميع الأدلة والقرائن تدل على أن مؤلف " الجستا " لا يقصد بوجود السيد الوجود المعنوى الذى يشمل الرعاية والمحافظة إنما يقصد الوجود الجسدى على رأس تلك النجدة المزعومة حين استمر القتال .

لذلك يقول مؤلف " الجستا " :

" فقد استمر القتال بدون انقطاع من الساعة الثالثة حتى الساعة التاسعة ، إلا أن الرب العظيم الحنون الرحيم لم يـعرض أن يهلك فرسانه أو أن يقموا فى أبدى أعدائهم ، فبعث إلينا هـذه النجدة على جناح السرعة " .

وفهم من ذلك أن النجدة بقيادة المسيح جاءت أثناء نشوب المعركة لا قبلها ولا بعدها .

الشديد على رجالنا وعلى الترك معا ، فاما تبليج الصباح فر المذعورون
جزئا من هذه الظاهرة العلوية " (١) .

وسرت تلك الشائعة بين صفوف الصليبيين متعاونة مع السروى
والأحلام لترفع من روحهم المعنوية المنهارة .

وتستمر الشائعات فى التتالى دون انقطاع ، وتسبح الفرصة
لشائعة جديدة عندما يحتدم القتال بين جيش "كربوفا" وجيش الصليبيين
حول " أنطاكية " ، وتتقدم كتائب المسلمين وتعدى بالعدو من كل
جانب وتنضحهم برماحها وترميمهم بأقواسها .

وهنا كان لابد من شائعة أو رؤيا أو أسطورة ، وكالمعتاد
انطلقت من دهاة الصليبيين شائعة كان لها من الدوى والتأثير فى
نفوس الغزاة ما جعلهم يستميتون فى القتال مستغلين تفكك الجبهة
الإسلامية ، وتفشى الفوضى بين قوات "كربوفا" ، وانقسام القادة على
أنفسهم ، وانتقال عدوى هذا الانقسام بين صفوف المسلمين . مما
أوهن عزائم الجند وأضعف روحهم المعنوية حتى استبد بهم اليأس .

ويقول مؤلف " الجستا " عن تلك الشائعة :

" وهنا شوهدت قوات لا يحصيها العد تنطلق من ناحية
الجبل مستطية صهوة جياد بيضاء وبيدها رايات بيضاء ، فلما شاهد
رجالنا منظر هذا الجيش لم يعرفوا ماهيته ولا لمن هذا الجند ، وما
لبثوا أن أدركوا أنهم نجدة المسيح بقيادة القديسين " جرجيس " و
" مرقوريوس " و " ديمترى " ، وينبغى الإيمان بهذه الشهادة لأن
الكثيرين من رجالنا شاهدوا تلك الآية " (٢) .

(١) د . حسن حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٤ .

الباب الثاني

"التعبئة الاعلامية في الجبهة الإسلامية"

الفصل الأول

" حالة المجتمع الاسلامى فى الشام ومصر عند بدء الحملات الصليبية "

- ١ - تمزق الرأى العام الاسلامى نتيجة لما ساء الامة الإسلامية من خلافات .
- ٢ - الفرنج يحتلون القدس بينما محمد بن ملكشاه يحارب أخاه لأبيه "بركسياروق" .
- ٣ - الفاطميون فى مصر يمزقون الرأى العام بعقائدهم الخالصة .

١ - تمزق الرأي العام الاسلامي نتيجة لما ساد الأمة الاسلامية من خلافات :

هناك بعض الأحداث التي تدعو المرء إلى التأمل بعق ، والتأمل
عنصر رئيسي وهام من عناصر التفكير .

وما يدعو إلى التأمل العميق في موضوعنا هذا هو التوقيت
الدقيق الذي اختير ليكون بدءاً لتلك الحملات المليمة التي شنت على
العالم الإسلامي .

كذلك نلاحظ أنه ما يدعو إلى الاستغراب والدهشة تلك الحال التي وصل إليها الرأي العام الإسلامي قبيل شن تلك الحملات عليه ، وهي حال بلغت من التمزق والتدابر درجة لم يسبق له أن بلغها من قبل ، وخاصة وهو يواجه أخطر غزو تعرض له في تاريخه .

وكانى بهذه الفترة الزمنية بالذات وقد فتحت ذراعيها مستقبله
أول حمل صليبية على العالم الإسلامى ، مهددة لها طريق التفوق
والغلبة على القوى الإسلامية المتطاحنة المتدابرة .

لذلك أجد من الصعب أن أضع فواصل زمنية محددة بالسنين والأشهر والأيام أميز فيها بين كبار الأحداث ذات التأثير في معاصر الأمم والشعوب ، ولعل ما نصادفه من ذلك يعد من باب التقارب ليس غير .

والدليل على ذلك هو أن مثل هذه الأحداث لا يمكن أن تولد فجأة دون حمل ومخاض، وبين الحمل والمخاض تنمو هذه الأحداث وتكتمل فإذا حانت ساعة الوضع كانت الأحداث .

وكلما ظهر لأبي مولود يبدأ تدوينه من أول يوم يرى فيه الحياة
يفعل قالبة المؤرخين ذلك مع كبار الأحداث دون النظر بعين الاعتبار
إلى فترة الحمل والمغاض.

ومن كبار الأحداث التي فعلت معها غالبية المؤرخين ذلك ، تلك الحملات الصليبية على العالم الإسلامي ، حيث أرختها هذه الغالبية تاريخاً دقيقاً ، فجعلوا كل حملة من تلك الحملات تبدأ بتاريخ وتنتهى بتاريخ . ولكن رجل الإعلام غير رجل التاريخ ، فالإعلامي يبحث عن الجذور ، والمؤرخ يحدد معالم الهدى والانتها . وكلاهما ينشدد الحقيقة من زاوية .

حدث ذلك بالرغم من أن تلك الحملات قد اختبرت في فترة من الزمن ليست بالهينة قبل أن تبدأ بدأها المعروف بالسنة والشهر واليوم وتلك الفترة الزمنية التي نعنيها كانت فترة تعبئة واستعداد وتأهب . ولا شك أن تلك الفترة لا يمكن اغفالها بحال من الأحوال ، بل طمس العكس يمكن اعتبارها من وجهة نظري جزءاً لا يتجزأ من عمر تلك الحملات ذلك لأن الصليبيين استطاعوا بهتّى الوسائل أن يوحدوا الرأى العام النصراني قبيل القيام بحملاتهم ضد العالم الإسلامي .

ولقد جاء هذا التوحيد للرأى العام النصراني نتيجة لما قامت به الكنيسة من بلورة للأهداف والغايات التي يمكن للرأى العام أن يتجمع حولها وأن يوحد قواه لتحقيق تلك الأهداف والغايات .

ولقد استطاعت الكنيسة أن تقسم تلك الأهداف والغايات إلى قسمين :

الأول : أهداف وغايات دينية وهي التي تتضمن التكفير عن الذنوب والخطايا ، وتخليص " القبر المقدس " وكذلك بقية الأماكن النصرانية المقدسة من أيدي " الوثنيين " !!

الثاني : أهداف وغايات دنيوية ، وهي التي تتضمن الشراء العظير من وراء تلك الحملات ، وامتلاك الأرض التي تفيض لبنا وصلا بعد أن ضاقت عليهم أرضهم ، وشحت أرزاقهم ، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك .

ومن طريق ما تقدم استطاعت الكنيسة أن توجد الأهداف والغايات التي مكنت الشعوب المسيحية المتطاحنة من التقارب والتصالح .

كما استطاعت الكنيسة بجانب ما تقدم أن توحد الرأي العام المسيحي عن طريق إيجاد القادة القادرين على استقطابه والتأثير فيه بشتى الطرق والإمكانات التي أتاحت لهم آنذاك ، وقد أستطاع هؤلاء القادة أن يستغلوا معظم هذه الإمكانات استغلالا أدى في البداية إلى تفوقهم العسكري الذي بلغ ذروته باحتلالهم بيت المقدس وتأسيس أربع إمارات صليبية في قلب الأمة الإسلامية .

وأكد أعتقد تماما أن تلك الحملات الصليبية كانت من الوسائل الرئيسية التي فكر فيها دعاة الصليبيين بهدف القضاء على ذلك التطاحن الذي ساد الشعوب النصرانية قبيل القيام بتلك الحملات .

وهذه العملية هي التي يطلق عليها علماء النفس "الإبدال والتحويل" وعلمية "الإبدال والتحويل" من العمليات العقلية اللاشعورية التي استغلها الدعاة ورجال الإعلام والادعائيون وأصحاب المصالح الخاصة في تحويل اتجاهات الرأي العام وخاصة في أوقات الأزمات والشدائد لعرض الرأي العام عن التفكير في موضوع معين .

ولقد استغل دعاة الصليبيين هذه العملية ونجحوا عن طريقها في تحويل اتجاهات الرأي العام النصراني آنذاك واقناعه بالقضية الخاطئة ، وذلك لأن اقناع الرأي العام في أي بلد من البلدان بعدالة قضية معينة لا يكفي فيه أحيانا أن تكون القضية عادلة ، وإنما يقتضى هذا الإقناع التوصل إلى الطريقة المثلى لعرض القضية ، أو بمعنى آخر إلى الزاوية الإعلامية التي تعرض فيها القضية بحيث تقنع الرأي العام وتحركه .

واختيار هذه الزاوية الإعلامية ليس عملا تلقائيا ، ولا هو بالعمل الهين ، إذ أن نجاح الدعاية إنما يتوقف أساسا على هذا الاختيار .

فعند هذه المرحلة ينتهي حل رجال السياسة ويبدأ عمل الدعاة أو رجال الإعلام . رجال السياسة يحددون القضية والدعاة ورجال الإعلام يخططون أسلوب إيصال هذه القضية للرأي العام ويسهرون على تنفيذ ذلك بهدف تحريك هذا الرأي العام (١) .

ومما لا شك فيه أن الصايبيين استطاعوا من طريق هذه الزاوية أن يحركوا الرأي العام النصراني قهيل القيام بالحملات الصليبية على العالم الإسلامي على أساس النفخ في روح التعصب والعدوان من أجل تحقيق مآرب خاصة .

هذا في الوقت الذي تدابر فيه الرأي العام الإسلامي وتمزقت مراء نتيجة لما ساءه من سلبية وخوف وسخط في ظل أوضاع اقتصادية واجتماعية ونفسية تدعو إلى اليأس والتقهقر .

ومثل هذه الأوضاع نفسها كانت موجودة في أسوأ صورها في المجتمعات النصرانية آنذاك ، لكن دعاة الصليبيين اتخذوا من تلك الأوضاع منطلقا لهم ينطلقون منه إلى تحقيق أهدافهم ومآربهم الخاصة جاعلين من تلك الأوضاع السيئة حافزا قويا للرأي العام النصراني لأن يغيّر من تلك الظروف التي أثقلت .

وبذلك استطاع دعاة الصليبيين أن يتخذوا من تلك الأوضاع المتدهورة عامل قوة يجمعون حوله الرأي العام النصراني .

بينما ظلت أوضاع المسلمين السيئة عامل ضعف وتخاذل في صفوف الرأي العام الإسلامي .

ومن المسلم به أن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية تختلف من مجتمع إلى آخر ، وأن ما يكون عامل قوة بالنسبة للرأي العام في مجتمع من المجتمعات قد يكون عامل ضعف في مجتمع آخر ، إلا إذا

(١) د . مختار التهامي : الرأي العام والحرب النفسية ج ١ ، ص ٦ .

كانت السيادة الاجتماعية للإسلام ويرجع ذلك أساساً إلى طبيعة نظام الحكم السائد ومدى تعمق روح الحرية وتبادل الرأي والحرس على المصلحة العامة ووجود الأمانى والأهداف المشتركة التى يتجمع حولها رأى العام ويتحرك .

كذلك نلاحظ أن نوع نظام الحكم القائم فى مجتمع من المجتمعات يؤثر بلا شك فى تكوين الرأى العام ، فإذا كان هذا النظام قائماً على الاستبداد والصلف والاستعلاء على الجماهير واحتقارها وإشاعة الظلم والإرهاب ، فإن ذلك يؤدى إلى سلبية الرأى العام واحلال الخوف والسخط بين صفوفه (١) وما ينطبق على نوع نظام الحكم ينطبق على الأوضاع الاقتصادية داخل المجتمع من حيث تأثيرها الخطير فى اتجاهات الرأى العام ومدى استجابته للأحداث من حوله .

ويقول رجال الإعلام إن للرأى العام مظاهر إيجابية وأخرى سلبية بالنسبة للتعبير عن الاتجاهات السائدة التى يمكن أن نتصرف بواسطتها على اتجاه الرأى العام فيما يهيم من قضايا وأحداث ، وتلك المظاهر هى التى سوف تحدد لنا سلبية الرأى العام الإسلامى بخاصة ونحن نتكلم من تدابره تجاه تلك الهجمة الصليبية وبالذات أمام الحملة الصليبية الأولى التى بلغت ذروة تفوقها العسكرى باستيلائها على بيت المقدس .

لم يكن الرأى العام الإسلامى مستعداً أن يفعل أى شئ على الإطلاق فى تلك المرحلة الخطيرة التى استهدفت كيان الأمة الإسلامية ومعتقداتها . حتى الشريعة الإسلامية الفراء التى جاءت بكل ما نؤمن به من قيم فى العلاقات بين العبد وربّه وبين الحاكم والمحكوم وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، حتى هذه التى تعبر فى حياتنا اليومية والفكرية عن نظرتنا الشاملة للحياة والكون والإنسان ، اضطروا المسلمون

(١) المرجع السابق : ص ٢٥ .

فى فترات كثيرة إلى البعد عنها ، ومن ثم كانت الهزائم والنكبات " نسوا الله فأنساهم أنفسهم " (١) .

ولكن كلما استعادت الأمة ادراكها الواقع الموضوعى لهذه الحقيقة استعادت شخصيتها المتميزة ، واستردت قيادتها الفكرية الرائدة .

حدث ذلك على وجه التحديد عندما قاد صلاح الدين الأيوبي أمته الإسلامية على هدى من ربه فحقق النصر المبين الذى بلغ ذروته باسترداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين .

لقد واجه رأى العام الإسلامى بداية الحملات الصليبية وهو فى شبه غيبوبة تامة ولم يكن يعى وقتها مقدار الخطر الذى يحديق به من كل جانب ، وهذا الرأى العام الذى أضيه هو ما يسميه الإعلاميون بالرأى العام النوى .

والرأى العام النوى إما أن يكون على نطاق محلى ، وإما أن يكون على نطاق إقليمى أو عالمى .

ويقرر الإعلاميون عند بحثهم للمظاهر السلبية للرأى العام أن من أهم تلك المظاهر أسلوب " المقاطعة " ، ولقد تجلى هذا الأسلوب بشكل واضح لدى الرأى العام الإسلامى عند بداية الحملات الصليبية ، وعندما وجدت الجماهير المغلوبة على أمرها تشتت حكايها وما هم عليه من تناحر وهداوة ، وما وصلوا إليه من تكالب على الدينيسا وبعد عن الإسلام .

لذلك لم تبادر تلك الجماهير لصد هذه الحملات حينما داهها حكاها وقادوها إلى ذلك ، لأنها وقفت تناماً على حقيقة هؤلاء الحكام والقادة وأيقنت أنهم غير صادقين فيما يدعون إليه .

ولو كانوا عكس ذلك لتوحدت كلمتهم ولتركوا التناحر جانباً ولتنازلوا عن تباديهم في كيد كل واحد منهم للآخر ، ولوجود الأمة كلها رجلاً واحداً قد هب لصد تلك الحملات من أول وهلة .

وليت بعض هؤلاء الحكام والقادة وقف عند هذا الحد ولم يصل الأمر بهذا البعض إلى أن يتقرب من الغزاة العلميين طالبا العـسـون والساعدة منهم في قتاله مع هذا الحاكم المسلم أو ذاك .

من أجل ذلك كله كان العار وكانت الهزيمة ، وكان التـبـزق والضياع .

ثم يأتي بعد أسلوب " المقاطعة " باعتباره مظهراً من المظاهر السلبية للرأى العام - مظهر آخر من هذه المظاهر وهو مظهر " تفشى السلبية والاستهتار بين الجماهير " ولقد تجلّى هذا المظهر في أوضح صورهِ أيضاً بين صفوف المسلمين في الوقت الذي زحفت فيه أوربا كلها من أجل القضاء على الإسلام والمسلمين .

ومن الأمور السلبية أنه حين يسود النظام التسلطى مجتمعاً من المجتمعات ، وتفرض القيود على الحقوق والحريات ، ويعجز الجماهير عن التعبير عن وجهات نظرها بحرية ، حينئذ تفشى السلبية بين صفوفها ، ويتخذ الرأى العام مظهر الكون ، وعدم الظهور فتتعمد قنوات الاتصال بين تلك الجماهير وبين قادتها ، ويسود الاستهتار بين صفوفها ويكون ذلك مظهراً من مظاهر رفض الجماهير للنظام التسلطى واحتجاجاً على فرض القيود على الحريات (١) .

لقد أوضحنا فيما سبق أن الرأى العام النوى إما أن يكون على نطاق محلى ، أو على نطاق إقليمى ، أو على نطاق عالمى .

ولكن ما هو المقصود بالرأى العام النوى ؟

الرأى العام النوى هو " الرأى العام الذى يسود بين طائفة أو فئة معينة من شعب بعينه ، أو مجموعة من الشعوب في وقت معين .

(١) د . سعيد سراج : الرأى العام ، مقوماته وأثره في النظام السياسي المعاصرة ص ٤٤ .

بالنسبة لقضية أو أكثر تهم هذه الطائفة أو الفئة وتسرع صالحها أو قيمها الإنسانية الأساسية مسا مباشرا " (١) .

ونحن بدورنا نتساءل : هل كان هذا النوع من الرأي العام موجودا وواعيا عندما بدأ العلميون شن حملاتهم الشرسة على العالم الإسلامي ؟

بالطبع لم يكن موجودا ولا واعيا .

والا فكيف يكون موجودا وواعيا وسط تلك الظروف العصيبة والمحن المحيطة بالمسلمين من كل جانب ؟

كيف يكون موجودا وواعيا وسط تلك المعارك الدائرة بين القادة والحكام المسلمين من أجل سلطان زائف أو قطعة من طين ؟

عندما تولى " تتش " الأمر ضم جنوب سوريا إليه واستولى، طو، دمشق عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٩ م واستقام له الأمر فيها ، وأحسن السير فور أهلها (٢) . ثم جد النزاع بينه وبين أخيه " ملكشاه " فخاف منه " تتش " ولم يحرك ساكنا تجاه ما فعله أخوه من إقطاعه حلب لقسيم الدولة " آق سنقر " جد بنى زنكى كما أقطع " الرها " " ليزان " و " أنطاكية " " لياغى سيان " .

الا أنه بعد موت " ملكشاه " تحرك " تتش " فى جمادى الآخرة عام ٤٨٧ هـ / يونيو ١٠٩٤ م قاصدا حلب ، فاتحدت قوات " بزان " و " آق سنقر " وأمدهما السلطان " بركياروق " بقوة من عسده بقيادة " كريبغا " فلم تجد هذه القوة نفعا . (٣)

ثم انعقد لواء النصر " لتتش " وان حمل فى طياته كل دلائل الضعف ، ولقد حدث كل ذلك فى الوقت الذى استعدت فيه أورها

(١) د. مختار التهامي : الرأي العام والحرب النفسية ج ١ ، ص ٥٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ج ٨ ، ص ١٢٦ ، حوادث عام ٤٧١ هـ .
(٣) المصدر السابق : ج ٨ ، ص ١٧١ ، حوادث عام ٤٨٧ هـ .

كلها لحمل السلاح لنجدة بيت المقدس ، وهب عليها ربح من التعصب
والمطامع الشخصية والرغبة في بسط سلطان الكنيسة الغربية على الكنائس
في الشرق ، ومعدتها - كما توهم الصليبيون آنذاك - يكون القضاء
على الإسلام في عقر داره .

وما لبث " تتش " أن قتل ، فتقاسم البلاد أبناءه : رضوان
ومقره " حلب " ، " ورقاق " ومقره " دمشق " عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م
وسرعان ما دبت الشحنة بين الأخوين ، وما زال الداء هو الداء .

استمرت حال المسلمين هكذا فلم تتوحد جهودهم أمام الزحف
الصليبي ، ولم تندمل جراح الكراهية والبغض بين حكامهم أمام سقوط
المعاقل الإسلامية معقلا إثر معقل ، بل على العكس وجد بعض أمراء
المسلمين في الغزاة الصليبيين أعوانا لهم يستنجدون بهم على حرب
إخوانهم من قادة المسلمين . وكان الثمن بطبيعة الحال على حساب الأمة
الإسلامية روحا وجسدا . إما تقاعسا عن نصرته الجيوش الإسلامية المتحاربة
مع العدو أو خيانة تودي بها تبقى من كرامة الأمة وهزتها .

وإذا كان ذلك هو سلوك القادة والقذوة ، فما ظنك بحال الرأي
العام الإسلامي الذي يقف وراء هؤلاء القادة ويتخذ منهم قدوته . ؟

حتى والأمة الإسلامية تتعرض لتبشع غزوات تعرضت له ، نجد هؤلاء
الأمراء والقادة لا يقيمون لكل هذه الأمور وزنا ، ولا يحسبون لهذه المخاطر
حسابا . بعضهم يتقاعس والبعض الآخر يخون .

حدث ذلك حول " أنطاكية " حين تناالت الضربات على الصليبيين
وأحيط بهم من كل جانب ، هلغت روحهم المعنوية حدا من الانهيار
تأكد معه أنهم قاب قوسين أو أدنى من الهلاك أو التسليم .

لكن قادة الجيوش الإسلامية بتفرقهم وتخاذلهم قدموا للغزاة
الصليبيين أكبر عون على احتلال " أنطاكية " وتدمير جيش كرهوا الذي

انهارت قواه المعنوية وسيطر عليه اليأس وتطكت روح الهزيمة إذ
تفتت الفرقة بين أفرادها نتيجة حتمية لتخاذل كثير من أمراء المسلمين
وانصراف معظمهم تحت ظروف متباينة أبرزها السافرة التي جرت بين
الأتراك والعرب - وجميعهم مسلمون - والتي أدت إلى انقسام
الصفوف ، وبخاصة بعد أن أساء " كرهوغا " السيرة فيمن معه من
المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم .

" ظنا منه أنهم مقيمون معه على هذه الحال ، فأغضبهم ذلك
وأضربوا في أنفسهم الغدر إذا كان قتال " (١) .

وهكذا سقطت أنطاكية في يد الصليبيين بعد أن سهل سقوطها
تراخي أمراء الشام المسلمين في نجدتها ، وتأخر " كرهوغا " في زحفه
إليها ، وخيانة " نيروز " ، الذي كان يعرف " بالزراد " . لقد وثق
به " ياغي سيان " أمير " أنطاكية " فعهد إليه بحراسة برج يعرف
" ببرج الأختين " ، إلا أنه كان غاضبا على مولا ، لمصادرتة بعض أمواله
وأخذ غلته . فكانت خيانة " نيروز " وتسليمه البرج للصليبيين الغزاة
الذين جاءوا يحدوهم الأمل في تدبير الاسلام وأهله .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٨٧ - حوادث عام
٤٩١ هـ .

٢ - الفرنج يحتلون القدس بينما محمد بن ملكشاه يحارب أخاه بهركياروق :

سقطت أنطاكية وما كان لها أن تسقط في أيدي الصليبيين لو لم تسقط أولا من أيدي قادة المسلمين وأمرائهم ، ولو لم يسقط الرأي العام الإسلامي المستنير من قاداته وأمرائه .

فهل اتعظ كل هؤلاء أو بعضهم بما حدث فعادوا إلى ربهم ، وثابروا إلى رشدهم : ووحدوا صفوفهم حتى يكتب الله لهم النصر طمس عدوهم ؟

لم يفعل القادة والأمراء المسلمون شيئا من ذلك ، بل طمس العكس راكحوا يتعاونون قاصدين أو غير قاصدين على قتل إيجابية الرأي العام الإسلامي ، لأنهم كانوا القدوة غير القادرة على تحمل مسؤولياتهم أمام شعبهم التي توقع منهم خيرا ، فخيّبوا ألبها على الرغم من أحلك الظروف والأحوال التي تدعو إلى التضحية بكل غال ونفيس ، وتدفع إلى الإيثار لا الأثرة ، وإلى دفن الخلافات والأحقاد لا إلى النهش بينها والتنقيب طيها .

من أجل ذلك كله وقف الرأي العام الإسلامي في معظمه موقفا سلبيا من قاداته وأمرائه ، واتخذ حيالهم مبدأ المقاطعة كرد فعل طبيعي لموقف هؤلاء القادة والأمراء الذين لم يبذلوا أي جهد في سبيل توحيدهم حول غاية واحدة هي أسى الغايات بالنسبة للمسلم ، غاية الدفاع عن العقيدة ، عقيدة التوحيد التي زحف أهل التثليث من أجل القضاء طيها . لم يحاول معظم قادة الأمة الإسلامية وأمرائها أن يستقطبوا الرأي العام الإسلامي ويحركوه ، والرأي العام الإسلامي من جانبه التزم جانب السلبية والكمون .

أما على الجانب الآخر حيث الرأي العام المسيحي الذي حركه البابا " رجالة فإننا نجد هذا الرأي العام قد أصبح الضابط الأساسي

الذى جعل ملوك أوروبا يشتركون فى الحملات التى قادوها ضد العالم الإسلامى ، ولم يكن بإمكان هؤلاء الملوك أن يتخافوا عن أمرائهم وخاصة الناس الذين لبسوا الصليب وخرجوا لتحرير الأرض المقدسة من أيدي المسلمين — كما يقال — .

والدليل على ذلك أن الواحد من هؤلاء الملوك كان إذا اشترك فى حملة فإنه لا يحاول الاشتراك فى حملة أخرى باستثناء الملك " لويس التاسع " ملك فرنسا الذى حاول استرداد كرامته بحملة ثانية كانت أشد فشلا من الأولى (١) .

ما تقدم نستطيع أن نقرر أن رأى العام لكى يتحرك يجب أن يكون هناك ما يحركه سواء أكان هذا المحرك عقيدة تتعرض للنيل منها ، أو هدفا مشتركا يراد تحقيقه ، أو مصلحة عامة تجاهد الأمة من أجل الحفاظ عليها والدفاع عنها ، أو قائدا أخلص النية لله ثم وهب نفسه من أجل الدفاع عن عقيدة الأمة والمحافظة على أهدافها والذود عنها — مصالحها .

وهنا يتبادر للذهن أكثر من سؤال :

لماذا لم تشتعل شعلة الجهاد قوية متقدة منذ راسـت أول قدم صليبية ديار الإسلام ؟

لماذا لم يتحرك رأى العام ؟ لماذا لم يتجاوب مع أخطر غزو تعرض له فى تاريخه الطويل ؟

إن هذه الأسئلة بالرغم من خطورتها إلا أن الإجابة عليها أشد خطرا وأبلغ تأثيرا .

ذلك لأنها سوف تضع النقاط على الحروف من جهة ، ولأنها غاية فى حد ذاتها من جهة أخرى .

(١) د . أنيس قاسم : تأملات فى الاحتلال الصليبي والصليبيون ص ٣٢ .
(الدار العربية للكتاب ، ليبيا — تونس) ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

كان السكان المسلمون يشتكون من حكامهم المسلمين بسبب الظلم الذى كان يقع عليهم من هؤلاء الحكام ، وهذه الشكوى من ظلم الحكام المسلمين فى عهد الحروب الصليبية هى التى ذكرها ابن جبير فى كتابه : " رحلة ابن جبير " فى عبارة صارخة عندما قال :

" إن كل الملوك فى هذا الأوان - فيما عدا الموحدين - على غير طريقة الشريعة يرتكبون من الظلم ما لم يسمع بمثله ، اللهم الاصلاح الدين " (١) .

ويذكر ابن جبير فيما يذكر من أخبار رحلاته أن المسلمين الخاضعين للأمراء الصليبيين كانوا أرغد همشا وأسعد حالا من إخوانهم الخاضعين للأمراء المسلمين ، وقد أرجع ابن جبير ذلك إلى أن الأمراء الصليبيين لم يحاولوا إرهاب المسلمين الخاضعين لحكمهم بالضرائب الباهظة غير المحدودة ، حيث كانت التزامات السكان المالية تجاه الأمراء الصليبيين محدودة بدقة وليس فيها شئ من الإرهاب ، وكان ذلك على العكس تماما من الأمراء المسلمين تجاه رعاياهم ،

وبعد أن يستطرد ابن جبير فى مقارنته بين الوضع الردى الذى يعانى منه المسلمون تحت حكم أمراءهم ، وبين الوضع الرضى الذى يسعد به المسلمون تحت حكم أمراء الصليبيين يقول ابن جبير :

" وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى المنصف الإسلامى جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من " الإفرنج " ويأسر بعدله ، فإلى الله المشتكى من هذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسوية ما جاء فى الكتاب العزيز : " إن هى إلا فتنك تغفل بها من تشاء وتهدى بها من تشاء " . (٢)

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ط . دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ . وابن جبير فقيه أندلسى وصف فى رحلته ما شاهده فى ديار المسلمين وديار " الفرنجة " التى مربها أثناء تأديته لفريضة الحج .

(٢) الاعراف : اية رقم ١٥٥

وهنا لابد لنا من وقفة متأنية أمام اعتبار ابن جبير هذا الوضع الطارئ على المسلمين فتنه .

وهذا الاعتبار من ابن جبير للوضع الطارئ على المسلمين يعتبر هسة إعلامية على جانب كبير من الأهمية .

ذلك لأن دهاة الصليبيين لم يفعلوا ما فعلوه من قبيل الرأفة بالمسلمين أو التعفف عما في أيديهم ، فهم أبعد ما يكونون عن ذلك باستقراء التاريخ ، لكنهم فعلوه من قبيل الدعاية والفتنة ليس غـيـر ، فعلوه عن قصد أمام الرعايا المسلمين الذين يجأرون بالشكوى من ظلم حكاهم المسلمين حتى تحدث المقارنة وتكون الفتنة .

وفعلوه أيضا قاصدين تخدير المسلمين الخاضعين لحكمهم حتى تحدث المقارنة وتكون الاستكانة .

وأستطيع — من وجهة نظري — أن أقول — وأنا مطمئن — بأن دهاة الصليبيين قد مارسوا أساليب من أساليب الدعاية في حملاتهم تلك :

الأسلوب الأول : أسلوب الترهيب بما أشاعوه من قتل وتعذيب وحرق وتدمير أثناء غزوهم البلاد التي اغتصبوها ، وقد بلغ هذا الأسلوب ذروته عندما دخلوا بيت المقدس وحولوه إلى مخافة من دهاة المسلمين .

الأسلوب الثاني : أسلوب الترغيب بما تظاهروا به من عدل ورأفة بحال المسلمين الخاضعين لحكمهم إذا قيس بحال المسلمين الخاضعين لحكمهم وهم — مع الأسف — مسلمون ، وهذا الوضع الخطير كان يعلمه الصليبيون بلاشك ويدركونه تمام الإدراك .

وهذه المقارنة بين الحالين يمكن أن تكون جوابا لسؤال آخر يفرض نفسه علينا :

- لماذا امتد الغزو الصليبي في قلب الأمة الإسلامية مائتي عام
ونيفا ؟

- إن المرء ليزدهل حقا عندما يقرأ أن الفلاحين الخاضعين لحكم
الصليبيين كانوا يعيشون في رغد وراحة بال ، لأن هؤلاء الحكام قد
اكتفوا بأخذ نصف محصولهم الزراعي فتمتعوا بعيشهم وسعدوا بعد أن
بقي لهم نصف المحصول .

هذا على الجانب الصليبي ، فمأذا على الجانب الآخر حيث
الحكام المسلمون والفلاحون الخاضعون لحكمهم .

لو أن هؤلاء الحكام المسلمين أخذوا من الفلاحين الخاضعين
لحكمهم مثل ما أخذ الحكام الصليبيون لسعد الفلاحون بحالهم ، لكن
ذلك لم يحدث ، ومعنى هذا هو أن الحكام المسلمين كانوا يأخذون
بلا حساب أو حدود ، وحين وجد الناس أنفسهم في عنك ويؤس ، لم
يتقاطوا مع حكاهم عندما تعرضوا للغزو ، ولم يتعاونوا معهم عند ما
طلبوا منهم الجهاد من أجل مقاومة الصليبيين . ذلك لأنهم وجدوا
هؤلاء الغزاة أرحم بهم من حكاهم المسلمين بالرغم من أن ذلك كان
من باب الدطية والخداع والفتنة .

شأنهم في ذلك شأن أى محتل في أى زمان ومكان .

حقا إن الجهاد فريضة . . لكن في مثل هذه الظروف ، هل
ينتظر أن يتقدم الناس بصدق إلى الجهاد ، وأن يلقوا برا حكامهم
الذين يسلبونهم كل شئ ولا يبقون لهم إلا الفتات ؟

هل يفكر في الجهاد من يعيش حياته مجاهدا في سبيل اخفاء
قوته وقوت عياله عن أعين الحاكم حتى لا يسلبه إياه ؟

إن الذى يصادر الحاكم أمواله وأملاكه دون وجه حق ، ولا يبقى
له من ثمره جهد ، وعرق جبينه ما يقاتل به يكون أكثر استعدادا للثورة

عليه ، بل والخيانة أيضا إذا وجد أن ذلك سيسبب غليظه من ظالمه
وسالب أرزاقه (١) .

لقد رأينا كيف خان " نيروز " قائده " ياغي سيان " حاكم
" أنطاكية " وسلم " برج الأختين " للصليبيين عندما غزوا " أنطاكية " .
مما ساعدهم على دخولها ، ولقد ذكر بعض المؤرخين الأسباب التي
دفعت " نيروز " أن يفعل فعلته ، وتتلخص في أن " ياغي سيان " قد
صادر بعض أموال " نيروز " وأخذ غلته (٢) .

ويؤكد رجال الإعلام على أن هناك علاقة موضوعية بين أحوال
الرأى العام وبين نظام الحكم وبخاصة الاستقرار والاستمرار ، وتفسير
الحكام بأسلوب منظم ومشروع .

ولا شك في أن أحوال المسلمين أثناء الحروب الصليبية كانت
مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأحوال السياسية التي كانت سائدة في المنطقة
العربية وهي أحوال كانت في غالبيتها سيئة دون شك .

لقد كان أمرا طبيعيا أن يقع الظلم على الرعية من حكام لا هم
لهم إلا الصراع على السلطة والاستحواذ عليها عن أى طريق ، ثم
اهتبال الفرص للثراء من أموال الناس قهرا وغيبا (٣) .

لم يعد خافيا على أحد أن الصليبيين قد استفادوا كثيرا
من التششت الإسلامى واختلاق الكلمة وتفرق الأهواء وذهاب الربح
وكذلك استفادوا من الحروب الداخلية بين الحكام والأمراء المسلمين
حتى استطاع الصليبيون أن يحتلوا القسم الأكبر من الساحل السورى
بدءا من " أنطاكية " فى الشمال حتى حدود مصر ، وأن يؤسسوا
أربع إمارات هى :

ملكة القبر المقدس ، وإمارة طرابلس ، وإمارة أنطاكية .

(١) اكن ذلك لا يعنى تبرير هذا السلوك ، فالخيانة جريمة فى كل الأحوال

(٢) د . سعيد همد الفتاح هاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٣) د . أنيس قاسم : تأملات فى الاحتلال الصليبي والصهيونى ص ٨٦ .

وامارة الرها . ومع وجود تلك العوامل الكثيرة السابقة ، فقد وجد عدد من الخونة كان يساعد الصليبيين الغزاة ضد المسلمين كما رأينا .

كل ذلك كان مرجعه إلى ما وصل إليه أمراء المسلمين وقادتهم من خلافات أدت إلى تشتت الرأي العام الاسلامي وتمزقه . الأمر الذي استفاد منه الصليبيون كثيرا ، فكانوا يتحالفون مع هذا ضد ذاك حتى يربحوا من الطرفين ، في الوقت الذي وقفت فيه بقية البلاد الإسلامية موقف المتفرج من هذا الغزو المحموم .

ولقد بلغ الأمر بأحد الحكام المسلمين وهو " رضوان " أمير حلب أن يتحالف مع " تنكريد " القائد الصليبي ضد الأتراك المسلمين الذين جاءوا طلبية لنجدة ، لكن سرعان ما خاف منهم لكثرتهم ، وبدأ يحسب حسابا لخطرهم ، ولم يلبث " رضوان " أن أغلق في وجه المسلمين " أبواب البلد ولم يجتمع بهم " (١) .

هذا في الوقت الذي تعاون فيه الفاطميون في مصر مع الصليبيين حول " أنطاكية " ضد المسلمين (٢) كذلك وقفت الخلافة العباسية موقفا سلبيا من هذا الغزو المائل على الأمة الإسلامية .

بالإضافة إلى ما تقدم لم يقدر للسلاجقة مطلقا أن يتحدوا جميعا لمواجهة الخطر الصليبي بالرغم من القرابة التي تجمع بين فرعي بني سلجوق وهما :

سلاجقة الروم وسلاجقة فارس والشام .

وهكذا شاء حسن حظ الصليبيين أن يواجهوا كل فرع من بني سلجوق على انفراد ، مما مكسبهم من إنزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة ، ويبدو أن وفاة السلطان " ملكشاه " كان إيذانا بتفكك إمبراطورية السلاجقة . ذلك أن السلطان " ملكشاه " كان له ثلاثة أبناء

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ، ص ٢٦٣ ، حوادث ٥٠٥ هـ .

(٢) المصدر السابق : ج ٨ ، ص ١٨٦ ، حوادث ٤٩١ هـ .

أشقاءهم : بركياروق ومحمد وسنقر ، علاوة على ابن آخر يدعى محمودا من زوجة أخرى ، وكان في الخامسة من عمره عندما توفي أبوه وسرعان ما دب النزاع بين بركياروق وبين أخيه من أبيه محمود ، وظل هذا النزاع بينهما مشتتلا حتى توفي محمود ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م فاتجه بركياروق في الحال إلى أصبهان فدخلها وملكها (١) .

لكن الخطر الأكبر الذي هدد " بركياروق " جاءه من ناحية عمه " تتش " الذي لم يرض عن التنظيم الذي أجراه أخوه " ملكشاه " في بلاد الشام ١٠٨٦ م ففي الوقت الذي كان " تتش " يؤمل أن تكون الشام كلها من نصيبه ، إذا بالسلطان " ملكشاه " يعطى حلب لحاجبه " آق سنقر " ، وهذا لم يبق لتتش سوى دمشق وأواسط الشام (٢) .

لذلك لم يكد " تتش " يسمع بوفاة أخيه " ملكشاه " حتى أسرع إلى الاستفادة من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي أسست فيها الدولة السلجوقية لتحقيق مآمعه بالاستيلاء على ما في أيدي أبناء أخيه عن طريق الصراع الدموى بين المسلمين في الوقت الذي كانت فيه الحروب الصليبية تدق عليهم الأبواب بسماحها المحموم .

استمرت الحال هكذا بين قادة المسلمين وأمرائهم ، كل يكيد للآخر ويجهز الجيوش تلو الجيوش لقتاله من أجل مزيد من الأرض ومزيد من الجاه والسلطان .

والرأى العام الإسلامى في حالة من السلبية المطلقة لا يعنى ما حوله شيئا ولا يتحرك لمواجهة الأخطار التي تهدده ، في حين يصل الرأى العام النصرانى إلى قمة إيجابيته ، ويتحرك بكل قوته نحو القضاء على الإسلام وأهله .

وهكذا لم تحل ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م إلا كانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة هى :

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ، ص ١٠٧ .

سلطنة فارس " أصبهان " وعلى رأسها السلطان " بركياروق " نفسه الذي كانت له السيطرة على بغداد .

• سلطنة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها " سنقر " .

• سلطنة حلب وعلى رأسها " رضوان بن تتش " .

• سلطنة دمشق وعلى رأسها " دقاق بن تتش " .

وأخيرا سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها " قلع أرسلان " (١) .

وليت الانقسام والانحلال الداخلي في دولة السلاجقة قد وقف عند هذا الحد ، بل حدث ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م والقدس الشريف تدنسه أقدام الصليبيين ، والمسجد الأقصى تزويه دماء المسلمين أن ثار محمد تبر على أخيه " بركياروق " واشتعلت بينهما الحرب جارية أمامها مزهدا من دماء المسلمين وأشلائهم محطمة كل أمل في وحدة القوى الإسلامية ووقوفها صفا واحدا أمام الغزو الصليبي للعالم الإسلامي .

ولقد استمرت هذه الحرب الطاحنة بين الأخوين خمس سنوات حيث انتهى الأمر بينهما بالصلح ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م ، فاحتفظ بركياروق بأصبهان وفارس وهراق العجم على أن تكون السلطنة له ، وأخذ محمد تبر أذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل والشام (٢) .

وإذا كانت هذه الحرب بين الأخوين قد دامت خمس سنوات أثناء الغزو الصليبي ، فكيف لا ينتصر الصليبيون انتصارهم الذي توجهوا به باستيلائهم على القدس الشريف ، ودخولهم المسجد الأقصى منتصرين في الوقت الذي تدور فيه رحى القتال بين المسلمين طاحنة بين فكيف كل المظاهر الإيجابية للرأى العام الإسلامي آنذاك .

(١) المرجع السابق : ج ١ ، ص ١١١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ، ص ٢٢٠ ، حوادث ٤٩٧ هـ .

٣ - الفاطميون في مصر يمزقون الرأي العام بعقائدهم الخاطئة :

ما كان لاجملات الصليبية أن تنال ذلك القسط من النجاح الذي أحرزته عند ما انطلقت على العالم الإسلامي في شعار محموم تحتل ما تشاء . والمسلمون يتقهقرون أمامهم فاعربين أفواههم من هول المفاجأة ومسرارة الصدفة التي أصيبوا بها سواء منهم من كان على أرض المذبحة السيقتي أحدثها الصليبيون في الشام وفلسطين ، أو من كان منهم بعيدا عن هذه الأرض ، كالدولة الفاطمية في مصر أو غيرها من بلاد المسلمين المنكوبة آنذاك بحكامها المتكالبين على سلطان زائف أو قطعة من طين .

من أجل ذلك طرحوا عقيدتهم الإسلامية خلف ظهرهم ، وانغمسوا في تلك الصراعات التي أخذت تنخر في عظام الأمة وتجعل من الرأي العام رمادا تذروه الرياح كالذي حدث أمام الغزاة الصليبيين .

ولقد رأينا كيف أن تمزق الرأي العام الإسلامي كان نتيجة لما ساد الأمة الإسلامية من خلافات .

ورأينا أيضا كيف احتل الصليبيون القدس الشريف ، وحولوه إلى بركة من دماء بيننا المعارك الطاحنة تدور رحاها بين محمد بن ملكشاه وأخيه "بركياروق" ترى لو أن هؤلاء القادة والأمرأ اتحدوا جميعا تحت راية واحدة ، ووقفوا جميعا عقيدة واحدة أمام هؤلاء الغزاة ، أكان حدث للمسلمين ما حدث لهم آنذاك ؟

إنني أطرح هذا السؤال وأعلم تماما أن التاريخ لا يقوم على مجرد افتراضات ، وإنما يقوم على الواقع الذي حدث بالفعل .

ولقد ظل هذا السؤال مجرد سؤال افتراضي بلا جواب واقعي إلى أن أدرك بعض المخلصين من قادة المسلمين السرا الكامن وراء الهزيمة والنصر ، فأخذوا على عاتقهم العودة بالمسلمين إلى العمل

بشرية الله ، وبعث فريضة الجهاد بين أفراد الأمة من جديد ففسار النصر في ركايبهم .

وكان على رأس هؤلاء المخلصين من قادة المسلمين " عماد الدين زنكي " الذي نزع بانتصاراته على الصليبيين الخوف والتردد ، وأعاد الثقة إلى النفوس المتشككة في النصر ، ولقد توج الشهيد (عماد الدين زنكي) جهادة باستيلائه على مدينة " الرها " التي جاء سقوطها " أيذانا بترنح البناء الصليبي الكبير الذي نجحت الحملة الصليبية الأولى في إقامته بالشرق " (١) .

وعلى أثر سقوط مدينة " الرها " في أيدي المسلمين تحرك الغرب النصراني ، لما لهذه المدينة من مكانة في تاريخ النصرانية ، ولأنها كانت أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق وما لبث أن أسفر هذا التحرك النصراني عن الزحف إلى العالم الإسلامي مرة أخرى فيما عرف " بالحملة الصليبية الثانية " .

ثم جاء بعد ذلك " نور الدين محمود " الذي سار على درب أبيه ، حاملاً راية الجهاد ضد الصليبيين حتى استطاع أن يكمل لهم الصاع صاعين ، ويستولي على العديد من الحصون والقلاع والمدن ، ويهاجم " أنطاكية " سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، ويأسر " جوسلين الثاني " سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م ، ويستولي على بلاد (٢) .

ثم يأتي بعد ذلك صلاح الدين الأيوبي لتكمل به إجابة السؤال الافتراضي بعد ثمانية وثمانين عاماً ، وهي الفترة التي وقعت بين استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، وتحريره على يد صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وبذلك يكون " عماد الدين زنكي " ، وابنه " نور الدين محمود " ومن بعدهما " صلاح الدين الأيوبي " قد اشتركوا جميعاً أبطالاً ودعاة في وضع الصيغة الواقعية على

(١) د . سعيد عبدالفتاح طاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ .

(٢) د . فايد حماد محمود طاشور : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ،

السؤال الافتراضى الذى طرحته ، وان كان قد قدر لصالح الديـ
الأيوبى أن يتوج جهاد المسلمين بما حققه من انتصار على الصليبية
وطغاتها فى " حطين واستيلائه على بيت المقدس بعدها بقليل ،
فانه بذلك يكون قد وضع نهاية هذه الإجابة التى أصبحت بمعـ
تاريخا لا افتراض فيه وحقيقة لا تقبل الجدل أو المراءى .

إن الأحداث الكبار التى تغير وجه التاريخ دائما تحتاج إلى
قادة هم فى الحقيقة أكبر من هذه الأحداث ، لأنهم اولم يكونوا
كذلك لعجزوا عن تحقيقها ، ولما غيروا وجه التاريخ بأحداثهم الكبار .
لذلك لم يستطع أى من قادة المسلمين أن يفعل شيئا أمام
الزحف الصليبي عندما بدأ على العالم الإسلامى ، لأن غالبية هؤلاء
القادة كانوا فى شغل شاغل عن تلك الأحداث ، لقد شغلوا بأنفسهم
فذاقوا وبال أمرهم .

ولم يكن الوضع فى مصر الفاطمية فى ذلك الوقت أفضل من الوضع
الذى كانت عليه بلاد الشام عند بدء الحملات الصليبية .
وكان من نتيجة ذلك أن عم الفساد واستشرت الفوضى فى مصر
الفاطمية .

" لقد عرفت مصر فى العهد الفاطمى من الشدة والضيق ما لم
تعرفه فى عصورها كلها ، وان ما يعرف بالشدة المستنصرية وحده لكفيل
بإبراز هذه الحقيقة ، وان حوليات هذه الفترة التى حكم فيها المستنصر
بالله الفاطمى (٤٢٧ هـ - ٤٨٧ هـ) لحافلة بأبشع صور الضيق التى
أطلق عليها (الشدة العظمى) والتى أكل فيها الناس بعضهم بعضا ،
وأكلوا أولادهم وأكلوا الحمير ، والكلاب ، وبيع الرغيف بمائة دينار ،
وان ما أنفقوه على المظاهر والأحفال والمزارات والقصور - من مال الأمة
ليس دليلا على الرخاء ، بل هو دليل على السفه والاستغلال البشع ،
والنظر إلى أموال الأمة على أنها أموال لهم ، ولهم يقدسهم ويتبرك
بهم ويؤمن (بحقهم الإلهى) فى التصرف فى الأمة تصرفا أقرب

ما يكون الى (الباهوية) فى العصور الوسطى " (١) .
جاء هذا الوصف لحالة مصر فى عهد الفاطميين قبيل بدء الحملات
الصليبية على العالم الإسلامى بخمسة سنوات تقريبا .
فكيف لأمة هذا شأنها وهؤلاء حكامها أن تكون لها القدرة
على صد تلك الحملات أو الوقوف فى طريقها ؟ .

ومن الغريب فى أمر الفاطميين : إيمانهم لليهود والنصارى
فى أخطر منصب لديهم وهو منصب الوزارة ، بحيث ارتبط هذا
المنصب الخطير بهم . . بل إن (داعى الدعوة) لهم فى بعض
العصور كان من النصارى ، وذلك فضلا عن رجال الضرائب والكتابة
والدواوين (٢) .

وعندما تولى " العزيز أبو منصور نزار بن المعز " الخلافة
فترة تقرب من واحد وعشرين عاما (٣٦٥ هـ - ٣٨٦ هـ) أخذ عن
والده (المعز) الإسراف فى المواسم ، والتنظيم الدقيق للمهرجانات
وعند الخروج للجامع والأعياد ، وكان يعتمد على غير المسلمين فى
إدارة البلاد ، فعين على ديوان الكتابة (مجلس الوزراء) نصرانيا
اسمه : (عيسى بن نسطورس) النصرانى ، كما عين يهوديا عنه فى
الشام هو : (منشأ فاعستز) ، مما دفع النار إلى دفع من يكتب إليه :
" بالذى أعز اليهود (بمنشأ) والنصارى (بعيسى بن نسطورس)
وأذل المسلمين بك الا كشفت ظلامتى ، وكان اذلك أثره فى إضعاف
هيبة الدولة التى أخذت فى اثارة النعرات الطائفية ، لاسيما وأن
الفاطميين قد انتحلوا لأنفسهم صفة " الخليفة " ما أحفظ عليهم
رجال السنة الذين يطلبون مواصفات محددة للخلفاء " (٣) .

(١) أبو عبد الله محمد بن على بن حماد : أخبار ماوك بنى حميد وسيرتهم
(تحقيق ودراسة : د . التهامى نقره ، د . عبد الحليم عويس)

دار العلوم بالرياض ١٤٠١ هـ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٧ .

(٣) بسام العسلى : صلاح الدين الأيوبي ، ص ٦٠ .

وإذا تردى الوضع بالحكام إلى الدرك الأسفل ، فلا يستغرب منهم أى وضع يمكن أن يتخذوا منه ذريعة يتذرعون بها أمام بقائهم فى مناصبهم ، وليس بمستبعد على هؤلاء الحكام وأمثالهم أن يصل بهم الأمر إلى أن يخونوا الله ويخونوا آماناتهم ، وأن يتصاوا بالصليبيين لعقد صفقة معهم ضد الإسلام والمسلمين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

حدث ذلك حول * أنطاكية * فى الحملة الصليبية الأولى ، والسلاجقة يقفون حائلا دون استيلاء الصليبية عليها ، وهنا المعارك دائرة حول * أنطاكية * بين السلاجقة والصليبيين إذ * بالأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى * يوفد من مصر فى شهر صفر ٤٩٢ هـ - يناير ١٠٩٨ م سفارة إلى الصليبيين وهم أمام * أنطاكية * بقيت شهرين ، تحمل مشروع اتفاقية تعقد بينهم وبين مصر ، تستقل فيها مربييت المقدس وينفرد الصليبيون بأنطاكية ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين ، وتكون لهم الحرية الكاملة فى ممارسة شعائرهم الدينية ، على ألا تزيد إقامتهم بها أكثر من شهر واحد ، وألا يدخلوها بسيوفهم . ومهما يكن من أمر هذه الوفاة فقد لقيت من الناحية النظرية ترحيبا كبيرا من جانب الصليبيين الذين أدركوا ما تطاوى عليه من معنى الانحلال العنيف ، والفرقة السائدة فى المجتمع الإسلامى ، رغم أن الأحداث الملمة ببعض نواحيه كانت تستدعى تناسى الأعتاد والخلافات المذهبية والسياسية ، وتتطلب تضافر الجهود لدرك الخطر المشترك . (١)

واقدر كانت هناك عوامل كثيرة دفعت الفاطميين فى مصر إلى اتخاذ هذا المسلك الذى يأباه الله ورسوله والمؤمنون . وكان على رأس تلك العوامل ما تعاقب منها بالمذهب الفاطمى نفسه ، وموقفه الرافض لمذهب أهل السنة والجماعة .

(١) د . حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

وقد ترتب على تلك العوامل العقيدية عاملان :

١ - اعتقاد الدولة الفاطمية في مصر بأن انتصار الصليبيين في أنطاكية* وقرب حلب* و* المعرة* و* البصرة* يعتبر مانعاً للسلاجقة من محاولتهم التوسع جنوباً ، مما يزيد اقترابهم من حدود مصر والأملاك المصرية ، وكان " الأفضل بن بدر الجمالي " يرى أن مهمة الصليبيين تنتمى عند بيت المقدس . غير أن الواقع يدل على أن الصليبيين كانوا يدركون تمام الإدراك أن ليس ثمة عقبة في سبيلهم للاتجاه نحو مصر بعد فتح القدس ، لأنهم يعلمون ما بين الخلافتين العباسية والفاطمية من الشقاق والكراهية (١) .

٢ - ضعف الدولة الفاطمية الذي رفع الفاطميين إلى مهادنة الصليبيين والتعامل معهم كما رأينا في السفارة الفاطمية الأفغانية ، وبذلك تكون الدولة قد فقدت ذريعة وجودها (داخليا وخارجيا) ، ولم يبق إلا الاجهاز عليها ، ولكن ذلك كان متعذرا بسبب قوة التنظيم العسكري الذي اعتمده وزراء الفاطميين وأجهزة الدولة (٢) ولم يعد للخليفة سوى الدعاية له وفق الأسلوب المعتاد منذ عهد الخليفة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد (٢٢٤ - ٢٤٤ هـ) - (١١٣٠ - ١١٤٩ م) ، وما يوضح به ذلك مدى تعلق الدولة واهتمامها بالشكل الخارجى دون المضمون الدعاية التالى :

" أصلح الله من شهدت به الدين بعد دثوره ، وأعززت به الإسلام بأن جعلته سببا لظهوره ، مولانا وسيدنا إمام العصر والزمان ، أبا الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى آباءه الطاهرين ، حجج الله على العالمين " (٣) .

(١) المرجع السابق : ص ١٢٧ .

(٢) بسام العسلى : صلاح الدين الأيوبي ، ص ٦٢ .

(٣) ابن توفى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ .

وفي مثل هذا الجو الذي كانت تنبعث منه رائحة الضعف والتمزق على جميع الجبهات ، انطلقت الحروب الصليبية لتكتسح أمامها معازل المسلمين ويلاذهم ، وكأنها قطعة من جبن وقعت تحت سكين حاد ، وام يكن ذلك الأمر يدعو إلى العجب لأنه كان نتيجة حتمية أمام عالمين اجتماعا معا ، وكأن كلا منهما كان لابد له من الآخر حتى تتحقق مأساة العالم الإسلامي باجتماعهما ، وهذان العاملان يتأخضان في : تمزق العالم الإسلامي ، والرغبة الجامحة التي استحكمت لدى الأمة النصرانية لاسترداد ما أخذته الاسلام منهم على مر العصور ، ولقد استمر النصارى يترقبون الفرصة المنيعة والزمن المناسب حتى جاءت نهاية القرن الخامس الهجري ، فكانت أحسن الفرض للانتهاز والانقضاض .

ولكن الله سبحانه الذي يتمتع هذه الأمة بشتى عنوف المحن حتى يميز الخبيث من الطيب هو سبحانه الذي يقيض لهذه الأمة في كل زمان ومكان من الرجال الذين يجدون تحت راية التوحيد دينها ، ويسيدون لها تحت راية الجهاد عزها ، ويعذبون بأيديهم وأبصارهم المؤمنين من فرط في دين الله من هؤلاء القادة أمثال : (الحافظ أبي ميمون عبد المجيد) من يلبسون لباسا غير لباسهم ، وينسبون لأنفسهم أنسابا غير أنسابهم .

إن هؤلاء القادة من الصعب عليهم ، بل قد يكون من المستحيل أن يهدى الله على أيديهم رجلا واحدا ، في الوقت الذي قد يكونون فيه سببا من أسباب ضلال الأمم وهلاكها ، أما هؤلاء الذين لا يلبسون إلا أقل من لباسهم ، ولا ينسبون لأنفسهم إلا أقل من أنسابهم ، فأولئك هم المهتدون الذين يهدى الله على أيديهم الأمم ، وينصرهم نصرا عزيزا .

وأذكر من هؤلاء - على سبيل المثال - ومن باب المقارنة وذكر الشيء بنقيضه - القائد " نور الدين محمود " الذي تلقى يوما من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها (قاشة) بألقابه التي كان يذكر بها على منابر بغداد وهي : " المأمم أعلاح المولى السلطان الملوك

العدل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المربط
المشاعر نور الدين وعدته ، ركن الإسلام وسيفه ، قسيم الدولة وعمارها
اختيار الخلافة ومعزها ، رضى الإمامة وأثيرها ، فخر الملة ومجدها
شمس المعالي وطنكها ، سيد ملوك المشرق والمغرب وساطانها محسن
العدل فى العالمين منصف المظلوم من الظالمين ناصر دولة أمير
المؤمنين .

لكن نور الدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعا " واحدا يقول :
" اللهم وأصاح عبدك الفقير محمود بن زنكى " (١) .

وفى ميدان الجهاد عندما يبرز الإيمان كله إلى الكفر كله ،
يقف القائد المؤمن تقيا نقيا أمام ربه منتظرا لقاءه بين لحظة وأخرى ،
وإيس فى قلبه غير الضراعة والدعاء إلى الله أن ينصر دينه ويعزز
أوليائه ، وأن يخذل المشركين ويذل أعداءه .

لا يطلب من وراء ذلك سلطانا ولا جاها ، ولا عزا ولا مالا ، إنما
يطلب من ربه أن يرزقه إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

عندما التقت قوات القائد الذى اتخذت مثلا " نور الدين محمود "
بالصليبيين فى " حارم " وكانوا يفوقون قواته عدة وعددا ، انفرد نور الدين
تحت تل (حارم) ، وسجد لربه عز وجل ، ومرغ وجهه وتضرع وقال : " يا رب
هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر
أوليائك على أعدائك . ايتش فضول محمود فى الوسط ؟ (أى بين هؤلاء
وهؤلاء) ويقول أبو شامة : يشير نور الدين هنا إلى أنك يا رب إن نصرت
المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق
للنصر . ويدعى أنه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا . من هو محمود حتى
ينصر " (٢) .

وانتصر نور الدين محمود على قوات العدو التى كانت تفوق قواته عدة
وعددا ، انتصر لأنه استحق النصر من عند الله ، وانتصر لأن الله سبحانه
وتعالى أراد للمسلمين أن ينتصروا على يديه حتى يروا الحق حقا فيتمتعوه
ويروا الباطل باطلا فيجتنبوه .

(١) ابن قاضى شهبه : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، ص ٦٨ ، ٦٩ ، تحقيق :
محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ م .
(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٣٤ .

الفصل الثاني

الركائز الإسلامية التي اعتمد عليها المسلمون في تعيبتهم الإعلامية ضد الصليبيين

أولا : مرحلة انعدام الرؤية وتمثل عدم الوضوح في الاعتقاد على الركائز الإسلامية الثابتة :

- ١ - التصوف والزهد في الدنيا هربا من المشاركة في الجهاد ضد الصليبيين .
- ٢ - ترك الجهاد والاستعاضة عنه بالاعتكاف في المساجد والعبادة وتلاوة القرآن الكريم دفعا للخطر الصليبي .

ثانيا : بداية وضوح الرؤية والانطلاق من الركائز الإسلامية في عهد عماد الدين زنكي ونور الدين محمود .

ثالثا : مرحلة الوضوح الكامل للاعتماد على الركائز الإسلامية في التعبئة الإعلامية

- ١ - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .
- ٢ - المسجد والعودة به الى ما كان عليه في صدر الإسلام .
- ٣ - موسم الحج واستغلاله في الدعوة إلى الجهاد .

أولا : مرحلة انعدام الرؤية وتمثل عدم الوضوح في الاعتماد على الركائز الإسلامية الثابتة :

بدأت الحملات الصليبية زحفها على العالم الإسلامي وكان هذا البداية كانت على موعد مع عوامل الضعف والتمزق التي أحاطت بالمسلمين من كل جانب ، وجعلته يعيش في حالة انعدام في كل شيء .

ويشير أحد المؤرخين إلى أن الصليبيين لو تقدم مجيئهم عشر سنوات ، أو تأخر قد ومهم عشر سنوات ، لقدف بهم المسلمون إلى البحر وذلك بسبب ما كان عليه السلاجقة زمن " ملك شاء " من القوة والمناعة ، وما كان للفاطميين من قوة بحرية وهكبرية ضخمة ، ثم بسبب ما حدث بعدئذ من النزوع إلى توحيد العالم الإسلامي (١) .

لقد فوجئ العالم الإسلامي بتلك الحملات التي هزته هذا ضيقا فاستيقظ من سباته ليجد نفسه فارقا في بحار من دماء أبنائه الأبرياء ، ولكن صف الصدمة التي جعلته يترنح لم تدع له فرصة للتفكير السديد في جو من وضوح الرؤية ، والاعتماد على الركائز الإسلامية الثابتة التي تقوده حتما إلى النصر .

ونتيجة لذلك انتشرت المفاهيم الخاطئة لمبادئ الدين الحنيف بين المسلمين ، ومع التطرف والغلو والانحراف بين العديد من الطبقات وكان من أبرز تلك المفاهيم الخاطئة والمعتقدات الباطلة التي ظهرت بين المسلمين آنذاك :

١ - التصوف والزهد في الدنيا هربا من المشاركة في الجهاد :

احترف جماعة من الناس حياة الزهد والتصوف والانقطاع عن الناس رفعا للحياة وما فيها ، ومع انتشار هذا المفهوم الخاطئ للدين الحنيف ازداد عدد هؤلاء المتصوفة المنقطعين عن حياة الجهاد

(١) " أرست باركر : الحروب الصليبية - ترجمة د . السيد الباز العربي - ص ١٥٣ (دار النهضة العربية - بيروت - ط ٢) ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م

وحرب الأعداء ، وأصبحت " التكايا " بدعة جديدة باهتة بين الناس وبين واجبهـم نحو دينهم ونحو أوطانهم بل نحو أنفسهم ، وشيئا وراء شئ أخذ هؤلاء المتصوفة يدعون ما ليس لهم ، ويهدون في الدين ما ليس منه ، ومن هذه " التكايا " انطلقت أصواتهم بقراءة القرآن طلبا لهزيمة الأعداء ، وقراءة البخاري رغبة في الانتصار على الصليبيين ، كأن النصر يأتي مع القعود وكأن الأعداء ينهزمون بمجرد الدعا عليهم ، وما كان ذلك هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرب أعدائه ، وإنما كان يجاهد في سبيل الله معدا لعدو الله ما استطاع من قوة مواجهها لعدوه بعدة وهديد ، ورجال مؤمنين مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله (١) .

ولقد امتد هذا المفهوم الخاطيء لمبادئ الدين الحنيف حتى شمل مراحل الحروب الصليبية بأسرها تقريبا .

ومن هؤلاء الذين رضوا أن يكونوا مع الخولاف الشاهـر " عمر بن على " المعروف " بابن الفارض " لقد كان ينظم القصائد الطوال لا في التحريض على جهاد الصليبيين ولا في الهكـاء على ما أصاب المسلمين ، ولا في مدح المناضلين في سبيل الدين ، بل في وصف الخمرة الإلهية وما سيعده الله له من خير وحرور عين هذا في الوقت الذي أقبلت فيه نساء " الإفرنج " من مسافات طويلة لم يشتركن في القتال جنبا إلى جنب مع الرجال (٢) .

٢ - الاستعاضة عن الجهاد بالاعتكاف في المساجد والعبادة وتلاوة

القرآن دفعا للخطر الصليبي :

لم تقف المفاهيم الخاطئة والمعتقدات الباطلة بالمسلمين عند انتشار ظاهرة التصوف والزهد في الدنيا هربا من الجهاد ضد الصليبيين فحسب ، بل تعدت ذلك إلى ترك الجهاد

(١) د . على عبد الحليم محمود : الغزو الصليبي . . . والعالم الإسلامي ص ٢٥٥ .

(٢) محمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ص ٣٦ .

والاستعاضة عنه بالاعتكاف والعبادة اعتقاداً منهم بأن هذا يقربهم من الله زلفى ويفنيهم عن متاع الكفاح ومشاق القتال ولكي يطمئنوا على أنفسهم ويضمنوا سلامة ذواتهم من أضرار الحرب بعيداً وقريباً كانوا يهاجرون إلى مكة ويتخذون من الحرم مكاناً يباشرون فيه نوط من "الرهبانة" ابتدئوها وحرصوا على ممارستها .

وقد كتب أحد المجاهدين من الشام إلى صديق له كان قد هرب من واجب الجهاد ، وأخيراً في الحرم يتعبد على زعمه يقول :

يا طيب الحرمين لو أبصرتنا : لعلمت أنك في العبادة تطعب من كان يتعب خيله في باطل : فخيولنا يوم الكربة تتعب أو كان يخضب خده بدموعه : فنحورنا يدماثنا تتغضب ربح العبير لكم ونحن عيرنا : ربح السنايك والغبار الأشهب ولقد أتانا من مقال نبينا : قول صحيح صادق لا يكذب لا يستوى وغبار خيل الله في : أنف أمري ودرخان نار تلهب (١)

لقد شاعت تلك المفاهيم الخاطئة أجاد في الإسلام الحنيف بين الناس حتى أثرت على عدد المجاهدين في سبيل الله ، فأخذ الكتاب يؤلفون الرسائل المتعددة والكتب المتنوعة في الحصص على الجهاد في سبيل الله ، وبذل النفس والنفيس في الدفاع عن العقيدة ودرح الأعداء .

ولقد عبر "العماد الكاتب الأصفهاني" عن ذلك بأبلغ تعبير حيث قال :

" وهذا أوان تحرك زوى الحمية ، ونهوض أهل الهمم الأبهة العلية ، فإن القوم (يعنى الصليبيين) في كثرة ، ولا يقاظون

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

إلا بالكثرة . وهم مفترون بعلوهم ، معتزون بفتوهم . فأين
المؤدون فرض الجهاد المتعين ، وأين المهتدون في نهج
الرشاد المتبين ، أين المسلمون ؟ وحاشا أن يكونوا للإسلام
مسلمين ، وأين المقدمون في الدين ؟ ومعاذ الله أن لا يكونوا
في نصرته على الموت مقدمين " (١) .

ولقد استمر هذا المفهوم الخاطيء لمعنى العبادة والجهاد في
الإسلام حتى أثناء غزو التتار للعالم الإسلامي ، ما جعل شيخ
الإسلام " ابن تيمية " يحمل على هؤلاء الذين تركوا الجهاد
ستعريضهم لله بالاعتكاف والعبادة ، ولو أنهم اتخذوا من رسول
الله صلى الله عليه وسلم أسوة لبذلوا ما وسعهم في تحرير
المسلمين على الجهاد ولحطوا سيوفهم وخرجوا إلى ساحات
الوفى ، لا سيما أنهم عاشوا في زمن تعرض فيه المسلمون لأشد
أنواع البلاء .

(١) العمدان الكاتب الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٤٠١

ثانيا : بداية وضوح الرؤية والانطلاق من الركائز الإسلامية في عهد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود :

وقفنا على حال الأمة الإسلامية حينما فاجأتها الحملات الصليبية وهى أشبه ما تكون بالشخص النائم الذى دهمه خطر مفاجئ ، وطبعاً فإنها كانت شبه ممزقة فى التعرف على ركائز المقاومة الحقيقية ، وبالتالى لا يستطيع أحد أن يقول إنها قد ظهرت لديها منطلقات حقيقية فى هذه المرحلة ، لذلك لم تقابل هذه الحملات بالمقاومة الإسلامية التى تتفوق وخطورة هذا الزحف فى حينه .

وبالرغم من ذلك فإن الباحث المنصف لا يسمع إلا أن يعترف بوجود بعض هذه المنطلقات وظهورها فى الأمة فور إفاقتها من هول المفاجأة بل لقد برزت صور التفاعل مع المضامين القرآنية والأحداث النبوية ، وصورة الاستغلال الحقيقى للمسجد ولغيره من المؤسسات الإسلامية لتوعية الأمة وإرشادها ، وبعث فريضة الجهاد فى النفوس من جديد .

ولقد كان عصر " عماد الدين زنكى " و " نور الدين محمود " أبرز فى ظهور هذه المنطلقات من مرحلة الضياع التى سبقتها .

ولم تكن فترة " عماد الدين زنكى " مع الصليبيين إلا فترة جهاد متواصل لكسر شوكتهم وزعزعة مكانتهم من نفوس المسلمين ، خاصة وأنهم كانوا يعتقدون بهمهم حين أنفسهم أن أحدا من المسلمين لن يستطيع النيل منهم ، ولكن " زنكى " خيب فآلهم ، وأبطل معتقدهم ، وأشعرهم بالهزيمة والبأس بعد شعورهم بالغلبة والأمل . يقول " ابن الأثير " معبرا عن ذلك حين حاصر " زنكى " قلعة " بعرين " بالقرب من حمص ، وكانت من أمتع حصون الفرنج وأحصنها :

" وأما زنكى فإنه جد فى قتال الفرنج ، فصبروا ، وقتل عليهم الميرة والذخيرة ، فانهم كانوا غير مستعدين ، ولم يكونوا يعتقدون

أن أحدا يقدر عليهم . بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد بالشام ، فلما
قلت الذخيرة أكلوا دوابهم ، وأرضوا بالتسليم ، لئلا منهم ويتركهم —
يعودون ، فلم يجيبهم إلى ذلك " (١) .

وحول تلك القلعة الحصينة شدد " زنكى " الحصار على الصليبيين
حتى الأخبار منعها عنهم ، فلم يسمعوها بأخبار النجدات التي كانت فى
الطريق إليهم ، فى حين سمع " زنكى " بها ، لذلك قبل منهم التسليم ،
وعندما خرجوا وسمعوها بأخبار هذه النجدات ندموا .

يقول ابن الأثير :

" فلما نزل " زنكى " على قلعة " بعمرين " قاتلها وزحف إليها
فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم ، وساروا فى قضهم وقضيتهم وملوكهم —
وقامصتهم وجنودهم إلى أتابك زنكى ليرحلوه من " بعمرين " فلم يرحل
وصير لهم إلى أن وصلوا إليه فلقبهم ، وقاتلهم أشد قتال رآه الناس ،
وصير الفريقان ، ثم انجلت الواقعة من هزيمة " الفرنج " وأخذتهم سيوف
المسلمين من كل جانب ، واحتس ملوكهم بحصن " بعمرين " لقرية منهم ،
فحصرهم المسلمون ، ومنع أتابك زنكى عنهم كل شئ حتى الأخبار ، فكان
من به منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته
على جنوده " (٢) .

ثم نسمع بعد ذلك من الإلاميين من يتكلم من مصطلح إعلامى
حديث — كما يزعمون — أطلقوا عليه اسم " التعمية الإعلامية " ولا يذكرون
ذلك من " زنكى " الذى طبق مثل هذه " التعمية الإعلامية " على
الصليبيين فى عام (٥٣١ هـ / ١١٣٧ م) .

ونسع أيضاً ما يسمى " بالحصار الحديدي " الذى فرضه " ستالين "
على الشعب السوفيتى حتى لا تتسرب منه أخبار أو تصل إليه أخبار أئمناء .

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق : ج ٨ ، ص ٣٥٧ ، ص ٣٥٨ .

هلمية "غسيل المخ" التي أجراها قادة الشيوعية لشعبهم ، ولا نسمع
من "الحصار الإسلامي" المحكم الذي فرضه "زنكي" على الصليبيين
في قلعة "بعمرين" حتى منع عنهم الأخبار وكان ذلك سببا في
استسلامهم .

وزنكي حينما فعل ذلك إنما فعله تطبيقا لقوله تعالى :

" فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا
لهم كل مرصد" (١) .

وهذا "ابن الأثير" هذا المعنى فيقول :

" فلما سمع "زنكي" بقرب ملك الروم من الشام واجتماعه بمن بقي
من الفرنج أعطى لمن في الحصن الأمان ، وقرر عليهم تسليم الحصن
ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها إليه ، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا
وسلموا إليه ، فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم ، فتدبروا
على التسليم حيث لا ينفقهم الندم ، وكان لا يصلهم شيء من الأخبار
التهمة ، فلهذا سلموه " (٢) .

ويموت "عماد الدين زنكي" شهيدا في سبيل الله بعد أن بدأ
مسيرة الجهاد والوحدة الإسلامية ، وسعد لمن جاء بعده طريق النصر
النهائي على الصليبيين .

وينهض "نور الدين محمود" ليتسلم الراية من أبيه الشهيد ،
ويكتسب نور الدين محمود أهميته لتفوقه في ميدانين :

أحدهما أنه حقق سلسلة من الانتصارات العسكرية والسياسية
الهامة ضد الصليبيين ، وهز ذلك المنجزات السابقة التي حققتها
المقاومة الإسلامية في مراحل (البدايات) والآخر - وهو الأخطر

(١) التوبة : آية ٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ، ص ٣٥٨ ، حوادث سنة ٥٣١ هـ .

والأهم - أنه حقق بانقلابيته التي غطت جل مساحات الحياة ، واستمداده من منابع الإسلام الأصيلة في القرآن والسنة ، الأرضية المناسبة التي تبعت (المجاهد) إلى الوجود وتمكنه من أداء دوره في أحسن (الظروف) وأكثرها قدرة على شحن طاقاته (١) .

لقد كان نور الدين نفسه عالما قبل أن يكون حاكما ، وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية . إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تنع وتزهو فيها شجرة المعرفة ، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفض عنها أوراقها الصفراء ، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء (٢) .

أما القرآن فقد لقي عناية فائقة ، باعتباره نصا يحفظ ويتلى فسي مناسبات كثيرة غير مناسبات الصلاة والعبادة ، أو للثقافة والدرس ، وقد بلغ اهتمام الحكام بالقرآن الكريم وحفظه وتلاوته درجة كبيرة ، فقد بنى نور الدين محمود دورا وأوقفها على قراءة كتاب الله عز وجل يسكنونها (٣) ولقد عرف نور الدين بشغفه بالعلم والمشتغلين به ، وحبهم للفقهاء وأهمها الحديث ، وكان لا يفتأ يجمعهم في مجلسه ويستشيرهم في أمور الدين والحكم .

ومن وفد إليه من مشاهير الفقهاء في العصر " قطب الدين - النيسابوري - عام ٥٦٨ هـ " فسر به " نور الدين " وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق ، وبني له مدرسة كبيرة للشافعية لفضله (٤) .

" وكان نور الدين محمود طارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، ليس عنده تعصب ، وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر ، وأما عدله

(١) د . عماد الدين خليل : نور الدين محمود ، ص ٣ - دار العلم بيروت - ط ١ (١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) .

(٢) المرجع السابق : ص ١٣١ .

(٣) ابن جبير : رحاة ابن جبير ، ص ٢٥٧ .

(٤) د . محمد زغول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، ص ٧٩ (دار المعارف

بمصر) ١٩٦٨ م .

فإنه لم يترك في بلاده على سعتها " مكسا " ولا " عشرا " بل أطلقها جميعا في مصر والشام والجزيرة والموصل ، وكان معظم الشريعة ، ويقف عند أحكامها ، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه ، وأرسل إلى القاضي " كمال الدين بن الشهرزوري " يقول قد جئت محاكما ، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم ، وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي أحضره ، وقال أردت أن أترك له ما يديه إنسا خذت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة ، فحضرت ثم وهبته ما يديه " (١) .

هذا هو العدل الذي كان أحب شيء إلى نور الدين الذي أفنى عمره كله في قتال الصليبيين ، ولم يكن يقاتل دفاعا عن حلب أو دمشق أو الموصل ، وإنما كان يجاهد جهاد المسلمين دفاعا عن ديار الإسلام . أو أراد نور الدين أن يستريح في دولته لما تعرض له الصليبيون . كانت دولته تشمل شمال العراق والجزيرة وسوريا كلها وشرقي الأردن كله ، ولم يكن خارجا عنها في ديار الشام سوى الساحل وفلسطين ، ولكن نور الدين أمر بإعداد منبر للمسجد الأقصى يضعه فيه بعد إنقاذه من أيدي الصليبيين . وقد أمضى العمل عشرين سنوات في صنع ذلك المنبر ، وقد شهد صلاح الدين هذا كله وطم به ، فالمنبر الذي أقامه صلاح الدين في المسجد الأقصى بعد تحريره هو منبر نور الدين وهو المنبر الذي أحرقه العدو الصهيوني عندما أشعل النار في المسجد الأقصى . (٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٩ ، ص ٢٥٠ .
(٢) د . أنيس قاسم : تأملات في الاحتلال الصليبي والصهيوني ، ص ١١٠ .

ثالثا : مرحلة الوضوح الكامل : اد على الركائز الإسلامية في التعبئة الإعلامية
في عهد صلاح الدين :

١ - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة :

كان القرآن الكريم ولا يزال هو المصدر الذي تعتمد عليه الدعوة الإسلامية في استقاء موضوعاتها ، وفي تحديد أساليبها ومنهجها ، ومنه تأخذ حججها وبراهينها .
وهو الدعاة الرئيسة للدعوة الإسلامية .

والقرآن الكريم هو الدستور الشامل الجامع المنظم لشئون المسلمين في الدنيا والآخرة ، مصداقا لقوله عز وجل : " ما فرطنا في الكتاب من شيء " (١) .

فهو الرسالة الإعلامية المقدمة ، معجزة الإسلام الخالدة ، والمصدر الأول للتشريع ، وهو الدعاة الرئيسة للإعلام الإسلامي ، وأهم عوامل نجاح الرسالة الإعلامية الإسلامية (٢) .

ولكى تتكون عملية إعلامية فلا بد أن يتوفر لها من الأسس والقواعد ما تنبنى عليه ، ويتحقق بها وجودها في الواقع .

فالركن هو الجزء من ذات الشيء لا يكتمل إلا به ، ولا يتحقق إلا بوجوده لكونه جزءا منه كالركوع والسجود بالنسبة للصلاة (٣) .

وهذه الأركان هي ذاتها التي يطلق عليها بعض الإعلاميين عناصر العملية الإعلامية ، والأركان أو العناصر هي أجزاء الموضوع

(١) الأنعام : آية رقم ٣٨ .

(٢) د . محي الدين عبد الحليم : الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية ، ص : ١٦٣ ، ١٦٢ .

(٣) د . حمادة نجيب : الإعلام في ضوء الإسلام ، ص : ١١٠ ، (مكتبة المعارف - الرياض) ط ١ (١٤٠٠ هـ) .

الأساسية وأسسها التي لا بد منها ، وهذه الأركان أو العناصر
هي :

- ١ - المرسل للرسالة الإعلامية .
- ٢ - الرسالة الإعلامية .
- ٣ - الوسيلة ، وهي التي تقوم بنقل الرسالة الإعلامية .
- ٤ - المستقبل (بكسر الباء) للرسالة الإعلامية .
- ٥ - الاستجابة للرسالة الإعلامية أو التأثير الذي تحدثه
الرسالة الإعلامية .

تلك هي عناصر العملية الإعلامية بمفهوم عامة .

ولو أردنا أن نقف على أبعاد العملية الإعلامية الإسلامية
لما اهتمدنا كثيرا عن تلك العناصر للعملية الإعلامية بمفهومها
العامة .

فالمرسل في الإعلام الديني قد يكون أحد المتخصصين في
الدعوة الإسلامية ، وقد يكون غير متخصص في هذا المجال (١) ،
لأن الدعوة إلى الله لا تشترط بالضرورة أن يقوم بها علماء الدين
المتخصصون وحدهم بحيث تقتصر عليهم ، بل تكاد الدعوة إلى الله
تشمل المسلمين كافة .

وقد يسأل السائل : كيف تكون الدعوة عامة ، ومع ذلك يقال
إنها فرض كفاية وفرض عين معا . . . وللجواب عن ذلك : أن
التكليف عام بحيث يقوم كل بكفايته وما أتاه الله من طم وموهبة ،
فلا يخلو إنسان نفسه من تبعه الدعوة والقيام بالإعلام عن الدين ،

(١) د. محمد الدين عبد الحليم : الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية ، ص :

فكل مسلم يدعو إلى الله بالقدر الذي يملكه ، بيد أن طي الأمة
في عمومها واجبين :

أولهما : أن يقوم كل واحد بعينه بما يستطيع من دعوة إلى الحق
وهداية إلى الدين .

وثانيهما : أن يتخصص فريق من رجال الإعلام المتخصصين في شئون
الدين والدعوة والاتصال بالناس للقيام بمواجبات الارشاد
والتبليغ والحث والاقناع ، بشرط أن يتم كل ذلك على علم وبصيرة
بكتاب الله الكريم وسنة نبيه المطهرة ، مع قدرة بمانية وحكمة
وإدراك (١) .

وأرى - من وجهة نظري - أن هذا التخصص هو - من
باب التحوط ليسر غير ، لأن الدعوة كما تكون من المتخصصين تكون
أيضا من غيرهم .

ذلك لأن الدعوة لا تأتي عن طريق اللسان أو البيان والحجة
فحسب ، وإنما تأتي كذلك عن طريق السلوك الشخصي . أو
التعامل مع الآخرين ، حتى السكوت قد يكون في بعض الأحيان
أسلوبا بليغا من أساليب الدعوة ، فالذي يصمت ويكتم فيظهـ
ر ويعفو عن الناس يقوم بالدعوة إلى الله على بصيرة .

من ذلك نخلص إلى أن كل إنسان في هذه الأمة مكلف
بالدعوة إلى الله بالأسلوب الذي يستطيعه ، ولن يعدم إنسان
مكلف أسلوبا أو أكثر من هذه الأساليب .

ومثالننا على ذلك هؤلاء التجار الذين نشروا الإسلام عن طريق
سلوكهم الشخصي وتعاملهم مع الآخرين في القارات التي لم يدخلها
قبلهم دعاة متخصصون أو جيوش إسلامية غازية .
وذلك مصداقا لقوله تعالى في كتابه العزيز:
" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن
المنكر وتؤمنون بالله " (٢) .

(١) د . إبراهيم امام : الإعلام الإسلامي (المرحلة الشفهية) ص ٢١ - ٢٢٠ .

(٢) آل عمران : آية ١١٠ .

وهذا الذى قام به هؤلاء التجار وغيرهم من الدعاة غير المتخصصين الصورة الإعلامية غير المباشرة من صور الإعلام .

وغالبا ما تكون هذه الصورة أوقع فى النفس وأكثر تأثيرا من الصورة الإعلامية المباشرة ، لأن الصورة غير المباشرة تأتى عادة من طريق القدوة الحسنة والتطبيق العملى ، أما الصورة المباشرة فغالبا ما تأتى عن طريق الوعظ والإرشاد المباشر الذى قد يجد بعض الصعوبة فى الوصول إلى النفس البشرية .

وإذا كان صلاح الدين الأيوبي قد جاء إلى الأمة الإسلامية فوجدها شتاتا لا رابط لها ، وشعبها متطاحنة لا مودة بينهم ، فقد وجد لزاما عليه أن يبدأ من الأصل ، وأن يعود بأمتة إلى السبيل ما كانت عليه انطلاقا من مبدأ أن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بها صلح به أولها .

ولقد اختار البداية الصحيحة لينتهى بالضرورة إلى نهاية صحيحة .

والدعاة المصلحون يدققون فى اختيار البدايات حتى لا تتعثر خطاهم فيضلون ويضلون . ذلك لأن البداية اختيار والنتيجة حتمية ، وعلى ذلك فإن اختيار البداية تتوقف عليه حتمية النتيجة .

والقرآن الكريم هو البداية للمسلمين وهو النهاية .

وحتى نقف على أثر القرآن الكريم فى الدعوة إلى الله ، وإعادة الناس إلى رشدهم الذى قد يخيب عنهم أمام نازلة قد تنزل بهم ، نعود إلى حدث لم تتعرض الأمة الإسلامية لمثلها قط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال مسجى فى بيته ، لم يفرغ من أمره ، قد أغلق أهله دونه الباب ، وهو بين الخطاب يخطب فى الناس منكرا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهددا من يقول غير ذلك .

قال ابن اسحق : قال الزهري : وحدثني سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، قال :

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى به هارن ، فقد فاب من قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ، وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس ، فلم يأتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سجي في ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليه فقبله ، ثم قال : يا أي أنت وأمي ، أما المودة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها مودة أبدا ، قال : ثم رد البرد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عسرا : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال : ثم تلا هذه الآية (٣ : ١٤٤) :

" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين " ، قال : فوالله لكان الناس لم يعلموا

أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، قال :
وأخذها الناس عن أبي بكر ، فإنما هي في أفواههم ، قال :
فقال أبو هريرة قال عمر : فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر
تلاها فعمرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات " (١) .

لم يكن هناك عهد أقرب إلى نزول القرآن من ذلك العهد
الذي وقع فيه ذلك الحدث الجلل حين وقف أبو بكر يعيد إلى
الناس صوابهم بالقرآن الكريم ، وكلما ابتعد الناس عن ذلك العهد
كانت حاجتهم إلى الدعوة بالقرآن الكريم أشد .

كان الموقف عصيا والمهمة شاقة ، لكنه القرآن الكريم
الذي نزل لهداية البشر جميعا لن يمجزه أبدا أن يعيد
أولئك الذين نسوا بعض آياته في غمرة الجلل العظيم إلى
صوابهم .

ويتكرر الحدث حين تهب على العالم الإسلامي موجة الحروب
الصليبية مستهدفة القضاء على الإسلام في مقر داره ، عاقدة العزم
على استئصال شأفة المسلمين باسم الصليب .

لقد اندفعت تلك الموجات الصليبية على المسلمين وهم
منقسمون على أنفسهم ، متحاربون فيما بينهم ، لا يعرف أغلبهم من
الجهاد إلا ما يعززه سلطانه ، أو يوسع به رقعة .

فكيف لصلاح الدين الأبيي - والأمر هكذا - أن يوحد
الرأي العام الإسلامي ويجمع شتاته ، ويؤلف بين هؤلاء العشرات
من الأمراء المتحاربين المتناحرين ؟ . .

كيف له أن يقض على ذلك التردى الذي ابتليت به الأمة
الإسلامية آنذاك ؟ . .

رأى صلاح الدين بهداية من الله وتوفيقه أنه لزاما عليه

(١) ابن هشام: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ط دار الفكر ، ج ٤ ، ص :

أن يعثر على المخرج الملائم الذي يعيد إلى الأمة مكانتها ويجنبها مزيدا من الدماء المرافقة في غير مكانها ، وعابه فقد صار صلاح الدين على هذا التردى والانحطاط الخلقى ، ورأى أنه لا توجد أمامه إلا طريقة واحدة للقضاء عليه .

وهذه الطريقة هي إعادة بناء الكيان الإسلامى فى ظل دولة واحدة لا تحت حكمه هو ، وإنما بالعودة إلى حكم الشريعة تحت إشراف الخليفة العباسى (١) .

ولا شك أن صلاح الدين الأيوبي كان يركز فى ذلك كله على القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ولكى نعى تلك الحقيقة كان لزاما علينا أن نستعرض أولا ، بعض المناقب التى تبين بوضوح مدى تمسك الرجل بكتاب الله وسنة نبيه .

ثم نستعرض ثانيا بعض المواقف التى تؤكد بالتطبيق العملى تمسك صلاح الدين الأيوبي بهذين المصدرين التشريعيين فى كفاحه ضد الصليبيين .

أما عن مدى تمسك صلاح الدين الأيوبي بكتاب الله وسنة رسوله فإن ذلك يتضح جليا من سيرة الرجل فى حياته الخاصة والعامة .

لقد كان السلطان السعيد بحقيقة الدنيا طارفا ولطريقيتها طارفا ، ولزخرفها طافا ، ومن ملكها آتفا ، وعن مالها متعففا . فاشتغل عن الدنيا بالدين ، وخصه الله بتأييده فى طم اليقنين واقتدى بسنة النبى - صلوات الله عليه - فما زاغ بصره وما طغى ، (ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى) (٢)

(١) د . أنيس قاسم : تأملات فى الاحتلالين الصليبي والصهيوني ص ١١٨ .

(٢) محسن : آية رقم ٤٠ ، ٤١ .

ووقف حياته على إحياء معالم الهدى ، والإعلان بشعار التقى .
واعلاء منار الجهاد ، واشاعة سنن العدل والإحسان فى
البلاد والعباد (١) لقد وهب الرجل نفسه لله ، فكان الله
معه .

• وأخلص لله عمله ، ولا ملك ملكا ولا تمول مالا إلا فى
سبيل الله أنفقه وبذله ، وكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم
(من كان لله كان الله له) ، فلا جرم أذل له الطوك الأُمرة ،
ووهب لأطراف الدولة للتباهى بملكه الهز ، وملكه الأقاليم
والأصاير ، وأجرى بإقداره الأقدار ، فأزال عن مشارع الشريعة
الأكدار . وعطل الهدية بحصر اليمن والشام ، وقمع أمراء
الإسلام (٢) .

بهذه الأخلاق القرآنية استطاع صلاح الدين أن يقضى
على الفتن والقلاقل بين الرعية . وبهذه الأخلاق القرآنية استطاع
أن يحرر القدس الشريف وأن يستعيد المسجد الأقصى من أيدي
الصلبيين ، وأن يحقق النصر المبين فى رحمة حينما حقق قول
الله فى كتابه العزيز :

• وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازخوا فتفشلوا وتذهب رحكم
واصبروا إن الله مع الصابرين (٣) .

ومن أجل القضاء على هذا التنازع بين الرعية فعمل
صلاح الدين الكثير ، وتحمل فى سبيل ذلك أكثر مما تحمله فى
مهادين الطمن والنزال حتى استقر الأمر والتأم الشمل .

• وأجرى الدواة على أحسن العوائد ، وأرشد المقاصد
وأثبت القواعد ، حتى أجمعت الكلمة المتفرقة واتحدت ، وانتظمت

(١) العباد الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٦٤٦ .

(٢) العباد الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٦٤٦ .

(٣) الأنفال : آية رقم ٤٦ .

الألفة المتبددة وتأكدت ، وسكنت القلوب الراجفة وأندست وسكنت
الأسنة المرجفة وخرست * (١) .

إن صلاح الرحمة من صلاح الراعى ، لقد كان صلاح الدين
صالحا فصلحت رحمته بصلاحه .

* وكان يغضب للكبائر ولا يفضى عن الصفائر ويرشد إلى
الهدى ، ويهذى إلى الرشاد ، ويسد الأثر ويأمر بالسداد
فكل مالهيكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أخف من الزهاد : (٢)
* وكان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه
كان يستخير إمامه ويشترط عليه أن يكون طالما معلوم القرآن
العظيم متقنا لحفظه ، وكان يستقرى من يحضره فى الليل وهو
فى برجه الحزين والثلاثه والأربعة وهو يسمع * (٣) .

هذا عن مدى حب صلاح الدين وشغفه بالقرآن الكريم ،
أما عن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان شديد
الحب لها أيضا ، عظيم الشغف بسماعها والعمل بها .

* وكان شديد الرغبة فى سماع الحديث ومتى سمع من
شيخ ندى روايه طالية ، وسماع كثير فإن كان ممن يحضر عنده
استحضره وسمع طيه وأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده
ومالهيكه والمختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع
الحديث إجلالا له ، وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب
السلطين ويتحاشى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه ، وسمع
طيه ، تردد إلى الحافظ السلفى بالاسكندرية وروى عنه
أحاديث كثيرة ، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، فكان

(١) العماد الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٦٤٨ .

(٢) أبوشامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٨ .

(٣) أبوشامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٩ .

يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث ويقرأ هو ،
فإذا مر بحديث فيه عبرة رقى قلبه ودعت بهناه " (١) .

ولقد كانت حياته مع نفسه ومع غيره تطبيقاً عملياً لما جاء في
كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم .

وفي اعتقادي أنه لا يوجد هناك دليل فعلي على ذلك
التطبيق العملي أكثر من حياته التي أوقفها على الجهاد في
سبيل الله .

قال تعالى :

" أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين
جاهدوا منكم يعلم الصابرين " (٢) .

وقال تعالى :

" قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم
وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها
أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا حتى يأتي
الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين " (٣) .

وقال تعالى :

" الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم
وأ أنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون " (٤) .

وجاء في صحيح مسلم :

" حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب حدثنا حماد بن
سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : لفدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما
فيها " (٥) .

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٢) آل عمران : آية رقم ١٤٢ .

(٣) التوبة : آية رقم ٢٤ .

(٤) التوبة : آية رقم ٢٠ .

(٥) الإمام مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٣ ، ص ٢٦ .

وجاء في صحيح مسلم أيضا :

" حدثنا سعيد بن منصور حدثنا عبد الله بن وهب حدثني
أبو هانيء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن أبي سعيد
الخدري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

يا أبا سعيد : من رضى بالله ربا ومحمدا نبيا وجبت له
الجنة : فعجب لها أبو سعيد فقال : أهدا على يا رسول الله
ففعل ، ثم قال : وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة
ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال : وما هي يا رسول
الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله الجهاد في سبيل
الله " (١) لقد وهى صلاح الدين ذلك كله حتى أصبح الجهاد
شغله الشاغل ، وهمة المقيم .

" وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم
الاهتمام به ، ولم حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد
دينارا ولا درهما إلا في الجهاد وفي الإرفاد لصدق ويرفسي
يمينه ، ولقد كان الجهاد وحيه في الشفيع به قد استولى على
قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث إلا فيه
ولا نظر إلا في آتته ، ولا اهتمام إلا برفاله ، ولا ميل إلا إلى
من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل
الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه من الدنيا بالسكون في
ظل خيمة تهب بها الرياح بمئة ومئة " (٢) .

وقال القاضي : وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه
- أي إلى صلاح الدين - يحثه على الجهاد أو يذكر شيئا
من أخبار الجهاد ، ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد وأنا
من جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ،

(١) رواه مسلم في صحيحه : ج ١٣ ، ص ٢٨ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢٢١ .

وكل حديث روى فيه ، وشرحت هربها وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل " (١) .

من ذلك كله يتضح لنا جلها أن صلاح الدين الأيوبي قد جعل من القرآن الكريم والسنة المطهرة أعظم سند له في حياته كلها سواء منها ما يختص بذاته أو ما يختص بغيره من المسلمين وغير المسلمين .

قال تعالى :

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا " (٢) .

صلاح الدين بصفته حاكما سلما طبق قول الله في ذلك تطبيقا كاملا ، وفي هذا المجال يقول العماد الأصفهاني عن صلاح الدين :

" يغلظ على الكافرين الفاجرين ، ويلين للمؤمنين المتقين ، ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد ، وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد ، وكان لداومة الكلام مع الفقهاء ، ومشاركة القضاة في القضاء ، أعظم منهم بالأحكام الشرعية ، والأسباب المرضية ، والأدلة المرحمة " (٣) .

وكان صلاح الدين يعلم تمام العلم أن البطانة الصالحة هي نعمة من نعم الله تعالى ، ورحمة منه سبحانه لعباده . لذلك كانت بطانة صلاح الدين بطانة أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

وكما كانت حاشية صلاح الدين تزدان بمثل القاضي الفاضل وزيرا ومديرا ومشيرا والعماد الأصفهاني كاتبها وشاعرا

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢٢١ .

(٢) الفتح : آية رقم ٢٩ .

(٣) العماد الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي : ص ٦٥٦ .

ومورخا وأديبا ، فكذلك ازدانت هذه العاشية الجليلة بالقاضي
بهاء الدين بن شداد الذي لم يكن يبرح السلطان في مواطن
السلم أو الحرب ، ولا يفغل يوما عن مطالعة الحديث والتفسير .
وانه يمثل ذلك المنهج القرآني الواضح الفكر المستقيم
السلوك استطاع صلاح الدين أن ينزل الهزيمة بالصليبيين
وأن ينتزع القدس منهم .

يمثل ذلك وحده يستطيع أى حاكم مسلم مثل صلاح الدين
أن ينزل الهزيمة بالصليبيين ، وأن ينتزع منهم القدس ويظهرها
من رجسهم ، وما ذلك على الله بعزيز .

٢ - السجد والعودة به إلى ما كان عليه في صدر الإسلام :

رأينا كيف أن روح الجهاد قد استولت على عقل صلاح
الدين الأيوبي وتفكيره ، وكيف أنها سيطرت على كل جانحه
من جوانحه .

ومن هنا كان لزاما على صلاح الدين أن يبت تلك الروح
المتأججة بالجهاد فيمن حوله ————— الجنود ،
ومن هم وراء الجنود بحيث تستقطب الأمة جميعا ، لأن صلاح
الدين لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يجاهد وحده ،
خاصة وأن المسلمين كانوا كما قال القاضي الفاضل يخاطب
صلاح الدين :

" وليس لك من المسلمين كافة ساعد إلا بدعوة ، ولا
مجاهد معك إلا بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهم ، ولا خارج
بين يديك إلا بالأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة ، تشتري منهم
الخطوات شبرا بذراع ، وذراعا بباع ، تدعوهم إلى الله وكأنما
تدعوهم لنفسك ، وتسألهم الفريضة وكأنما تكلفهم النافلة

وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم " (١) .

لقد كان المسلمون يفرون من الحرب ويبتدون عنها
ويغضون حمل السيف ، في الوقت الذي لا يملكون فيه من حمل
القلم معتقدين أن الجهاد بالقلم يعادل الجهاد بالسيف
أو ينوب عنه ، فاستعاضوا عن جهاد الأعداء في ميادين القتال
بتأليف الكتب في الرد على النصارى واليهود متقربين بذلك إلى
الله حسب اعتقادهم .

" ومن السامعين من كان يستبدل جهاد الأعداء بكثرة
الصلاة والصيام ، ودوام الذكر والتسبيح ، معتقدين أن هذا
يقربهم إلى الله زافى ، ويغنيهم عن متاعب الكفاح ومشاق
القتال " (٢) .

وأمام كل هذه العقبات والمعوقات كان من البدهى لكى
يغير صلاح الدين ذلك أن يفكر فى الوسائل القادرة على بث
روح الجهاد فى النفوس .

ولما كان صلاح الدين رجلا ارتكز فى جهاده ضد
الصلبيين على القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فإن الأمر
يصبح طبيعيا فى أن يتجه فكر صلاح الدين إلى المسجد باعتباره
المكان المقدس الذى يلتقى فيه المسلم بربه وهو أقرب ما يكون
إليه .

لقد كان المسجد فى صدر الإسلام وبمصر العصور الستى
أعقبتة فضلا عن كونه مكانا مقدسا للعبادة ، كان فى الوقت
نفسه المكان الذى يؤمه خليفة المسلمين لإدارة شؤون الدولة

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٨ .

(٢) محمد سيد كيلانى : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى
مصر والشام ص ٣٥ .

والخلافة ، وكان المنبر هو المكان الذى يعتليه الخليفة ليلقى
بنيانه شارحا من خلاله الأسلوب الذى سيتبعه فى إدارة الدولة ،
وهو المكان الذى كانت تذايع منه القرارات الهامة من بينهم
بطبيعة الحال إعلان الجهاد .

وفلا من ذلك كله كان المسجد هو المكان الذى يتخذ
العلماء والدارسون مقراً لهم ، والمعهد الذى يتلقى فيه
الناشئون اللغة العربية وأصول الدين العنيف .

تلك هى وظيفة المسجد كما كانت ، وكما يجب أن تكون
وعلاج الدين أحوج ما يكون إلى أن يعيد إلى المسجد رسالته
التي وجد من أجلها ، وهو أن يكون جامعاً للدين والدنيا معا .

• كان صلاح الدين يهتم كثيراً بإقامة شعائر الدين
والمحافظة على المظهر الإسلامى فى كل شئ ، وكان يحارب
الفجور فى أنحاء دولته ولا يسمح بالشذوذ فى العقيدة ، بل
يقضى عليه ، فقد حارب كثيراً من الطحدين وطاقهم عقاباً
شديداً (١) .

قال تعالى :

• إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام
الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من
المهتدين (٢) .

وجاء فى صحيح مسلم :

• حدثنا زهير بن حرب ومحمد بن الشنئ واللفظ لاهن
الشنئ ، قالا " حدثنا الضحاك بن مخلد أخبرنا عبد الحميد
بن جعفر حدثنى أبى عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان

(١) د . محمد زفلول سلام : الأدب فى العصر الأيوبي ، ص ٦٤ .

(٢) التوبة : آيه ١٨ .

أراد بناء المسجد فكرة الناس ذلك فأحبوا أن يده على هيئته ،
فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من بنى
مسجدا لله بنى الله له في الجنة مثله * (١) .

من أجل ذلك ، ومن أجل بعث عقيدة الجهاد لتشمل
المسلمين جميعا حرص صلاح الدين كل الحرص على أن يكون
المسجد مركزا حيا ينبعث منه كل شيء في حياة المسلم .

لقد وضع صلاح الدين خطة محكمة لتنفيذ تلك الأهداف
جميعا ، فالمسجد والمدرسة لابد أن يميذا معا جنبا إلى جنب
في تثقيف المسلم وربطه بدينه في حياته الخاصة والعامة .

* لقد أنشأ صلاح الدين العديد من المدارس لتصبح
جزءا هاما من الخطة التي وضعها ، وقصد بها يومئذ أن تقوم
بمعلمين خطيرين :

أولها : تعلم الناس المذهب السني ومحاربة العقائد الفاطمية.
ثانيهما : إثارة التحمس الديني ضد الفرنج في الحروب
الصليبية . (٢)

وإذا كانت وظيفة المدرسة تعتبر جزءا من وظيفة المسجد
فلا شك أن صلاح الدين أهدى للمسجد رسالته كي يتسنى له
تعبئة الأمة ضد الصليبيين من أجل تحرير القدس وكافة البلاد
الإسلامية .

قال تعالى :

* وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واطمئنا أن الله
مع المتقين * (٣) .

-
- (١) الإمام مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ، ص ١٤ .
(٢) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصور الأيوبية
والملوك الأولى ص ٨٢ .
(٣) التوبة : آية ٣٦ .

لذلك قامت المساجد بدور كبير في إنقاذ الحركة الثقافية في البلاد في عهد صلاح الدين فكانت تعج بالمصلين وطلاب العلم ، ومن أشهر هذه المساجد :

الجامع الأزهر ، وجامع عمرو بن العاص ، وجامع ابن طولون . . . في القاهرة أما في الاسكندرية فقد قام مسجد العطار بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية وغيرها من العلوم التي انتشرت في ذلك الوقت ، وانتشرت في طول مصر وعرضها مساجد تقوم بهذه المهمة الجليلة : مهمة تثقيف الناس وتعليمهم (١) .

كذلك قامت مساجد سورية بنفس الدور التي قامت به مساجد مصر ، ومن هذه المساجد جامع دمشق الذي جعل هذه المدينة مقصدا للعلم والعلماء من كل مكان .

وعندما منع صلاح الدين الخطبة في الجامع الأزهر وفسر برامج الدرس فيه عقب إلغاء الخلافة الفاطمية في مصر ، لم ينقص صلاح الدين من الدور الذي كان يقوم به الأزهر خاصة والمساجد عامة ، فقد ظل الأزهر في عهد صلاح الدين منارا للعلم يقصده الطلاب من أنحاء العالم الإسلامي ، فينقلون مختلف العلوم والفنون ، ويكفل لهم العيش وتجري الأرزاق وكان الحكام وأولو الأمر يوقفون على الطلبة الكتب النافعة ليفيدوا منها في دراستهم (٢) .

والشيء الذي يدعو إلى الدهشة والعجب أن المسجد لم ينفذ مكانته الإعلامية في خضم هذا الكم الهائل من وسائل الإعلام المتطورة والمتعددة في الوقت الحاضر .

حتى هؤلاء الحكام الذين لم يحكموا يوما بما أنزل الله قد

(١) عبد الله طوان : صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين ص ١٢٦ ،

(٢) د . محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، ص ١٤٣ . ١٢٧ .

اتخذوا ويتخذون في كل يوم لهم من المسجد في عصرنا الحاضر وسيلة إعلامية لاتجاهيها أية وسيلة إعلامية أخرى ، وذلك حسين يضيق الحبل حول أعناقهم ، ويحاط بهم من كل جانب ، ويسرون ألا منقذ لهم سواهم فيه إلا الله .

حدث ذلك على سبيل المثال عام ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م أثناء الاعتداء الذي على مصر حين ذهب حاكمها آنذاك بنفسه إلى الجامع الأزهر ليعلمن من هناك استمرار القتال حتى الموت أو النصر .

وبالفعل كان لهذا الإعلان من الجامع الأزهر أثره الذي لا يتاوم في نفوس الجماهير المؤمنة بربهها ، فأذرتة ووقدت بجانبه حتى تم النصر بإذن الله فعلا .

وانتهى الأمر عند هذا الحد حينما انتهى الخوف والهلع من نفوس هؤلاء الحكام الذين لم يشكروا الله ولم يحكموا كتابه ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

" هو الذي يستيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجريتم بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين • فلما أنجاهم إذا هم يبنون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إنا مرجعكم فنتنبئكم بما كنتم تعملون (١) •

٣ - موسم الحج واستغلاله في الدعوة إلى الجهاد :

كان موقف صلاح الدين الأيوبي من المسجد موقف الحاكم المسلم حين ارتكز طايه في جهاده ضد الصليبيين بعد أن أصدر إليه رسالته الأوان التي كان عليها في صدر الإسلام والتي شملت الدين والدولة معا .

وليس من شك في أن الذي فعله صلاح الدين تجاه المسجد ما هو إلا جزء من خطته العامة التي استهدفت تثقيف الأمة حتى تتمكن من الوقوف عقيدة واحدة وصفا واحدا أمام النزوا الصليبي للعالم الإسلامي .

وهذا الذي فعله صلاح الدين تجاه المسجد ما كان إلا في حدود الرقعة من الأرض التي يستطيع بسط ساطته عليها .

أما تلك البلاد والشعوب التي لا ساطة اصلاح الدين عليها ، فماذا يفعل بشأنها ؟ وما هو السبيل الذي يستطيع صلاح الدين أن يسلكه من أجل الوصول إلى تحقيق أهدافه على نطاق العالم الإسلامي كله إن استطاع ذلك ؟ ماذا يفعل صلاح الدين وهو ينظر بمنسة ويسرة فيجد أمامه معظم أمراء المسلمين لا يحركون ساكنا تجاه ما يتهدد العالم الإسلامي كله من خطر ؟

بل والأخطر من ذلك حين ينظر إلى البعض منهم وقد تعاون مع العدو من أجل سلطان زائف أو قطعة من طين .

لقد وصف القاضي الفاضل هؤلاء فأجاد وأصاب وهو يخاطب صلاح الدين بقوله :

• أليس الله تعالى أطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ، ولم يسهل ولم يستعمل ولم يستخدم فسي إقامة دينه وأهلاه كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبلته

موحديه إلا أنت . . . هذا وفي الأرض من هو للنبوة قرابة ، ومن له
المملكة وراثة ، ومن له في المال كثرة ، ومن له في العدد شـررة ،
فأقعدهم وأقامك وكسلمهم ونشطك ، وقبضهم وسطك ، وحبسب
الدنيا إلههم ونفضها إليك ، وصعبها عليهم ودونها عليك ، وأمسك
أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك ، وأشقاهم وأنعم
عليك ، وشبطهم وسيرك" (١) ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن
كره الله انبعاثهم فشطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين" (٢) .

ماذا يفعل صلاح الدين الأيوبي وهذا هو حال من حوله من أسراء
المسلمين ؟

وماذا يفعل صلاح الدين الأيوبي والصليبيين لا يدخرون وسعا في
حربهم معه ؟

إنهم كانوا كما يصفهم القاضي الفاضل لصلاح الدين :

"إنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ومغرب
الشمس وموخر البحر ما تأخر منهم متأخر ، ولا أستبعد السافة بينك وبينهم
مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الغبيثة لا أموال تنفق فيهم ——— ،
ولا ملوك تحكم عليهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعجهم ، مهطعين
إلى الداعي ساعين في أثر الساعي ، وهم من كل حدب ينسلون ، ومن
كل بر ويحرقون" (٣) .

ماذا يفعل صلاح الدين أمام هذا الوضع الذي بلغ حد الخطورة
والأمر أعم وأشمل من مصر والشام ، وأكبر من المسجد والمدرسة ؟

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

(٢) التوبة : آية ٤٦ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

إنه أمر يخص المسلمين جميعا سواء منهم من هم تحت إمرة صلاح الدين ، أو من هم تحت إمرة غيره من الأمراء أو السلاطين ؟
إنه ذلك المؤتمر الإسلامى الأعظم الذى يضم كل هؤلاء جميعا . من هم تحت إمرة صلاح الدين ، ومن هم تحت إمرة غيره .

من أجل ذلك كله أعطى صلاح الدين عناية كبرى بموسم الحج والحجاج باعتباره حاكما مسلما مسؤولا أمام الله عن كل مسلم فوق هذه الأرض .

" لقد ضرب صلاح الدين المثل للمعاملة التى يجب أن يعامل بها الحاكم المسلم المسلمين عموما بغض النظر عن أقطارهم ودون أن يشترط معاملة بالمثل^(١) .

وحين قام صلاح الدين الأيوبي بإسقاط مكس مكة المكرمة عن الحجاج ، وتعويض أميرها عما أسقطه ، فإنه لم يفعل ذلك من أجل مصلحة حاج دون آخر ، لم يفعله مثلا للحجاج المصريين دون الشاميين أو للحجاج الشاميين دون المصريين أو هما معا ، إنما فعله لكون الحاج مسلما وكفى .

لا فرق بين مسلم ومسلم عند صلاح الدين ، مادامت القضية هى قضية المسلمين جميعا ، والمصير مصيرهم .

إن ما فعله صلاح الدين بالنسبة لرفع المكوس عن حجاج مكة جميعا ما هو إلا مثال نادر من أمثلة القدوة الحسنة التى يبشها بين المسلمين لتكون أعمق تأثيرا فيهم ، وأسرع استجابة منهم له حين يدعوهم إلى الجهاد قضيتهم الأولى والأخيرة ، فلقد ساءى بينهم جميعا فى الحقوق وطلبهم فى مقابل ذلك أن يقوموا جميعا بتأدية الواجب المفروض عليهم .

(١) د . أنيس قاسم : تأملات فى الاحتلالين الصليبيين والصهيونى ، ص ١٣٥ .

" قال الامام : ومن جملة ما أغفلته ذكر ما أسقطه
السلطان من مكس مكة ، شرفها الله تعالى عن الحجاج ،
وتعويض أميرها بجلاب غلة تحمل إليه في كل سنة ، وتعيين ضياع
موقوفة عليها بالأعمال المصرية . كان الرسم بحكة أن يؤخذ من
حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضرائب والمكسوس ،
فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدى مكسه ، ويفك بما يطلبونه
منه نفسه ، وإذا كان فقيراً لا يملك فهو يحبس ولا يترك ، وتغوتسه
الوقفة بعمره ولا يدرك . فقال السلطان نريد أن نعوض أمير
مكة عن هذا المكس بمال ونغنيه عنه بنوال ، وإن أعطيناه
ضياعاً استوصها ارتفاعاً وانتفاعاً ، فلا يكون لأهل مكة فيها نصيب ،
فقرر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إردب قمح
إلى ساحل جدة ، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع
بأثمانها ، ويشق أهل الحرمين من الدواة بدوام إحسانها (١) .
هكذا يضرب صلاح الدين المثل الطيب للناس ليقتدى به
من أراد أن يشتري آخرته بدنياه ، وأن ينال الثواب الجزيل من
الله سبحانه .

ويقدر ما تكون الغايات هامة وخطيرة تكون الوسائل كذلك
وهل هناك غاية أهم وأخطر من توحيد المسلمين جميعاً لكسى
يقفوا أمام عدو جاء يخرز عقيدتهم أولاً ثم يقضى عليها بعد
ذلك في أقصر وقت وبأبخص الأسعار ؟

لذلك لم يتوقف صلاح الدين عن العطاء بكل الطرق والوسائل
من أجل تحقيق تلك الغاية ، فأعطى وأعطى ليكون المثل والقُدوة .
" فقرر أيضاً حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء ،
ومن هناك الشرفاء ، ووقف لها وقفاً ، وخلص بها إلى قيام الساعة

(١) أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

معروفا ، فسقطت المكوس ، واغتبطت النفوس ، وزاد البشر
وزال العيوس ، واستمرت النعمى وزال البوس " (١) .
ويستمر العطاء من أجل تحقيق الهدف الأسى والغاية
المثلئ .

وعندما يشتط العدو الصليبي فى وقاحته وعدوانه إلى الدرجة
التي جعلته يبدأ بالفعل فى غزو الأراضى الحجازية كى يقطع
السبيل على حجاج بيت الله الحرام ، وينال من الحرمين الشريفين .
هنا يرخى كل شئ فى نظر المسلمين ، ويبلغ الفداء ذروته
وتتوهج شعلة الجهاد لتحرق المعتدين ، وتردهم على أعقابهم
خائبين مدحورين .

قال العماد : " ثم توجهوا إلى أرض الحجاز ، وتعذر على
الناس الاحتراز ، فعظم البلاء ، وأفضل الداء ، وأشرف أهل
المدينة النبوية منهم على خطر ، ووصل الخبر إلى مصر وبها
العادل أخو السلطان ، فأمر الحاجب " حسام الدين لؤلؤ " فعمر
فى بحر القلزم مراكب بالرجال البحرية ذوى التجربة من أهل
النخوة للدين والحمة ، وسار إلى " أيلة " فظفر بالركب
الفرنجى عندها ، فخرق السفينة وأخذ جندها ، ثم عدى إلى
" عذاب " وشاهد بأهلها العذاب ، ودل على مراكب العدو
فتبعها ، فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها ، وأطلق
المأسورين من التجار ، ورد عليهم ما أخذ منهم ، ثم صعد إلى
البر فوجد أعرابا قد نزلوا منه شعابا ، فركب خيلهم وراى الهاربين
وكانوا فى أرض تلك الطرق ضارين ، فحصرهم فى شعب لا ماء فيه ،
فأسرهم بأسرهم ، وكان ذلك فى أشهر الحج ، فساق منهم أسيرين
إلى منى كما يساق الهدى ، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى ،

فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم ، وقطع أسبابهم ، بحيث لا تبقى منهم عين تطرف ، ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف " (١) ، كان ذلك بعض ما فعله صلاح الدين الأيوبي للحج والحجاج من أجل تحقيق أهدافه الكبرى حتى يحس بها القاصي والداني ، وحتى يسرع من أبطأ ، ويقلل من أدهر وجود من بخل وقسّر .

فهل تحقق لصلاح الدين ما سعى إليه من وراء ما قدمه للحج والحجاج ؟

وهل أثرت خطته الإعلامية بين الحجاج بعد أن ضمن لكل واحد منهم أمنه وراحته ، وبعد أن تخاف عدد منهم نتيجة ، الأمن والراحة ؟

لنقرأ مما الأبيات التالية حتى نقتطع منها على الأثر الذي تركه صلاح الدين بأفعاله بين الحجاج .

قال الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي :

رفعت مغارم مكس الحجا	:	ز بانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك الهلا	:	د قهان السبيل على العاهر
وسحب أياريك فياضة	:	على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد	:	وكم لك بالغرب من شاكـر
وكم بالدعاء لكم كل عا	:	م بركة من معلى جاهـر (٢)

.....

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٤٠ .

وهكذا نجد الرأي العام الاسلامي في تلك الفترة قد وضع نفسه في حالة تأهب واستعداد كاملين ، كل شيء فيه ينبض بالحركة والإيجابية والتقدم . ذلك لأنه رجع بنفسه إلى ذات الجـو الذي كان يعبق دائما بهيـج الجهاد في صدر الإسلام وطاش فيه . . رجع بنفسه إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يستمد منها أخلاقياته في الحرب والسلام ، ويعرف منها حقيقة الجهاد والعبادة كما أرادها الله ورسوله .

وما دام الإسلام دين ودنيا ، فقد عاد المسلمون بالمسجد مكانا للدين والدنيا معا ، وما دام الأمر يختص بالمسلمين جميعا ، فلم يكن الأمر هناك في موسم الحج حيث يجتمع العرب والأعجمي ، والأسود والأبيض ، والغنى والفقر فوق صعيد واحد ، تجمعهم عقيدة واحدة ومصير واحد ، وبذلك وحده يتحقق النصر للمسلمين على أيدي أولئك القادة الذين تحملوا تبعه ذلك كله أمثال : " هاد الدين زنكي " و " نور الدين محمود " و " صلاح الدين الأيوبي " ومن ساروا على دربه أوسار على دربهم .

وبمثل ذلك وحده يتحقق النصر المهين على أعداء الإسلام في كل زمان ومكان ، وما ذلك على الله بعزيز .

الفصل الثالث

الوسائل الإعلامية التي استغلها المسلمون في تعبئتهم الإعلامية ضد
الصلبيين

أولا : الوسائل الإعلامية في الجبهة الإسلامية قبل حكم صلاح الدين :

١ - إنشاء المدارس .

٢ - الرسائل تتولى نقل الأخبار .

٣ - الشعر يتصدر التعبئة الإعلامية منذ البداية .

ثانيا : الوسائل الإعلامية التي استغلها صلاح الدين في تعبئته
الإعلامية الكاملة ضد الصليبيين .

١ - التوسع في إنشاء المدارس لنشر عقيدة الجهاد وبعثها
بين المسلمين .

٢ - مشاركة العلماء والأئمة بأنفسهم في المعارك الحربية
حتى يصبحوا قوة إعلامية كبرى بين المجاهدين .

٣ - تأليف الكتب التي تحث المسلمين على الجهاد والفروسة .

٤ - موازنة الشعر في خصائصه وموضوعاته مع مرحلة التعبئة
ضد الصليبيين .

٥ - الرسائل تواصل القيام بوظيفتها في نقل الأخبار .

أولا : الوسائل الإعلامية قبيل حكم صلاح الدين :

١ - إنشاء المدارس :

جاء السلاجقة السنيون المتحمسون إلى الحكم بعد أن استولوا على مقاليد الأمور في بغداد والشرق ، واستولى أتباعهم على الشام ومصر فناهضوا الحركات العقلية المتطرفة في الإسلام ، والمذاهب الضالة التي اعتنقها الفاطميون ، ووجد السلاجقة أنفسهم أمام حرب لا خيار لهم في خوضها ، وهي حرب أشد ضراوة وأبعد غورا وأعظم تأثيرا وأعنى بها حرب العقيدة السني لا مناص أمام السلاجقة من خوضها ضد أعدائهم في العقيدة من الشيعة في ميدان الثقافة الإسلامية والدعوة إلى الله على بصيرة .

ولقد تحقق للسلاجقة ما أرادوا من خلال جولات صادقة مظفرة في هذا الميدان ، وكان من أبرز حكاهم اهتماما بالعلوم والمدارس الوزير (نظام الملك) قتل سنة ٤٨٥هـ إذ كان سنيا شديدا التعصب للعلوم الحديث وكان يحقد مجلسه ، ويجعل فيه حلقة لقراءة الحديث يحضرها علماء عصره المبرزون ، وقد دفعه حماسه لأهل السنة - بتأييد من السلطان السلجوقي العظيم (ملكشاه) - إلى بناء المساجد والمدارس الكبرى لتعليم أبناء المسلمين القرآن والحديث والعلوم العربية الأخرى السني تخدمها (١) .

ويقول (لانيول) :

" فالمدارس النظامية ببغداد التي أنشأها (نظام الملك) كانت مركز إشعاع للعلم والثقافة على جميع الأقطار الإسلامية فسي فارس والعراق وسوريا ومصر ، حيث التقى هذا الشعاع بشعاع آخر كان ينبعث من الأزهر جامعة مصر " (٢) .

(١) د . محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، ص ٧٦ ، ٧٧ .
(٢) المرجع السابق : ص ٧٧ ، نقل عن (لانيول) ، صلاح الدين الأيوبي ، ص

وبلاحظ أن عهد الشهيد (عماد الدين زنكى) كان عهد جهاد ونضال عسكري متواصل ضد الصليبيين الغزاة حتى يزعم مكانتهم في نظر الرأي العام الإسلامى ، وينزع رهبتهم والخوف منهم التى كانت قد انتشرت بين طامة المسلمين ، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق الانتصارات العسكرية وحدها التى تشعرهم بأن بلاد المسلمين لن تكون إلا مقبرة لهم ، وإذا أراد والسلامة لأنفسهم فعليهم أن يرحلوا من حيث أتوا .

ولقد توج (عماد الدين زنكى) جهاده ضد الصليبيين بانتصاره الكبير الذى حققه عليهم حينما استولى على مدينة (الرها) وأزال أول إمارة صليبية تكونت شمال الشام ، فكانت بذلك أول المستعمرات الصليبية تأسيسا وسقوطا .

ومع ذلك فلم ينس (عماد الدين زنكى) أن يأخذ دوره في مجال الثقافة الإسلاميه والتعلم وإنشاء المدارس ليحقق بذلك هدفه في محاربة المذاهب الضالة ، والعقائد الفاسدة التى حملت المسلمين على التقاعس وترك جهاد الكافرين جانبها والانشغال بالخلافات المذهبية وافتعال المعارك العقلية مما كان له أثره الخبيث في تشتيت الرأي العام الإسلامى وتزيقه واستشهد (عماد الدين زنكى) وخلفه ابنه (نور الدين محمود ابن زنكى) ، فكان خير خلف لخير سلف ، حمل الأمانة بعقيدة راسخة وعزم لا يلين ، رافعا راية التوحيد والجهاد طليسة خفاقة لم تسقط من يمينه حتى لقي ربه .

جاء (نور الدين) إلى الحكم وهو يعرف جيدا العصر الذى قدر له أن يتولى أحد قياداته الخطيرة ، ويقف على شفر من شغوره المتقدمة ، بمواجهة خصم مذهبى كان قد تغلغل في الأرض التى يقف عليها (نور الدين) ، وضرب جذوره هناك فيما يزيد على نصف القرن . . إنه يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها

ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب . . بل أنه أوسع من ذلك بكثير
انه مواجهة مذهبية وصراع حضارى بين أمة وأمة ، وانه يسدون
تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة ، فلن تكسبون
انتصاراتهم على الخصم سوى أعمال جزئية موقوتة معرفة دوسما
للعد والجزر ، وللتغير والتبدل كما كان يحدث دائماً (١) .

لذلك نرى (نور الدين) وكأنه فى صراع مع الزمــــــن
يريد أن يرى الهلاك الإسلامية وقد امتلأت بالمدارس التى يشع
منها نور العلم والمعرفة والثقافة .

ففى الجامع الأموى شاهد (ابن جبير) حلقات عديدة
لتدريس الطلبة ، وتخصيص الأموال اللازمة للمدرسين وللدارسين
على حد سواء .

وفى ذلك يقول (ابن جبير)

" ومن مناقب (نور الدين) رحمه الله تعالى : أنه
كان عيّن للمغاربة الغرباء المطرزين زاوية المالكية بالسجــد
الجامع المبارك ، وأوقافاً كثيرة ، منها طاحونتان ، وسبعة
بساتين ، وأرض بيضاء ، وحمام ودكانان بالمطارين . وأخبرنى
أحد المغاربة الذين كانوا ينتظرون فيه وهو أبو الحسن طــــى
بن سردال الحمانى المعروف بالأسود : أن هذا الوقف المغربى
يغل – إذا كان النظر فيه جيداً – خمسمائة دينار فى العام
وكان له – رحمه الله – بجانبهم فضل كبير ، نفعه الله بما
أسلف من الخير ، وهباً ديناراً موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل
يسكنونها (٢) .

(١) د . عماد الدين خليل : نور الدين محمود (الرجل والتربية)
ص ١٢٩ (دار المعلم عام ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ط ١) .
(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير (ط دار صادر - بيروت) ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م
، ص ٢٥٧ .

٢ - الرسائل وأثرها في نقل الأخبار :

منذ اللحظة الأولى التي وضعت فيه الجيوش الصليبية
الغازية أقدامها فوق أرض الإسلام والرسائل تمثل إحدى الوسائل
الإعلامية المبكرة التي كونت - جنباً إلى جنب مع الشعر -
النواة الأولى التي تحولت في عهد صلاح الدين إلى تهيئة
إعلامية شملت جميع الوسائل والإمكانات المتاحة في ذلك العصر
حتى بلغت غاية نجاحها باسترداد بيت المقدس ، وتطهيره من
رجس المعتدين الغاصبين .

ولقد قامت الرسائل بوظيفتها خير قيام ، فصورت الممارك
التي خاضها المسلمون من أجل الدفاع عن عقيدتهم وتحريض
أرضهم تصويراً دقيقاً .

وإذا كانت الرسائل قد زادت في ذلك العصر زيادة كبيرة
ونالت من قادة المسلمين وحكامهم كل عناية وتقدير ، فهذا أمر
طبيعي لأن الظروف التي أحاطت بهؤلاء القادة والحكام آنذاك
قد حتمت عليهم تبادل الرسائل المختلفة لطلب نجدة ، أو لشكر
في إسداء معونة ، أو للإشارة بفتح حصن أو مدينة ، أو تحذير
من التهاون في الجهاد ، وكانت الرسائل تصدر في أسلوب
بلغ غاية الفصاحة والبيان ، ذلك لأن الذين تولوا تحريرها
كانوا من بلغوا في هذا الميدان شأواً عظيماً ، ووصلوا إلى
درجة في البلاغة لا تظال ، كالعماد الكاتب الأصفهاني
والقاضي الفاضل ، وغيرهما من أمراء البيان .

ولقد تولى العماد الكاتب الأصفهاني كتابة الرسائل في
عهد نور الدين محمود في سنة ٦٣٠ هـ ، وكان القاضي
كمال الدين الشهرزوري قد ذكر حاله لنور الدين ، وعرفه

به ، وأطلعه على جطة من نشره وشعره ، وأنزله بالمدرسة
النورية الشافعية (١) .

ولما انتقل نور الدين إلى جوارحه سنة (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م)
استمر العماد الأصفهاني في الكتابة للملك الصالح اسماعيل بن
نور الدين ، ثم رحل العماد بعد ذلك إلى الموصل وبقي بها
مدة من الزمن ، وعندما سمع بانتصارات صلاح الدين هاجمه
الطرب لقصده ، لسابق معرفته وقديم وده ، وكان ذلك في سنة
٥٧٠ هـ (٢) .

وظل العماد الأصفهاني ملازماً لصلاح الدين بالشام ،
فكانت الرسائل تصدر على لسان الساطان بقلم العماد إلى مصر
والعراق واليمن وغيرها من أمصار المسلمين .

أما القاضي الفاضل فقد كان في مصر يتولى أمورها ، ويسير
الجيوش من مصر براً وبحراً إلى الشام حيث تدور المعارك بين
المسلمين بقيادة صلاح الدين وبين الجيوش الصليبية المفتتحة ،
ورسائل القاضي الفاضل لا تنقطع عن صلاح الدين تبشره بسير
الأمر في مصر على ما يرام ، أو تحضه على عدم التواني في جهاد
الصليبيين ، داعية له بالنصر والغلبة ، حاثه له على الصبر في
مجاهدة الأعداء ، ناصحة ومحدرة ، ومرشدة ومبشرة ، ومذكرة .

وتلك رسالة أرسلها القاضي الفاضل إلى مدينة " قسوس "
يصف غزوة قام بها صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ ، وهو وزير فاطمي
وقائد من قواد نور الدين محمود ، وقد جاء فيها :
" توجهنا من " بركة الجب " يوم الخميس الخامس عشر من

(١) أبو شامة : الروضة - تين ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٢) محمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام
ص ١٧٢ .

ربيع الأول ، ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظّة ، والهجم على السهل والصعب مزدحمة ، وجنود الله في الأرض المعلة ، وقد أهدتها جنود السماء المسوفة ، وصاحبنا الدير يوم الأربعاء بقتال جعل كل من في حصن الدير راهبا ، ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال شهاب القذف خاربا . فلما تعالى النهار ملكنا ريقه وأطلقنا فيه النيران ، وورطنا الرجال بالدم ، وأرملنا النسوان وزحفنا إلى أبراجه ، وهي أبراج قد استعدت للبلى جلبابا ، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وبابا ، وسرحنا إليهم رسل المنايا من الشباب ، وقصدنا أحد الأبراج والبهوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب (١)

وتلك رسالة أخرى من صلاح الدين إلى نور الدين يخبره بغزوة قام بها ضد " الكرك " و " الشويك " سنة ٥٦٨ هـ ويخبره فيها بترحيل البدو من تلك الأماكن إلى أماكن إسلامية وهذه الرسالة من إنشاء القاضي الفاضل ، وقد جاء فيها :

" سبب هذه الخدمة إلى مولانا العادل ، أعز الله سلطانه ، ومد أبدا إحسانه ، ومكن بالنصر إيمانه ، وشهد بالتأييد مكانه ، ونصر أنصاره وأطان أعوانه . علم الطوك بما يؤثرو المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنتهم ، ويخلل أسلحتهم . ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم . وأكبر الأسباب المعينة على ما يرويه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان ، وما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وهذه من أعظم أسباب الجهاد . ترحيل كثير من أنفارهم ، والحرص على تبديل ديارهم . إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا " (٢) .

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ١٩٢ ، حوادث ٥٦٦ هـ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٢٠٦ ، حوادث ٥٦٨ هـ .

٣ - الشعر يتصدر التعبئة الإعلامية منذ البداية :

كان سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين هو البداية
التي حركت أوتار الشعراء ، وأحرقت قلوبهم تعبيرا عما يجيش في
صدر الأمة الإسلامية .

ومنذ تلك اللحظة القاسية والشعراء لا يبقون عن تحريك
الرأي العام الإسلامي وتعبئته إعلاميا وعسكريا لاسترداد بيت المقدس
من أيدي غاصبيه .

فقالوا القصائد الطوال التي ذكروا فيها هذا السقوط المفجع
لبيت المقدس في أيدي الصليبيين ، وتحسروا من خلال أهيانهم
على ما حل بالمسلمين ومدينتهم المقدسة ، وسجلوا فيها ما ارتكبه
الفرنج من جرائم تشعير لها الأبدان ، وطالبوا المسلمين كافة
بالقيام بواجبهم والنهوض إلى الجهاد في سبيل الله .

من ذلك ما قاله أبو المظفر الأبيوردى . . والتي أولها : (١)
مزجنا دماء بالدموع السواجم : فلم يبق منا عرضة للمراجم (٢)
ومنها :

وكيف تنام العين ملء جفونها : على غفوات أيقظت كل نائم
وأخوانكم بالشام يضحى مقلهم : ظهور المذاكي^(٣) وبطون القشام^(٤)
ومنها :

وكاد لهن المستجن بظيبيبة : ينادى بأعلى الصوت بأآل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا : رماحهم والدين واهي الدطام

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥١ .
(٢) المراجم (جمع مرجمة) : القبيح من الكلام .
(٣) المذاكي : الخيل التي تم سننها وكملت قوتها ، الواحد مذك .
(٤) القشام : جمع قشعم وهو المسن من النسور .

ومنها :

وليتهم إذ لم يذودوا حمية : عن الدين ضنوا غيرة للمحارم
وان زهدوا في الأجر إذ حصى الوفي : فهلا أتوه رغبة في الغنائم
وقال شاعر آخر (١) :

أحل الكفر بالإسلام ضيماً : يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحى مهـاج : وسيف قاطع ودم صهيب
وكم من سلم أسمى سلبها : وسلبه لها حرم سلبها
وكم من مسجد جعلوه ديراً : على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق : وتحريق المصاحف فيه طيب
أمر لو تأملهن طفـل : لطقل^(٢) في عوارضه المشيب
أتسى السلطات بكل شجر : وهش المسلمين إذاً يطيب
أما لله والإسلام حق : يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا : أجهبوا الله ويحكمو أجهبوا

.....

هكذا كان موقف الشعر من الغزو الصليبي منذ بدايته ،
ويستمر عطاء الشعر للمشاركة في التعبئة الإعلامية منذ خطواتها
الأولى بدون توقف ، وهذا ما سوف أتناوله بالتفصيل عند ما
أتحدث عن " موازنة الشعر في خصائصه وموضوعاته مع مرحلة
التعبئة الإعلامية ضد الصليبيين " في الخطوة التالية لهذه البداية
في عهد " عماد الدين زنكى " و " نور الدين محمود " و " صلاح الدين
الأيوبي " ربطاً لهذه الخصائص والموضوعات ، ووصولاً بها إلى
المرحلة النهائية من التعبئة الإعلامية الكاملة ، حيث استرد المسلمون
بقيادة صلاح الدين بيت المقدس من أيدي غاصبيه .

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .
(٢) طقط : أقبل وأظلم .

ثانيا : الوسائل الإعلامية التي استغلها صلاح الدين ضد الصليبيين :

١ - التوسع في إنشاء المدارس لنشر عقيدة الجهاد ضد الصليبيين :

من الواضح أن صلاح الدين الأيوبي قد استغل الوسائل الإعلامية التي أتاحتها في عصره أفضل استغلال حتى أشعرت تلك الوسائل وآتت أكلها .

واست أدري لماذا أجد نفسي مجبرا على أن أجرى مقارنة بسيطة بين تلك الوسائل الإعلامية في عهد صلاح الدين ، كالسجد والمدرسة والدعاة والشعراء والكتاب ، وبين الوسائل الإعلامية في عصرنا الحاضر التي بلغت من التقدم العلمي مبلغا عظيما .

إن تلك المقارنة تبين بوضوح أن الوسائل الإعلامية في عصر صلاح الدين قد قادت الأمة الإسلامية إلى النصر والعزة والمنعة . لا لأن تلك الوسائل كانت هي السبب في ذلك حيث لا تزال موجودة حتى الآن ، بل لأن العاملين بها والقائمين عليها قد أخلصوا النية لله ، ووهبوا أنفسهم لله وجاهدوا في الله حقيق جهاده .

أما المسلمون اليوم فهم يملكون كل شيء ، المسجد والمدرسة والدعاة والشعراء والكتاب ، نفس الوسائل التي كانت موجودة في عهد صلاح الدين بجانب الوسائل العصرية المتقدمة ، والمتعددة ، كالإذاعة السموعة ، والإذاعة المرئية ووكالات الأنباء ، والصحف والمجلات . ومع ذلك فهم بلا نصر ولا عزة ولا منعة ، لماذا ؟ لأنهم لم يخلصوا النية لله ، ولم يهبوا أنفسهم لله ، ولم يجاهدوا في الله حق جهاده ، ولم يصدقوا الله فلم يصدقهم الله .

جاء صلاح الدين الأيوبي إلى الحكم ، وللشيعة أهام
الفاطميين شأن كبير في مصر والشام ، ويذكر ابن جبير ،
أحوالهم في الشام أيام صلاح الدين فيقول :

" وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من
السنين بها ، وقد عموا البلاد بمذاهبهم ، وهي فرق شتى ،
منهم الرافضة ، ومنهم السبائيون ، ومنهم الإمامية والزيدية ،
وهم يقولون بالتفضيل خاصة ، ومنهم الاسماعيلية والنصرية ، وهم
كفرة ملحدون يزعمون الألوهية لعلی رضوان الله تعالى عليه " (١) .

وحين استولى صلاح الدين على مصر بذلك كل ما في وسعه
لإزالة كل أثر لذلك المذهب . واستغل كل الوسائل الإعلامية
الممكنة للوصول إلى مرحلة التعبئة الإعلامية الكاملة . ومن تلك
الوسائل كانت المدارس التي أنشأها لتدريس المذاهب السنية ،
ولقد بلغ الشعور الديني في ذلك العصر ذروته بين الناس ، وسيطر
على كل شيء في حياتهم بواسطة فقهاء السنة الذين حطوا على
ماتقهم مسئولية الدعوة والإرشاد سواء في الساجد أم المدارس
أم بين العامة أينما وجدوا .

وكان للشعور الديني الذي غلب على الناس في هذا العصر
أثره كذلك على الأسماء والكنى التي تسمى بها الناس ، فقد
اتخذوا لأنفسهم أسماء وكنى مضافة إلى الدين أو منسوبة له مثل :
زين الدين وصلاح الدين ونور الدين وهلال الدين ونجم الدين ،
وجمال الدين ، وعزالدين ، وضياء الدين (٢) .

وكما كانت المكتبات والجامع العلمية ودار الحكمة وغيرها جزءا
هاما من الخطة التي دبرها الفاطميون لنشر الدعوة الفاطمية ، وكذلك
أصبحت المدارس الأيوبية جزءا هاما من الخطة التي وضعها
صلاح الدين .

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، (ط ، دار صادر - بيروت) ص ٢٥٢ .

(٢) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، ص ٦٩ .

ولقد بينت في الفصل السابق أن صلاح الدين قد أنشأ المدارس في عهد قاصدا بذلك يؤمّن أن تقوم بعمليتين خطرتين : أولهما : تعليم الناس المذهب السني ، ومجاربة العقائد الفاطمية . الثاني : إثارة التحمس الديني ضد الفرنج في الحروب الصليبية . تلك كانت وظيفة المدرسة في عهد عماد الدين ونور الدين . ثم بلغت غايتها في عهد صلاح الدين .

والخلاصة أنه بينما كان الجنود في الميدان منهمكين فسي محاربة الفرنج ، جادين في حصرهم فوق شريط ضيق على ساحل البحر ، ان بالعلماء والفقهاء في داخل البلاد وعرضها ينتزعون من عقول الناس أفكارهم المشبّطة وعقائدهم المنحرفة ، ويفغزون عقولهم غزوا عقديا على مذهب أهل السنة والجماعة .

ومادام الجهاد قد استولى على مشاعر صلاح الدين وجوارحه وأصبح غايته المثلى وهدفه الأول ، فلاشك في أن كل خطوة من خطواته ، وكل حركة من حركاته كانت توضع في خدمة ذلك الهدف . والمدارس مزرعة العقول وحصادها ، لذلك لم يكن غريبا على صلاح الدين أن يعتبر في نظر التاريخ المؤسس الحقيقي للمدارس في مصر بعد عماد الدين ونور الدين .

ولقد كان بناء مدرسة من أهم الأعمال التي يعمل لها سلاطين السلاجقة وأمراؤهم ووزراؤهم ، وكانت تماما توازي عندهم بناء مسجد أو فتح مدينة أو بناء قلعة (١) . ولذلك أصبحت دمشق وحلب والقاهرة والموصل وبغداد وحمص وبعليك ، ومدن أخرى إسلامية عربية كثيرة في عصر نور الدين وصلاح الدين مراكز هامة للثقافة بفضل ما أنشئ فيها من المدارس ومن نشأ فيها أو أقام وعلم فيها من العلماء (٢) .

(١) المرجع السابق : ص ٧٧ .

(٢) د . محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، ص ٧٧ .

ولم تقتصر همة هؤلاء القادة والحكام للأمة على حب العلم والعلماء وبناء المدارس ، بل تفقه كثير منهم حتى أصبحوا علماء بأنفسهم .

ويقول ابن جبير في رحلته :

" إن صلاح الدين كان ينفق على مدارس القاهرة وحدها في عصره ألفى دينار كل شهر " (١) .

ويقول أيضا عن بعض مآثر صلاح الدين :

" ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتناؤه بأمور المسلمين كافة أنه أمر بعمارة محاضر (٢) ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجري عليهم الجراية الكافية لهم (٣) .

ومن الغريب في الأمر أن يزدهر العلم والأدب وتنتشر الثقافة في عصر مثل عصر صلاح الدين الذي غلبت عليه الأحداث الكبار ، أحداث الحروب الصليبية التي هضمت بالشرق الإسلامي سنين طويلة .

ولكن يبدو من استقراء التاريخ أن الشرق قد اعتاد أن تسير الأحداث العنيفة جنباً إلى جنب مع العلم والأدب والثقافة .

وحتى تتبين لنا تلك الموازنة بين العلم والأدب والثقافة من جهة وبين الحرب من جهة أخرى في عهد صلاح الدين وكيف يمكن لمثل تلك الموازنة أن تحدث بحيث يسير كل من الشقيين جنباً إلى جنب في وقت واحد ، علينا أن نذكر طرفاً ما فعمله

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير (ط دار صادر بيروت) ص ٢٤ .
(٢) المحاضر : المدارس .
(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير (ط دار صادر بيروت) ص ٢٧ .

صلاح الدين الأيوبي من أجل بث فريضة الجهاد المعقدى عن طريق إنشاء المدارس ، وتشجيع العلم والعلماء بجانب جهاده الحربى المتواصل ضد الصليبيين ، ذلك الجهاد الذى توجهه صلاح الدين بتحرير القدس الشريف من أيدي غاصبيه .

وجه صلاح الدين جل اهتمامه إلى القاهرة التى كانت عاصمة الخلافة الفاطمية ، وحصن الدعوة التى أتوا لنشرها فى مصر وغيرها من البلاد الشرقية ، ومن ثم احتاجت إلى جهد كبير من رجال الدولة الأيوبية الجديدة ، الذى يتم لهم الرجوع بهذه الهيئة العظيمة من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى حتى تأخذ مكانتها اللائقة بها فى كتيبتة التى يقدوها صلاح الدين . من أجل ذلك يبادر صلاح الدين إلى بناء المدارس الكثيرة بالقاهرة ، وذلك منذ كان وزيرا للعاضد الفاطمى .

وأول ما بدأ به صلاح الدين من ذلك بناؤه مدرستين على عهد العاضد الفاطمى نفسه :

أولهما - مدرسة المشافعية بجوار المسجد العتيق ، وعرفت بأسماء كثيرة منها : المدرسة الناصرية ، والمدرسة الشريفة .

والثانية - مدرسة المالكية ، عرفت باسم " دار الفزل " ثم عرفت باسم " المدرسة القمحية " نسبة إلى القمح السذى كانت تحصل عليه هذه المدرسة من ضيعة وقفها صلاح الدين عليها بالفيوم (١) .

ثم مات العاضد الفاطمى ، ومضى صلاح الدين فى ابتناء المدارس ، فبنى منها : مدرسة ثالثة - للفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم " المدرسة السيوفية " .

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ .

والى جانب المدارس الثلاث السابقة للشافعية والمالكية ،
والحنفية بنى صلاح الدين مدرستين أخريين لفقهائى المذهب
الشافعى خاصة ، وهو المذهب الذى كان عليه أكثر أفراد
البيت الأيوبى :

الرابعة - بجوار الإمام الشافعى ، ويقول ابن جبير عنها :
" لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل
بنا ، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها
الحمام ، إلى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة -
ساعة رؤية ابن جبير لها - والنفقة عليها لا تحصى ، تولسى
ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين
الخبوشانى . وساطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له
بذلك كله ، ويقول : " زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمؤونه
ذلك كله ، فسيحان الذى جعله صلاح دينه كاسمه " (١) .

الخامسة - وكانت بجوار المسجد الحسينى .

فتلك إذن خمس مدارس بناها صلاح الدين بمصر ، وذلك
كله عدا المدرسة التى بناها بدمشق ، وهذا المدرسة التى بناها
كذلك بالقدس بعد أن من الله عليه بتحريرها من أيدي النصارى
عام ٥٨٣ هـ ، وكلف القاضى بها الدين بن شداد بالتدريس
فيها ، فكثر وفود الطالبين للعلم إلى بيت المقدس ، وطار
صيته فى الآفاق .

ويتضح من مناهج المدارس التى أسسها صلاح الدين أنه

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير (ط ، دار صادر - بيروت) ، ص :

كان يقتفى آثار نور الدين فى التعمير من جهة ، وكان يرمى إلى تعليم الناس المذهب السننى ، وقطع دابر المعتقدات الفاطمية والمذاهب الباطنية ، وإذ كان شعاة الحماس ضد الفرنج الذين دنسوا البلاد ، وأكثروا فيها الفساد من جهة أخرى .

٢ - مشاركة العلماء والأئمة بأنفسهم فى المعارف حتى يصبحوا قوة

إعلامية كبرى بين المجاهدين :

القدوة الحسنة مبنية على غريزة من غرائز الإنسان هى غريزة التقليد أو المحاكاة ، وهذه الغريزة تأثيرها الذى لا يقاوم فى كل ميدان له من ميادين الحياة على اختلاف الزمان والمكان .

وللا فكيف يأمر قائد جنوده بالبسالة والإقدام وهو فى نفس الوقت لا يقدم لجنوده الدليل الحى فى مجال التجربة العطية طسى ما يأمرهم به ؟

والقدوة الحسنة طريق يجب أن يسلكه كل من يتصدر للإسلام فى أى موقع حتى لا تأتى أفعاله متناقضة مع أقواله مصداقا لقول الله تعالى :

• أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون " (٢) . والمعلمون والدعاة كيف يأمررون الناس بالمعروف وينهونهم عن المنكر وهم لا يمتثلون فى ذلك لأمر الله سبحانه وتعالى ؟

" يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتنا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " (٣) .

(١) هذا الله عاوان : صلاح الدين الأيوبي " بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين

ص ١٧٩ ، مؤسسة الرسالة - بيروت) ط ١ عام ١٣٩٤ / ١٩٧٤ م

(٢) سورة البقرة : آية ٤٤ .

(٣) سورة الصف : آية ٢ ، ٣ .

ورجال الإعلام - وهم الذين يقومون بتزويد الناس
بالحقائق السليمة والمعلومات الصحيحة - ينظرون إلى القدوة
الحسنة على أنها وسيلة من وسائل الإعلام تغنى في ذاتها عن
بذل الجهود الإعلامية في سبيل دعوة ينشرونها أو فكرة يدعون
إليها (١) .

والعربون في جميع مراحل التعليم يضرعون الأمثلة إلى
الشباب في جميع مراحل التعليم للبطولة والأبطال في كل مجال
من مجالات العمل والكفاح ، وأبرز هذه المجالات جميعها مجال
الحرب والجهاد دفاها عن العقيدة ونشروا لدين الله .

والقدوة الحسنة هي من أنجح الأساليب والوسائل للاتصال
بالناس ، وهي تعتمد على الاتصال الشخصي المباشر ، وهو اتصال
ناجح ففى الاقنماع لأنه يتلافى سلبيات الإعلام الأخرى ،
كما أن قياس رجع الصدى يتيسر بطريقة مباشرة ، يستطيع بها
المتحدث أن يعدل من أدائه الاتصالي في المراحل المتتالية (٢) .
وبالإضافة إلى ما تقدم فإن الاتصال الشخصي المباشر
يتصف بالمودة والألفة فيتحقق بذلك التعارف والتآلف .

وكل ذلك يتطلب من الداعية أن يكون قدوة حسنة ، لأنه
يقوم بالاتصال المباشر بين الداعية والمدعوين .

وصلاح الدين الأيوبي عندما بث العلماء والدعاة بين صفوف
المجاهدين أثناء خوضهم للمعارك إنما كان يستغل هذا الاتصال
الإعلامي المباشر أفضل استغلال اختصاراً منه لمرحلة التعهية
الإعلامية الكاملة .

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام في صدر الإسلام ، ص ٦٥ .

(٢) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامي (المرحلة الشفهية) ، ص ٥١ .

وصلاح الدين إذ يفعل ذلك ، إنما يقدم للمجاهدين
الدليل العلى الحى على أن يتخذوا من هؤلاء العلماء والفقهاء
والدعاة قدوة صالحة لهم فى جهادهم بالقول والفعل .

وكان من هؤلاء العلماء والفقهاء والدعاة المجاهدين
بأستهم وسيوفهم على سبيل المثال :

- العالم الفقيه المجاهد ضياء الدين همى الهكارى ، الذى رافق
صلاح الدين فى وقعة الرملة سنة ٥٢٣ هـ ، حيث التقى بالفرنج
فحملوا على المسلمين وهزموهم ، وثبت السلطان وابن أخيه
تقى الدين عمر ، ودخل الليل واحتوت الفرنج على العسكر بما فيه ،
وتمزق العسكر ، وعطشوا فى الرمال ، واستشهد جماعة ، ونجا ولله
الحمد ، وقتل ولد اتقى الدين عمر وله عشرون سنة ، وأسر الأمير
الفقيه همى الهكارى (١) .

ولقد مكث الفقيه همى الهكارى وأخوه الظهير فى الأسر
بضع سنين قبل أن يفتديهما صلاح الدين بستين أو سبعين ألف
دينار وفكك جماعة من الكفار (٢) .

ويقول ابن الأثير عن الفقيه المجاهد همى الهكارى : " وكان
أشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه همى رحمه الله ، وهو من أهمان
الأسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة " (٣) .

- أبو القاسم سيف الدين عبد الله بن عمر بن أبى بكر الفقيه الحنبلى الإمام ،
ولد سنة ٥٥٩ هـ " بقاسيون " ورحل إلى بغداد فسمع بها من جماعة
وتفقه وبرع فى معرفة المذهب والخلاف والمناظرة ، وقرأ النحوى
" أبى البقاء " ، وحفظ الإفصاح لأبى طى ، وقرأ العروض له فيه

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ط ٢ - هـ ٤ ، ص ٢٤٤ (دار السيرة -

بيروت) ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٤٢ .

تصنيف . قال الحافظ الضياء اشتغل بالفقه والخلاف والفرائض والنحو ، وصار إماما عالميا ذكيا فطنا فصيحاً مابح الإيراد ، حتى أننى سمعت بعض الناس يقول عن بعض الفقهاء : ما اعترض السيف على دليل إلا ثلم دليله ، قاله ابن رجب ، وكان حسن الخلق والخلق أنكر منكراً ببغداد فضربه الذى أنكر عليه فكسر ثنيته ثم أنه مكن من ذلك الرجل فلم يقتص منه ، وغزا مع صلاح الدين ، وسافر إلى حران فتوفى بها شاباً فى حياة أبيه فى شوال رحمه الله تعالى (١) .

الفاضل الفاضل ، صاحب ديوان الإنشاء ، وشيخ البلاغة ، سبق الكلام عنه حين تحدثت عن " الرسائل وأثرها فى نقل الأخبار " ، وأتناوله بالكلام عنه الآن بصفته عالماً لم يكنف بالقلم وحده ، بل شارك الجنود فى معاركهم الحربية بالذكر والتحرير . قصد مصر ليمتثل بالأدب فاشتغل به وحفظ القرآن وقال الشعر والرسائل وخدم الأكابر ، فلما طك أسد الدين احتاج إلى كاتب فأحضر إليه فأعجبه نفاذ ، وسمته ودينه ونصحه ، فلما طك صلاح الدين استخلصه لنفسه وحسن اعتقاده فيه ، ووجد البركة فى رأيه ، ولذلك لم يكن أحد فى منزلته ، وكان نزهاً عفيفاً نظيفاً قليل اللذات كثير الحسنات دائم التهجود ملازم القرآن ، وكان لباسه لا يساوى دينارين وشيابه البياض ، ولا يركب معه أحد ، ولا يصحبه سوى غلام له ، ويكثر زيارة القبور ، ويشيع الجنائز ويعود المرضى ، وكان له صدقات ومعروف كثير فى الباطن (٢) .

لقد كان الفاضل الفاضل غيوراً على مصلحة الإسلام والمسلمين فبذل مجهودات عظيمة فى تجهيز العساكر وحث روح الجهاد فيهم ،

(١) أبو الفلاح عبد الحى بن السطام : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٣٢٥ .

وكان بجانب هذا ساهرا على مصلحة البلاد الداخلية ، يصرف عنايته في تصريف أمورها ، ويراقب دقيقها وجليلها ، ويقض على دسائس الدسائسين وكيد الكائدين الذين كانوا يتآمرون على قلب دواة صلاح الدين مستعينين على ذلك بالصليبيين (١) .

يمثل هؤلاء الرجال انتصر صلاح الدين على الهجمة السليبية الشرسة وأعاد بيت المقدس إلى الأمة الإسلامية فاسترد لها كرامتها .

ويمثل هؤلاء الرجال تحولت الأمة كلها إلى جيش من المجاهدين الذين عاهدوا الله على النصر أو الشهادة .

— العماد الكاتب الأصفهاني ، لم يكتف بالكلام دون المشاركة في المعارك الحربية جنبا إلى جنب مع قائده صلاح الدين الأيوبي ومن قباه نور الدين محمود ، وهو في ذلك يتفق مع قرينه القاضي الفاضل في ضرورة أن يكون العالم قدوة حسنة لمن يخاطبهم بالفعل ، لا بالقول فقط ، لذلك نزل إلى الميدان العلي ، ولقد كان صلاح الدين يعزه ويكرمه ولا يصبر على بعده عنه وذلك لحاجته الشديدة إليه في كتابة الرسائل التي لم يكن يحسن كتابتها أحد سواه .

وكان السلطان معجبا بأسلوبه في الإنشاء حتى أنه لما فتح القدس لم يعهد إلى أحد بكتابة رسائل البشارة ، وفضل أن ينتظر فدوم العماد الذي كان متغيبا عنه في مرض ، وقد روى العماد ذلك فقال :

" وكان أصحابه — أي أصحاب السلطان — يطالبونه بكتب البشائر ليفربوا بها ويشرقوا وهو يقول لهم : لهذه القوس بهار وهذه المأدبة قار ، قال فكتب في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع وعجاجة ، فمنها الكتاب إلى الديوان العز — بهنداد .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٤ ، ص ٩٦ .

ولقد افتتح العماد الأصفهاني كتابه إلى الديوان العزيز
بقول الله سبحانه وتعالى :

" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي
ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا " (١)

وقد لازم العماد صلاح الدين ملازمة قوية ، يقيم لقياسه ،
ويرحل لرحيله ، ثم انتقل صلاح الدين إلى مصر فكان العماد معه
في كل مكان .

ويقول العماد نفسه في ذلك :

" وكان السلطان أيضا يؤثر إيثاري ويختار اختياري فقال لي
أنت معنا أو هزمت أن تدعنا ولا تتبعنا ، فقلت الأمر للمولى وما
يختاره لي فهو أولى ، فقال تعود وتدعونا ، وتسال الله أن
يبدلنا من النصر سؤلنا ، ثم يقول العماد : وما انقطعت عن
السلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة " (٢) .

تلك كانت صفة الرجال الذين التوا حول صلاح الدين حين
جنوده ، هؤلاء الرجال الذين نصروا الله فنصرهم الله وشهدت
أقدامهم وقوسهم دعام الكفر والفسوق والعصيان ، قال تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٣)
وقال تعالى :

" أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير .
الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع
الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها
اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز " (٤) .

(١) سورة النور : آية ٥٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(٣) سورة محمد : آية ٧ .

(٤) سورة الحج : آية ٣٩ ، ٤٠ .

٣ - تأليف الكتب التي تحت المسلمين على الجهاد والغروسة:

استطاعت الحروب الصليبية بما حقته من انتصارات على الأمة الإسلامية في بداية نشوبها أن تنبه المسلمين إلى الخطر الذي يستهدف عقيدتهم، ويهدد وجودهم، واستطاع المسلمون في ذات الوقت أن يتنبهوا من غفوتهم، وأن ينهضوا من كبوتهم، وأن يستقبلوا من أمرهم ما استدبروا.

وسرطان ما حولوا أنفسهم إلى جيش من المجاهدين الذين وهبوا كل شيء في حياتهم للجهاد ضد الغزاة المعتدين.

المساجد والمدارس أصبحت جزءاً من المعركة الصليبية بين الإيمان والكفر.

الدعاة والعلماء والأئمة تحولوا جميعاً إلى جيش من الإيمان يدفع الناس إلى البذل والتضحية بكل ما يملكون من نفس ومال وولد.

الكتاب والشعراء والعلماء جندوا أنفسهم للذود عن عقيدة الأمة والدفاع عنها ومهاجمة أعدائها والترهيبين بها داخل الأمة وخارجها في تعبئة عقدية إعلامية كاملة، كل إنسان يحاول أن يقدم قدر استطاعته ما يساهم به في استكمال تلك التعبئة.

من ذلك أن بعض شباب المسلمين في العصر الأيوبي كان يشتغل بمادة الكيمياء رغبة منه في خدمة الحرب، والمساهمة فيها بنصيب كان له أكبر الأثر في بعض الانتصارات التي كسبها المسلمون على أعدائهم من الصليبيين.

من أجل هذا ذكرت بعض المصادر التي تناولت هذه الحروب أن شايلاً دمشقاً استطاع تأليف أدوية لإحراق الأبراج

التي صنعها الصليبيون ، والتي لا تؤثر فيها النيران ، وأنه
نجح في اختراعه هذا نجاحا كان له أثره في الهزيمة المنكرة
التي حلت بالأعداء .

قال المؤرخون : فتقدم إليه السلطان بالجوائز الكثيرة ،
وأطمعه الأمراء بالخلع الثمين ، فلم يأخذ شيئا ، وقال : قد
عملت شيئا لله تعالى (١) .

ومن عجب أن دراسات المستشرقين المعصر الأيوبي لا تشير
إلا إلى أفراد معينين ، وتغفل هؤلاء الذين صنعوا التعيشة
الإعلامية الكاملة المتناسكة ضد الصليبيين ، فهم حين يتكلمون عن
العصر إنما يشيرون إلى الفزالي ، وابن رشد ، والزمخشري ،
والفخر الرازي ، من المفكرين ، وإلى الحريري ، والطبراني ،
وابن الفارض من الأدباء .

وليس هؤلاء هم كل من كان ، ولهم آثارهم كل الآثار
الفكرية والأدبية ، بل إن دراسات المستشرقين لم تتناول من
الأدباء والفكرين والشعراء من كانت لهم روح إسلامية مقدسة
صافية ، أو من كان لهم أثر في حركات البحث الإسلامي العربي
في عصر صلاح الدين ومن بعده ، وكان هذا الإغفال متعمدا
أغلب الظن . فلا نجد كلاما من ابن الأثير ، ولا القاضي الفاضل
ولا عماد الدين الأصفهاني ، ولا ابن التعاويذي والأبيوردى ،
وغيرهم من فاضت كتاباتهم بروح النضال والكفاح والتصوير الحماسي
لجهاد صلاح الدين ضد الاستعمار الصليبي (٢) .

إن عصر صلاح الدين كان عصر حروب لا تخمد بين المسلمين
والصليبيين ، ولقد كانت هذه الحروب دافعا قويا لظهور لون من
الأدب لم يكن موجودا من قبل . وهذا اللون من الأدب كان يرجع

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصور الأيوبي والسلوكي
الأول ، ص ١٢٣ .

(٢) د . محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، ص ١٦٨ .

إلى أصل واحد هو الجهاد والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين ،
من ذلك على سبيل المثال : أدب الجهاد والحض عليه ،
وصف الجيوش وآلات الحرب ، والحصون ، وإبراز فضائل
الشجاعة والنخوة ، والبطولة ، والتفاني في سبيل الدفاع عن
العقيدة .

وللقاضي الفاضل من كتاب الرسائل أوصاف كثيرة للحروب
والحصون ، وقد وصف حصن الكرك - وكان أحد حصون
الصليبيين المنيع المشهورة والذي طالما ضايق المسلمين ،
بل كان شوكة في جنبهم تؤذي الناس ، وتقطع طريق الحاج ،
ولم يتركها صلاح الدين بل شدد عليها الحصار إلى أن اقتلعها
من الصليبيين فاستولى على الحصن الحصين ، وقد انتهز القاضي
الفرصة فقال فيه :

" هو شجى في الحناجر وقذى في المحاجر ، قد أخذ
من الآمال بسخنقها ، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها ، وصار ذئبا
الدهر في ذلك الفج ، وعذرا لتارك فریضة الحج ، وهو
وحسن الشوك - يتر الله الآخر - كبهت الواصف للأسدين :
ما مريوم الا وعندهم - : لحم رجال أو يولغان دما (١)
وصف المعركة التي وقع فيها هذا الحصن في كتاب آخر
فقال :

" وأما الكرك فكفأت المنجنقات عليه ستظافة ، وحجارتها
على من فيه حجارة ، وقد جذعت أنوف الأبرجة ، وأسبلت قناعات
الستائر وجوهها المتبرجة ، وكل جوانبها وعرة المرتقى ، صعبة
المحتلى ، والسلطان يستعذب التي تتفادى منها الهمم ،
وبياشر جمرات الشتاء الكالح بوجهه المتسم (٢) .

(١) أبو شامة : الروافدين ، ٢ ، ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ٥٥ .

ولقد ظلت الحروب الصليبية مصدرا ينفذ لموضوعات
الجهاد والآلات التي تستخدم فيه ، فكانت عاملا هاما في ظهور
هذا اللون الأدبي ، وهولون اتخذ من سيرة الرسول صلى الله
عليه وسلم ومغازيه نبراسا يهتدى به في قتله ومثله . ولم يغفل هذا
اللون من الأدب سير أبطال الإسلام الأوائل وحسن جهادهم .
وركز المؤلفون والأدباء على إبراز الصفات البطولية لأولئك
الأبطال من الصحابة والقواد لتبقى روح الجهاد متأججة فسى
أعماق الجند المدافعين عن الإسلام .

ولم يكتف هؤلاء المؤلفون والأدباء بذلك وحده وانما
تناووا التاريخ فوصفوا الوقائع الحربية والأحداث الكبيرة التي
صاحبت تلك الوقائع أو ترتبت عليها ، وهكذا تكون التعبئة
الإعلامية الكاملة .

من ذلك أن كتبها يتعامها ألفت في الأعمال الحربية الخالدة
التي تمت على يدى صلاح الدين مثل كتاب " الفتح القسى فسى
الفتح القدسى " ، وهو كتاب يؤرخ لفتح صلاح الدين لمدينة
القدس ، واستعادتها إلى حوزة المسلمين بعد أن اغتصبها
الصليبيون زمنا ، وأقاموا بها إمارة هي إمارة بيت المقدس ،
واعتبروها عاصمة لإماراتهم الشرقية فى بلاد الشام ، وكان ملكها
رئيسا لأمرأ تلك الإمارات .

ولقد كان دوى ذلك الفتح عظيما ، استولى على مشاعر
الكتاب والشعراء وحرك قريحتهم ، فشاركوا الأمة الإسلامية
فرحتها الفامرة ، ورددوا أصداءها فى نفوس المسلمين أينما
وجدوا .

وجاء كتاب العماد الأصفهاني " الفتح القسى فى الفتح
القدسى " صورة من تجاوب الأدباء مع هذا الحدث الأعظم .

ولقد قوى فن الخطابة خاصة الدينية منها في العصر

الأيوبي ويرجع ذلك إلى شئتين :

أولهما : شعور المسلمين بالضعف أمام محافل الصليبيين ورغبتهم في استنهاض الهمم والحث على الجهاد وبذل النفس والنفس في سبيل نصره الدين الإسلامي والأمة الإسلامية .

والثاني : هو غلبة العامل الديني على النفوس ولجوء الناس إلى الدين باعتباره مخلصا لهم مما هم فيه من الرزايا والهموم (١) .

إن المتتبع لانتاج معظم كتاب وأدباء ذلك العصر يلمس بوضوح سيطرة تلك النزعة الدينية على ما كتبوه ، فقد اقتبسوا من القرآن الكريم آيات كاملة أو أجزاء منها أو بعض ألفاظها ، أو حتى معانيها .

كل ذلك من أجل تعبئة النفوس للجهاد والبذل والتضحية حتى النصر أو الشهادة ، والرسالة التي كتبها العباد الكاتب الأصفهاني في فتح " عكا " تعتبر مثالا حيا على هيمنة تلك الظاهرة الأدبية في ذلك العصر .

يقول عباد الكاتب الأصفهاني في فتح عكا :

" ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون . الحمد لله على ما أجز من هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجمعنا بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهسون الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع إليه صبرا ، وخوطف الدين بقوله : ولقد مننا عليك سنة أخرى . فالأولى في عصر النهي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخرى هذه التي أعتق فيها من

(١) د . محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ص ١٢٨ .

رق الكآبة ، فهو قد أصبح حرا ريان الكبد الحرا ، والزمان
لهيئته استدار ، والحق بيهجته قد استنار ، والكفر قد رد ما
كان عنده من المتاع الستعار ، فالحمد لله الذى أطاد الإسلام
جديدا ثوبه بعد أن كان جديدا حبله ، مبيضا نصره ، مخضرا
نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله ، والخادم يشرح من نهيا
هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ،
ويمنح العبيد لكافة المسلمين ، ويورد البشرى بما أنعم به من
يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم
الخميس منسلخة . وتلك سبع ليال وثمانية أيام سخرها الله
على الكفار ، فترى القوم صرعى كأنهم أعمار نخل خاوية وإذا
رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية ، ورأيتها إلى الـ
الإسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية " (١) .

أما ضياء الدين بن الأثير فيدلنا على الأمثلة التى
استخدم فيها القرآن الكريم وحديث النبى صلى الله عليه وسلم
فى رسائله وكتبه بحيث لا يحوجنا إلى جهد كثير أو قليل . ومن
هذا مما يناسب الموضوعات التى أوردت منها أمثلة سابقة قوله
فى وصف المنجنيق :

" ونصب المنجنيق فجثم بين يدي السور مناصبا ، ومسط
كفه إليه مؤاتيا ، ثم تولى عقوبته بعصاه التى تفتك بأحجاره وإذا
عصا عليها بلد أخذت فى تأديب أسواره ، فما كان إلا أن استمرت
عقوبتها عليه حتى صار قائمه حصيدا ، وطاحيه مستفيدا ، وقال
ألم يكن نهى عن المد والتجريد ، فما لى لا أرى إلا مـدا
وتجريدا ، وعند ذلك أزهن لفتح الأبواب وتلا قوله تعالى :
" لكل أجل كتاب " ، وكذلك لم تأت صعبا إلا استسهل .

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٨٩ .

ولا حشنا مطيا إلا استعجل ، ولطالما وقف غيرنا على هذا البلد
فشغفه طول الانتظار ولم يحظ منه إلا بمسألة النصب أحجار
الديار " (١) .

وهكذا نرى فيما كتبه ضياء الدين بن الأثير خبرا — من
الأخبار النبوية ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم في النهي
عن ضرب المحدود : " لا تدولا تجريد " ، أى لا يمد على
الأرض ولا يجرد عنه ثوبه .

واقبس ضياء الدين الآية الكريمة " لكل أجل كتاب " ففى
نصه السابق .

لقد استطاعت الحروب الصليبية أن تحدث حركة دائمة
فى ميدان التعبئة بالقلم بين المسلمين جنباً إلى جنب — مع
التعبئة بالسيف ، فعملوا أقلامهم وجعلوا من التأليف الميدان
الثانى للكفاح والنزال والذود عن الدين الحنيف .

من ذلك يتضح أن الدعوة للمجاهد كانت من أهم الأسباب
التي دفعت حكام المسلمين وقادتهم إلى تشجيع الحركة الدائمة
للتأليف ، ولا سيما ما كان محرراً منها على قتال الصليبيين
أعداء الإسلام والمسلمين .

فلا غرو والحالة هكذا أن ظهرت كتب كثيرة تحت طى الجهاد
وترغب فيه ، وليس هناك شك فى أن الدعوة إلى الجهاد قد
سيطرت على مؤلفى ذلك العصر ، فإذا وضع أحدهم كتابا ففى
الآدب أفرد بابا خاصا للشجاعة وأخبار الشجعان فى عهد
الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته رضوان الله عليهم ،
وخص بابا آخر للمجاهد وثوابه ، وحشد الكثير من الآيات

(١) د . محمد زقاول سلام : الآدب فى العصر الأيوبي ص ٢٢٦ ، نقلا عن :
ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر فى آدب الكتّاب والشاكر ص ٧٥ .

القرآنية والأحاديث النبوية التي تحرض على الدفاع عن الدين
وقتل الشركيين (١) .

٤ - موازنة الشعر في خصائصه وموضوعاته مع مرحلة التمهيد في
الصلبيين :

أثرت الحروب الصليبية في الشعر العربي بمصر والشام
تأثيرا كبيرا ، حيث ألهمت تلك الحروب قرائح الشعراء وحركت
أوتارهم ، وأوقدت في صدورهم نار البغض والحقد على أعداء
الأمة الإسلامية من الصليبيين .

والشاعر إذا التهبت فريحته واشتعل إحساسه واتقود
شعوره تحركت أوتاره بالقول مزوجا بده .

لذلك جاء الشعر الذي قيل في ذلك العصر صادقا لاشك
فيه لأنه نابع من أغوار النفس الشاعرة ، والشعراء في تلك الفترة
كانوا يعبرون بصدق عن آلام الشعوب الإسلامية وآمالها وترجمون
بإخلاص عما يجول بخاطرهم ، وينطقون بأمانة معبرين عما تريد
في كل ما يقولون .

فما يكاد المسلمون يستولون على مدينة أو قلعة أو حصن
حتى يهب الشعراء لتسجيل ذلك مهنئين الملك المنتصر وسجلين
ذلك في سجل الشرف والكرامة . ثم يمزجون هذا بهجاء
الصلبيين في أبيات عاطفية جياشة تنم عن مدى الحقد والكراهية
لهؤلاء المعتدين . وبعد أن يعبروا عن ذلك كله يختتمون
قصائدهم في الغالب بتحريض الملك المنتصر على كسر شأفة
الصلبيين أعداء الإسلام والمسلمين .

(١) محمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في
مصر والشام ص ١٥٠ .

وفى المقابل لا تكاد مصيبة تقع على المسلمين من سقوط مدينة أو قلعة أو حصن حتى نسمع الشعراء يبكون وينوحون معبرين عما يخيم على المسلمين من حزن وألم لتلك المصائب، وهنا لا ينسى الشعراء وهم فى قمة حزنهم أن يوقدوا فى ليل الأمة شموع الأمل لكى ترد إلى العدو الصاع صاعين .

وكثيرا ما غدر الصليبيون بعهدهم مع المسلمين ، وهنا ينهض الشعراء مشتهرين بهذا العمل المشين ومعرضين المسلمين على القتال .

من ذلك نجد أن شعر الجهاد قد واكب أحداث الحروب الصليبية ، وطاش أكثر مراحلها ، واستمر قويا مؤثرا حتى مرحلة التعبئة الإعلامية الكاملة فى عهد صلاح الدين ، وقد حمل شعراء الجهاد على عواتقهم عبء الدعوة إلى الجهاد ، ومقاومة المحتلين ، وتوحيد القوى الإسلامية ، لمقاومة الغزاة المحتلين (١) ولكى أبين كيف سائر شعر الجهاد هذه الحروب ، وتحدث عنها ، وهاشها هزيمة وانتصارا ، أسوق بعض القصائد التى تظهر بوضوح بعض خصائص هذا النوع من الشعر والموضوعات التى تناولها :

أ - التحريض على مواصلة الجهاد :

جاء الصليبيون إلى الشرق فى وقت كان المسلمون فيه منقسمين إلى شيع وطوائف . ولم تكن هناك سلطة عليا توحد كلمة المسلمين فى مصر والشام ليقفوا صفا واحدا أمام أعدائهم . لذلك استطاع الصليبيون فى بداية غزوهم لبلاد المسلمين أن يحتلوا أجزاء كبيرة من البلاد الإسلامية .

(١) محمد بن طي الهرفى : الحروب الصليبية وأثرها فى الشعر العربى (النادى الأدبى - الرياض) ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

وكانت القدس هي أهم مدينة إسلامية مقدسة احتلها الصليبيون ، وقد قتلوا فيها يوم دخولها ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وطوائفهم وجهادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف (١) .

وكان ابن الخياط (٢) من أوائل الشعراء الذين رفعوا لواء الدعوة إلى الجهاد ، فحينما بلغه خبر مجيء الصليبيين إلى بلاد المسلمين قال قصيدة طويلاً مؤثراً حملها إلى حاكم دمشق عصب الدولة ، حثه فيها على الجهاد ، ومقاومة الأعداء فقال :

وانى لسهل إليك القريب ——— خـ يطوى على النصـح والنصح يهدى
إلى كم وقد زخر المشركون : بسيل يهال له السيل ———
وقد جاش من أرض أفرنجية : جيوش كمثل جهال تـ ———
أنوما على مثل هـد الصفا : وهزلاً وقد أصبح الأمر جـ ———
بنو الشرك لا ينكرون الفساد : ولا يعرفون مع الجور قصـ ———
ولا يردعون عن القتل نفساً : ولا يتركون من الفتك جهـ ———
فكم فتاة بهم أصبحت : تدق من الخوف نحرها وخـ ———
فحاموا عن دينكم والحريم : معاملة من لا يرى الموت فقـ ———
وسدوا الثغور بطعن النحر : فمن حق ثغر بكم أن يسـ ———
ثم يبين الشاعر في آخر قصيدته : أن العز والسود في
هذه الأيام مقترنان بجهاد المشركين ، وأن الذى يريد العـ
لنفسه يجب عليه ألا يخلع الحديد عن جسده ، وأن يواصل الجهاد
صباح مساءً فيقول :

فما ينزع اليوم عنه الحديد ——— من رام أن يلبس العز رغـ ———
وأيسر ما كابدته النفوس : من الأمر بالم تجد منه بـ ——— (٣)

-
- (١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ١٨٩ .
(٢) هو أبو عهد الله أحمد بن محمد بن على التغلبى ، شاعر دمشق مشهور له ديوان شعر ، ولد عام ٤٥٠ هـ وتوفى عام ٥١٢ هـ .
(٣) د . محمد بن على الهرفى : الحروب الصليبية وأثرها فى الشعر العربى ص ٥١٤ ٥٠٥ .

وعندما سقطت "الرهاء" في يد "عماد الدين زنكي" أحدث
ذلك رنة شديدة من الفرح والسرور بين المسلمين أجمعين
لأن هذه المدينة كانت من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها
مخلا ، وكانت تحت إمرة "جوسلين" وهو عاتى الفرنج وشيطانهم
والمقدم على رجالهم وفرسانهم (١) .

وهنا ينعكس صدى هذا الفتح الكبير فى الشعر ، فينطق
الشعراء بنظم يلمح ومدى قوى رعين سادم عاطفة دينية فياضنة
وشعور قوى ملتهب .

ومن ذلك قصيدة لابن القيسراني جاء فيها :

هو السيف لا يخنك إلا جـلاد : وهل طوق الأملك إلا نجاد .
وعن شجر هذا النصر فلتأخذ الظبا : سناها وان فات العيون انتقاد .
سمت قبة الإسلام فخرا بطولـه : ولم يك يسمو الدين لولا عماد .
ثم ينتقل ابن القيسراني إلى وصف هذا الفتح الإسلامي
العظيم مسفها في نفس الوقت آراء الصليبيين ومعتقداتهم
فيقول :

وفتح حديث فى السماع حديثه : شهن إلى يوم المعاد معاده
أراح قلوبا طرن عن وكنايته : عليها قواف كل صدر فسؤاده
لقد كان فى فتح الرهاء دلالة : على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة : ولم يفن عند القوم عنه ولاده .

وفى نهاية القصيدة يظهر الشاعر الشامة بالصليبيين والسخرية
الشنيعه بهم ، فليس أمامهم إلا ترك بلاد المسلمين ، والخروج منها
سريعا ، قبل أن يحل بهم الدمار .

وقل لملوك الكفر تسلم بعـدها : مالكها إن البلاد بـلاد
كذا عن طريق الصباح فلمنته الدجى : فيها طالما غال الظلام امتداد .
ومن كان أملاك السموات جنـده : فأية أرض لم ترضها جياده (٢)

(١) أبوشامة : الروضتين ج ١ - ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ج ١ - ص ٣٧ ، ٣٨ .

ونلاحظ من أبيات القصيدة أن الشاعر يصور هذه المعركة بأنها معركة بين الإيمان والكفر ، وإذا فهو يبرز بعض المصطلحات الإسلامية ، كقوله : " ملوك الكفر " ، وإثارته إلى جند السماء الذين يساعدون عماد الدين في حربه ، ولعله أخذ هذا المعنى من مشاركة الملائكة للمسلمين في حربهم للمشركين يوم غزوة بدر (١) والشاعر بذلك يحرض المسلمين على مواصلة الجهاد ما دام جند السماء جنباً إلى جنب معهم في جهادهم ضد أعداء الإسلام والمسلمين .

ولا يكتفى الشعراء بتحريض المسلمين على مواصلة الجهاد فحسب ، بل يحرضون أيضاً قادة المسلمين ويظالمونهم بمزيد من النصر .

من ذلك ما قاله الشاعر ابن القيسراني حين فتــــــــــــــــح عماد الدين زنكي حصن " بارين " وكان هذا الحصن من أضر بلاد الفرنج على المسلمين :

فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة : فالقوم إن نفروا ألوى بهم نــــــــــــــــر
إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حاربوا : أو طاردوا طردوا أو حاصروا حاصروا

ب - وصف المعارك :

من خصائص شعر الجهاد ومضاعفاته الهامة وصف المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين ، وقد تابع الشعراء المجاهدين خطوة خطوة أثناء خوضهم المعارك ، وكان هؤلاء الشعراء هم الذين يخوضون تلك المعارك ويسجلون نتائجها بصدق وحــــــــــــــــرارة

(١) د . محمد بن علي الهرقي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، ص ٢٣٨ (مؤسسة الرسالة - بيروت) ١٤٠٠ هـ .

وأمانة ، ويأتى نور الدين محمود فتستعر المعارك ويشتد وطيس
الجهاد وتتعدد المعارك وينتقل المسلمون تحت راية نور الدين
من نصر إلى نصر ، ويهب الشعراء مشاركين بأقلامهم فى تلك
المعارك بالدهوة إلى الجهاد والتحرير عليه جادين فى نقل
صور تلك المعارك ووصفها حتى لا تغيب عن الأذهان ولا تندثر
مع الزمان .

من ذلك ما أنشده أبو الحسين أحمد بن منير حين التقى
نور الدين بالصلبيين فى الموضع المعروف " بآنب " ، وقا تلهم
وانتصر عليهم ، وقد " وجد اللعين " البرنس " مقدمهم صريحا
بين حماته وأبطاله ، فعرف وقطع رأسه ، وحمل إلى نور الدين
وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية
وشدة البأس وقوة الحيل ، وعظم الخلق ، مع اشتهار الهيبة ،
وكثرة السطوة ، والتناهى فى الشر (١) .

يقول ابن منير يصف هذا الفتح العظيم :

فتح تعممت السماء بفخـره : وهفت على أفصانها هذباته
سبنت على الإسلام بهيـز حـجـوله : واختال فى أوضاعها جهباته
وانهل فوق الأبطالـين غـمامـه : وسرت إلى سكينها نفحاته
لله بلجة ليله محصت بهـ : واليوم ديج وشبه ساعاته
حط القوامى فيه بعد قـاصـمـها : ضرب بصلصل فى الطلى صقعاته (٢)
نهدوا السلاح لضيغم عاداته : فرس الفوارس والقنا غاياتـه
لمجرب عزيمة غفباته : لله معتصمة فزواته

(١) أبو شامة : البروضتين ج ١ ، ص ٣٤ .

(٢) الطلى : الأضاق ، واحدتها طلية .

ويخفى ابن منير فيقول :

عندم الصليب على صلابة عوده : فتفرقت أيدي سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلته : بالروح مقر ما جنت غدزاته
لما بدا سود رأيك فوقه : فبيض نصرك نكست راياتيه
ورأى سيوفك كالصوالج طاوحت : مثل الكرين فقلصت كثراته
ولى وقد شربت ظباك كماتيه : تحت العجاج وأسلمته حماه
ترك الكنائس والكناس لفاهيب : بالبيض نهب ما حواه غفاته
غلاب أروع لا يميث عداته : داء المطال ولا تعيش عداته
والآن ملغى بالعرا يقتاتيه : ما كان قبل يصيده يقتاتيه (١)

ويخفى نور الدين إلى رحمة الله بعد جهاد طويل ، حقق
الله فيه على يديه الكثير من الانتصارات ، وخلده الشعراء بقصائد
عديدة ، سجلوا فيها وقائعهم وجهادهم ، وأغلب معاركهم ، وبأنتى
بعده علاج الدين الأيوبي ، ويحقق الله على يديه أروع انتصارات
الإسلام وأخلدها على الصليبيين ، ويكون فتح القدس الشريف
هو قمة تلك الانتصارات ، وغاية التعبئة الاعلامية التي قادها
ويحتل الشعراء مكانتهم من تلك الانتصارات ويتسابقون في
تسجيلها وإشادة ببطولها وقائدها .

من ذلك ما قاله العمام الأصفهاني عند ما فتح علاج الدين

القدس الشريف عام ٥٨٣ هـ :

جنودك أملاك السماء وظنهم : عداتك جن الأرض في الفتك لا إلا نسا
فلا يستحق القدس غيرك في الورى : فأنت الذى من دونهم فتح القدس
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا : فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وظهرته من رجسهم بدمائهم : فأزهدت بالرجس الذى ذهب الرجسا

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ - ص ٦٠ ، ٦١ .

نزعتم لباس الكفر من قدس أرضها : وألبستمها الدين الذى كشف اللبسا
وعادت لبيت الله أحكام دينه : فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسما
وقد شاع فى الآفاق عنك بشارة : بأن أذان القدس قد بطل النقسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت : ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا (١)

وهكذا تابع الشعراء سيرة الممكارك وتطورها ، وقاموا بواجبهم
فى تحرير المسلمين على مواصلة الجهاد واستنهاض الهمم ، ومدح
الأبطال والقادة .

ج - مدح أبطال الجهاد وقادته :

كثر شعر المديح فى فترة الحروب الصليبية ، وكان المدح
ينصب على القادة والأبطال الذين أعادوا للإسلام عزته
وكرامته ، بل إنهم مدحوهم عقب بعض الممكارك التى لهم
ينتصروا فيها ، واعتذروا عنهم ، وقووا عزائمهم للاستمرار فى
الجهاد .

أما الصفات التى أطلقوها عليهم فكلها تتعلق بالجهاد .
وما يتطلبه من صفات البطولة والشجاعة والتضحية (٢) .

وكان أهم أبطال الفتوح الذين نالوا اهتمام الشعراء
فخلدوا أفعالهم عماد الدين زنكى وابنه نور الدين ، ثم
صلاح الدين الأيوبي الذى حظى بالقسط الأكبر من شعر
الشعراء وقصائدهم التى خلدت أمجادهم .

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الله قد يسر على يديه
فتح بيت المقدس ، فأذل الله بذلك الشرك والمشركين .

(١) المصدر السابق : ج ٢ - ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) د . محمد على الهرفى : الحروب الصليبية وأثرها فى الشعر العربى ، ص :

وانبداً بعماد الدين زنكي حيث مدحه ابن قسيم الحموي حينما
حاصر قلعة " شيزر " بقصيدة قال فيها :

بعمزك أيها الملك العظيم : تذلل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما : تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق السفلات خيلاً : كأن الجحفل الليل البهيم
وقد ترك الزمان على رضاء : فكان لخطبه الخطب الجسيم
فحين رميته بك في خميس : تيقن أن ذلك لا يسودوم
وأبصر في الغافة منك جيشاً : فأحزن لا يسير ولا يقويم
كأنك في العجاج شهاب نور : توعد وهو شيطان رجيم (١)

ويأتى نور الدين فيسير على نهج أبيه في محاربة الصليبيين
والإصرار على طردهم من بلاد المسلمين ، وتتوالى الانتصارات
امتداد الانتصارات أبيه ، ويلهج الشعراء بمدح نور الدين والإشادة
بانتصاراته .

من ذلك ما قاله ابن منير الطرابلسي يمتح نور الدين :

أيما نور دين خبا نوره : وما شاع فذلك فيه اتقود
راك الصليب صليب القناة : أمين العثار متين العمود
زينتهم أسس عن صرخد : ففضوا كأن نعاماً شرد (٢)

ثم يأتى بعدهما صلاح الدين فينتج انتصارات الإسلام بفتح
بيت المقدس ولا يملك الشعراء إلا أن يشعروا أفئدتهم قصائد تشيد
بصلاح الدين ، وأن يتسابقوا إلى مدحه والثناء عليه متوجين بذلك
تعبئتهم الإعلامية الكأمة ، ومن مدح صلاح الدين أسامة بن منقذ ،
حيث وصفه بنصرة الدين ، في الوقت الذي تخاذل فيه الكثيرون
عن نصرته ، وأن قيامه بأمر الدين حقق للمسلمين النصر طمس
أعدائهم .

(١) أبوشامة : الروشتين ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٢١ .

يقول أسامة بن منقذ في صلاح الدين :

يأناصر الإسلام حين تخاذلت : عنه الطوك ومظهر الإيمان
بك قد أزاله حزب جنوده : وأذل حزب الكفر والطغيان
ويصف ابن منقذ صلاح الدين بأنه كان منقفا الأموال الطائلة
على تجهيزات القتال ، والصرف على المجاهدين ، وقد كانت
الأموال قبل صلاح الدين محفوظة في الخزائن لا يسمح لها
بالخروج ، يقول ابن منقذ في ذلك :

وبذلت أموال الخزائن بعدما : هرمت وراء خواتم الخزان
ومن جمع كل مجاهد ومجاهد : ومبارز ومنازل الأكران
من كل من يرد الحروب بأبيض : غضب ويصدر وهو أحمر قاني
ويخوض نيران الوغى وكأنه : ظمان خاض موارد الغدران (١)

ما تقدم ذكره من نماذج شعرية يتبين أن الشعر قد ساهم
في الأحداث التي تسر مصير الأمة ، فكان الشعر يشهد بالانتصارات
الإسلامية على الصليبيين ، ويحرك الهمم نحو مزيد من الانتصارات.
وإذا ما وقعت بعض الهزائم بالمسلمين وجدنا الشعراء
ينتزهون النصر من الهزيمة ، ويشيرون النفوس المؤمنة للقصاص من
أعداء الإسلام والمسلمين . بل والعمل على قطع دابرهم من كل شبر
من أرض الإسلام .

هـ - الرسائل تواصل وظيفتها الإعلامية :

سبق أن تحدثت عن الرسائل وأثرها في نقل الأخبار منذ
وقع العالم الإسلامي راية الجهاد عالية مرفرفة ، ومنذ أخذ قادته
المخلصون على عاتقهم تعبئة الرأي العام الإسلامي إعلاميا وعسكريا
بشتى الطرق والوسائل حتى يخوض معركة النصر ويسترد ما أخذ ،
الغزاة الصليبيون .

(١) د . محمد بن علي الهرفي : الحروب الصليبية وأثرها في الشعر العربي ، ص :

ولقد بلغت الرسائل ذروة تأثيرها في عهد صلاح الدين نظرا لخطورة الفترة المصيرية التي مرت بها الأمة الإسلامية في عهده ، والتي أخذت الأحداث فيها بخناقها ، وأحاطت بها من كل جانب .

الأمر الذي استدعى من صلاح الدين الأيوبي ورجاله الذين التفوا حوله تعبئة الأمة بأسرها من أجل الوصول بها إلى معارك النصر في حطين والقدس .

وكانت الرسائل شأنها في ذلك شأن كل شيء في الأمة تواصل القيام بوظيفتها . وتنتقل معها من خطوة إلى خطوة ، ترعد تحركها وتباركه ، وتذيع انتصارها وتنشره ، تحرك وتعرض وتبشر ، وتنصح وترشد وتحذر .

وبذلك كله بلغت التعبئة الإعلامية غايتها ، وأدت وظيفتها بتوفيق من الله تعالى .

والرسائل التي اخترتها من سيل الرسائل التي يتعمد إحصاؤها في تلك الفترة ، هي في الواقع قطرة من بحر ، ولكنها مع ذلك تظهر بوضوح مدى الاستعداد التام لخوض المعارك التي يتوقف عليها مصير الأمة ، وتبين بجلاء من خلال عباراتها الإيمانية العميقة الذي كان يملأ قلب الأمة حكاما ومحكومين ، قادة وجنودا . رسالة أرسلها أحد أفراد حاشية صلاح الدين الأيوبي لبعض إخوانه ، وصلاح الدين يستعد لمعركة حطين التاريخية ، وذلك سنة ٥٨٢ هـ :

" كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق ، وقد ورد السلطان ، أعز الله أنصاره ، للغزاة إلى بلاد الكفر ، وفيه عسكر فيه عساكر ، وفي جمع الهادي فيه كأنه حاضر ، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لا يحصله الخاطر ، وقد نهضت به

همة لا يرجى غير الله لإنهاضها ، وحجبت به عزة ، الله المسئول في
حسم حواضر اعتراضها ، وباع الله نفسا يستمتع أهل الإسلام
بصفقتها ، ويذهب الله الشرك بهيبتها . وأرجو أن يتمخض من
زبدة وتستريح الأيدي من المخاض ، وأن يكون الله قد بعث
(سفتجة) (١) نصرته الإسلام وسلطانه قد نهض للقبض (٢) .

ويتم النصر في معركة حطين الخالدة على رؤوس الكفر ، وتنهال
الرسائل من كل مكان تهنيء المسلمين بهذا النصر المبين ،
وتبشرهم بفتح القدس .

وتلك قطعة من رسالة أرسلها العماد الكاتب الأصفهاني
تهنيء بنصر حطين التاريخي وتبشر بفتح بيت المقدس ، وذلك
باسم صلاح الدين :

" ولما أحيط بالقوم ، آوى ملكهم إلى جبل يحصيه من
العوام ، فأسمعه السيف : لا طاصم اليوم ، واستولى الغدلان
عليهم بأسرهم ، وبردت أيدي المؤمنين بحر قتلهم وأسروهم ،
ولم يبق لهم باقية ، وغصت بقتلاهم في الدنيا والآخرة أرض الله
الواسعة ، ونار الله الحامية ، فما يطأ من يصل إلى مخيمهم
إلا على رمسهم البالية . وأسر الطك وأخوه وبارونته ومقدموه ، ولم
يغلت منهم إلا القصب ، وهو سلوب ، ولا بد أن ندركه وهو
مطلوب . وقد كنا نظرنا ضرب رقبة الإبرنس صاحب الكسرك
الغدار ، كافر الكفار ونشيدة النار ، فلما رأينا ضربنا عنقه
سريعا ، وصرنا إلى هكا ، وهي بيضة ملكهم وواسطة سلكهم ،
ومركز دائرة كفرهم ومجمع جمع برهم وحرهم ، فتسلمناها بالأسان .
والصخرة المقدسة الآن بنا تستغيث ، وعباد الله الصالحون قد
وصلت إليهم بوعد الله الصادق الموارث . والبشارة بفتح

(١) سفتجة ج سفاتج : هي أن تعطى مالا لرجل فيعطيك كتابا يمكنك من
استرداد ذلك المال من عياله في مكان آخر (فارسية) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ - ص ٧٥ .

القدس لا تتأخر ، والهمم بعد هذا الفتح السني على ذلك
تتوفر . والحمد لله الذى تتم الصالحات بحمده (١) : مايفتح
الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من
بعده وهو العزيز الحكيم . (٢)

ثم يصل النصر بالمسلمين قمته ، ويبلغ التوفيق بهم غاية
فينعم الله عليهم بفتح بيت المقدس مسرى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وتتوالى الرسائل كالسيل العرم من كل مكان . بعضها
يصف ويخبر ، وبعضها يهنئ ويبشر .

ويصف العماد الكاتب الأصفهاني تلك اللحظة فيقول :

" فبشرت بأقلاى أقاليم البشر ، وفيرت بأطجيبى من عجائب
العبر ، وملأت البروج بالدرارى والدروج (٣) بالدرر . ورويت
تلك البشرى حتى أطابت ربا " الرى " (٤) وسر " سر قند "
وطقت بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت ، وشرحت فضيلتها
ومينت ، وأديت فريضة زيارتها وتعينت " (٥) .

ومن الرسائل المهمة التى أرسلها صلاح الدين الأيوبي
الرسالة التى بعث بها إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله
مشيرا بفتح القدس ، والرسالة من إنشاء العماد الأصفهاني وقد
جاء فى بعض أجزاءها :

" وقد سبقت البشائر بها من الله به من الفتح العظيم
والنصر العظيم ، والعرف الجسيم ، والفضل الوسيم ، والميموم

(١) أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ - ص ٨٧ .

(٢) سورة فاطر : آية ٢ .

(٣) الدروج : الرياح سريعة المرور .

(٤) الرى : مدينة كبيرة بآيران .

(٥) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص ١٣١ .

الأعز الأكرام . والشرف الذي نأخره الله لهذا العصر
ليفضله على الأعصار ، وأراد تأخير فخاره إلى هذه الأيام ليكون
بها تاريخ الفخار . فقد أعجز المأوك عن اقتفاء نصرته ،
وافتناسوا قدرته ، وخس من أجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته
وأعاد به القدس إلى قدسه ، وأظهره وظهره من رجز الكفر
ورجسه " .

" وقال المعراب لأهله مرحبا وأهلا ، وشمل جماعة
المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع الإسلام فيه شملا .
ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ،
وتلت بالسنة هذبتها " نصر من الله وفتح قريب " (١) . وفسلت
الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين ، وبعد أهل
الأحد من قربها بقرب الموحدين " .

" ولو شرح ما لهذا الفتح من جلاله العظمة ، ودلالة
المكرمة ، لكنا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى " (٢)
" قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد
كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا " (٣) .

بذلك تمكن الرأي العام الإسلامي من الوصول إلى
المرحلة النهائية للتعينة الإعلامية الكاملة بعد أن استطاع
المسلمون التعرف على أول الطريق المؤدية للنصر بقميـادة
علاء الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي .
هؤلاء القادة الذين اهتموا في تعبئة الرأي العام
الإسلامي على الركائز الإسلامية الثابتة التي علق بها أول هذه

(١) سورة الصف : آية ١٣ .

(٢) العمام الكاتب الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي

ع ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) سورة الكهف : آية ١٠٩ .

الأمة ، والتي صلح بها عهد هؤلاء القادة المخلصين الذين انتزعو النصر من برائن الهزيمة .

ولقد أدت كل وسيلة إعلامية وظيفتها كاملة في تنسيق وتعاون تامين مع الوسائل الإعلامية الأخرى ، وذلك تحققت التعبئة الإعلامية الكاملة في عهد صلاح الدين الأيوبي . وكان ذلك هو الهدف الذي أظهر بوضوح مدى التأثير القوي الذي تحدثه التعبئة الإعلامية في الرأي العام إذا تحققت بمثل هذا التنسيق والتعاون .

أما تناول كل وسيلة إعلامية على حدة ، فلم يكن إلا بهدف تحديد الأثر الذي أحدثته هذه الوسيلة أو تلك داخل هذه التعبئة الإعلامية الكاملة .

وتلك التعبئة الإعلامية التي أعنى لم تحدث في الحروب الصليبية كلها إلا مرتين :

المرّة الأولى : حدثت على الجانب الصليبي أثناء قيام الأسيّة النصرانية بالدعاية لحملاتهم العسكرية على العالم الإسلامي ، واستطاع الصليبيون أن يصلوا بتعبئتهم الإعلامية إلى القمة باستيلائهم على بيت المقدس ، ولكن سرعان ما تجذرت تلك التعبئة الإعلامية الصليبية بعد أن استنفدت كل دمايتهم التي قامت كما رأينا على الروى والأحلام واختلاق التنبؤات والأكاذيب ، وبث الشائعات ، واستخدام الرموز الإعلامية السادية لستر أطماعهم الحقيقية ، ورفـع الشعارات التي أقاموها على التزييف والتعريف .

المرّة الثانية : حدثت تلك التعبئة الإعلامية الكاملة على الجانب الإسلامي في عهد صلاح الدين ، حيث استطاع المسلمون أن يصلوا إلى قمة تعبئتهم الإعلامية بدحر

الصليبيين في حطين ، واسترداد بيت المقدس من أيدي غاصبيه .

وإذا كانت التعبئة الإعلامية الصليبية التي قامت على الأكاذيب والادعاءات قد أشعلت في حينها على الجانب الصليبي فذلك لأن الأمة النصرانية نفسها كانت تعيش في ظلمات بعضها فوق بعض ، وتؤمن إيماناً عميقاً بتلك الأوهام والخرافات . أما التعبئة الإعلامية الإسلامية ، فلم تقم على اختلاق أو أكاذيب ، ولم تشر بغفل التزييف أو التحريف ، إنما قامت على ركائز إسلامية موجودة بالفعل بين المسلمين ، لكنهم ابتعدوا عنها ونسوها ، فأنساهم الله أنفسهم ، وفندوا ما رواه إلى تلك الركائز وتذكروها ، وعرفوا أنفسهم ، واستغلوا وسائلهم الإسلامية في خدمة عقيدتهم والدفاع عنها . وصلوا إلى غاياتهم ، وحققوا انتصاراتهم ، وكانوا خير خلف لخير سلف .

وإن ما جد بعد ذلك على الجانب الإسلامي من أحداث تاريخية واجتماعية يؤكد أن مثل هذه التعبئة الإعلامية الشاملة لم تتكرر بعد صلاح الدين الأيوبي ، بل سرعان ما تبدد شملها وذهب ريحها بسبب الخلافات التي أخذت تنخر في عظام الأسرة الأيوبية طمعاً في سلطة زائفة أو قطعة من طين ، وهاد الحال بالمسلمين كما كان عندما بدأت الحملات الصليبية على العالم الإسلامي .

حدث ذلك عقب انتقال صلاح الدين إلى جوارحه راضياً مرضياً ، ولقد بينت ذلك في حينه عندما تحدثت عن الحملات الصليبية التي تتالت على العالم الإسلامي .

حتى أولئك الرجال الذين التفوا حول صلاح الدين ،
وأخذوا على عاتقهم مسئولية التعبئة الإعلامية الإسلامية الكاملة
في عهد ، قد لا قوا بعد صلاح الدين العت والعزلة والاهمال
من إخوة صلاح الدين أنفسهم .

لأن هؤلاء الرجال رفضوا الدخول في تلك الخلافات
التي همت الأسرة الأيوبية ، ولأن هؤلاء الرجال وقفوا عاجزين
عن إصلاح ذات البين ، فاهتزوا الناس ولزموا بيوتهم ، وهـل
هناك من كان في الدولة الصلاحية أهم من القاضي الفاضل ،
والعماد الكاتب الأصفهاني ؟

إن ما حدث لهدين الرجلين بعد صلاح الدين دليل
واضح على مدى ما وعد إليه حال الرأي العام الإسلامي مرة
أخرى من تدابر وانتكاس .

ولقد ذكرت المصادر الإسلامية بعضا مما حدث للرجلين
بعد صلاح الدين ، وانغمس الحكام الأيوبيون في خلافاتهم
وانصرفهم عن قتال الصليبيين إلى قتال بعضهم البعض ، من
ذلك ما جاء في " النجوم الزاهرة " .

" حاول الملك العادل الأيوبي أخذ مصر في عهد
العزیز بن صلاح الدين ، وبالفعل سار العادل نحو مصر ،
ولكن عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة ، وأرسل إلى العزيز
يطلب منه القاضي الفاضل ، وكان القاضي الفاضل قد اهتز لهم
وانقطع في داره ، فأرسل العزيز يسأله فامتنع " (١) .

(١) ابن تفری بردی : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٦ ،
ص ١٢٤ حوادث ٥٨٩ هـ .

وجاء في " البداية والنهاية " .

" استطاع الطك العادل الأيوبي أن يستولي على مصر من الطك الأفضل بن صلاح الدين ، وقد توفي القاضي الفاضل يوم دخل العادل إلى قصر مصر بمدرسته فجأة يوم الثلاثاء سادس ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ ، وكان الفاضل قد دعا الله أن لا يحبيه إلى هذه الدولة لما بينه وبين العادل ، فمات ولم ينله أحد بخيم ولا أذى ، ولا رأى في الدولة من هو أكبر منه " (١) .

ذلك هو القاضي الفاضل الذي كان السلطان صلاح الدين يقول عنه : " لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلوبكم الفاضل " وقيل : إن العادل كان داخلًا من باب النصر ، وجنازة الفاضل خارجة من باب زويلة " (٢) .

أما فيما يختص بالعماد الكاتب الأصفهاني بعد صلاح الدين ، فام يكن حاله أفضل من القاضي الفاضل " ولم يرؤى العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته إلى أن توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى ، فاختلفت أحواله ، وتعطلت أوصاله ، ولم يجد في وجهه بابًا مفتوحًا ، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف " (٣) " وأعتقد أن الشعراء الذين حملوا على طائفتهم تعبئة الرأي العام الإسلامي ضد الصليبيين منذ اللحظة الأولى لم يكونوا أوفر حظًا بعد صلاح الدين من القاضي الفاضل ، والعماد الكاتب الأصفهاني .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ، ص ٢٤ - دار الفكر - بيروت (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٥٧ - حوادث سنة (٥٩٦ هـ) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ، ص ٥٢ تحقيق د . إحسان عباس - مطبعة الثقافة بيروت (بدون تاريخ) .

وما يقوى هذا الاهتقاد فى نفسى كتاب " شعر الجهاد
فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام " الذى ذكر فيه مؤلفه
الدكتور محمد بن على الهرفى أهم شعراء الجهاد فى
الحروب الصليبية وهم : ابن القيسرانى ، وابن منير
الطرابلسى ، وأسامة بن منقذ ، والشهاب محمود الحلبي ،
والملك الصالح طلائع بن رزيك ، والقاضى السعيد بن سناء
الملك .

سنة شعراء ، خمسة منهم فى عهد صلاح الدين وما قبله
أى فى مدة لا تزيد عن مائة سنة ، وشاعر واحد فقط هو
" الشهاب محمود الحلبي " جاء به المؤلف ليمطى به شعر
الجهاد فى مائة سنة من عمر الحروب الصليبية بعهد
صلاح الدين .

فما معنى ذلك ؟

معناه أن التعبئة الإعلامية الإسلامية الكاملة كانت
ظاهرة بلغت قممها فى عهد صلاح الدين ولم تتكرر فى
تاريخ الحروب الصليبية بعده .

الباب الثالث

الرأى العام الإسلامى فى مرحلة التعبئة الإعلامية الكاملة

الفصل الأول

توحيد الرأي العام الإسلامى على يدى صلاح الدين الأيوبي

أولا : القدوة الحسنة وسيلة من أقوى الوسائل الإعلامية .

ثانيا : الإصلاح العقدى :

- ١ - القضاء على الإلحاد ونسف قواعد الزندقة .
- ٢ - القضاء على غلاة الشيعة ودعاة الإسماعيلية .
- ٣ - إنشاء المكتبات والمدارس لتدريس الدين على مذهب أهل السنة والجماعة .

ثالثا : الإصلاح الاجتماعى :

- ١ - القضاء على مظاهر الخلافة والمجون فى عهد الفاطميين وخاصة فى المواسم والأعياد .
- ٢ - القضاء على بدع المواسم كبدع يوم عاشوراء .
- ٣ - القضاء على العديد من الضرائب التى فرضت على مصر والشام وحجاج بيت الله الحرام

أولا : القدوة الحسنة وسيلة من أقوى الوسائل الإعلامية :

هند ما يرزق الله سبحانه وتعالى أمة من الأمم داعية
يجدد لهذه الأمة دينها ، أو يعيد لها ما سلب من عزتها
وكرامتها قبل ترابها وشروطها ، كان لزاما على هذا الداعية أو هذا
القائد أن يكون قدوة حسنة لأمة التي تود أن ترى فيه أملاها وقد
أصبح حقيقة واقعة .

ومن ثم تلتف حوله وتنضوي تحت رايته في قناة تامة بقيادته
لأن القدوة الحسنة تقوم أساسا على غريزة من غرائز الإنسان هي
غريزة التقليد أو المحاكاة .

ولهذه الغريزة تأثير في مجالات الحياة المتعددة ، كمجال
العلم ومجال الكشف ، ومجال الأدب ، وذلك فضلا عن مجال
الحرب والجهاد .

ولست أتجاوز الحقيقة هند ما أقول إن تاريخ الرسول صلى
الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده والصحابه رضوان
الله عليهم كاد ينحصر في القدوة الحسنة .

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبا المؤمنين :
" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا " (١) .

وجاء الخلفاء الراشدون فكان كل واحد منهم قدوة حسنة
للمسلمين جميعا ، أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان قدوة
حسنة في الشدة والحزم والعدل بين الناس . عثمان بن عفان
رضي الله عنه كان قدوة حسنة في الهذل والعطاء . علي
ابن أبي طالب رضي الله عنه كان قدوة حسنة في الفداء

واليسالة والاقدام . ولقد كان كل واحد من هؤلاء الأربعة أمة
وحده في مجال القدوة الحسنة ، وهي القدوة التي اقتدى بها
بقية الصحابة والمؤمنون الأوائل والتابعون ، ومن تبعهم بعد
ذلك ، وجميع هؤلاء كانوا قدوة حسنة في الجهاد في سبيل
الله (١) .

لذلك وجب على كل من يتصدر الدعوة الإسلامية أو
الإعلام الإسلامي أن يتخذ من القدوة الحسنة طريقا يسلكه حتى
لا تأتي أفعاله متناقضة مع أقواله ، وحتى لا تتزعزع الثقة بينه
وبين من يتوجه إليهم بالدعوة والإرشاد ، والإعلام الإسلامي جزء
من هذه الدعوة ككل ينطبق عليه ما ينطبق عليها .

من هنا وجبت القدوة الحسنة على الداعي ورجل الإعلام
على حد سواء تجنباً للتناقض بين القول والفعل ، ومصادقاً
لقوله تعالى :

• أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم • (٢) .

إن دعاة الإسلام ورجال إعلامه يستطيعون بالقدوة الحسنة
أن يحققوا الكثير ، ويختصروا الطريق موفرين على أنفسهم جهوداً
كبيرة يمكن أن تضيق منهم إذا فقدوا هذه الصفة ، ذلك أن الداعي
المسلم أو رجل الإعلام الإسلامي يمثل الدين ذاته في نظر
الجاهل ، وأي خلل في الرجل ينعكس في الغالب على ما
يدعوا إليه الرجل .

وعلى يد صلاح الدين الأيوبي وجهاد مستد مشترك من
علاء الدين زنكي ونور الدين محمود . . . تلك أسر القدس من
معتقليها الأول ، وعادت إلى أرض الإسلام أولى القبلتين ومصرى

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الاعلام في عذر الاسلام ص ٦٨ .

(٢) سورة التوبة : آية ٣٤ .

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

لم يكن البطل (صلاح الدين) وحده ولم يكن حلقة مقطوعة الوشائج بالحلقات السابقة . . فلا يمكن أن تحرر الأمم بهذه الطفرات ، كما أنه لا يمكن أن يظهر (صلاح الدين) إلا إذا أصبح جمهور الأمة أهلاً لهذه القيادة ومهيئاً لها (١) .

قال تعالى :

" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٢)

وصلاح الدين الأيوبي حين التفت بحوله الأمة ، وتوحدت قواها تحت رايته كان بلا شك قدوة حسنة لأمة التي وضعت ثقتها فيه ، ليس في مجال الجهاد فحسب ، ولكن أيضاً في شتى المجالات التي تترتب من مصير الأمة وكيانها باختيارها كـ لا يتجزأ .

١ - صلاح الدين القدوة الحسنة في الجهاد في سبيل الله :

لقد أوقف صلاح الدين حياته على الجهاد في سبيل الله منذ وهي الحقيقة المفجعة التي آل إليها مصير الأمة الإسلامية وهو المصير الذي أدى بها إلى التمزق والاندحار أمام جحافل الصليبيين .

ولقد حقق صلاح الدين في الانتصار على الصليبيين ما لم يحققه قائد قبله ، حتى أولئك الأعلام من زنكي عماد الدين ونور الدين ، ولعل ذلك يرجع إلى أن صلاح الدين استطاع أن يقف على الداء العضال الذي يحول بين الأمة والنصر ومن ثم اهتمت إلى الداء الناجع ومنه إلى عوامل النصر التي أهمها عاملان :

(١) د . عبد الحليم عويس ، د . عبد الفتاح أبو طيه : بيت المقدس في

ضوء الحق والتاريخ ، دار المريخ ١٤٠١ هـ ، ص ٣ .

(٢) سورة الرعد : آية ١١ .

توحيد صفوف المسلمين من جهة ، ورفع راية الجهاد فى
سبيل الله من جهة أخرى ، وكان صلاح الدين القدوة الحسنة
فى مجال الجهاد أمام أمته وجنوده ، وفى ذلك قال العماد
الأصفهاني :

” ومد الله فى عمره - أى صلاح الدين الأيوبي -
حتى بلغ المراد ، وفتح البلاد ، ووفى فى حق الجهاد ، الجهد
والاجتهاد . وقدر على ما أعجز عنه الملوك ، ونهج فى نصرة
الدين نهجا أعوز من قبله فيه السالوك . وأخرج الفرنج من
الساحل وأبادها ، وملك عليها ديارها وبلادها . وأوهى على
الكفرة معاقد معاقلها ، وطال بحقه على باطلها . وأقصى من
المسجد الأقصى مدنسيه ، وأزال عنه أيدي غاصبيه . وأصرخ
الصخرة المطهرة وطهرها من الأرجاس ، وأبعد عنها أجناس
الأنجاس . وقهر الكفر وخذله ، ونصر الإيمان وأخذ له ، وأحميا
للكرم كل سنة حسنة (١) .

وقال القاضي ابن شداد :

” وكان لا يد له - أى صلاح الدين الأيوبي - من أن
يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم وكان
إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ، ويخرق
العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم
والوقوف فى مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاوره ” (٢) .

كان ذلك موقف صلاح الدين الأيوبي والمعارك دائمة
قدوة حسنة فى الشجاعة والإقدام بين قواد وجنوده ، لم يكن
يعرف للهزيمة مكاناً فى نفسه ، وفى المراتب القليلة التى مال منه

(١) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى

ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

ميزان النصر كان يتخذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة
حسنة في تحريض المؤمنين على القتال حيث يقول سبحانه وتعالى
في كتابه العزيز :

" يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن
منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا
ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون " (١) .

وفي ذلك يقول القاضي ابن شداد :

" ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر هرج هكس
حتى القلب ورجاله ، ووقع العلم ، وهو ثابت القدم في نفر يسير ،
وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا
ولم يزل كذلك حتى عسكر المسلمون على العدو في ذلك اليوم
وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس " (٢) .

ولم يكتف صلاح الدين الأيوبي بأن يكون وحده القدوة
الحسنة أمام أمته ، بل جعل من أبنائه قدوة حسنة أمام
المجاهدين في ميدان الجهاد حين كان يضعهم في قلب
الجيش حيث يحتدم القتال ويمكن الخطر .

وفي ذلك قال القاضي ابن شداد :

" ولقد مرض - أي صلاح الدين - ونحن على
" الخروبة " ، وكان قد تأخر عن " تل الحجل " بسبب مرضه
فبلغ الفرنج ذلك فخرجوا طمعا في أن ينالوا من المسلمين
شيئا بسبب مرضه وهي نوبة النهر ، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار
التي تحت التل ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب
رحمه الله على مضى ، ورتب العساكر للحرب ، وجعل أولاده

(١) سورة الأنفال : آية ٦٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢٢١ .

فى القلب ، ونزل هو وراء القوم يطلبه ، وكلما سار إلى العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو رحمه الله يسير ساعة ثم ينزل يستريح ، وتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً * (١) .

لقد كان ظهور صلاح الدين امتداداً لحكم القوة الذى أقامه الزنكيون . وكان كذلك مثلاً رافعا لحكم المالك الذى جاء بعده ، والذى أفرز "المظفر قطز" و"مبيرس" وأحمد بن طولون ، وغيرهم .

لقد قدم هؤلاء جميعاً أعظم الانتصارات للعالم الإسلامى فى أصعب فترة من تاريخه ، أن ظهور هؤلاء القادة جاء متزامناً مع الرغبة القوية التى اجتاحت الأمة الإسلامية فى التخلص من الغزوة البربرية الهمجية لقوات الفرنج .

والأمة الإسلامية - فى كل صرور وزمن - حين تأخذ بهدى القرآن الكريم ، وتعمل على تهية الأسباب للنصر ، وتسعى مخاصة فى تحقيقها ، فإن الله جعل حكته سبحانه سيق لهما ما تشده من عز ونصر ، وما تتمناه من مجد وسيادة ، لأنه القائل فى كتابه العزيز :

" وقد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخاف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً " (٢) .

(١) المصدر السابق : الروضتين ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٢) سورة النور : آية رقم ٥٥ .

٢ - صلاح الدين القدوة الحسنة فى التقوى والتواضع والورع:

لا شك أن تقوى الله وعبادته ، والخشية منه ، وحسن الظن به ، والاعتماد عليه . . هو أول ما يجب أن يمتاز به المسلم ، وأفضل ما ينبغي أن يتصف به ، لأن الاتصال بالله والاستعانة به تجعل من المسلم أسداً كاسراً لا يعرف الهزيمة ، هطلاً مقداماً لا يهاب المنية .

كل ذلك وأكثر منه قد تحقق فى القائد والقائد صلاح الدين الأيوبي ، وقد ذكر القاضى ابن شداد ، أنه - أى صلاح الدين - لما مات لم يخلف فى خزائنه من الذهب والغنىة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وديناراً واحداً ذهباً سورياً ، ولم يخلف ملكاً لا داراً ولا عقاراً ولا بهستاناً ولا مزرعة يعنى فى البلد ولا سقفاً ، ولا ظاهراً سقفاً - من أنواع الأملاك (١) .

بذلك الأخلاق ومثلها استطاع صلاح الدين أن يمتلك القلوب قبل البلاد ، وأن يهزم النفوس قبل القلاع ، وأن يحرر العدو والصلبى ويحرر القدس الشريف من أيدي مدنسيه .

صلاح الدين هذا التقى النقي الذى كانت تهكمه آية كريمة من كتاب الله العزيز ، أو حديث نهوى شريف لم يشغله الجهاد المتواصل عن ذكر الله فى السر والعلن ، فسار على نفس الدرب الذى سار عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم فى معارك القادسية واليرموك ، وسلك المسلك الذى سلكوه ، ونهج النهج الذى نهجوه ، فتحقق فيهم جميعاً قوله تعالى :

" ولينصرن الله من ينصره ان الله لبقى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور " (٢) .

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٢) سورة الحج : آية ٤٠ ، ٤١ .

لقد كان صلاح الدين رحمه الله تعالى " يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كان يستخير إمامه ، ويشترط عليه أن يكون عالما بعلوم القرآن العظيم ، متقنا لحفظه " (١) .

كذلك كان رحمه الله تعالى شديد الرغبة في سماع الحديث الشريف ، وفي ذلك يقول القاضي ابن شداد :

" وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، فكان يستحضرني في خلوته ، ويحضر شيئا من كتب الحديث ، ويقرأ هو فإذا سرّ بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عيناه " (٢) .
ويقول الكاتب العماد الأصفهاني :

" وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها ، مواظبا على مفروضاتها ومسنوناتها ، فما رأيت صلى إلا في جماعة ، ولم يؤخره صلاة من ساعة إلى ساعة ، وكان له إمام راتب ، ملازم مواظب ، فإن غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم إذا عرفه متقيا متجنبا للإثم ، وكنت لملازمتي إياه يقدمني إماما في الصلوات ومستشارا في المشورات " (٣) .

إن تقوى الله واجتناب المحارم ، وتنفيذ الأوامر ، هي بشائر النصر ومقدماته ، لأن هذه المعاني الروحية ، والقوى المعنوية إن تأصلت في الجيش المسلم المحارب جعلت من هذا الجيش قوة هائلة لا تعرف الضعف والخير ، وبصرف النظر عن القوى المادية الأمة الإسلامية المجاهدة ، فإن الله تعالى سيدها يمدد من السماء ، ويقذف في قلوب أعدائها الرعب ، وينصرها من حيث لم تحسب (٤) .

قال تعالى في كتابه العزيز :

" إن يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٣) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القس في الفتح القدسي ، ص ٢٦٠ .

(٤) عبد الله طهوان : صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٠٤ .

سألني في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب " (١) .

تلك كانت بعض الأمثلة على تقوى القائد والقدوة صلاح الدين الأيوبي ، أما عن تواضعه فيكاد المؤرخون الذين عاصروه وعاشروه يجمعون على أنه قد ضرب المثل الأعلى في التواضع ، وكان فيه القدوة الحسنة لأمة .

وعن ذلك يقول العماد الكاتب الأصفهاني :

" وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس السلطان ، بل يعتقد أنه جالس أخ من الإخوان . وكان حلما بقبلا للمعشرات ، متجاوزا عن المهفوات ، نقيًا تقيا ، وفيها صفيا ، يفيض ولا يغب ، ويهشمر ولا يتقطب - مارت سافلا ، ولا صد ناعلا ، ولا أخجل قاتلا ، ولا خيب آملا " (٢) .

ويقول ابن الأثير في الكامل من صفات التواضع في صلاح الدين :

" وكان رحمه الله كريما حلما حسن الأخلاق متواضعا صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلم بذلك ، ولا يتغير عليه ، ويلغنى أنه كان جالسا وعنده جماعة ، فرمى بعض المسالك بعضها بقشرة موز فأخطأته ، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ، ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنه " (٣) .

ويقول أيضا عن تواضعه في موضع آخر :

" وطلب - أي صلاح الدين - مرة الماء فلم يحضر ، وطأون الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر ، فقال : يا أصحابنا والله قد قتلني العطش ، فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التواني فسي إحضاره " (٤) .

(١) سورة الأنفال : آية ١٢ ، ١٣ .

(٢) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٦٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٢٥ .

(٤) المصدر السابق ج ٩ ، ص ٢٢٥ .

وهروى القاضى ابن شداد المزيد من الوقائع التى طعنها وشاهدها بنفسه ، أو التى حدثت وكان وهو طرفا فيها فيقول :
" لقد كانت طراحته (أى صلاح الدين) تداس عند التزاحم عليه لعرض القصر وهو لا يتأثر لذلك ، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب فى خدمته فرجمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم ، ولقد دخلت بين يديه فى يوم ربح مطير إلى القدس كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين فأهلك جميع ما كان عليه وهو يبتسم ، وأردت التأخير عنه بسبب ذلك فما تركنى ، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه ، والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ، ويلقى ذلك بالهشر والقبول " (١) .

٣ - صلاح الدين القدوة الحسنة فى البذل والعطاء :

بلغ صلاح الدين الأيوبي الذروة فى البذل والعطاء ، وكان القدوة الحسنة فى هذا المضمار للأمرء والقادرين ، وضرب لمن جاء بعده أروع الأمثلة فى الكرم والإحسان .
يقول القاضى ابن شداد فى ذلك :

" ولما كنا بظاهر حران عمّ بصدقاته الفقراء والساكنين ، وكتب إلى نوابه فى الولايات بإخراج الصدقات ، وقال لى أكتب إلى "الصفى بن القاهر" بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية ، فقلت إنما الذهب الذى عند مصرى فقال فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية ، وأشفق من صرف المصرى بالصورى فيكون حراما ، وهرتكب فى كسب الأجر آثاما فسمح ومنح ، وتاجر الله ورجح " (٢) .

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٨ .

لقد التزم صلاح الدين طوال حكمه بأخلاقيات الإسلام في الحكم : العدل في الرحمة والرفق بها والإحسان إليها بحيث اشتهر أمره بذلك فأشاع في الوطن الإسلامي كله روحاً جديدةً وأملاً جديداً ، جعلها تقبل عليه وتلتف حوله وتتأخذه معه ولا يوجد ما يرفع من معنويات المجاهدين مثل ثقتها فـسـى قائدها ، في أنها لن تجد منه سوى التقوى والتواضع والورع والرفق والرعاية والعيش بكرامة ، وهو في الوقت ذاته يجاهد بينها ، ويميز في وسط المعارك التي يخوضها .

إن الأمة الإسلامية — في ذلك الوقت وفي كل وقت — تتطلع إلى القائد الذي يضرب المثل ويقدم القدوة الحسنة لتسير وراءه ، لأنها في أسس الحاجة دائماً إلى ظهور حكم يقوم على أخلاقيات الإسلام ، ويكون القدوة الذي يقف على نقمى حكم الظلم والترفع والاستبداد .

يقول القاضي ابن شداد عن كرم صلاح الدين وهذا — وهطائه :

" وكرمه كان أظهر من أن يسطر ، رأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ، ولم يكن في الخزانة ما نعطيهم ، فباع قرية من بيت المال وخصصنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد ، وكان يعطي في وقت الضائقة كما يعطي في حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون منه شيئاً من المال حذر أن ينجأهم منهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجهم ، وسمعت يوماً يقول يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه " (١) .

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

قال العماد الكاتب الأصفهاني :

" وقال لي يوم الرحيل (أي الرحيل من حران) أنظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل ، وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم ، وفعل علي أقدارهم في القسم ، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة ، ولم تجد ميسرة ، فعينت لكل اسم قسما ، وضعت بهم خلقا مني ورعا . فبلغ أربعمائة دينار . ثم وقفت أفكر ، وأردت النظر إليه وأكرر . فسألني : " ما الذي عملت ، وهل قسمت المبلغ وكملت " ، فقلت : " جرى قلبي بقسمة أربعمائة دينار ، فهل أنقص من كل اسم ربعا ؟ " فقال : " أجز ما جرى به القلم ، وأحسن صنعا " (١) .

بهذه الأخلاق دخل صلاح الدين إلى كل قلب ، واعد ما بين الأمراء الآخرين ورحمتهم من طريق تقديم المثل الصالح والقذوة الحسنة والأمل المطلوب ، لذلك نجد أنه عندما بدأ تحركاته لتوحيد مصر والشام فإن ذلك لم يستغرق نسبيا شهرا يذكر من الجهد .

فلقد استطاع في فترة وجيزة أن يوجد ما بين سوريا الطبيعية (أي سوريا وفلسطين والأردن ولبنان) ومصر والحجاز واليمن ، كما استطاع أن يوحد المشرق العربي كله تحت الخلافة العباسية بعد أن ألغى الخلافة الفاطمية فسي مصر (٢) .

ولعل الدافع إلى هذا البذل والعطاء بدون حساب أنه كان يعتبر نفسه جنديا من جنود الإسلام ، مدعوا دائما

(١) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٦٥٨ .
(٢) د . أنيس قاسم : تأملات في الاحتلال الصليبي والصهيوني ص ١٢٥ .

إلى معارك يخوضها مع الأعداء ، فهو لا يدري هل يعود ؟
وإذا كان لا يعلم هل يعود ، فلماذا تبقى هذه الأسئلة ؟
ولم لا توزع على أهل الحاجة والاستحقاق ؟

وهناك أمر آخر هو أن هذا السلطان البطل لم يكن
من هؤلاء الذين تستهويهم زينة الدنيا ومباهجها ، وإنما
يكن يقعد في قصره ثم ينصب لقواده الرايات ، ويرسل البعث
وهو رافق بين خدمه وحشمه ، ولم يكن يصدر الأوامر وهو يتيه
في عظمة الملك وأبهة السلطان . وإنما كان فارساً مقداماً ،
وبطلاً شجاعاً ، قضى أكثر عمره على متن جواده ، وإذا أراد الراحة
تمدد فوق الرمال ، واستظل تحت الخيام لا ترقد عينه —
ولا تستريح نفسه . . . حتى يرى المسلمين في العزة يرفلون ،
وعلى ساهم الأجداد والوحدة والقوة يصعدون ، فهل يلام هذا
البطل بما ينفق من أموال ، وما يتصف به من بذل وسخاء ؟ (١) .

(١) عبد الله طوان : صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من
الصلبيين ص ١٦٦ .

ثانيا - الإصلاح العقدي :

١ - القضاء على الإلحاد ونسف قواعد الزندقة :

تبين مما ذكر عن صلاح الدين القدوة الحسنة في التقوى والتواضع والورع أن صلاح الدين عرف بالإيمان والتقوى والخشية من الله ، والثقة به ، والالتجاء إليه ، وأنه كان رحمه الله " حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته من الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهم بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل جارية على نسط الاستقامة " (١) .

ومن كان على هذه التربية الإيمانية ، والسلوك العقدي القيم فلا بد من أن يقوم بواجبه الأمثل والأكمل في إصلاح العقيدة ، وتقويم الأعوجاج ، وتبديد ظلمات الضلال ، والذود عن حياض الإسلام .

ومن هذا المفهوم الواعي ، والاعتقاد الراسخ انطلق صلاح الدين ليحطم أغلال الإلحاد ، وينسف قواعد الزندقة في بلاد المسلمين جمعا .

فكان إذا سمع عن رجل يدهو إلى مبادئ تتعارض مع عقيدة أهل السنة ولا تتوافق مع قواعد الشريعة الإسلامية يأمر بقتله فورا بعد أن يستفتى فيه جماعة الفقهاء والعلماء .

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٩ .

وفى هذا يقول القاضى ابن شداد :

" وكان كثير التعظيم لشعائر الدين ، قائلا يبعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والسقيم بالنار ، صدقنا بجميع ما وردت به الشرائع ، منشرحاً بذلك صدره ، منخفضاً للفلاسفة والمعطاة والدهرية ومن يعاند الشريعة المطهرة (١) .
لقد جاء صلاح الدين فوجد أشتاتاً من الزنادقة والرافضة والملاحدة وقد زودوا أنفسهم بسلاح من الفلسفة والمنطق ، ولم يكن أمام صلاح الدين إلا استعمال العنف أمام هؤلاء بمعد أن يستنفذ معهم كل وسائل الحكمة والموهبة الحسنة .

" ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهروردى (٢) قيل عنه أنه كان معانداً للشرائع مبطلاً ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من غيبته ، وعرف السلطان به ، فأمر بقتله وصلبه أياماً (٣) واليوم فى طائفة الإسلامى كم ترى فيه من (سهروردى) يريد شراً بالإسلام وأهله خاصة والبلاد الإسلامية منقسمة إلى أجزاء ، ومقطعة إلى أوصال ومنفصلة إلى دويلات ؟

لقد خرجت البلاد الإسلامية - بعد القضاء على الخلافة العثمانية وتتأمر الصليبية واليهودية والاستعمار - وهى أسوأ حالا ، وأكثر شتاتاً ، وأكبر انقساماً وتجزئة ، وأضعف قوة وسلطاناً .

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٢) هو شهاب أبو الفتوح يحيى بن حبيش بن أمرك ، ولقبه المؤيد بالملكوت ، ولد (سهرورد) إحدى قرى عراق العجم عام ٥٩٩ هـ . وقتل فى عام ٨٧٢ هـ بعد أن ثبتت عليه تهمة الألحاد والزندقة من واقع نظريته التى تعرف بنظرية الإشراف وهى نظرية يونانية قديمة ، وعليه فقد أفتى فقهاء حلب بقتله .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٩ .

إن حال البلاد الإسلامية مع اليهود اليوم وهم يحتلون
المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ،
أشبه ما تكون بحال المسلمين مع الصليبيين بالأمس . .
أليست الفرقة هي الفرقة ؟ أليس الاعتداء هو الاعتداء ؟
أليس الحق على الإسلام هو الحق على الإسلام ؟ ومــــ
ذلك فهناك فارق كبير بين السهرورديين بالأمس أمام
صلاح الدين والسهرورديين اليوم . السهرورديون بالأمس
وجدوا صلاح الدين لهم بالمرصاد ، فقتلهم وصلبهم وجعل
منهم عبرة لكل منحرف أو ملحد أو زنديق .

أما السهرورديون اليوم فلا صلاح الدين أمامهم يزيل
عن العالم الإسلامي شرهم ، بل على العكس من ذلك فقد
وجدوا جميع الطرق وقد مهدت تحت أقدامهم ، وكل الأبواب
وقد فتحت لاستقبالهم .

يمثل ذلك كله في وسائل الإعلام المختلفة التي ينفثون
من خلالها سمومهم الإلحادية ، وأحقادهم الصليبية والماسونية
على نطاق العالم الإسلامي إلا من عصم ربى .

إن السهرورديين اليوم من أمثال توفيق الحكيم ، ولويس
عوض ، وحسين فوزي وأفراخهم ينكرون على المسلمين اعتزازهم
بأسلافهم والإشادة بهم أمثال : خالد بن الوليد ، وسعد بن
أبي وقاص ، وطارق بن زياد ، وصقر قريش ، وصلاح الدين
الأيوبي ، والمظفر سيف الدين قطز ، والظاهر ركن الدين
بيبرس .

يقول الدكتور عبد الحلیم هويس :

" ومن هنا يبدو (لويس عوض) أكثر ما يكون بعدا عن
العلمية وأقرب ما يكون إلى الصليبية حين يقرع المصريين ويوبخهم

لأنهم - كما يقول :

" يعيشون في وهم أمجاد ماضية ويتقصون روح الأسلاف..
فيحدثون عن حطين ومرج دابق وعين جالوت ، ويعلمون أبناءهم
تاريخ طارق بن زياد وصقر قريش وصلاح الدين".

- وماذا إذن تكون مصر .. يالويس ؟

- وإذا ذهبت عين جالوت وحطين من تاريخ مصر.. فماذا
يبقى فيه من أمجاد عالمية ... ؟

- ويأتري هل تعلم مصر أبناءها تاريخ (بطرس الناسك) و
(جان دارك) و (نابليون بونابرت) بدلا من طارق وصلاح الدين ؟

- وهل تتكرم بريطانيا أو المشرون الذين نعرفهم جيدا ..
بالتخلي عن تمجيد "ريتشارد قلب الأسد" و "شارل مارتيل"
لمجدواهم - بدلا منا - عبدالرحمن الغافقي وصلاح الدين .. ؟
- أم أننا وحدنا يطلب منا نسخ شخصيتنا وبيع حضارة مصر
في مزاد علني ... ؟

- ويجمعها لمن ... ؟ لأعدائها الذين يستعمرون أرضها ، أو
يساعدون مستعمراتها بالمال والسلاح ... ؟ (١) .

وإذا جاز أن أضيف شيئا ، فهو أن خالد بن الوليد ،
وسعد بن أبي وقاص ، وصقر قريش ، وصلاح الدين الأيوبي ،
وقطز ، وبيبرس ، ما هم إلا جنود الإسلام وأبطاله ، من خلال
الإسلام نمجدهم ، ومن خلال الإسلام نعتز بهم .

إن هؤلاء السهرووردين يسعدهم كثيرا أن نحدث أبناءنا
عن سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين عام ١٠٩٩م / ١٠٩٩م ،
وكان عددهم لا يزيد آنذاك عن اثني عشر ألفا من المشاة والسف
وثلاثمائة فارس .

(١) د . عبدالحليم عويس: المسلمون في معركة البقا ، ط . دار الاعتصام بالقاهرة
عام ١٣٩٩ هـ .

ويتعسفهم كثيرا أن نحدث أبناءنا عن استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وكان عدد هم يزيد آنذاك عن ستين ألفا من المشاة . لم يدرك هؤلاء السهرورديون أن الاعتزاز بهؤلاء الأبطال ليس معناه الهروب من الحاضر إلى الماضي ، أو دفن الرؤوس في الرمال كما يدعون ، ولكن معناه الاعتراف بالجميل ، ومعناه الوفاء السدي لا يعرفه السهرورديون في حياتهم ، ومعناه أن هؤلاء الأبطال هم قذوتنا الصالحة التي سوف نقفدى بها إن شاء الله تعالى .

" والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (١) .

٢ - القضاء على غلاة الشيعة ودعاة الاسماعيلية :

كانت مصر قبيل ظهور صلاح الدين الأيوبي نهبا للشعوات الداخلية والمنازعات الطائفية فانتشرت المجاعات والأوبئة ، وعمت الخلافات من أجل الوزارة الفاطمية .

وعندما أصبح صلاح الدين الأيوبي وزيرا للعاصد الفاطمي في مصر إبان شبابه آلمه ما وجد عليه حال البلاد من المعتقدات الباطنية والمذاهب المنحرفة التي لا تمت إلى عقيدة أهل السنة والجماعة بصلة أو نسب .

وبتلخص مذهبهم الفاسد بما يلي :

" إن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تعود إلى اختيار الأمة ، بل هي ركن من أركان الدين لا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه إلى العامة ، بل يجب على الرسول قبل موته أن يعين الإمام للمسلمين ، وأن يكون هذا الإمام معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا عنه النبي صلى الله عليه وسلم للخلافة ،

وأن أبا بكر وعمر قد اغتصبا الخلافة منه ، ومنهم الغلاة الذين
قالوا بالوهمية هؤلا الأئمة إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات
الألوهية ، وإما أن الإله حل في ذواتهم البشرية .

ومن هؤلا من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى
غيره ، ويقول إنه حتى لم يمت إلا أنه غائب عن الأعين ، وأنه
يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا * (١) .

وتوثيقا لما تقدم وتأكيذا له أورد ما جاء بشأن ذلك في
الروايتين :

" بعد أن أظهر بنو عبيد للناس أنهم شرفاء فاطمسون
ملكوا البلاد وقهرروا العباد وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء
أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ، ولا نسبهم صحيحا ، بل المعروف
أنهم بنو عبيد ، وكان عبيد هذا من نسل القداح الطحيد
المجوسي ، وقيل كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلطنة
من بلاد الشام وكان حدادا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدا
فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمي ،
وادعى نسبا ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب
العلوية ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه وهو
ما قدنا ذكره ، ثم ترقى به الحال إلى أن ملك وتسمى
بالمهدي ، وبنى المهدي بالمغرب ونسبت إليه ، وكان -
زنديقا خبيثا عدوا للإسلام متظاهرا بالشيعة مستترا به حربيا
على إزالة الملة الإسلامية ، قتل من الفقهاء المحدثين والصالحين
جماعة كثيرة ، وكان قصده إهدامهم من الوجود ليبقى العالم
كالبهائم ، فيتمكن من إفساد عقائدهم وفلأنتهم ، والله متم نوره

(١) عبد الله علوان : علاج الدين الأيوبي ، ص ١٨٩ .

ولو كره الكافرون ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به
إذا أمكنتهم الفرقة والا أسرّه ، والدعاة لهم منبثون في البلاد
يفعلون من أمكنهم إضلاله من العباد ، وبقي هذا البلاء على
الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من الحجة سنة تسع
وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة ، وفي أيامهم
كثرت الرافضة واستحكمت أمرهم ، ووضعت المكوس على الناس
واقتردوا بهم غيرهم ، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال
الساكين بشغور الشام كالنصيرية والدرزية ، والحشيشية نوع منهم
وتمكن رعاتهم اضعف عقولهم وجهاهم ما لم يتمكنوا من غيرهم وأخذت
الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة . إلى أن من الله على
المسلمين بظهور البيت الأتابكي وتقدمه مثل صلاح الدين ،
فاستردوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد " (١) .

ويذكر ابن جبير أحوالهم في الشام أيام صلاح الدين فيقول :

" وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من
السنين بها ، وقد عموا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى :
منهم الرافضة ، وهم السبابون ، ومنهم الإمامية والزيدية ، وهم
يقولون بالتفصيل خاصة ، ومنهم الاسماعيلية ، والنصيرية وهم
كفرة فجرة يزعمون الألوهية لعلي رضي الله عنه ، تعالى الله
عن قولهم " (٢) .

لم يكن من الممكن بحال من الأحوال أن يواجه صلاح الدين
جحافل الصليبيين وينتصر عليها ، والأمة الإسلامية حالها
هكذا ينخر الفساد في جسدها حتى العظم . كان الرأي العام
الإسلامي مشتت القوى ، ممزق الأوصال ، لا يوحد الخطر المحدق
به ، ولا يجمعه الأمل المعقود عليه .

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ٢٠١ .

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٥٢ .

وليس هناك ما يدفع الخطر ، ويحقق الأمل أكثر من وحدة العقيدة في الأمة أولا وأخيرا ، وليس وحدة الصف كما يزعم البعض هذه الأيام ، لأن العقيدة هي الجوهر والأصل أما الصف فهو أمر ثانوي يتحقق بالضرورة بعد وحدة العقيدة ، فريش كلها وقفت صفا واحدا في قتالها ضد النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه ، لكن قريشا كانت صفا بلا عقيدة ، فماذا كانت النتيجة ؟

إنهارت قريش كلها أمام العقيدة ، وأصبحت حصيدا كأن لم تكن بالأسس . لذلك سارع صلاح الدين بعد أن أصبح وزيرا على مصر ، وبعد أن أصبحت البلاد كلها تحت سلطته بمحاربة هذا المذهب الباطل والقضاء عليه ، فجند كل قواء لإزالة معالم هذا المذهب من الوجود ، وإحلال عقيدة أهل السنة والجماعة محله باعتبارها عقيدة الإسلام الحق والقرآن المنزل .

ولقد تم لصالح الدين ما أراد في سرعة مذهلة ، ويرجع ذلك إلى العوامل التي صاحبت صلاح الدين وساعدته على تمكين العقيدة الإسلامية الخالصة في نفوس المصريين خاصة ، ومن أبرز تلك العوامل محبة المصريين لصلاح الدين وثقتهم به عقب انتصاره على الفرنج بعد غزوهم " دمياط " و " غزة " وبعد استيلائه على مدينة " العقبة " وهي مفتاح البحر الأحمر لطريق الحجاج المصريين وغير المصريين إلى مكة المكرمة .

٣ - إنشاء المكتبات والمدارس لتدريس الدين على مذهب أهل السنة والجماعة :

ذكرت عند التحدث عن إنشاء المدارس لنشر عقيدة الجهاد بين المسلمين في عهد صلاح الدين الأيوبي أن المدارس في عهده قد أنشئت لتقوم بعملين خطيرين :

أولها : تعليم الناس المذهب السنّي ، ومحاربة العقائد الفاطمية .
الثاني : إثارة التحمس الديني ضد الفرنج في الحروب الصليبية .
ولقد بينت كيف أن المدارس قد قامت بدور خطير فسي
إثارة التحمس الديني ضد الفرنج في الحروب الصليبية ، وقالت
وقتها بأن المدارس هي مزرعة العقول وحصادها . لذلك لم
يكن غريبا على صلاح الدين أن يعتبر في نظر التاريخ المؤسس
الحقيقي في مصر بوجه خاص .

وأضفت في حينه بأن بناء مدرسة كان من أهم الأعمال
التي يعمل لها سلاطين السلاجقة وأمرأؤهم ووزراؤهم —
وكانت تماما توازي عندهم بناء مسجد أو فتح مدينة أو بناء
قلعة .

واقد جاء صلاح الدين فوجد المذهب الشيعي قد بدل
عقيدة أهل السنة والجماعة ، وهي عقيدة الأمة الإسلامية ،
فشوّ عقولها ، ومزّق وحدتها وشتّت شملها .

لذلك تحرك صلاح الدين بسرعة وعلى جهات متعددة
لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل ابتلاء الأمة بالعبيديين ،
وبذلك يتوحد الرأي العام الإسلامي بتوحيد عقيدته أمام
جحافل الصليبيين .

وكانت المكتبات والمدارس في مقدمة تلك الجهات التي
عهاها صلاح الدين ليعيد للأمة عقيدتها . فكان ينشئ
المدارس أولا ليخوض بها معارك العقيدة داخل الأمة ، ثم
يذهب بعد ذلك ليخوض معارك الحرب المظفرة مع العدو
الصليبي .

جاء في الروضتين :

" قال العماد كان بمصر حيسر لشحن يعرف بدار
المعونة فأعادها صلاح الدين مدرسة لشافعية في أول سنة
ست وستين وخمسائة ، وعمل في النصف من المحرم دار الغزل
مدرسة المالكية ، وولى صدر الدين عبد الملك بن دواس القضاء
والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها ، وذلك في الثاني والعشرين
من جمادى الآخرة ، ثم خرج إلى الفزة ، وأغار على الرملة
وعسقلان ، وهجم ربض غزة ، ثم رجع إلى القاهرة (١) .
وبعد المعارك الحربية وفتح المدن والحصون والقلاع
يمود صلاح الدين أو بعض أهله ليفتحوا المدارس ثم يخوضوا
معارك العقيدة من جديد .

قال العماد :

" وفي النصف من شعبان - نفس السنة - اشترى
تقي الدين عمر بن شاهنشاه وهو ابن أخي صلاح الدين منازل
الغزل بمصر وجعلها مدرسة لشافعية ، واشترى الروضة
وحمام الذهب وغيرهما من الأملاك ووقفها عليها " (٢) .
ويقول الدكتور عبد الطيف حمزة :

" أتى صلاح الدين ، فعمل على القضاء نهائيا على
المذهب الفاطمي وعلى الدولة الفاطمية ليحل محلها المذهب
السني والدولة الأيوبية ، وسلك صلاح الدين في ذلك طريقا
شقي ، وسنرى أن العنف والقتل كان ضرورة سياسية إلى
جانب أنه ضرورة دينية . وسبب ذلك فيما يرى المؤرخون
والباحثون أن السياسة والدين كان كل منهما لا يتفعل عن

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ١٩١ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٩١ .

الآخر في تاريخ المسلمين في جميع العصور . ولكن إلى جانب هذا العنف الذي اتبعه صلاح الدين كانت ثم طريقة سلمية عظيمة الفائدة في محاربة المذهب الفاطمي . تلك هي طريقة التعليم ، ومن أجلها عني صلاح الدين بإنشاء المدارس التي لم يكن لمصر الإسلامية عهد بها قبل الحكم الأيوبي (١) .

وحتى ندرك بعض ما قامت به المدارس في عهد صلاح الدين من جهد في تدريس الدين على مذهب أهل السنة والجماعة ، كان لابد لنا من الوقوف على نوع المناهج التعليمية التي كانت تدرس بها آنذاك .

لقد أمر صلاح الدين بتنظيم العمل في شتى المدارس التي أنشأها على اختلاف تخصصها في أمور العلم أو الدين ، فكان القاضون بالتدريس فيها ينقسمون إلى فريقين :

الفريق الأول : هو فريق المدرسين ، وهم الأساتذة المتبحرون في العلم .

الفريق الثاني : هو فريق المعيدين ، وهؤلاء يقوم بإعادة ما يلقيه المدرسون على الطلاب حتى يرسخ في أذهانهم ، ولا يذهب عن أفهامهم .

ويتضح من مناهج المدارس التي أسسها صلاح الدين أنه كان يرمى إلى تعليم الناس المذهب السني ، وقطع أهر المعنقدات الفاطمية والمذاهب الباطنية (٢) .

وكانت المدارس في هذا العصر — وخاصة المدارس الكبرى في الحواضر الكبيرة — جامعات تدرس فيها العلوم

(١) ن . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكي الأول ص ٧٧ .

(٢) عبد الله علوان : صلاح الدين الأيوبي ص ١٧٩ .

المختلفة ، وتنقسم إلى أقسام حسب العلوم التي تدرس بها .
ويوكل بكل قسم أستاذ عالم من الأساتذة المشهورين ، فكان
هناك أستاذ للتفسير ، وأستاذ للحديث ، وأستاذ للفقه
وأستاذ للغة والأدب ، وأستاذ للتاريخ . الخ ، كما كان
يقسم الفقه إلى مذاهبه الأربعة ، ويكون لكل مذهب أستاذ
فأستاذ للمالكية ، وأستاذ للحنفية ، وأستاذ الشافعية ،
 وآخر للحنابلة .

وكان يلحق بالمدارس دور للكتب لإطلاع الطلاب ودرسهم
وكان للنظامية ببغداد دار كتب كبرى يقوم بالإشراف عليها
أحد العلماء الأفاضل ، وكذلك كانت حال مدارس الشام ومصر
والأندلس ، وكان نظام التعليم في المدارس الإسلامية وقتئذ يقوم
على مرحلتين : مرحلة التعليم الابتدائي ، وكان منهاجه فسي
جميع البلاد الإسلامية يقوم أساسا على كتابة الخط وقراءة
القرآن وتعلم النحو والصرف والشعر . والمرحلة الثانية
التعليم العالي ، وكان يقوم على تفسير القرآن ، وأصول اللغة
وفقهها ، والشعر وعلم القراءات والفقه بمذاهبه الأربعة والتاريخ
وعلم البلدان ، والحديث وعلومه (١) .

وكانت سوق الكتب رائجة في ذلك العهد ، وكان بمصر
سوق يقع في الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص ، وأسواق
أخرى . . تعد الكتب التي توضعها من أنفس الكتب ، وأقيم
الذخائر ، كما كان يوجد بدمشق سوق كبير المكتب يضم شتى
أنواع الكتب (٢) .

قال العماد في الروضتين :

" وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان ، وهـي
تباع بأرخص الأثمان ، وخرائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة

(١) د . محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) عبد الله عاوان : صلاح الدين الأيوبي ص ١٧٩ .

الرفوف م فهرسة بالمعروف " (١) .

من ذلك كاه يتبين بكل وضوح أن المكتبة العامة والخاصة قد شاركت كل منهما المدرسة في محاربة تلك المذاهب الباطلة حتى قضى عليها وتلاشت آثارها ، وحل محلها عقيدة أهل السنة والجماعة .

ومن كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضا في بعض السنين :

" كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين السواء مشروع ، وعلم الجهاد مرفوع . وسؤدد السواد متبوع ، وحكم السداد بين الأمة موضوع ، وسبب الفساد مقطوع ممنوع ، وقد توالى الفتوح عربا ويمنا وشاما ، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراما ، فأضحى الدين واحدا بعدما كان أديانا والخلافة اذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخشوا إلا عصا وعميانا ، والبدعة خاشعة ، والجمعة جامعة والمذلة في شيع الضلال شائعة ، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعة ، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا ، وكذبوا بالنار فعمجت لهم نار الحتوف ، ونشرت أقلام الطبا حروف رؤوسهم ونشرت الأقلام المحروف ، ومزقوا كل ممزق ، وأخذ منهم كل مخنوق ، وقطع دابرهم ، ووعظ آيهم غابرهم ، ورغمت أنوفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا ، وتمت كلماتك عدقا وعدلا " (٢) .

وعلى أثر قيام تلك الوحدة الإسلامية الشاملة ، استبشر العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتفاءل خيرا فسي

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٩٥ .

الوصول الى النصر المبين بعد إحلال الحق وإبطال الباطل ولم تثن فترة قصيرة حتى استطاعت الأمة الإسلامية بقيادته البطل صلاح الدين الأيوبي أن تزلزل العليين وتلحق بهم الهزيمة تلو الهزيمة ، فأدركوا - وهم الذين لم يتمودوا من المسلمين غير التقهقر والاندحار - أن نصرهم كان مؤقتا ، وأن أسبابه لم تكن ترجع في الحقيقة إليهم بقدر ما كانت ترجع إلى المسلمين أنفسهم ، وبزوال تلك الأسباب زالت الحواجز وانقض صلاح الدين على الدولة العليية في القدس ، فجعلها أثرا بعد عين في معركة حاسمة لها في الأجيال ذكرا ، وفي التاريخ دوى .

ثالثا - الاصلاح الاجتماعي :

١- القضاء على مظاهر الخلاعة والمجون في عهد الفاطميين ، وخاصة في المواسم والأعياد :

تولى صلاح الدين الأيوبي الأمر بحصر عام ٥٦٩ هـ ، وممن ثم بدأ تمهيد قاعدته فيها وتطهيرها من عناصر الفساد التي كانت تتمتع بحرية العمل والتخريب أيام الفاطميين .

وقد كان بالعواصم العربية كثير من الأماكن المشهورة باللهو والفساد ، ومنها بالقاهرة (بركة الفيل) وبدمشق (خان العقبة) بظاهر البلد .

رأى صلاح الدين كل ذلك ، ووجد أن الفاطميين قد أشاعوا الخلاعة والمجون بين المسلمين لكسب معد وهم عن سبيل الله ، ويشغلهم بأنفسهم ، فبصرفوا عن

الجادة ويبتعدوا عن الطريق المستقيم . فقام صلاح الدين
بقمع تلك الفواحش والمنكرات ، وإبطال مظاهر الخلاعة والمجون
أيام تقلده الوزارة في مصر ، حيث تفشت تلك المظاهر فـسـى
المجتمع المصرى خاصة فى المواسم والأعياد كعيد " النوروز " .

" إذ كانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة
فى يومه ، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ، ومعه جمع كثير
ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبته على بيوت الأكابر ، ويقنع
بالميسور من الهبات ، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر
اللولؤ حيث يشاهدهم الخليفة الفاطمى وبأيديهم الملاهى ،
وترتفع الأصوات ، وتشرب الخمر فى الطرقات ، ويتراش الناس
بالماء ، وبالماء والخمر ، وبالماء ممزوجا بالقادورات ، فإن غلط
مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ، ويستخف
بحرمته ، فإما فدى نفسه ، وإما ففج... " (١)

أبطل صلاح الدين تلك المظاهر الفاسدة ، والمنكرات
السافرة .. ومكن الناس من الحياة البريئة النظيفة ، وأعاد
أهم أخلاق الإسلام ، وآدابه السامية ، ولم يكن الطريق
أمام صلاح الدين فى هذا المجال سهلاً ميسراً ، بل ربما كان
أشق عليه وأصعب من مجال الجهاد بالسيف ، لأن جهاد
النفوس هو الجهاد الأكبر ، بينما الجهاد بالسيف هو الجهاد
الأصغر .

جاء صلاح الدين فوجد الفرق الدينية الغالة قد
استغلت الفقر وسوء الحال وجهل العامة ، فلعبت بعقول
الناس ، واجتذبتهم إلى بعض المبادئ الهدامة المخربة ،

(١) عبدالله علوان : صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٨٥ .

ما جعلها تنتشر في ذلك الوقت ، كدعوة الاسماعيلية التي أشرت إليها من قبل ، وكانت مبادئ هذه الفرق تزين للعامة التخريب في ثوب الدين ، وتدخل إلى نفوسهم عن طريق العاطفة الدينية وكان يلجأ بعضهم إلى شتى الحيل يتسلطون بها على الناس .

من ذلك ما يروى عن الحشيشية من أنهم كانوا يسقون أتباعهم الحشيش وينقلونهم إلى جنات وساتين وهم تتسرب منها الجداول حيث يقضون أوقاتا من اللهو والمجون بين الخمر والجوارى ، ثم يدخل أتباع الحشيشية في أوهام هائلة أن ما رأوا صورة مصغرة للجنة التي يهود بها الأتباع ، وعندما يفيقون يحنون أنفسهم بالعودة إلى ما كانوا فيه ، فيتسلط عليهم رؤساؤهم بأن يلقوا في روعهم أن العودة لا تتم إلا باتباع الأوامر ، فيصيرون العمدة في أيديهم يوجهونهم تحت هذا الوعد إلى ما يشاءون (١) .

وان الانسان لمعجب من نظام هذه الأعياد وكثرتها والإعداد لها ، فقد ذكر " المقرئى " منها ثمانية وعشرين عيدا في كل عام منها : عيد رأس السنة ، ويوم عاشورا ، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علي بن أبي طالب ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وغرة رمضان ، والجمعة الأخيرة منه وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد الغدير (٢) ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ، ويوم الميلاد ، وعيد النيروز ، وموسم وفاة النيل ... الخ (٣) .

وكان الخلفاء الفاطميون يشتركون بأنفسهم في جميع هذه الأعياد والمواسم على كثرتها ، فلما جاءت الدولة الأيوبية بمعقده أهل السنة

(١) د . محمد زغالول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، ص ٦٨ .
(٢) عيد الغدير فيه تزويج الأيما ، وفيه الكسوة وتفرقة الهبات لكبرا الدولة وحق الرقاب ، وتفرقة الذبائح .
(٣) د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ، ص ٥٧ ، ٥٨ نقلان : خطط المقرئى ج ٢ ، ص ٣٨٤ .

والجماعة أبطلت هذا الكم الهائل من الأعياد ، ولم تبقى منها إلا ما أمر به الشرع ، وهما : عيد الفطر ، وعيد الأضحي ، وهذا هو الجانب الأهم والرئيسي ، أما الجانب الآخر فهو أن الدولة الأيوبية لم يكن عندها من وفرة المال ما يمكن أن تنفقه في غسير الحرب التي فرضتها على نفسها ضد الصليبيين حتى تظهر المسلمين من رجسهم .

من ذلك يتضح أن الحياة الاجتماعية في عهد صلاح الدين كانت تتسم بطابع الجدية والجهاد وناهضة الفرنج وكافحمة العدو ، وكانت بعيدة كل البعد عن مظاهر الأبهة الفارسية ، والمظنة الكاذبة ، والبهذخ المفرط .

وكان رحمه الله يعطى لجنوده ورعيته القدوة الحسنة فحسى اللباس العادى ، والطعام الخشن ، والمجالسة المتواضعة ، ويقول العماد الكاتب الأصفهاني في وصف طبعه :

" كان لا يلبس إلا ما يحل لبسه ، وتطيب به نفسه • كالكتان والقطن والصوف ، وكسوته يخرجها في إسداء المعروف" (١) . رحم الله صلاح الدين ، لقد أدى الرسالة ، وبلغ الأمانة ، وحقق العزة لأمة الإسلام ، وأتم على البلاد الإسلامية نعممة الوحدة والقوة والسنعة ، وحرر عرض المسلمين وأرضهم من براثن الصليبية الحاقدة ، والاستعمار البغيض .

٢ - القضاء على بدع المواسم كبَدع يوم عاشوراء :

تؤكد الشريعة الإسلامية على أن المجاهد يجب عليه قبل أن يخوض معارك الجهاد ضد أعداء الإسلام ، والطامعين فسى النيل منه أن يحرر السنية من كل قتال لأجل المغنم أو السمعة أو الحمية أو الرياء ، حتى يكون جهاده خالصا لوجه الله ، وفسى سبيل مرضاته تحقيقا لقوله تعالى :

(١) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القسى في الفتح القدسى ، ص ٦٥٦ .

"الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا

يقاتلون في سبيل الطاغوت" (١) .

إنطلاقاً من هذه العقيدة ، وتحقيقاً لهذا الصدا جمع
صلاح الدين جموع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم
ولغاتهم تحت لواء الوحدة الإسلامية ليقفوا وقفة صاعدة أمام
الصلبية الحاقدة ، ولكي يتحقق ذلك على الوجه الأمثل بحيث
يصبح المسلمون جميعاً أبناءً فقيدة واحدة هي فقيدة أهل
السنة ، فقد واصل صلاح الدين جهاده ضد كل ما يشوب هذه
العقيدة ويبعدها عن جوهرها الذي نزل به القرآن الكريم ،
من ذلك جهاده ضد الهدع التي استحدثها الفاطميون
وجعلوا لها مواسم وأعياداً كل عام ومثال ذلك ، هدع يوم
عاشوراء الذي جعلوه يوم حزن وأسى ، ففي هذا اليوم كان
يكثّر النحيب ، ويرتفع البكاء ، وتتعطل الأعمال ، وتتوقف
الأسواق ، وترى الناس في هرج ومرج كأننا فقد كل واحد
منهم أحر الناس لديه ، وأحبهم إليه ، ويعمل فيه السقاط
المسمى (سقاط الحزن) ، وكان يصل الناس شئ كثير
منه ، ومع ذلك فقد عني ملوك بني أيوب بالأسطة السلطانية ،
التي كانت تمتد أول النهار وآخره ، وخاصة ما كان منها أيام
العديدين .

" وفي كل هذه الأسطة يؤكل ما عليها ويفرق نوات
ثم تسقى الأشربة المعمولة من السكر والأفاوية المطيبة بما ورد
المبردة ، وبلغ مصروف السقاط في كل يوم من أيام عيد الفطر
من كل سنة خمسين ألف درهم (٢) .

(١) النساء : آية ٧٦ .

(٢) د. عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ، ص ٥٩ ، ٦٠٠ نقل عن :

خطط المقرئى ، ج ٢ ص ٢١٠ ، ٢١١ .

ومع ذلك فام تكن عناية بنى أيوب بالأسطة والأعياد شيئاً
يقاس بعناية الفاطميين لها . ذلك لأن الأيوبيين كانوا يحتفلون
بالمناسبات الحربية أكثر من احتفالهم بأية مناسبة أخرى ، فكسان
أحدهم إذا رجع من غزوة له غدا الصليبيين منتصرا أمر بأن يحتفل
بذلك ، وأن تمد الأسطة فتنازل منه طبقات الشعب على اختلافها
وكان اليوم يوم فرح وسرور يعم الشعب ، ويحول فيه الشعر، وتوزع
فيه العطايا ، وتنتشر فيه الدراهم والدنانير على العامة .

وبذلك يشعر الرأى العام الاسلامى أنه فى حالة استنفار
دائم ، وأن انتصاراته على الصليبيين هى وحدها التى تستأهل
الحفاوة والتكريم ، وتستحق الفرح والسرور .
ويقول العماد الكاتب الأصفهاني :

" فلا جرم أذل له (أى لصالح الدين) الملوك الأئمة ،
ووهب لأطراف الدولة للتباهى بملكه الهبة . وملكه الأقاليم
والأنصار ، وأجرى بإقداره الأقدار ، فأزل عن مشارع الشريعة
الأكدار . وهطل البداة بحصر واليمن والشام ، وقع أهداء الإسلام (١).
هذا هو صلاح الدين الأيوبي . . القائد المسلم الذى أراد
أن ينتصر تحت راية التوحيد وحرر ، فانتصر وحرر ، جاهد نفسى
سهل الله لتكون كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ،
فكان له ما أراد حين ظفر بأهداء الإسلام والمسلمين ، وحرر أولى
القبليتين ، وسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن فى استطاعة صلاح الدين أن يحقق كل ذلك قبل أن
يحرر العقيدة الإسلامية من البدع والضلالات التى أدخلها الفاطميون

(١) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، ص :

المخلون ، وأن يبلغ بتعبثته الإعلامية الإسلامية الكاملة مداها .

وما أشبه الأس باليوم . . الأس حين جاءت جحافل الصليبيين تستهدف الإسلام والمسلمين .

واليوم حين جاءت جحافل الصهيونية تستهدف ما استهدفته الصليبية من قبل .

بالأسر كان صلاح الدين ، وكانت الأمة الإسلامية موحدة العقيدة والصف .

واليوم صلاح الدين غير موجود ، والأمة الإسلامية مزققة العقيدة والصف .

بالأس انتصر صلاح الدين وحرر حين جاهد الصليبيين من أجل الإسلام والمسلمين .

واليوم لم تنتصر ولم نحرر حين حاربنا الصهيونية باسم الوطنية تارة ، والقومية تارة أخرى ، والمبادئ الثورية مرة ، والمصرية العربية مرة ومرة .

وصدق الله العظيم حيث يقول في كتابه العزيز :

"إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى " (١) .

فلسطين لن تحرر اليوم ولن تحرر غدا إلا على أيدي المؤمنين الصادقين ، الراكعين الساجدين ، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، الذين لا يجاهدون إلا وهم أطهار متوضئون ، والذين لا يحول حائل بينهم وبين ما يريدون ، ولا تصد أمام عزيمتهم قوة حين يسمعون النداء : هي يا ربيع الجنة ، يا نصر الله اقرب ، يا رجال القرآن زينوا القرآن بالفعال .

٣ - القضاء على العديد من الضرائب التي فرضت على مصر والشام

وحجاج بيت الله الحرام :

كانت الدولة الفاطمية في عهد صلاح الدين تعيش في رفد من العيش ، وذلك لأن مواردها المالية كانت متعددة ، ومصادر الأرزاق فيها متنوعة ، ويمكن حصر هذه المصادر في الأمور التالية :

أ - كنوز الفاطميين الكثيرة التي وضع يده عليها بعد أن أصبحت مصر تحت سلطته .

ب - الجزية التي كانت تأتية من غير المسلمين .

ج - الفدية التي كانت تحصل من الأسرى .

د - الغنائم التي كان يحصل عليها أثناء الحروب .

هـ - الخراج الذي كان يؤخذ من أصحاب الأراضي التي فتحها صلحا .

إلى غير ذلك من هذه المصادر المشروعة ، ومنهاج الثروة المسنونة .

ولم يكن صلاح الدين من السلاطين الذين ينفقون الأموال في غير وجهها ، ويضعونها في غير موضعها ، وإنما كان ينفقها في سبيل الله ، وإقامة الحصون ، وتشجيع القلاع وإصلاح العمران ، وفي كل ما يعود على الدولة بالنفع العام والفائدة العظيمة (١) .

ومادامت هذه المصادر كافية وفائضة عن حاجة الدولة الإسلامية ولا تتجاوز ما فرضته الشريعة ، فلماذا المزيد من المال الحرام الذي لا يقره الدين الإسلامي الحنيف ؟

من أجل ذلك رأى صلاح الدين أن الكثير من المكوس التي فرضت على الناس باطلة شرعا ، وأن فرضها كان تدنيسا لمصادر المال في الدولة الإسلامية ، وظلما يجب رفعه عن كاهل المسلمين .

(١) عبد الله طوان : صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٨٠ .

١ - رفع المكوس عن مصر والقاهرة :

جا' في الروضتين أنه في يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة ٥٦٧ هـ قرى' على المنبر بالقاهرة عن السلطان الملك الناصر سجل بإسقاط المكوس بمصر جا' فيه ما يلى :

" أما بعد ، فإننا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض وحسنه عندنا من أراء' كل نافلة وفرض . ونصبنا له من إزالة النصب عن عباده ، واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده . وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل ، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقيير والفتيل ، وأولانا من شجاعة الساحة فيوما نهب ما اشتطت عليه الدواوين وهو ما نقطع ما سقاء النيل : فالهشائر في أيامنا تترى ، شفعا ووترا ، والسمار كنظام الجواهر تتبع الواحدة منها الأخرى والسامحات قد ملأت السامع والمطامع ، وأسخطت الخيمسة والصنایع ، وأرضت المنبر والجامع . ولما تقلدنا أمور الرعيمة رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة ، أولى ما نقلناه من أن تكون لنا في الدنيا الى أن تكون لنا في الآخرة ، وأن نتجرد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة . ونظهر منها مكاسبنا ونصون منها مطالبنا . ونكفي الرحمة ضرهم الذي يتوجه إليهم ، ونضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . ونعيد لها اليوم كأسس الذاهب ، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب ، ولا ظلم كاتب . فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى ، ورأينا فرصة أجرة لا تغض عليها بمائر الأبصار ولا يفضى . وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليها ، وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض

يهتجر . برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، سرا وجهرا . لا يحصل
ماشده ، ولا يحاول ما عنده . ولا يكشف ما ستره ، ولا
يسأل عما أورد ، وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه —
ولا يشرق بهريقه ، ولا يؤخذ منه طمعه ، ولا يستباح لسه
حره . فمن قرأه أو قرئ عليه من كافة ولاية الأمر من صاحب
سيف وقلم ، ومشارف أو ناظر ، فليمثل ما مثل من الأمس —
وليمضه على سر الدهر ، مرضيا لربه ، مضيا لما أمر به (١) .

يمثل هذه الأخلاق الإسلامية العالية والخوف من الله ،
يمثل هذه الأعمال الإنسانية العظيمة ، إستطاع صلاح الدين
أن يحتل تلك المكانة العالية في قلوب الملايين من البشر
وأن يخلد التاريخ للأجيال سيرته العطرة ، وأخلاقه النبيلة
وشجاعته النادرة ، ورويته المثالية ، وجهاده الدؤوب .

ثم يسألون بعد ذلك .. لماذا جاهد صلاح الدين
أعداءه ؟ وكيف انتصر وحده ؟

ب - رفع المكوس عن الشام :

لقد أثبت صلاح الدين عليها أن اتباع سياسة تقصير
على أخلاقيات الحكم في الإسلام ، وعلى الشريعة الفراء في
تحديد العلاقة بين الحاكم والرمية ، من الممكن أن تؤتى
ثمارها ، وأن تحقق في سنوات قليلة الجوالقادر على الجهاد
وتحمل التضحيات بدون حدود .

إن تلك الرطابة من جانب صلاح الدين لأ————
المسلمين جميعا تنبثق أصلا من إيمانه بأن المؤمنين إخوة
وبأن واجب الحاكم هو العدل في الرمية والرفق بهم ، ورفع

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ، ص ٢٠٥ .

الظلم عنهم ، وأشعارهم بأنه معهم يحاول إقامة العدل ، أو على الأقل رفع الظلم عنهم أينما كانوا ، وبأية وسيلة يقدر عليها .

لذلك بادر صلاح الدين برفع المكوس المخالفة للشرع في دمشق فور وصوله إليها قادمًا من مصر ليرفع الظلم عن سلع الشام كما رفعه عن سلع مصر والقاهرة من قبل .
ويقول العماد الكاتب :

” ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر - أي شهر ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ - ركبنا على خيرة اللسنة تعالى ، وعرض دون الدخول عدد من الرجال ، فدعستهم صاكرنا المنصورة وصدمتهم ، وعرفتهم كيف يكون اللقواء وطمتهم . ودخلنا البلد ، واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه ، قرية هيونا ، مستقرا سكون الرحمة وسكوننا ، وأذعنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النفوس ، وإزالة المكوس ، وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت ، والميسر المتعدية قد امتدت إلى أحوالهم وأجحفت ، فشرعنا فسي استئصال أمر الشرع برفعها ، وإعفاء الأمة منها بوضعها (١) .

ولا يوجد ما يرفع من معنويات الجماهير المقاتلة مثل ثقتها في حاكمها ، في أنها لن تجد منه سوى العدل والرفق والرحمة والعيش بكرامة في وطنها ، لا يستبد بها حاكم ، ولا يظلمها عون من أعوانه ، وهو في الوقت ذاته يقاتل بينها ، ويميش في وسط المعارك التي يخوضها .

(١) أبوشامة : الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٦ .

ج - رفع المكوس عن حجاج بيت الله الحرام :

إذا كان صلاح الدين قد رفع الظلم عن سلع مصر والشام ، وأزال عنهم عبء المكوس التي أثقلت كاهلهم ، فمسا لاشك فيه أن ضيوف الرحمن حجاج بيت الله الحرام أحق وأولى بالعدل والرفق والرعاية .

ولقد ذكرت عند الكلام عن " موسم الحج واستغلاله في الدعوة إلى الجهاد " بعضاً مما فعله صلاح الدين من أجل حجاج بيت الله الحرام لكي يرفع عنهم المعاناة والظلم لأن الأمر هنا أهم وأشمل من أمر مصر والشام ، إنه أمر يخص المسلمين جميعاً .

ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه :

" من البشائر التي لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها ، ولا عهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها انقطاع المكاسين عن جدة وعن بقية السواحل ويكفي أن تمام هذه المشقة موجب الاستطاعة مقيم بحجة الله في الحج ، فقد كانت الفتيا على سقوطه مع وجود الحامل ، وما أكثر ما أجرى الله للخلائق على يده - أي صلاح الدين - من الأرزاق التي تفصل عن الاستحقاق ، وما أولاء بأن يتوخي بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار ، والمحروم من قدر فيهما على خير فأضاع فرصته بترك الهدار " (١) .

وبالمقارنة بين كلام الفاضل هذا ، وكلام العماد في الروضتين ، والذي ذكرته عند الكلام عن " موسم الحج واستغلاله في الدعوة إلى الجهاد " قد يتوهم بأن الفاضل

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

اختص حجاج مصر برفع الكوس، في حين أن العمار قد أوضح في كلامه أن رفع الكوس قد عم المسلمين جميعا دون تفرقة بين مسلم وآخر .

وذلك يعنى أن صلاح الدين لم يكن بالحاكم الذى يفرق بين المسلمين فى شتى أقطارهم ، ما يدل على حسن طويته ، وحرصه على وحدة الأمة ، والتحذير من الظلم .

وما يؤكد رأى القائل بأن رفع الكوس من حجاج بيت الله الحرام قد شمل المسلمين جميعا بالإضافة إلى كلام العمار الكاتب الأصفهاني ما ذكره ابن جبير فى رحلته عن معاملة الحجاج فى الحجاز ، يقول ابن جبير :

" وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى ، وهم يعتقدون فى الحاج ما لا يعتقد فى أهل الذمة ، قد صبروهم من أعظم غلاتهم التى يستغلونها : ينتهبونهم انتهابا ، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا . فالحاج معهم لا يزال فى غرامة ومؤونة إلى أن يبسر الله رجوعه إلى وطنه ، ولولا ما تلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم فى أمر لا ينادى وليده (١) ولا يلبس شديده ، فإنه رفع ضرائب الكوس عن الحاج . وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلها إلى " مكثر " أمير مكة " (٢) .

(١) أى لا يهجر وليده إذا اختلس شيئا .

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٥٤ .

الفصل الثاني

• معركة حطين مفتاح القدس عسكريا واعلاميا •

أولا : تصور عام لمعركة حطين .

ثانيا : النتائج العسكرية والإعلامية لمعركة حطين على كلا الجانبين .

ثالثا : أثر معركة حطين في استرداد بيت المقدس من أيدي
الصلبيين .

أولا : تصور عام لمعركة حطين :

جاءت معركة حطين في وقتها ، وكان جميع الظروف والملابسات على كل من الجانب الإسلامي والجانب الصليبي قد اشتكرت بكل قواها . في حبك فصولها ، ووضع النهاية الخالدة العظيمة لتلك الفصول .

من ذلك أن صلاح الدين قد توصل إلى اقتناع موضوعي بأنه يجب القضاء على الاحتلال الصليبي وتحرير بيت المقدس وبقية ما هو محتل من ديار الشام .

وأدرك صلاح الدين أن تحقيق ذلك سيكون متعسرا إذا قامت به مصر بفردا ، وأيقن أن خطة نور الدين لتوحيد مصر والشام هي الخطة الحكيمة لحشد القوة والامكانات التي تكون قادرة على شن الحرب الشاملة المرتقبة .

ولكن كيف يمكن توحيد هؤلاء العشرات من الأمراء المتحاربين المتناحرين ؟

كان الحال في غاية السوء عندما جاء صلاح الدين إلى الحكم ، وكانت تتنازع النفوذ في المشرق الإسلامي خلافتان : الخلافة الفاطمية ومقرها القاهرة ، والخلافة العباسية ومقرها بغداد .

وفي هذه الأجواء المظلمة ظهر صلاح الدين الأيوبي ، وكان شديد الإخلاص لدينه ولأمنته الإسلامية ، وتدل أفعاله وسياسته أنه أدرك نقطة الضعف الخطيرة في وضع الأمة الإسلامية ؛ هذه النقطة هي التجزئة من جهة ، وسوء الحكم القائم على الفساد والاستغلال والظلم من جهة أخرى . وأدرك صلاح الدين أن هدفه الأكبر وهو طرد الفرنجة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا استطاع أولا التخلص من هذين المرضين الخبيثين : التجزئة والظلم . (١)

(١) د . أنيس قاسم : تأملات في الاحتلالين الصليبي والصهيوني (المرجع السابق) ص ١٢١ .

وقد ألزم صلاح الدين نفسه طوال حكمه بالعدل في الرعية والرفق بها . لذلك التفت الأمة كلها حوله تناضل معه حتى تم لها النصر على يديه ، لقد وثقت فيه بعد أن وجدت منه العدل والرفق والرهابة والعيش بكرامة وعزة فوق أرضها ، ولهذا امتدت دولته حتى شملت مصر والسودان واليمن والحجاز وسوريا ومنطقة الجزيرة وأجزاء من العراق .

فالأمة الإسلامية كانت تتطلع إلى القائد الذي يهذب المشعل ، ويقدم القدوة الحسنة لتسير وراءه .

ولم يكن صلاح الدين بالقائد الذي يكتفى برفع الشعارات والهادي دون أن يبدأ أولاً بتنفيذها عطيا في نفسه ومن حوله بكل قوة وحسزم ، ثم بعد ذلك على رعيته في عدل ورفق وأناة .

لذلك وضعت الأمة الإسلامية ثقتها فيه ، وسرعان ما استجابت له حينما أرسل إلى قادته وأمرائه في جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد ، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة ومصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهيز له قدر المستطاع .

وفي الوقت الذي أتم فيه صلاح الدين استعداداته للمعركة الفاصلة الكبرى بينه وبين الصليبيين ، كانت أحوال الصليبيين الداخلية تزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

ففي ملكة بيت المقدس تفاقم مرض الطك " بلدوين الرابع " وأخذ يتشكك في كل من حوله (١) .

وكان سبب هذا التشكك هو موضوع وراثة العرش الذي أشير أكثر من مرة ، وعندما ساءت صحة " بلدوين الرابع " وعجز عن تصريف أمور المملكة ازداد نفوذ أمه الملكة الوالدة " آجني دي كورتناي " وخاله " جوساسين الثالث دي كورتناي " .

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية * ، ج ٢ ، ص ٧٣٨ .

وهكذا تدهورت أحوال ملكة بيت المقدس تدهورا سريعا ، ما مهد
للكارثة التي حلت بها على يد صلاح الدين .

أما إمارة أنطاكية فلم تكن أحوالها عندئذ أقل اضطرابا ، بسبب
استسلام أميرها "بوهيمند الثالث" لشهواته وأهوائه ، ما جعل
الكنيسة توقع عليه قرار الحرمان بتهمة الزواج من امرأتين أو ثلاث . وقد
أدى ذلك إلى ثورة "بوهيمند" ضد الكنيسة ورجالها ، فحدث انشقاق
خطير في أنطاكية تطور إلى حرب أهلية ، ما أضعف مركز الصليبيين في
شمال الشام ، في الوقت الذي أخذ صلاح الدين ينتقل من نصر إلى نصر ،
سواء في توحيد جبهة المسلمين أو في تظلم أظافر الصليبيين (١) .

وإذا كانت تلك الظروف السيئة ، والأوضاع المتدهورة التي عمت
الجبهة الصليبية من أهم الأسباب التي أدت فيما بعد إلى نشوب
معركة حطين الفاصلة ، إلا أن معظم المؤرخين اعتبروا "رينالد
دوشاتيون" الذي تذكره المصادر العربية باسم "أرناط" هو السبب
المباشر لمعركة حطين .

"أرناط" وصلاح الدين :

كان "أرناط" هذا من أدهى الفرنج وأخبثهم وأشدّهم عداوة
للمسلمين وإضرارا بهم ، وليس أدل على ذلك ما حدث في سنة ٥٢٨ هـ /
١١٨٢ م حين أقدم "أرناط" على مشروع خطير استهدف به تحقيق
سيادة الفرنجة على البحر الأحمر ، وطعن الإسلام في قلبه بغزو الحرمين
الشريفين .

ولكن "أرناط" نسي أن وضع المسلمين قد تغير ، وأنهم أصبحوا
قوة ترهب عدو الله وعدوهم ، وأن جبهتهم أصبحت تمتد من حلب إلى
القاهرة ، وفي هذه الحالة أصبح لزاما على الصليبيين أن يكرسوا
جهودهم في حراسة حدودهم الطويلة جنوبا من ناحية مصر ، وشرقا من

(١) المرجع السابق : ص ٢٣٩ .

حدود إمارة أنطاكية شمالا حتى الأردن والكرك جنوبها .

ونسى "أرناط" هذا أن وضع الصليبيين أيضا قد تغير ، وأنهم تحولوا من قوة وتماسك إلى ضعف وانحلال ، وانقلبوا من مهاجمين إلى مدافعين .

نسى "أرناط" ذلك لحكمة بالغة أرادها الله سبحانه وتعالى . وكان أن بدأ "أرناط" مؤامراته في الأراضي الحجازية والاستيلاء على الحرمين الشريفين ، وعلى النحوى الذى سبق ذكره حيث انتهت تلك الحملة الفادرة إلى هزيمة "أرناط" وأهله فيها ، وأورد أبو شامة من كتاب القاضى الفاضل الذى جاء فيه :

" فأخذت مراكب العدو وبرمتها ، وقتلت أكثر مقاتلتها . إلا من تعلق بهزيمة وما كاد ، أودخل في شعب وما طاد ، فإن العربسان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحصارهم . فلم ينج منهم إلا من ينهى من المعاودة ، ومن قد ظم أن أمر الساعة واحدة . وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتصادت في الساحل الحجازى إلى "رايح" سواحل الحوارة فأخذت تجارا وأخافت رفاقا ، ودلها على غوارب البلاد من الأرباب من هو أشد كفرا ونفاقا . وهناك وقع طيها أصحابنا ، وأخذت المراكب بأسرها ، وفر فرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلخوا في الجبال مهاوى المبالك ومعاطن المعاطب . وركب أصحابنا وراهم خيل العرب يشلونهم شلا ، ويقتنصونهم أسرا وقتلا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا ، نهارا وليلا ، حتى لم يتركوا منهم خيرا ، ولم يبقوا لهم أثر ، وسبق الذين كفروا إلى جهنم زرا ، وقيد منهم مائة وسبعون أسيرا (١) . وليس هناك من يشير إلى رأى العام ويحركه ، ويهون الصعب أمامه ويجعله يهذل كل غال ونفيس في سبيل الدفاع عنه حتى الموت مثل النيشل من عقائده وشرائعه ، لذلك رأى المسلمون في تهديد الحرمين نذيرا بقيام الساعة ، وعلا على غضب الله لفناء بيته المحرم ، فلم يسكتوا حتى

بعد أن فشلت تلك الحملة ، هل اخذوا يستعدون للمعركة الفاصلة ، وكانت "حطين".

أما "أرناط" نفسه فقد أقسم صلاح الدين ، على ألا يفسر فعلته هذه ، " ونذر السلطان دمه ، ووفى في إراقة دمه بما التزمه (١). لم يفعل صلاح الدين ذلك لعداء شخصي بينه وبين "أرناط" ، فصلاح الدين من الذين لا يحبون إلا في الله ، ولا يهضمون إلا في الله والعداء الذي كان بين صلاح الدين و "أرناط" كان عداء السلم الذي يرى حرما دينه وهي تنتهك وتستباح .

أقول ذلك ردا على ما جاء في كتاب " الحركة الصليبية " للدكتور سعيد عبدالفتاح طاشور ، حيث يقول :

" وإذا كانت هناك نتيجة لتلك المحاولة - أي محاولة العداء على الحرمين الشريفين - فإن هذه النتيجة هي إثارة العداء الشخصي بين صلاح الدين و "أرناط" .

ان مثل هذا القول مردود جملة وتفصيلا ، ذلك لأن العداء الذي كان بين صلاح الدين ، وبين "أرناط" لم يكن عداء شخصيا ، لأنه لو كان كذلك لما عرض صلاح الدين الإسلام أولا على عدو الله "أرناط" قبل أن يبر صلاح الدين بنفسه ويقتص منه ، طه يحصم بذلك دمه ، لكن عدو الله لم يقبل الإسلام دينا فكان القصاص والبر بالقسم .

وقد جاء في الروضتين :

" واستحضر البرنس "أرناط" وأوقفه على ما قال ، وقال لها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل (١) . وكان "أرناط" هذا نفسه قد طلب الأمان من صلاح الدين عقب إفارته الفاشلة في البحر الأحمر . ووفقا للهدنة المعقودة بين صلاح الدين من جهة والصليبيين و "أرناط" من جهة أخرى ،

أخذت القوافل الإسلامية - سواء للحج أو للتجارة - تهرب صرعا
الأردن ، ولكن اللص الفادر كان لا يستطيع الحياة دون أن ينهب
ويسرق ، فانقض فجأة على قافلة "ثقيلة معها نعم جليلة" للمسلمين
متجهة من القاهرة إلى دمشق عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٢ م. ويبدو أن
ما كانت تحمله تلك القافلة بالذات من نفائس وثروة طائلة أسـال
لعاب " الفارس اللص " وجعله لا يبالغ بالعهود والمواثيق " (١) .
هل لقد بلغ من حقه على الإسلام والمسلمين ، وحرصه على استفسـاز
صلاح الدين والمسلمين ، أنه رد على صلاح الدين قائلا : " قولوا
لمحمد يخلصكم " .

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين الا القصاص والحرب ، وهي
الحرب التي جاءت قاضية على الصليبيين وآمالهم في البقاء بالشام ،
بعد أن اختار " أرناط " أسوأ الأوقات والظروف بالنسبة
الصليبيين لاستشارة صلاح الدين .

وفي هذه السنة (٥٨٣ هـ) كتب صلاح الدين إلى جميع
البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة
واربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم
إلى الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهـز له بغاية الإمكان (٢) .
وبعد أن جمع صلاح الدين الجموع ، ونظم الجيوش ، فقد
مجلس شورا للتشاور في منازلة العدو ، وتوقيت المعركة ،
فاتفقوا على الخروج في ١٧ ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ ، بعد

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص :

٥٧٦٧

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٧٥ .

صلاة الجمعة بين تكبير المسلمين وابتهاالهم ، وتضرعهم بالدعاء (١) .
 " ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الإسلام عليهم ، وسير ذلك الجيش
 إليهم ، ظموا أنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله ، وأن الإيمان كله قد
 برز إلى الشوك كله " (٢) . ومن هنا بدأ الجيش الصليبي زحفه فسي
 ظروف بالغة السوء ما بين حرارة الجو وقلة الماء ، وصعوبة الطريق الذي
 بلغ طوله ستة عشر ميلا (٣) .

(١) والجدير بالذكر أن المسلمين اليوم في حاجة ماسة إلى أن يقفوا على جوهر
 هذه الحقيقة ، وهي أن الإعداد للمعركة والوصول إلى النصر لا يتوقف على
 الدعاء ، والابتهاال فحسب ، أو لكوننا مسلمين فقط ، بل إن الإعداد
 للمعركة والنصر يكون بإعداد القوة المادية ، ثم منازلة العدو في الميدان
 حيث حر المعركة ونارها ، وهنا يكون الابتهاال والدعاء واللجوء إلى الله
 في إنجاز النصر ، وهذا ما صنعه البطل صلاح الدين ، وما فعله الخلفاء
 الراشدون من قبله ، وقد تأسوا جميعا بمواقف النبي صلى الله عليه وسلم
 في بدر وأحد والأحزاب وحنين ، حين كان يدعو وهو في قلب المعركة ،
 مع العدو : " اللهم نصرك الذي وعدت ، اللهم إن تهلك هذه العصابة
 من أهل الإسلام فليتباعدنني من الأرض " مع الأخذ بالأسباب المادية .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

(٣) د . سعيد عبدالفتاح طاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ نقلا عن :
 "كنج" .

ومن الغريب أن المتتبع لمعظم المؤرخين النصارى الذين تناولوا
 تلك المعركة الإسلامية الفاصلة يلاحظ أن هؤلاء المؤرخين يركزون بوجه خاص
 على أن عوامل الطبيعة كانت لها الأثر الفعال في هزيمة الصليبيين وانتصار
 المسلمين عليهم ، وواضح أن هؤلاء المؤرخين قد تعدوا غض الطرف عن
 الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ما حدث والتي تتلخص في انهيار الروح المعنوية
 عند الصليبيين ، وانطفاء شعلة الإيمان في قلوبهم ، في الوقت الذي كان
 فيه المسلمون بقيادة صلاح الدين يتمتعون بروح معنوية عالية وإيمان بالله
 لا يتزعزع ، ومن ثم جاءهم النصر من عند الله بسبب ذلك لا بسبب الأحوال
 الطبيعية المواتية لهم .

لقد نسي هؤلاء المؤرخون أو تناسوا - حين يرجعون ما حدث
 للصليبيين في حطين إلى سوء الأحوال الطبيعية - أن تلك الأحوال السيئة
 لن تبلغ في تدهورها درجة الأحوال الطبيعية التي عانى منها الصليبيون
 عند بدء زحفهم على العالم الإسلامي الذي لم يلبث أن انهار أمام روحهم =

أيقن الصليبيون بعد أن رأوا ما رأوه من استعداد صلاح الدين أن خطته أوسع مما كانوا يتصورون ، فاجتمعت كلمة رؤسائهم ، وحشدوا جموعهم ، وتوجهوا إلى طبرية وتقابل الفريقان في مكان اسمه (حطين) .

لم يلبث البطل صلاح الدين أن بدأ هجومه العنيف على الجيوش الصليبية ففرق فرسانهم عن مشاتهم ، وتقهرت قلوبهم إلى تلال حطين من شدة ما لاقوا من الهول والشدة والعطش الشديد ، والروح المعنوية المنهارة ، وبعد معارك ضارية بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين انتصارا حاسما ، وانهزم الصليبيون هزيمة منكرة حولتهم جميعا ما بين قتل وأسير ، وبلغ عدد قتلهم عشرة آلاف ، وأسرى ملك بيت المقدس و " أرناط " وقد شرارة هذه الحرب .

" وتمت هذه النصر يوم السبت ، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد ، وكانوا أسودا فعادوا من النقد (١) ، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد ، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد ، واقتل الأسرى والقتلى ، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذى تجلى " (٢) .

وبعد ذلك النصر الحين ، انصرف صلاح الدين من حطين ، فسي حين سيق الأسرى إلى دمشق حيث حبس الأمراء بهيعة طاعة الفرسان والجنود في أسواق الرقيق . وقد بلغ من كثرة الأسرى أن الأسير كان يباع في دمشق بثلاثة دنانير " واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والأموال والغنائم بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك ، وما سلم من عسكر الفرنج سوى قص طرابلس مع أربعة نفر وهو مجروح ثلاث جراحات ، وأخذ جميع أمراء الفرنج ، وكما قد سبي من النساء والأطفال . يباع الرجل وزوجته وأولاده في السناداة بهيعة واحدة ، ولقد بيع بحضورى رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا (٣) .

المعنوية العالية وإيمانهم العميق بما أقدموا عليه ، حدث ذلك بينما كان العالم الإسلامى على النقيض تماما من هؤلاء الغزاة على النحو الذى بيناه فى الفصول السابقة .

(١) النقد : جنس من الخنم صغير الأرجل ، أو بمعنى سفل الناس ، والمعنى الأول هو المقصود بالأسود .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٣) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٨١ .

ثانيا : النتائج العسكرية والإعلامية لمعركة حطين على كلا الجانبين :

كانت معركة حطين أعظم من مجرد معركة حربية انتصر فيها فريق على فريق ، لقد كانت معركة حطين بالنسبة للمسلمين بشيرا بنجاحهم في القضاء على أكبر حركة صليبية عنصرية شهدها العالم في العصور الوسطى .

ومن ناحية أخرى ، فإن حطين كانت أفدح من مجرد كارثة حربية حلت بالصليبيين ، لأنه لم ينتج عنها أسر " جاى لوزجنان " ملك بيت المقدس وضياح هيبية ملكته وسلطتها الفعلية إلى الأبد ، فحسب ، وانما نتج عنها أيضا نقص ملموس في الفرسان المحاربين بعد أن سقطت زهرة فرسان الصليبيين ، وقالبية جيش ملكة بيت المقدس بين قتلى وأسرى في حطين (١) .

" فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن طين الأسرى قال : ما هناك قتيل ، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل . فإله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ما عجز عنه الملوك وهداة من التوفيق لا مثقال أمره ومن إقامة فرضه للنهج السلوك ، ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك ، وخصه بهذا اليوم الأفر ، والنصر الأبر ، واليمن الأسر والنجح الأدر . ولولم يكن لــــه إلا فضيلة هذا اليوم ، لكان متفردا على الملوك السالفة فكيف ملوك العصر في السمو والسموم " (٢) .

ان هزيمة الصليبيين في حطين كانت هزيمة ساحقة من الناحية العسكرية ، لأن تلك المعركة كان لها ما بعدها على الساحة العسكرية . ثم انها كانت أكثر من درس عسكري لأولئك الذين يريدون الاستفادة من

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

المعارك الإسلامية الخالدة . ويمكن الخروج من معركة حطين بالدروس العسكرية التالية :

١ - مباغطة العدو من حيث لا يتوقع :

كان يتوقع العدو أن يتجه صلاح الدين بقواته بعد انتصاره في حطين ليفتح بيت المقدس مباشرة نظرا لأهميته المقدسة بالنسبة للمسلمين ، وأهميته المصيرية بالنسبة للصليبيين ، لكن صلاح الدين خيب ظن الصليبيين ، وبدلا من أن يتجه إلى بيت المقدس كما يتوقع العدو وليستولى عليه استيلاء آسنا سهلا ، إذ به يتجه صوب عكا أولا ، ويدل ذلك على مظاهر العبقرية الحربية عند صلاح الدين وبعد نظره .

٢ - حرمان العدو من قواعده التي تربطه بالعالم الخارجي :

بعد انتصار صلاح الدين في معركة حطين حرص على أن يحرم العدو والصليبي من قواعده البحرية التي تربطه بالعالم الخارجي ، وخاصة الغرب الأوربي . وذلك أصبح الصليبيون محصورين داخل بلاد الشام ، وبعد ذلك تتساقط في يده المعاقل والمدن الصليبية في الداخل بعد أن ينقطع الشريان الذي يربطها بقلب الحركة الصليبية ، وهو الغرب الأوربي . هذا فضلا عن أن استيلاء صلاح الدين على عكا وغيرها من موانئ الشام الصليبية سيمنحه من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطرى دولته في مصر والشام (١) .

٣ - حرمان العدو من الموارد المعاشية :

لم يتوقف ذلك على حرمان العدو من المياه في يوم حطين فحسب ، وإنما يظهر أيضا من خلال تطبيق (سياسة الأرض المحروقة حسب التعبيرات الحديثة) فقد عمل صلاح الدين

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٢ نقلا عن : " ستغنون " .

على إرسال الاغارات لإحراق الأقاليم وتدميرها واستنزاف قدرتها
الاقتصادية ومواردها المعاشية (١) .

٤ - فرض مكان المعركة وزمانها على العدو:

كان صلاح الدين يتوق إلى الاشتباك مع الصليبيين فسمى
معركة فاصلة يختار هو مكانها وزمانها ثم يفرضها على العدو ،
وبالفعل استطاع صلاح الدين أن يفعل ذلك في معركة
حطين حين استهدف من مهاجمة " طبرية " أن يدفع الصليبيين
إلى ترك مراكزهم عند (صفورية) والزحف إليه في اتجاهه .
ويقول أبو شامة في ذلك :

" فلما رأى السلطان أنهم لا يبرحون ، ومن قسرب
(صفورية) لا ينزحون ، أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم ،
ويديعوا على عزم مقاتلتهم ، ونزل هو في خواصه العسقة طسى
مدينة " طبرية " ، وعلم أنهم إذا طموا بنزوله عليها بادروا للوصول
إليها ، فحينئذ يتمكن من قتالهم وجهد في استئصالهم " (٢) .
ولقد تحقق لصلاح الدين ما استهدفه ، إذ ثارت ثائرة
الصليبيين لهجوم صلاح الدين على طبرية وقرروا الزحف عليها .
وفي الوقت الذي كان الصليبيون يتحملون فيه كل هذه
المشاق في زحفهم ، إذا بصلاح الدين ورجاله ينتظرون قسرب
" طبرية " منعمين بالماء الوفير والظل العديد ، مكتنزين قواهم
لساعة الفصل . لذلك لا عجب إذا أظهر صلاح الدين سروره
وارتياحه عندما علم بزحف الصليبيين إليه وقال : " جئنا ما نريد ،
ونحن أولو بأس شديد " (٣) .

(١) بسام العسلى : الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ، ص ١١١ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

(٣) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٧٦ .

وكان كل ما فعله صلاح الدين عندما تأكد من تحرك الصليبيين
صحة هو أنه تقدم نحو خمسة أميال حيث رابط فرهي طبرية
ضد قرية حطين غنية الرعي وفيرة الماء .

• - الاهتمام بتأمين القوات بمتطلباتها :

يظهر ذلك بوضوح من احتفاظ صلاح الدين بالمواقع السني
تضمن مثل هذا التأمين للقوات المحاربة حتى لا تحرم من الموارد
المعاشية أو الإمداد العسكري أو الاتصال بالقوات الموجودة
في الأقاليم حتى يتسنى لها التدخل في الوقت المناسب إذا ما تطلب
الأمر استدعائها .

٦ - استخدام أسلوب الحرب التشتيية :

وضمن هذا الإطار ذاته - إطار أسلوب الهجوم قصير
المباشر - أخذت طرائق المعطيات شكل أسلوب الحرب التشتيية
ويظهر ذلك في كل معارك صلاح الدين ، وحدث في حطين -
التي نحن بصدد ها على سبيل المثال - أن وجه صلاح الدين
قوة للإفارة على عكا ، وقام هو بقيادة قوة من الفرسان للهجوم على
طبرية وأثناء المعركة ذاتها استخدم صلاح الدين قوة المشاة
لفصل فرسان الفرنج عن مشاتهم . وبعد معركة حطين وجبهه
صلاح الدين مجموعات مقاتلة للإفارة على عدد من المواقع . بينما
قاد هو كتلة القوات الرئيسية للاستيلاء على المدن الساحلية . وكان
صلاح الدين ، يحرص على استخدام النزاعات السياسية بين
قادة الفرنج كوسيلة أيضا تماعده على تطوير أساليب الحروب
التشتيية (١) .

(١) بهام العسلى : صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

٧ - الإعداد الكامل والاهتمام البالغ بقضية الجهاد والتحرير :

كان اهتمام صلاح الدين بالاستعداد الحربي اهتماما بالغا ، وكانت تعبئته لأسباب القوة المادية لا تقل عن تعبئته لأسباب القوة الإعلامية الإسلامية الروحية ، فمن ضروب هذا الاستعداد العسكري انشاء ديوانا للجيش ، وكان لصاحب هذا الديوان اختصاصات واسعة ، من ذلك انتقاله أثناء المعركة من صف إلى صف للتأكد من سلامة الخيل وصلاحية السلاح وعدد الجنود .

كما اهتم بصناعة الأسلحة ، وبناء السفن ، وعمل الفرقعات وتركيب الألفام والمجانيق ، وما إليها من أدوات القتال (١) . وقد عني صلاح الدين بالأسطول ، فأنشأ له ديوانا خاصا ، يختص بموارده ، وطرق صرفها ، وإدارة شئون الأسطول وأطلق على رئيس الأسطول " أمير البحر " أو " أمير الماء " .

.....

وإذا كان المؤرخون قد أجمعوا على أن معركة حطين قد قلبت موازين القوى العسكرية رأسا على عقب ، وأنها جعلت الفرنج يسيرون نهايتهم بأمنهم قبل كسرة حطين وفي أثناءها ، وبعد أن حلت الكارثة بهم . فإن حطين كان تأثيرها الإعلامي على كلا الجانبين عظيما .

فعلى الجانب الإسلامي كانت معركة حطين وعدا من اللـه لأوامه ، وقد صدق الله وعده للمؤمنين الصادقين ، حيث رأوا بأمنهم نصر الله قبل " حطين " وفي أثناءها ، وبعد أن تم الله نصره على المؤمنين .

أما على الجانب الصليبي فقد وقعت حطين عليهم وقوع الصاعقة حيث قضت - وإلى الأبد - على آمالهم ، ونزلت بنفوسهم إلى السدرك الأسفل من الحضيض ومزقتهم شر مزق .

(١) عبد الله طوان : صلاح الدين الأيوبي ، ص ١١٠ .

كان نبأ الهزيمة على الجانب الصليبي أكثر من مفرح ، وسرمان
ما سرت هذه الأنباء فيهم سرى النار في الهيشم . فما كاد القتال
ينتهي في معركة حطين وتتحقق خسارة الفرنج لها ، حتى هرمت
الرسل صوب الغرب لينهوا خبرها إلى أمراء أوروبا . ولم يلبث رسل
آخرون يمتنأون بسقوط بيت المقدس . وذهر العالم النصراني في الغرب ،
لما طلع من الكارثة التي وقعت ، والكارثة التي توشك أن تقع ، فما من
أحد في الغرب باستثناء المجلس البابوي فيما يبدو - كان يدرك
الخطر الداهم على الرغم من الاستغاثات التي جاءت من ملوك بيت
المقدس في السنوات الأخيرة ، إذ أن الفرسان والحجاج الذين
ارتحلوا نحو الشرق صادفوا في إمارات الفرنج من ترف الحياة ما يفوق
في الأبهة والفرح كل ما كان يعرفه هؤلاء في أوطانهم .

لقد سمعوا كثيرا من الحكايات عن البسالة العسكرية ، وشهدوا
ما أصاب التجارة من ازدهار ، وام يدركوا ما يتعرض له كل هذا
الرخاء من خطر . على أنه حدث فجأة أن سمعوا أن كل ذلك قد
زال ، إذ تحطم الجيش الصليبي ، وأضحى (صليب الصليبوت) الذي
يعتبر أقدس الخلفات الدينية في أيدي المسلمين ، بل إن القدس
ذاتها أخذها المسلمون ، وفي خلال بضعة أشهر انهار كل البناء
الذي أقامه الفرنج في الشرق ، فإذا كان لشئ أن ينجو من هذه
الخرائب فلا بد من إرسال نجدة والتعجيل بإيقادها .

لقد كانت حطين درسا عسكريا وعلاما سجله التاريخ ولم يهمل
منه شيئا ، وما قاله ابن الأثير عن الموقف في كلا المعسكرين ذلك
الوصف الذي جاء فيه :

"بقى الفرنج على حالهم إلى الغد - وهو يوم السبت لخميس
بعين من ربيع الآخرة عام ٥٨٣ هـ - وقد أخذ العطش منهم ، وأما
المسلمون فإنهم طعموا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم ، فباتوا يحرض

بعضهم بعضا ، وقد وجدوا ريح النصر والظفر ، وكما رأوا الفرج
خلاف عادتهم ما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجراتهم فأكثرُوا
التكبير والتهليل طول ليلتهم (١) .

ويقول ابن الأثير أيضا في وصفه للروح المعنوية العالية عند
المسلمين ، وطاعة الجنود لقائدهم قبيل المعركة :

" فلما علم صلاح الدين مقصدهم - أي رغبتهم في ورود الماء -
صدهم عن مرادهم ووقف بالمعسكر في وجوههم ، وطاف بنفسه على المسلمين
بحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يأتون لقوله
ويقفون عند نهيه " (٢) .

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يدخل كل قلب ، وأن يهاجم
ما بين الأمراء الآخرين ووعيتهم عن طريق تقديم المثل الصالح والقادة
الحسنة والأمل المطلوب ، واقد التزم صلاح الدين في هذا كله بأخلاقيات
الإسلام في الحكم ، لم يجند دعة يدعون له زورا وهبتنا ، بل إننا
لا نعثر على الشعراء أو الكتاب المنافيين الذين اعتدنا أن نراهم في كل
بلاط . لقد أشاع صلاح الدين حوله جوا أخلاقيا لم يكن فيه مكان للنفاق
ولا للدعاية المضللة . فنجد أن الشعر قد تحول إلى الصدق ، فعندما
هزم صلاح الدين أمام الرطة سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م ، قام الشعراء
باعتزافها بها ، وشهدون أزر السلطان في جهاده ، ونجد أن وزيره
القاضي الفاضل ، وكاتبه صاعد الدين الأصفهاني لا يهملان عليه بالنصح
ولا يوفرانه في اللوم عندما يكون اللوم ضروريا . (٣)

كان قلب صلاح الدين يفيض إيمانا بالله سبحانه وتعالى ثم بنصره
الحتي له حتى في تلك المواقف الحالكة التي قد توحى لمن حوله بأن
الهيبة لا محالة واقعة به وجيشه ، ولكن صلاح الدين كان يؤمن بالله
سبحانه وتعالى ثم بنصر الله الذي لا شك فيه .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ١٢٧ .

(٣) د . أنيس قاسم : تأملات في الاحتلال الصليبي والصهيوني ، ص ١٢٥ .

حدث مثل ذلك في موقعة " حطين " فيما يرويه لنا ولده الطلك
الأفضل حيث يقول :

" كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهده ،
فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من
بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي ، فنظرت إليه وقد علت—
كأهية واريد لونه وأسك بلحيته وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ،
فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج
قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزناهم ، فعاد الفرنج
فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل
أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا أهي—
هزناهم ، فالتفت والدي إلي وقال : أسكت مانهزهم حتى تسقط
تلك الخيمة (يقصد خيمة الطلك) فهو يقول لي وإذا الخيمة قـ
سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى ، فبكى —
فرحه " (١) .

فالنصر كان نتيجة حتمية لجيش كل جنوده من المؤمنين الصادقين
الذين يقودهم بطل مسلم صادق هو صلاح الدين الأيوبي .

ولست أتصور إعلاما — مهما بلغت درجة تأثيره — يمكن أن
يؤدى رسالته على الوجه الذى أدته صحيحة صلاح الدين فى جنوده — يوم
حطين حينما صاح : " كذب الشيطان " ، تلك الصحيحة الإعلامية
الخالدة التى أخذ يرددها كلما ألحق الصليبيون المسلمين به وهم
يتقدمون .

أقول لا يمكن لوسائل الإعلام الحديثة أن تفعل ما فعلته تلك
الصيحة الأيوبية : " كذب الشيطان " لسبب بسيط وهو أن تلك
الصيحة قد صدرت من قلب صادق الإيمان واثق بالله ثم بنصره المؤكد

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٧٨ .

له ، لقد صدرت تلك الصيحة من صلاح الدين . واني على يقين بالله
أننا إذا أردنا أن ننتصر يوما ، وفكرنا لحظة في أن نسترد القدس السليب
من أيدي الصهيونية الغادرة فما علينا إلا أن نكون جنودا مثل جنود صلاح الدين
مع الإلحاح الكامل بالتقدم العسكري " والتكنولوجيا " في عصرنا . وما على
قائدنا إلا أن يكون قائدا مثل صلاح الدين ، ويوم أن يتحقق ذلك هـ
يومها فقط لن تبقى القدس لحظة واحدة في أيدي الصهيونية الغاشمة
لأننا سوف نعيد للتاريخ الإسلامي مجده في حطين ثانية والقدس ثالثة .

ويوم أن يتحقق ذلك نستطيع أن نخرس السنة المؤرخين النصارى
الذين يفترون على التاريخ كذبا ، والذين لا يستطيعون تحمل الحقائق
التاريخية التي لا تتفق وأهواهم هـ فهم كثيرا ما يرددون :

إذا انتصر الصليبيون فهي الشجاعة التي تغلب الكثرة ، وإذا انتصر
المسلمون فهي الكثرة التي تغلب الشجاعة .

يقول المؤرخ النصارى " فيشر " :

" فلا عجب إذا لم يوجد من البيزنطيين جنود في حطين ، بل العجب
أن الدولة الصليبية لم تستطع أن تجمع من جنودها سوى ألف وثلاثمائة فارس
 وخمسة عشر ألفا من العسكر الراجلة لمنازلة الجيش اللجب الذي أمده
المسلمون اذلك اليوم . وما عسى أن تجدى الشجاعة الرائعة ضد العدد
الكثير ٢٠٠ فأبهد الصليبيون من آخرهم إلا قليلا ، واستولى المسلمون
على صليب الصليبي ، وصارت كنيسة القيامة في أيديهم سنة ١١٨٧م (١) .

وهؤلاء المؤرخون لا يستطيعون إخفاء فيظلمهم وكراهيتهم لصلاح الدين
الأيبي خاصة ، وللمسلمين عامة في كتاباتهم التي تنضح بالحقد والحسرة ،
فصلاح الدين عندهم شخص قاذى ، والمسلمون عندهم لا يستحقون ذلك
النصر الذي أحرزوه ، ويدهى هؤلاء المؤرخون النصارى أن هذا النصر

(١) " فيشر " : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ص ١٩٠ ، ١٩١ - نقله السي
الحريية محمد مصطفى زيادة ، والسيد الباز العرينى (ط : دار المعارف

ما كان له أن يحدث لو أن قائدا صليبيا مثل "فردريك هرباروسا" لم يهلك قبل أن يتصدى لصالح الدين أثناء الحملة الصليبية الثالثة .

وفي ذلك يقول الطرخ النصراني " فيشر " :

" وربما قيل من قبل الدفاع أن الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة صدمت أشد صدمة في أول أمرها بوفاة " فردريك هرباروسا " فريقا فسي نهر " سالف " بقلقية ، فلو طاش ذلك القائد الألماني الذي استحق لقب الجندي الأول بغرب أوروبا في عصره ، ودل على مدى مقدرته حين عبر بجيوشه آسيا الصغرى في مهارة حربية فائقة وقلة في الخسائر واضحة - بالقياس إلى تجارب ما تقدمه من جيوش - لوجد صلاح الدين من يستطيع معارضته سيفاً بسيف وقوة بقوة ، ولاختلفت النتائج اختلافاً تاماً أكبر الظن . لكن ذلك لم يكن " (١) .

وفي الوقت الذي يقلل فيه هذا الطرخ النصراني من مكانة صلاح الدين والسلمين نقرأ له من التمجيد والتعظيم لقائده الغفوسون به " فردريك هرباروسا " ما يفوق الوصف حيث يقول :

" وحاطت مدائح المعاصرين " فردريك هرباروسا " طول حياته ، ولا تزال أصداء تلك المدائح تتردد في نغمات حماسية متفاوتة القوة فسي أجيال المؤرخين . وكيف لا يكون ذلك وجميع الشيم التي افتخرت بها فروسية ذلك العصر مجتمعة فيه ، من شجاعة فائقة وهمة خارقة ومرح مفرط فضلاً عن شغف بالقتال والنزال وولوع بالمغامرة ، وحب للعدل بين الناس عدلاً عرفياً مصدره حسن الإدراك لا القانون ، ومؤانسة منعهما صحة جسمية رائعة ، والواقع أنه لم يحتل عرش ألمانيا - منذ شارلمان ، ملك تم فيه من خلال المؤهلة لحكم الألمانين مثلما تم في " هرباروسا " (٢) .

(١) المرجع السابق : ص ١٩١ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٩٨ .

وأنا واثق أن كلام ذلك المؤرخ النصراني ضرب من الوهم ، ومع ذلك فلكم تمنيت لو أن الله سبحانه وتعالى مدّ في عمر هذا القائد الصليبي ليلتقى به صلاح الدين حتى نرى ما إذا كان في مقدوره أن يفسّر التاريخ كما يدعى ذلك المؤرخ أو أنه سوف يهلك كما هلك غيره — أساطين القادة الصليبيين على يد صلاح الدين ، وهومها ما كان لشل ذلك المؤرخ أن يخط حرفاً من قادة المفتون به وهو الذي أصبح — الهالكين قبل أن يلتقى صلاح الدين سيفاً بسيف ، ثم إن التاريخ لا يقوم على الافتراضات والخيالات . .

ثالثاً : أثر معركة حطين في استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين :

كان صلاح الدين يعرف تماماً أن الإمارات الصليبية لا تستطيع احتمال أكثر من معركة حاسمة واحدة ، وقد حدثت هذه المعركة ، ولم يبق إلا استثمار الظفر وتصعيد الأعمال القتالية .

واستطاع صلاح الدين استثمار الروح المعنوية العالية عند المسلمين بأسرع ما يمكن لكي يستولى على معظم الإمارات الصليبية بقصد الوصول إلى تحقيق هدفه الأسمى وهو تحرير القدس .

وقد عبرت هذه الروح المعنوية العالية عن ذاتها في مناسبات كثيرة كانت أبرزها ليلة حطين حيث كان المسلمون يهفون ليلهم في الصلاة والتكبير والدعاء ، في حين كان الفرنج يرتعدون ، وقد سيطر عليهم الرعب لما يشهدون ويسمعون (١) . وعبرت هذه الروح المعنوية العالية أيضاً عن ذاتها حين مضت بعد حطين تكتسح الإمارات الصليبية ومعاقبتها في سرعة خاطفة لم تستغرق سوى ثلاثة أشهر حتى استرد المسلمون بيت المقدس من أيدي الصليبيين في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ الموافق ٢ أكتوبر ١١٨٧ م . وحضر المسلمون في بيت المقدس — ولأول مرة منذ ٨٨ عاماً يوم الإسراء والمعراج .

(١) بسام العسلي : صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٩٦ .

لقد استطاع صلاح الدين استثمار النصر الذي تحقق في حطين
لإضعاف القدرة القتالية للعدو ، وقد كانت خطة التطويق والإبادة تعبيراً
عن الرغبة لا في حسم الصراع فقط لمصلحة المسلمين ، وإنما من أجل
إضعاف القدرة القتالية بصورة كاملة .

ويتأكد ذلك من خلال تركيز أعمال الإبادة على أشد الطوائف هداه
للمسلمين ، في حين تجلت كل تصرفات صلاح الدين بالتساهل والرحمة
تجاه الفئات غير المقاتلة من الصليبيين .

" ولقد كان تحرير القدس حدثاً كبير الأهمية بنتائجها الإعلامية
والمسكوية على حد سواء . فقد جاء تحرير القدس لهدم انتصار حطين ،
وعلى الرغم من أن هذا التحرير لم يكن أكثر من استثمار للنصر في حطين ،
إلا أنه أبرز بوضوح التحول الحاسم في سيرة الصراع وانتقال المسلمين من
الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي " (١) .

لقد فدت بلاد الشام الصليبية فداة موقعة حطين تحت رحمة
صلاح الدين ، فشرع يفتح البلاد والمدن الصليبية واحدة بعد أخرى
فتحاً متواصلاً .

وما يظهر بوضوح مدى ما أصاب الصليبيين بعد حطين ، والأثر
الذي تركته تلك المعركة في فتح القدس الشريف قول العماد الأصفهانى فى
الروشتين :

" ولما أحيط بالقوم ، آوى ماكنهم إلى جبل يعصه من العموم فأسمع
السيف لا طعم اليوم . واستولى الخذلان عليهم بأسرهم ، وبردت أيدي
المؤمنين بحرّ قتلهم وأسرههم . ولم يبق لهم باقية ، وفصت بقتلاهم نفسى
الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة ونار الله الحامية " ، " وسرنا إلى عكا
وهى بهيئة ملكهم وواسطة سالكنهم ، ومركز دائرة كفرهم ، ومجمع جمع برهم

(١) بسام العسلى : الأيام الحاسمة فى الحروب الصليبية ، ص ١٣٨ .

وحرهم . فتسلمناها بالأمان والصخرة المقدسة الآن بنا تستمرخ ،
وتستغيث ، وهاد الله الصالحون قد وصلت إليهم يهود الله الصادق
الموارث . والبشارة بفتح القدس لا تتأخر ، والهم بعد هذا الفتح
السني على ذلك تتوفر ، والحمد لله الذي تتم العالجات بحمده ،
ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يسلك لها ، وما يسلك فلا يرسل له من
بعده . (١) .

وكان من الأمراء القلائل الذين نجوا من موقعة حطين الأمير
" باليان الثاني دى اهلين " - الذى أطلق عليه المؤرخون العسرب
(ابن بارزان) - وقد سمح له صلاح الدين بالذهاب إلى بيت
المقدس ، بشرط عدم العبث فيها أكثر من ليلة واحدة لأخذ زوجته
وأولاده . وعندما وصل " باليان " إلى بيت المقدس وجد المدينة فى
حالة يرثى لها لعدم وجود فرسان يدافعون عنها " إذ لم يبق بها سوى
النساء والرهبان " فضلا عن انهيار الروح المعنوية للأهالى عقب ما سمعوه
من أنها كارثة حطين وأسر ملكهم (٢) .

وقد فرح الصليبيون فى بيت المقدس برؤية " باليان " وتسلوا إليه
بالدعوى ليعقى معهم ويدافع عنهم ، ففى هذه لصلاح الدين ، وأخذ
يعمل فى سرعة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحطام الصليبي .

ولكى يتبين لنا بوضوح كيف استثمر صلاح الدين نصر حطين استشارا
سريها ومتواصلا كان لزاما علينا أن نتابع صلاح الدين فى فتوحاته التى
انحصرت فى الفترة الواقعة ما بين انتصاره فى حطين ودخوله بيت المقدس
فاتحا منتصرا .

كان فتح حطين يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ
الموافق ٤ يوليو ١١٨٧ م ، وكان من المفروض بالنسبة لأى قائد أن يستريح
لبضعة أشهر بعد ذلك الفتح الكبير على الأقل .

(١) أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح طاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨١ . نقلا عن :
" بهسات بالمر " .

لكن صلاح الدين أثبت بالتجربة العطية أن الفسروض غير الواقع.
لذلك ما كان صلاح الدين يستريح باقى يومه فى موضعه بعد انتصاره على
الفرنج فى حطين حتى طار فى اليوم التالى لموقعة حطين إلى " طبرية " .
ونازلها ، فأرسلت له صاحبته " اشيفا " تطلب الأمان لها ولأولادها
وأصحابها ومالها ، فأجابها إلى ذلك (١) .

وأما فرغ صلاح الدين من " طبرية " سارعها يوم الثلاثاء ،
ووصل إلى عكا يوم الأربعاء ، ثم دخل المسلمون إليها يوم الجمعة
مستهل جمادى الأولى ، وصلّوا بها الجمعة ، فى جامع كان للمسلمين
قدما ثم جعله الفرنج بيعة ثم جعله صلاح الدين جامعا (٢) .

وقد استولى المسلمون على كل ما جمعه الفرنج من كنوز وثروات
طائلة فى " عكا " ، وأقام صلاح الدين فترة قصيرة لإعادة تنظيم
أمورها الإدارية والعسكرية .

بعد فتح " عكا " أرسل السلطان إلى " تينين " ابن أخيه
تقى الدين ، فهايقها ، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه ، فوصل
إليها فى ثلاث مراحل ، ونزل عليها يوم الأحد الحادى عشر من جمادى
الأولى عام ٥٨٣ هـ ، فراسلوا السلطان وسألوا الأمان .

بعدها سار السلطان إلى " صور " وتسلمها يوم الأحد الثامن
عشر من جمادى الأولى ، وقال القاضى ابن شداد : فتحها
السلطان عنوة ، ثم رحل منها إلى مدينة " صيدا " فنزل عليها ، ومن
الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادى والعشرون من جمادى الأولى (٣) .

ولما انتهى صلاح الدين من فتح " صيدا " سار فى يومه طلى
سمت " بيروت " ، فنزل عليها يوم الخميس وهايقها وحاصرها ثمانية
أيام ، ثم طلبوا الأمان فأمنهم ، وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

من جمادى الأولى ، أما " جبيل " فقد تسلمها السلطان من صاحبها " أوك " بعد أن سلم وريح نجاته وغنم ، ومضى إليها من تولاها ، وانسل منها صاحبها وسلاها ، وتبعها فتح بيروت وتلاها . فانتظمت هذه البلاد المتناصفة بالساحل في سلك من الفتوح متسق ، وأمر من الاستقامة متفق . وكان معظم أهل " صيدا " و " بيروت " و " جبيل " مسلمين ساكنين ، لمساكنة الفرنج مستسلمين ، فذاقوا العزة بعد الذلة ، وفاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر ، وصدحت المناير ، وظهر عيب البهيم ، وشهر جمع الجمع ، وقرئ القرآن ، واستشاط الشيطان . وخرست النواقيس ، ومطلت النواميس ، ورفع المسلمون رؤوسهم ، وعرفوا نفوسهم (١) .

غير أن المهزومين والمطاردين من الصليبيين قد انتهزوا فرصة انشغال السلطان بفتح المعازل والمدن ، واستطاعوا العودة إلى " صور " وتحويلها إلى قلعة منيعة بقيادة صليبي يقال له " المركيس " وكان " المركيس " من أكبر طوافيت الكفر ، وأغول شياطينه ، وأضرى سراحينه . وأخبت ذنابه ، وأنجس كلابه ، وهو الطافيتية الداهية الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية (٢) .

ولما ملك صلاح الدين " بيروت " و " جبيل " وغيرهما كان أمر " صقلان " والقدس أهم عنده ، لأسباب منها : أنها على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام ، وكان يختار أن تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها ، وقد سارعن " بيروت " نحو " صقلان " (٣) .

(١) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

ولقد قاوت "مسقلان" صلاح الدين أيا ما ، لكنه شدد عليها
الحصار ، وأضعف مقاومتها ، " ولما رأى الصليبيون أنهم كل يوم
يزدادون ضعفا ووهنا ، وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضا ،
ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط
اقترحوها ، فأجابهم صلاح الدين اليها " (١) .

والسؤال العجيب كيف حدث ذلك ؟ كيف انقلبت القوة
والجبروت إلى ضعف وخذلان ، وانقلب الضعف والانكسار إلى قوة
وانتصار ؟ . . .

لقد تم فتح مسقلان ، وعند ذلك أقام السلطان بظاهرها
السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ، ففتحوا " الرملة " و "الداروم"
و "غزة" و "شهد ابراهيم الخليل عليه السلام" و "تنين" و "بيت
لحم" و "بيت جبريل" و "النطرون" .

وكل تلك الفتوحات تمت فيها لا يزيد عن ثلاثة أشهر بعد حطين ،
لماذا . . . ؟ لأن حطين كانت القاصة التي لم يتحمل الصليبيون
بعدها معركة واحدة حتى كانت القدس قبة الانتصارات و نهاية الفتوحات .

و نهاية القول لكل باحث منصف أن الصليبيين قد تبدل بهم
الحال غير الحال ، وأنهم أصبحوا ضعفا بعد قوة ، وأن حطين قد
فعلت بهم الأفاعيل ، وتركتهم في أرض المعركة كأعجاز نخل خاوية
لا يعلمون ما يفعلون .

" كذلك حققت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون " (٢) .

(١) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ١٨٢ .

(٢) سورة يونس : آية ٣٣ .

لقد كان هذا حال الصليبيين الذين جاءوا لقهر الإسلام واذلال أهله في عقرب دارهم ، " أما النصارى في الغرب فقد اعتسبوا انتصارات صلاح الدين كارثة شديدة ، وتعلقت بقايا أوهامهم وفروهم بالأمل في استرداد ما كان لهم من سلطان ، وشجعهم على ذلك أن بعض المعازل والحصون لازالت في أيدي الصليبيين ، وأن " صور " أضحت قاعدة قوية لهم ، وأكثر من ذلك أن أورها أدركت خطورة انتصارات صلاح الدين ، وترتب على ذلك ما حدث من الإغداد للحملة الصليبية الثالثة (١) .

وكان ذلك بعض التعبير الصادق الى حد بعيد لما أصاب العالم النصراني آنذاك من لوعة أطاحت بعقله بعد حطين والقدس والعديد من القلاع والحصون .

أما المسلمون فقد تغير وضعهم من بعد ضعف قوة ، وأصبحوا على العكس تماما من هؤلاء الصليبيين المهزومين المدحورين ، أصبحوا كذلك لأنهم انتصروا بإيمانهم وانتصر صلاح الدين بإيمانه الذي أنقذه من الغرور ، ومن سكرة النشوة بالنصر حتى وإن كان ذلك النصر نقطة تحول حقيقي في الدعوة الإسلامية والتاريخ الإسلامي .

والرغم من كل تلك الحقائق الدامغة ، والوقائع التاريخية الثابتة ، إلا أن هناك فئة من الكتاب النصارى قد آلوا طمس أنفسهم أن يكونوا أكثر صليبية من أجدادهم الذين دعوا إلى القيام بالحملة الصليبية الأولى ، أو الذين شاركوا فيها بالمال أو النفس ، ذلك لأن هؤلاء الكتاب قد اعتادوا على أن يغالطوا ويهفوا ، وهم في الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، من هؤلاء الكتاب ، على سبيل المثال - الكاتب النصراني " أرست باركر " الذي يقول :

" غير أننا نستطيع آخر الأمر أن نستخلص أسباب فشـل

(١) أرست باركر: الحروب الصليبية ، ص ١٨٤ ترجمة د . السيد الباز العريني ، (دار النهضة - بيروت) - ط ٢ (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م) .

الحروب الصليبية . فأيسر ما نقوله وأصدق ، هو أن الحروب الصليبية لم تفشل ، إنما جرى توقفها ، ولم تتوقف إلا لأنها لم تعد ملائمة للأزمة والعصر ، فما اشتهرت به أوروبا سنة (١٣٠٠م) من صفة أخلاقية ، تختلف عما اتصفت به أوروبا سنة (١١٠٠م) فالحروب الصليبية التي تجسم فيها كل ما اتصفت به أوروبا سنة (١١٠٠م) من الروح الدينية والاستشهاد والتفكير في الحياة الآخرة ، صارت فريسة سنة (١٣٠٠م) عند أوروبا التي اشتهرت بالعلمانية والديموقراطية ودراسة القانون والفلسفة ، فلم يعد ثمة تفكير في الحرب المقدسة" (١) .

والرد على هذا الكاتب وأمثاله غاية في البساطة ، لأن الحقيقة هي الحقيقة ، والواقع هو الواقع مهما ألقوا وسائل المغالطة والتزييف . إن ادعاء " أرنست باركر " بأن الحروب الصليبية لم تفشل هو ادعاء باطل من أساسه ، ومخالف للحقيقة والواقع ، لأن الحروب الصليبية قد فشلت فشلا لم يختلف فيه المؤرخون على اختلاف نحلهم ، والحقيقة لن يغير منها قول هذا الكاتب بأن ما يقوله هو أيسر القول وأصدق ، بل على العكس إن ما يقوله هذا الكاتب هو في الواقع أيسر القول وأكذبه .

وبعد أن يدعى بأن الحروب الصليبية لم تفشل يعود فيدعى بأن تلك الحروب قد جرى توقفها ، وحتى يقنع نفسه على الأقل بهذا الادعاء يحاول أن يوجد لنفسه مبررا يبرر به ذلك التوقف بأن يرجعه إلى أن هذه الحروب لم تعد ملائمة للأزمة والعصر .

وبأي هذا الكاتب إلا أن يتبادى في زيفه ومغالطته ، فيدعى أن هذه الحرب قد تجسم فيها كل ما اتصفت به أوروبا سنة (١١٠٠م) من الروح الدينية والاستشهاد والتفكير في الحياة الآخرة .

(١) " أرنست باركر " : الحروب الصليبية ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

كذلك يدعى أن هذه الحرب هي حرب " مقدسة " ، وأن أمرها سنة (١٣٠٠ م) لم تعد تفكر في ذلك ، لأنها اشتهرت بالعلمانية والدنيوية ودراسة القانون والفلسفة . وهي مغالطات بعضها فوق بعض .

إن الحرب الصليبية التي بدأها أجداد هذا الكاتب لم تتوقف من العالم الإسلامي يوما واحدا ، كل الذي حدث أنها خلعت ثوبها العسكري المقيت الذي لم يعد بالفعل ملائما للأزمة والعصر لتلبس ثوبا آخر أسوأ وأخبث منه ، وهو ثوب العلمانية والدنيوية ودراسة القانون والفلسفة لأنه لا يلائم الأزمة والعصر .

ويقول الشيخ محمد أبوزهرة في ذلك :

" وما جاء القرن الرابع عشر الهجري الموافق له المتمم للعشرين الميلادي ، ولا يوجد إقليم إسلامي مستقل ، أو غير خاضع لنفسون دولة أخرى غربية لا ترجو للإسلام وقارا ، بل إنها صليبية في ثوب جديد من الصليبية ، حتى أن ملك الإنجليز عندما قابل قائد جيشه المنتصر في فلسطين قال له : لقد انتصرت في آخر حطة صليبية ، والقائد الفرنسي الذي دخل الشام وزار قبر صلاح الدين الأيوبي قال : ها نحن أولا ، وقد عدنا باصلاح الدين " (١) .

إنها إذن وبحق حرب صليبية مستترة قد تغيرت من فزو عسكري إلى فزو فكري ، لا تقهره سوى جيوش العقيدة والعودة بالمسلمين إلى شريعتهم الخراء .

(١) محمد أبوزهرة : الوحدة الإسلامية ، ص ٢٣٣ ، ط ٢ - دار الفكر العربي ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

الفصل الثالث

مواقف صلاح الدين الإسلامية وأثرها الإعلامي في الرأي العام الأوربي

أولا : شفقة صلاح الدين ورحمته وبعض الأمثلة عليها مثل :

- ١ - استجابته الإنسانية لما طأى منه السنون الضعفاء من الصليبيين .
- ٢ - رحمته بالنساء والأطفال الصليبيين .

ثانيا : عدل صلاح الدين واحسانه وبعض الأمثلة عليها مثل :

- ١ - إذنه لرجال الدين النصارى بحمل ما شاءوا من متاعهم وأموالهم .
- ٢ - إضائه من الفدية لأعداد غفيرة من الصليبيين غير القادرين على دفعها .

ثالثا : الآثار الإعلامية لمواقف صلاح الدين الإسلامية في الرأي العام الأوربي :

- ١ - إيقاف الرأي العام الأوربي على حقيقة الإسلام .
- ٢ - اعتناق بعض الصليبيين الدين الإسلامي عن اقتناع تام .

أولا : شفقة صلاح الدين ورحمته وبعض الأمثلة عليها مثل :

١ - إستجابته الإنسانية لما طانى منه المسنون والضعفاء من الصليبيين :

بينت فى الفصول السابقة كيف انتصر صلاح الدين الأيوبي على الصليبية الحاكمة ، والاستعمار الكافر البغيض ، وكيف وحد البلاد الإسلامية تحت قيادته الرشيدة ، وكيف جمع الناس على الشريعة الإسلامية وهداهم بهدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكيف خاض معاركه الإسلامية الخالدة تحت راية التوحيد والاعتقاد بحبل الله ، وكيف طامل أعداءه بأخلاق الإسلام السمحة ، والمعاملة النبيلة ، متبعاً فى ذلك خطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطى الخلفاء الراشدين من بعده ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ، كل ذلك من أجل وصول صلاح الدين بالتعبئة الاعلامية الإسلامية الكاملة إلى غايتها ، لذلك أمد الله يده من عنده ، وأيده بنصره ، وهداه سبل الرشاد . . قال تعالى :

" من يهد الله فهو المهتدى ومن يضل فاولئك هم الخاسرون " (١) .

وانطلاقاً من هدى الله سبحانه وتعالى مضى صلاح الدين لمضرب المثال الأعلى فى الشفقة بأعدائه والرحمة بهم ، لتفعل تلك المواقف الإنسانية فعلها فى أعداء الإسلام والمسلمين ، مما ترك أثره الاعلامى فى رأى العام الأوروبى ، وهذا ما سوف أتناوله بشئ من التفصيل فى نهاية هذا الفصل .

والمؤرخون قد ذكروا هذه المواقف لكى يستدلوا بها على إنسانية صلاح الدين ورأفته وشفقته التى شملت حتى أعداءه .

أما رجال الإعلام والدعاة فإنهم ينظرون إلى هذه المواقف على أنها مواقف إعلامية كان لها أثرها الفعال فيما توالى بعدها من أحداث تاريخية هزت المجتمع النصراني وأثرت فيه .

من هذه المواقف الإنسانية ذات الجوانب الإعلامية لصالح الدين مواقف مع المسنين والضعفاء الصليبيين حينما من الله عليه بالنصر الهين .

عندما ساد موقف الصليبيين داخل بيت المقدس ، أخذوا يتدهرون المصير القاسي الذي ينتظرهم ، فحاولوا مرة تلو الأخرى إقناع صلاح الدين بالعفو عنهم ، لكنه في كل مرة كان يقابلهم بالرفض ويؤكد لهم أنه لن يدخل المسجد الأقصى إلا كما دخلوه منسذ إحدى وتسعين سنة ، فإنهم استباحوا القتل (١) ، فلم يتركوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا . وهنا وجد " باليان بن بارزان " أن صلاح الدين مصمم على دخول المدينة حنوة ، فأراد أن يستعطفه وأن يأخذ منه الأمان لنفسه ولقومه أسوة بما فعله مع بقية البلدان التي استردها من الصليبيين صلحا ، لكن صلاح الدين رفض ذلك ، وعندئذ لجأ " باليان بن بارزان " إلى مزيد من الترغيب والتهديد قائلا لصلاح الدين :

" إطمأئنها السلطان أننا في هذه المدينة خلق كثير ، لا يعلمهم إلا الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تفنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة . وإذا فرغنا من ذلك أخرينا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم
كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحيى دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل
الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أحراراً أو نظفر كراماً " (١) .

وكان أن استشار صلاح الدين أصحابه في الموقف ، فوافقوا
على ترك النصارى يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل
" يستوى فيها الفنى والفقير " وخمسة للمرأة ، واثنين للطفلس
من الذكور والبنات .

ومع ذلك لم يسع صلاح الدين إلا أن يستجيب للضعفاء ،
والساكنين ، ويحقق لهم مطلبهم في أن يبذل " باليان بن بارزان "
من الفقراء جميعاً ثلاثين ألف دينار (٢) .

إن القارئ لثقل تلك الحادثة في كتب التاريخ قد يعتقد
لأول وهلة أن صلاح الدين ربما أجاب " باليان بن بارزان " إلى
طلبه بأن أعطاء الأمان له ولقومه نتيجة التهديد والوعيد أو الخوف
على الأماكن المقدسة من الخراب والتدمير .

إن رواية الحادثة على هذا النحو المجرد قد يوحي للقارئ
بكل تلك الأسباب أو بعضها من أول وهلة .

لكن المتتبع لسيرة صلاح الدين وأخلاقه يعلم يقيناً
أن صلاح الدين لم يفعل ذلك خوفاً من تهديد أو وعيد ، لأن
صلاح الدين لو خاف لحظة من تهديد أو وعيد لما استطاع
أن ينزل بالصلبيين الهزيمة تلو الهزيمة ، ولما استطاع كسرهم في
حطين واسترداد بيت المقدس منهم ، كذلك يعلم المتتبع لسيرة
صلاح الدين وأخلاقه أيضاً مدى زهده في الدنيا وعدم رغبته في
شيء من حطامها ، ولو كان صلاح الدين غير ذلك لما خلف في خزانته
غير دينار واحد صوري وأربعين درهما ناصرية (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ١٨٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٢٦ .

ثم إن صلاح الدين نفسه كان يعلم تماما أن المهزومين الخائفين لا يستطيعون تحقيق شيء من تهديد أو وعيد ، وحتى أنهم لو استطاعوا فعل شيء من ذلك لما مكنتهم من تحقيقه بحول الله وقوته .

إذن ما الذي جعل صلاح الدين يستجيب لطلب " باليان بن بارزان " بمنحه الأمان له ولقومه ٢٠٠ لا بد إذن من وجود أسباب غير تلك التي سبقت ، والتي قد يتوهمها القارئ لأول وهلة .

إن تلك الأسباب الأخرى موجودة بالفعل ، وانها تكمن في قلب صلاح الدين نفسه ، تكمن في رحمته وشفقته وأخلاقه التي استمدتها من مبادئ الإسلام بكل دقة وأمانة .

لقد فكر في السنين الضعفاء ، وفكر في النساء والأطفال الأبرياء الذين سيدوقون الويل من الفرنجة قساة القلوب .

وعند ذلك تغلبت رقة قلب صلاح الدين وسماحة عقيدته على رغبته في معاقبة الغزاة لبلاد . فلزم الصمت بهمة ، وجاشت في صدره ، عوامل الأنفة والعروة والنجدة التي يزرعها قلبه الكبير ونفسه العظيمة ، فقبل الدخول في مفاوضات الصاج ، وإذا بسماحته تغمر كل شيء من حوله . للدرجة التي نراه فيها يوزع الأموال والسدواب على المسنين والمرضى والعاجزين من الغزاة النازحين .

أما النصارى العرب من أهل القدس فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ، ويأخذ منهم الجزية فأجابهم إلى ذلك واستقروا ، فاشترى حينئذ من أموال الفرنج (١) .

واقدرنا منه شيخ صامى يساعد في المسير فتى مسلم وقال :

" أيها السلطان ، أنا فرنسى من مدينة تولوز ، أقيم في القدس منذ عشرين عاما ، وقد جاءنى هذا الفتى المسلم منذ سنين هاربا من

(١) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ١٨٦ .

الفرجة في عسقلان ، فأضفته في بيتي ، وكنت سره عن ظلموه .
ولما استرجعتم هذه المدينة انقلب على هذا الفتى ، على غير
طاعتكم يا مولاي ، لقد طردني من بيتي ، واستولى على ما فيه .
فنظر السلطان إلى أخيه الملك العادل ، وقد دسست
هنا ، ثم قال :

أهدوا إلى هذا الشيخ بيته وماله ، وأغفوه من دفع الفدية
والجزية . أما هذا الفتى الذي خالف تقاليدنا ، فاسجنوه حتى
ننظر في أمره .

وليس هذا غريبا من صلاح الدين ، ولا يستطيع أن
يبلغه إلا رجل في مستوى صلاح الدين تكون رحمته أقوى
من القوة ، وغفوه أعظم من السيطرة .

رأى السلطان أن عددا كبيرا من الافرنج يحمل على
ظهره والديه الضعيفين ، أو أقاربه المرضى ، فأثرفه هذا
المنظر أشد التأثير ، وهاله الأمر كثيرا ، ولم يطق صبرا على
رؤيته ، فأمر بالمال فأعطى لهم ، وبالذواب فوزعت عليهم ، لتحمل
أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس (١) .

نحن مطالبون بإبلاغ العالم كله تلك المبادئ السامية
التي وضعتها الشريعة الإسلامية لتنظيم العلاقات الدولية .

أين نجد في القانون الدولي المعاصر ما يقارب الهدأ
الذي عبرت عنه الآية الكريمة :

" وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع
كلام الله ثم أهلغه ما منه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون (٢) .

(١) عهد الله طوان : صلاح الدين الأيوبي ص ٧٧ .

(٢) التوبة : آية رقم ٦ .

إن المسلم لا يفي بما أمر الله بمجرد الإجارة فقط ،
وفيها ما فيها من الرقاية والحماية ، بل عليه أن يبذل نفسه .
لا يكفي أن يعالجه ويطعمه ويسقيه ويحميه ، ولا يكفي
أن يتركه بعد ذلك حراً يلتزم الالتحاق بأرضه وقومه .
بل هناك واجب إيجابي وهو أن يقوم بإيصاله إلى المكان
الذي يأمن هو فيه .

وقد التزم صلاح الدين بهذه الأخلاقيات كلها فسي
علاقاته مع الصليبيين ، ولم يعاملهم بالمثل ، فلم ينتصر
صلاح الدين في ميدان القتال فقط ، وإنما انتصر فيها هو
أشق من ذلك وأصعب . انتصر في ميدان الأخلاق بوازع منه
فقط ، ونفسه وإيمانه هما الرادعان فقط . لو أراد صلاح الدين
أن يبيد جميع الصليبيين الذين وقعوا في يديه ، كما
كان يفعل الصليبيون لما استطاع أحد أن يقف في وجهه
أو يتعرض سبيله سوى طامه المسلمين (١) .

ولكن صلاح الدين استطاع أن يضرب للصليبيين
الأمثلة على ما في الإسلام من ثراء إنساني متميز يتصف
بالشمول والانسانية المطلقة .

وتطبيقاً من صلاح الدين للآية القرآنية الكريمة السابقة
تطبيقاً إيمانياً ما حدث عندما حاصر بلدة " تبنين " وضايقها
بالزحف خمسة أيام " إلى أن أرسل أهلها يطلبون الأمان ،
فأمنهم على أنفسهم ، فسلموها إليه ، ووفى لهم وسيرهم
إلى آمنهم " (٢) .

إنها شمولية الإسلام وإنسانيته ، عبر عنها صلاح الدين
أدق تعبير في تعامله مع الصليبيين ، ومعنى المؤرخين

(١) د . أنيس قاسم : تأملات في الاحتلال الصليبي والصهيوني ص ١٥١ ،

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ١٨٠ .

النصارى لم يستطع إنكار تلك الحقيقة فقال " رنسيان " :
" الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة
والإنسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة
يخوضون في دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور
للسلب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه ، إذ صار رجال
الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع
والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين " (١) .

٢ : رحمته بالنساء والأطفال الصليبيين :

رأينا كيف كان صلاح الدين طويلاً على المسلمين
والضعفاء ، رقيق القلب نحوهم ، سريع الشفقة بهم .
الا أن صلاح الدين كانت شفقه بالنساء أكبر ،
وعطفه عليهن أعظم ، والأمثلة على ذلك كثيرة في حياة
صلاح الدين . . من ذلك على سبيل المثال أنه لما فرغ
من هزيمة الفرنج في موقعة حطين أقام بموضعها باقى يومه
وأصبح يوم الأحد طار إلى طبرية ونازلها ، فأرسلت صاحبها
تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها ، فأجابها
إلى ذلك ، فخرجت بالجميع فوفى لها ، فسارت آمنه (٢) .
ومن الأمثلة العديدة أيضاً على رحمة صلاح الدين
بالنساء والأطفال ، والدالة في نفس الوقت على اعتداله
وبعد ، من التطرف ، وتمسكه بمبادئ دينه الحنيف فى
الأخلاق والرحمة والتسامح ، ما فعله مع " باليان بن بارزان "
وكان هذا الأمير من الأمراء القلائل الذين نجوا من موقعة

(١) د . محمد بن على الهرفى : الحروب الصليبية وأثرها فى الشعر العربى

ص ٢٨ ، ط النادي الأدبى بالرياض ١٤٠٠ هـ نقلاً عن " رنسيان " .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ١٧٩ .

حطين ، وقد سمح له صلاح الدين بالذهاب إلى بيت المقدس بشرط عدم التمسك فيها أكثر من ليلة واحدة لأخذ زوجته وأولاده ، ولكن "باليان" لم يحفظ لصلاح الدين يده طيه فخان عهده معه ، وبقي في بيت المقدس ليقود بقايا الصليبيين المحاصرة فيها ضد صلاح الدين ، ويقوى فيهم روح المقاومة ، أو على الأقل لكي يحصلوا على أفضل الشروط من المسلمين .

وبالرغم من كل ما فعله صلاح الدين مع "باليان" وما قابل به الأخير من جحود وفخر ، يابى صلاح الدين إلا أن يضرب المثل الأعلى في ساحة الإسلام ورحمته حين يسمح بخروج الطلقة "كوشين" زوجة "باليان" من القدس ، ولم يكتف صلاح الدين بذلك ، بل أمر بحراستها من بيت المقدس حتى طرابلس ، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين (١) .

حدث ذلك من صلاح الدين قبل أن يقتحم القدس حرصاً منه على سلامة النساء والأطفال أثناء الاقتحام أو بعده . وحتى مع الأميرة "ايتنت" أرملة "أرناط" الذي سفك صلاح الدين دمه يوم حطين حين طلبت من السلطان الخروج وإطلاق سراح ابنها ، لم يشأ إلا أن يكرمها ويسمح لها بالسفر ، وهي بنواياها محوطة ، ويرأبها منوطة (٢) ثم أطلق سراح ابنها بعد ذلك اتماً لوعده لها .

وصلاح الدين حين يفعل ذلك إنما يفعله مع الجميع لا فرق عنده بين امرأة وأخرى أو بين طفل وآخر لأن الكل أمامه في التسامح سواء .

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٧٨٨ نقلاً عن : " هرقل " .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ٩٦ .

حتى الصليبيات المتعصبات لدينهن ، المتطلبات في
هذههن للإسلام ، نجد صلاح الدين لا يفرق في تسامحه
بينهن وبين غيرهن من النساء الأخريات .

حدث ذلك عقب انتصاره في القدس حيث كانت توجد
به * ملكة رومية متعبدية مترهبة في عبادة الصليب متعلبة
وطى مصابها متلبيه ، وفي التمسك بطلتها متعصبة متعصبة .
أنفاسها متعاضدة للحزن ، وهراتها متحدرة تحدر القطرات
من الحزن . ولها حال ومال ومتاع ، وأشياء وأشياء وأتباع
فاستعازت بالسلطان فأطاعها . ومن طيها وطى كل من
معها بالإفراج . وأذن في إخراج كل مالها في الأكياس
والأخراج . وأبقى طيها من مصفات صلبانها الذهبية
المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها ، فخرجت بجميع مالها
وحالها ، ونسائها ورجالها ، وأسفاطها وأعدائها (١)
والصناديق بأقفالها . وتبعها من لم يكن من أتباعها ،
فراحت فرحى ، وان كانت من سجنها فرحى (٢) .

كان ذلك شأن صلاح الدين في كل أحواله وفتوحاته
لأن قلب صلاح الدين كان يسع المؤمن والكافر والعديق
والعدو .

لذلك نجد صلاح الدين بهذا القلب يرفض بعد فتح
"برزة" أن يتشتت أفراد أسرة صليبية بالبيع والتشريد .
هذه الأسرة هي أسرة أمير "برزة" نفسه ، ويقول ابن
الأثير :

-
- (١) السفطج أسفاط : وطء كالقفة يعبأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء
العدل ج أعدل : الفرارة أى الجوالق لأنه يحمل على جنب البعير معدل
بآخر .
(٢) أبو شامه : الروضتين ج ٢ ، ص ٩٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ١٨٤ .

" وأما صاحب " برزبه " فإنه أسره هو وأصحابه وأمراته
وأولاده ، ومنهم بنت له معها زوجها ، ففترقهم العسكر ،
فأرسل صلاح الدين في الوقت ، وبحث عنهم ، واشتراهم
وجمع شمل بعضهم ببعض ، فلما قارب " أنطاكيه " أطلقهم
وسيرهم إليهما (١) .

وتبلغ الرحمة بقلب صلاح الدين قتها أمام أم صليبية
فقدت رضيعها حينما دخل بعض الغدائين المسلمين إلى
خيام العدو ليمسكوا منهم . وكان من قصتهم أنهم أخذوا
ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا
إلى خيمة السلطان ومرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه
بمرضونه عليه ، ويعطيهم ما أخذوه . ولما فقدته أمه
باتت تستغيث بالويل والثبور طول الليل ، حتى وصل خبرها
إلى ملوكهم فقالوا : إنه رحيم القلب ، وقد أذننا لك بالخروج
فاخرجي وأطلبيه منه ، فإنه يرد ، طيك .

فخرجت تستغيث إلى الحرس ، فأخبرتهم بواقعتها ،
فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان . فلقيته وهو راكب وفي
خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا ، ومرت وجهها في
التراب ، فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ودعت
صنها ، وأمر بإحضار الرضيع ، فوجدوه قد بيع في السوق ،
فارتده ، وأمر بدفع ثمنه إلى المشتري ، وأخذته منه ، ولم
يزل واقفا حتى أحضر الطفل وسلم إليها .

فأخذته وبكت بكاء شديدا ، وضمت إلى صدرها
والناس ينظرون إليها ويبكون . فأرضعت ساعه ، ثم أمر
فحملت على فرس ، ولحقت بعسكرهم مع طفلها .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ١٩٤ .

ما هذا ؟

هذا مفتاح خطير من مفاتيح شخصية صلاح الدين .
" إنه رحيم القلب " ، هذا هو نطق الأعداء
ووصفهم لصلاح الدين ، والمعظمة الحقيقية أن يكون البطل
في مركز القوة ، وفي نفس الوقت يرق قلبه ، وتدفع منه
من أجل اختطاف رضيع من أمه . تنتهي السلطة وتنتهي
الرحمة (١) .

ثانياً : عدله وإحسانه وبعض الأمثلة عليهما مثل :

١ : إذنه لرجال الدين النصارى بحمل ما شاءوا من متاعهم وأموالهم :

إن الأمثلة على عدل صلاح الدين وإحسانه تجاه
المسيحيين على سبيل العصر أمر صعب ، خاصة في مثل
هذا المجال الضيق المحدود ، حيث تحتفظ كتب التاريخ
والسير بمكان رطب في صفحاتها لصلاح الدين تبرز فيه
لصلاح الدين عدله وإحسانه وتسامحه تجاه المسيحيين
وجال الدين النصارى ، ذلك الذي لم يتحقق للمسيحيين
على أيدي إخوانهم في الملة الواحدة .

الأمر الذي حدى بالمؤرخين النصارى قبل غيرهم
لأن يتساءلوا عن السر الكامن وراء تلك المعاملة التي يندر
حدوثها عادة في غير التاريخ الإسلامي .

والحقيقة أن صلاح الدين كان يقدم - بما يفعله -
الدين الإسلامي ليدرك أعداؤه بعض محاسنه في أسلوب
الدأمة القدوة ، وهو أسلوب غاية في البساطة والإقناع وهذا
الأسلوب لا يقوم على الخطب والنصائح والوعظ دون تطبيق

(١) محمود شلبي : حياة صلاح الدين ص ١٦٥ ، دار الجيل بيروت عام

ذلك أولا على الداعية نفسه وقيل أن يتقدم به إلى بدو به
إنه أسلوب القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله على بصيرة .
ولقد وضع صلاح الدين تلك الحقيقة الثابتة نصب
عينه ، وهمل في كل أطوار حياته على تحقيق ذلك في
مجال الدعوة مع أعداء الإسلام ، واعتبره أهم من الجهاد
بالسيف . من ذلك أن صلاح الدين حينما دخل القدس
منتصرا ، وخرج الصليبيون منها هائمين على وجوههم
لا يهتدون إلى أى بقعة من الأرض يمكن أن تقبلهم ، غير
أنهم سرعان ما لبثوا أن فكروا فى الأماكن التى لم تنزل
بعد القدس تحت سلطة الصليبيين . فذهب بعضهم إلى
" أنطاكية " النصرانية ، فلم يكن نصيبهم من أميرها
إلا أن أبى طلبهم أن يضيفهم ، فطردهم ، فساروا على
وجوههم فى بلاد المسلمين التى يحكمها صلاح الدين
فقتلوا بكل ترحاب (١) .

أما بعضهم الآخر من الصليبيين الخارجين من
القدس والذين ذهبوا إلى " طرابلس " الخاضعة آنذاك إلى
سيطرة الصليبيين ، فلم يكن حالهم بأفضل من حال أولئك
الذين ذهبوا إلى " أنطاكية " .

فقد تصور عدد منهم جوعا فى سوريا ، وهم طمس
أشد ما يكونون من البؤس ، وقد اضطرت إحدى الصليبيات
إلى أن تلقى بولدها فى اليم ، وهى تلعن أولئك النصارى
الذين أبوا أن يضيفوها أو يؤوها .

وفى الوقت نفسه الذى حدث فيه كل ذلك للصليبيين
اللائذين بإخوانهم فى الطلة الواحدة ، كان صلاح الدين

(١) عبد الله طوان : صلاح الدين الأيوبي ص ١٥٢ ، نقلا عن المؤرخ
الانجليزى " مل " .

يبدل طلاءه وكرمه واحسانه إلى الخارجيين من القدس من الصليبيين ، " وكانت " قياه " ، وهي كنيتهم العظمى ، ومتعبدهم الذى يجمعون به الدين والدنيا مفروشة باليسط الرفاع ، مكسوة بالستور النسيج والحرير المزوج — سائر الأنواع ، والذى يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين (١) ، وصفات الذهب واللجين . مصحف بالنفار ، شقل من نفائس الحلى بالأرقام (٢) فأطاه " البطرك " منه طائلا ، وتركه طائلا ماعلا ، فقلت للسلطان هؤلاء انما أخذوا الأمان على أموالهم ، فما بال هذا المال وهو مألوف يحملونه فى أثقالهم ؟ فقال : هم ما يعرفون هذا التأويل ، وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل ، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد ولم يلاحظوا العقد ، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان ، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان (٣) . صلاح الدين يفعل كل ذلك مع الصليبيين لكى " يغريهم بذكر محاسن الإيمان " ، ومن هنا يتضح الهدف الذى كان يرمى إليه صلاح الدين الأيوبي دون افتراض أو تأويل ، وهو إفراة أعداء الاسلام عن طريق ذكر محاسن الإيمان .

فلا قدر عند صلاح الدين ولا خيانة لمن جاءه واغزون الإسلام فى مقر داره ، بل عدل واحسان وفخو وطلاء لعله بذلك يغري أعداء الإسلام بالإسلام عن طريق ذكر محاسن الإيمان ، ولذلك نجد صلاح الدين يقول لمن أشار عليه بالاستيلاء على الأموال الجبة التى خرج بها " البطرك " الكبير من القدس : لا أقدر به ، ولم يأخذ منه غير عشرة

(١) العين : الذهب المضروب أو النفيس من المعادن بوجه عام .

(٢) الأوقار : الأحمال الثقيلة ، مفرد ها وقر .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

دنائير ، وسير الجميع ومعهم من يحسبهم إلى مدينة
" صور " (١) وهكذا يقدم صلاح الدين العدل والإحسان
والعفو للصليبيين ، ولو أنه اكتفى بذلك لبلغ غاية العدل
والإحسان والعفو ، لكن صلاح الدين يقدم فوق ذلك كله
الحماية لهؤلاء حتى يملفوا أنفسهم أينما كانوا . ثم
يسأل بعض المتشككين في وجود إعلام إسلامي بعد كل
هذا قائلين : أين ما يسمى بالإعلام الإسلامي ؟ ولم
يسأل هؤلاء أنفسهم ولو للحظة واحدة : إذا لم يكن
هناك ما يسمى بالإعلام الإسلامي فأى المصطلحات يمكن
أن نطلقها على مثل هذه الأفعال التي قام بها
صلاح الدين الأيوبي وأقرانه من حماة الإسلام ودعاته ؟

ويحضى صلاح الدين في طريق العدل والإحسان
لغير أعداء الإسلام بالإسلام عن طريق ذكر محاسن
الإيمان حين هرب موسى بن ميمون - الذى كان قد
تظاهر بالدخول في الإسلام في عهد الموحدين ، الذين
كان حكمهم ينطوى على التشدد في الدين - إلى مصر
وأطن هنالك أمام الملأ أنه يهودى ، فاتهمه أحد فقهاء
المسلمين من أسبانيا بالارتداد عن الإسلام ، وطلب بشأن
يوقع عليه أقصى عقوبة يقضى بها الشرع لهذا الجرم . ولكن
القاضى الفاضل ، عبد الرحيم بن طلى ، وهو من أشهر قضاة
المسلمين ، وكبير وزراء صلاح الدين العظيم ، ألغى هذا
الحكم ، وأطن بحقة جازمة ، أن رجلا قد أرفم على الدخول
في الإسلام ، لا يصح شرطا أن يعد سلبا (٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ، ص ١٨٤ .
(٢) سير موماس ، و. آر. نولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٤٦٣ .

إن ذلك الحدث التاريخي ، وما ينطوى عليه — مدلول إعلامي يظهر لنا بوضوح الفرق بين موقفين إعلاميين كل منهما غاية في الخطورة :

الأول : إجبار هذا اليهودي على الدخول في الإسلام ومن ثم إعطاؤه وغيره فكرة سيئة ومنفرة من الإسلام نفسه ، لا من الرجل الذي أساء إلى الإسلام العظيم بإجباره هذا اليهودي على الدخول في الإسلام ، متجاهلا أن الإسلام بنص الكتاب قد حرم ذلك .

الثاني : تصحيح هذا الوضع غير الإسلامي ، وإصدار الحكم بأن من أجبر على الدخول في الإسلام لا يعد مسلما ، ومن ثم إعطاء هذا اليهودي وغيره فكرة حسنة ومحبة من الإسلام .

وهذه حقا هي الدعوة الإسلامية كما يريدتها الإسلام أو الإعلام الإسلامي ببلغة العصر .

ثم يسأل المتشككون بعد كل هذا : أين ما يسمى بالإعلام الإسلامي ؟

إن هؤلاء لا يعرفون سوى الإعلام الشرقي أو الإعلام الغربي ، أو ما يدور في فلكهما من أنواع الإعلام الأخرى .

أما الإعلام الإسلامي فليس له مكان في معاجمهم ومع ذلك أسوق هؤلاء ولغيرهم هذا الحدث التاريخي الآخر الذي قام به صلاح الدين طهم يدركون ما فيه من مفاهيم إعلامية كان لها الأثر الفعال في النفوس المعاصرة والمتعاقبة .

" لقد تصادف أن هاجم صلاح الدين قلعة "الكرك" أثناء عقد قران الأميرة "إيزابيلا" التي بلغت وقتذاك عشرة من عمرها على "همفري" سيد "تهنين" الذي كان يناهز سبع عشرة سنة من العمر . وهزم "رينالد شاتيون" الطقبة "بأرناط" على أن يهبى كل ما يستطيع من مظاهر الفخامة والأبهة للاحتفال بالعرس في قلعة الكرك التي تعتبر العروس وريثة لها . فحضر الحفل معظم الملوك والأمراء وتجمعهم أرباب الملاهي من الراقصات والحواة والموسيقيين من سائر أنحاء المشرق . ولما كان من أول الأهداف التي يتطلع إليها صلاح الدين هو أن يدمر حصن الكرك وسيد الجاحد . فقد عمل على حشد الوسائط والقوى الكافية للقتال . وكان ما يحفز صلاح الدين هو وقوع حصن "الكرك" الضخم على طريق القوافل التجارية ما بين الشام ومصر ، وتهديد "رينالد شاتيون" لهذه القوافل بعد أن ظهر أنه ما من معاهدة كبرت جماعه . وهكذا فقد حشد صلاح الدين جيش مصر والشام أمام "الكرك" سنة (٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م) وادر على الفور إلى مهاجمة المدينة السفلى ، وشق لنفسه نفذا إليها . ولم يستطع "رينالد شاتيون" أن يفلت إلى القلعة إلا بفضل بطولة أحد فرسانه الذي ظل يقاتل بمفرده للدفاع عن الجسر المقام على الخندق الذي يفصل بين المدينة السفلى والقلعة ، حتى تم تدمير ما يقع من الجسر وراء ظهره . واستمرت احتفالات العرس تجري داخل القلعة فلم ينقطع الرقص والغناء داخل القلعة بينما كانت الأسوار تتعرض للقذف بالأحجار . وأعدت "ستيفاني" والسيدة العريس صحنًا من طعام العرس ، وضعت بها إلى

صلاح الدين . وأرسل صلاح الدين مقابل ذلك بمال يسأل الأبراج ينزل العروسان ، ثم أصدر الأوامر بالآلة يتمرفى هذا البرج للقذف من أدوات الحصار وفيما هذا ذلك لم يخفف جهوده ، فما زالت مجانيقه التسعة الضخمة تواصل قذف الحجارة ، وطم رجاله كل الخندق على وجه التقريب (١) .

ترى لماذا فعل صلاح الدين ذلك وأضاف إلى سجله الحافل بمواقف الدعوة إلى الإسلام هذا الموقف العظيم ؟ هل فعل ذلك خوفا من أعدائه ، وهو المهاجم القوى المنتصر ؟

إن ذن لماذا فعل صلاح الدين هذا مع أعداء الإسلام ؟ ليس هناك جواب يشفى الصدور على هذا السؤال وأسأله ويقنع المنكرين للإعلام الإسلامى سوى ما سبق أن أظنه صلاح الدين نفسه حين قال :

" ونحن نجربهم على ظاهر الأمان ، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان " .

٢ : إضاؤه من الفدية لأعداد ففيرة من الصليبيين غير القادرين على دفعها :

ونعنى مع صلاح الدين فى سيرته الداعية الى الله وهو "يجرى أعداء الإسلام على ظاهر الأمان ، ويغريهم بذكر محاسن الإيمان " .

ويظهر ذلك الهدف الإعلامى بشكل أكثر فيما يرويه "العماد الكاتب الأصفهاني" على لسان صلاح الدين حين قال :

(١) بنسب العملى : الأيام الحاسنة فى الحروب الصليبية ، ص ٩٢ ، هامش رقم ٢ .

" ونحن نجربهم على ظاهر الأمان ، ولا نتركهم
يرمون أهل الإيمان بهتك الأيمان ، بل يتحدثون بما
أفضأ من الإحسان (١) .

وهذا القول يتضح بما لا يدع مجالا للشك أن
صلاح الدين كان يهدف من وراء قوله هذا إلى أن يتحدث
أعداء الإسلام عن محاسن الإسلام ، ومدى التزام أهله
بذلك المحاسن ، وبأمل صلاح الدين أن تنتشر هذه المحاسن
بين الصليبيين عن طريق نقل أخبارها من شخص إلى آخر
هكذا يحدث التأثير الإعلامي الذي سوف أتناوله بشئ من
التفصيل في نهاية هذا الفصل إن شاء الله .

ومن هذه المحاسن الإسلامية إخفاء صلاح الدين عن
الفدية للعديد من الصليبيين غير القادرين على دفعها
ولقد ذكرت في بداية هذا الفصل أن صلاح الدين قد
استجاب للضعفاء والمساكين ، وقبل أن يدفع " باليان " منهم
جميعا مبلغ ثلاثين ألف دينار ، ولكن عدد الأسرى بقي كبيرا
فتظاهر " باليان " بعدم قدرته على جمع الفدية إلا لسمعة
آلاف من الفقراء فقط ، مع العلم بأنه كان من الممكن تأمين
الفدية لألوف عديدة من الصليبيين لو أن الكنيسة كانت
أكثر وفاء لرواها من النصارى ، ولعل من التناقضات
الطبيعية أن يكون قادة المسلمين أكثر رافة بالصليبيين من
قادة الصليبيين أنفسهم . وعلى سبيل المثال فقد حدث
أن طلب العادل إلى أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف
أسير على سبيل المكافأة عن خدماته له ، فوجههم —
صلاح الدين ، فأطلق العادل على الفير سراحهم وإن ابتهج

(١) العباد الكاتب الأصفهاني : الفتح القس في الفتح القدسي ص ١٣٥ .

البطرك " هرقل " لأن يلتصق هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بمسكن الأرقاء ليعتقهم ، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير ، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير ، ثم أطلب صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة مجوز (١) .

وأخلق بنا أن نسمع بلسان المؤرخ النصراني " ستانلي لين بول " في كتابه " السلطان صلاح الدين " ما ضرب به السلطان يوم فتحه بيت المقدس من أروع أمثلة الخلق الاسلامي العظيم ، من كرم الطبع ، ورعاية الصدر ، وساحة النفس :

" لم يظهر في يوم من الأيام من مروءة السلطان بعد هتته وكرم طبعه ما ظهر يوم تسلم المسلمون مقاليد بيت المقدس ، فتولى جنده ، وعاله أمر البلد ، وكانوا يمنعون الناس من أي عدوان وصف ، فلم يصب أحدا من الصليبيين أذى ، وكان حرس الملك يحرسون جميع شوارع البلد الخارجية وكان على باب " راوود " أحد العمال الأتراك ، ليأذن لكل من أدى الفدية من أهالي البلد بالخروج منه " (٢) .

وهذا المؤرخ النصراني بعد ذلك أن أبا السلطان العادل والبطرك (هرقل) و (باليان) أطلقوا العديدين من الأرقاء ، ثم يقول :

" ثم قال صلاح الدين لقواده : تصدق أخي من نفسه ، وتصدق (باليان) و " البطرك " كل من نفسه ، والآن

(١) بنام العسلي : الأيام الحاسنة في الحروب الصليبية ص ١٣٤ .
(٢) أبو الحسن الندوي : صلاح الدين الأيوبي (البطل الناصر لدين الله) ص ٣٤ دار القلم بيروت ط ١٤٠٠ هـ نقلا عن المرجع المذكور .

اتصدق أنا من نفسى ، فلم يلبث أن أمر جنداء لينادوا فى جميع طرقات البلد وأزقته باطلاق سراح الشيوخ والضعفاء الذين لا يطيقون أداء الفدية ، فيذهبون حيثما شاءوا فبدأوا يخرجون من باب " المعازر " ، وما زالت تخرج جماعاتهم منذ طلوع الشمس إلى غروبها ، وذلك ما تصدق به صلاح الدين على فقراء وساكنين يتجاوز عددهم الحصر (١) ومن المدهش أن تستمر هذه العناية من صلاح الدين على فقراء الصليبيين وساكنيهم حتى بعد أن أقامهم — الفدية .

حدث ذلك على سبيل المثال مع اللاجئين الصليبيين المتوجهين إلى " عسقلان " حيث رفض قادة السفن — الإيطالية التجارية أن يحطوهم على سفنهم إلى الموانئ النصرانية إلا بعد أن يدفعوا أجورا باهظة ، فـمـير أن الحكومة المصرية رفضت السماح للسفن الإيطالية بالإقلاع إلا إذا قبلت حطهم بدون أن يؤدوا أجورا (٢) إنه إجراء صلاح الدين لأعداء الإسلام على ظاهر الأمان وأغراؤهم بذكر محاسن الإيمان .

ثم نسمع بعد ذلك كله على لسان المنكرين والمرجفين وهم يتسائلون : أين هو الإعلام الإسلامى ؟

ومتى كان له وجود فى ماضى المسلمين وحاضرهم ؟

ونضيف — لهؤلاء أنه بعد أن تم صلح الرملة بين صلاح الدين و (ريتشارد قلب الأسد) وفى أعقاب فشل الحملة الصليبية الثالثة فى انتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين حدث أن فتح صلاح الدين الباب على مصراعية لزيارة بيت المقدس

(١) المرجع السابق : ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٥ .

أمام الصليبيين ، ودخل بيت المقدس من النصارى للزيارة
ما لا يتصوره عقل ، ولا يحصيه رقيب ، ولما طم " ريتشارد
قلب الأسد " كثرة من يزور بيت المقدس من حجاج النصارى
خشى أن يغضب صلاح الدين لذلك " وسير إلى السلطان
يسأله منع الزوار ، واقترح أن لا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة
من جانبه أو كتاب منه " ، ولكن صلاح الدين أبى ذلك ،
ورد عليه بأن أولئك الزوار " قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة
هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم " ، بل إن صلاح الدين
بالغ في إكرام من يرد إلى بيت المقدس من الزوار النصارى " وشرع
في مد الطعام لهم ومواسطتهم وسعادتهم " (١) .

كل ذلك من أجل إجراء صلاح الدين لأعداء الإسلام على
ظاهر الأمان ، واغرائهم بذكر محاسن الإيمان .

ثالثا : الآثار الإعلامية لمواقف صلاح الدين الإسلامية في الرأي العام الأوربي :

١ - إيقاف الرأي العام الأوربي على حقيقة الإسلام :

رأينا في بداية هذا الفصل كيف عمل صلاح الدين كل ما في
وسعه ليغيّر ما طلق بنفوس الصليبيين من أفكار خاطئة عن الإسلام
والمسلمين .

ورأينا كيف جاهد الصليبيين بالتعبئة الإعلامية الإسلامية
الكاملة عن طريق السلوك الحسن والقول اللين جنباً إلى جنب مع
جهادهم لهم بالتعبئة العسكرية الإسلامية في ميدان القتال .

ورأينا كيف نجح صلاح الدين في كلا الميدانين على حد
سواء ، ولكن النجاح الأكبر الذي تجلّى ، والذي ظهر بوضوح

(١) عبدالله طوان : صلاح الدين الأيوبي ، ص ٩٣ .

قد تمثل في نتيجة الحملة الصليبية الثالثة بعد أن كانت أفعال صلاح الدين الإسلامية قد انتقلت إلى الرأي العام الأوروبي ، وتناقل الصليبيون أخبارها فيما بينهم ، وأحدثت فيهم التأثير الذي كان يهدف إليه صلاح الدين ، والذي جنى المسلمون ثماره الطيبة في الحملة الصليبية الثالثة ، والحملة التي جاءت بعدها .

ولكى نتصور حجم هذه النتيجة ، علينا أن نتصور حجم تلك الحملة التي جاءت لتتأثر من صلاح الدين ، وتسترد بيت المقدس من أيدي المسلمين .

يقول ابن الأثير في الكامل :

" كان صلاح الدين كلما فتح مدينة أو قلعة أعطي أهلها الأمان ، وسيرهم بأموالهم ونسائهم وأولادهم إلى مدينة (صور) فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ، ومن الأموال ، مالا يغني على كثرة الإنفاق في السنين الكثيرة ، ثم إن الرهبان والقسس ، وخلقاً كثيراً من مشهورهم وفرسانهم لبسوا السواد ، وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم ، وأخذهم البطرك " الذي كان بالقدس ، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً ، يستجدون أهلها ، يستجيرون بهم ، ويحثونهم على الأخذ بنثر البيت المقدس ، وصور المسيح عليه السلام ، وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضره ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام ، وقالوا لهم : هذا المسيح يضره محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله " (١) .

ولقد أراد دعاة الصليبيين من وراء تلك الدعوة الروحية الجديدة أن يستعيدوا ما تبذر من إيمان في نفوسهم ، وأن يعودوا كما بدأوا أول مرة عندما غزوا العالم الإسلامي في الحملة الصليبية الأولى .

ولقد طمس الله على قلوبهم فأنساهم أن ميزان القوى قد انقلب رأساً على عقب فيما بين الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٩هـ/١٠٩٦م ، والحملة الصليبية الثالثة عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م . ففي الحملة الصليبية الأولى استطاع الصليبيون أن يتغلبوا على المسلمين ، وأن يحتلوا بيت المقدس ، وما كان ذلك إلا بفضل ما أظهره الصليبيون من وحدة في الهدف ورغبة في النصر وقد ساعدتهم على ذلك تمزق العالم الإسلامي ، وتطاحنه فيما بينه وافتقاده إلى القائد المسلم الذي يأخذ بيده إلى النصر .

أما الآن ونحن في الحرب الصليبية الثالثة فقد تغير الوضع تماماً على كلا الجانبين . فهذه الحملة قد نبعثت من السلطنة الزمنية التي تمثلها الملكيات القوية الثلاث في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا ، وهذه السلطة هي التي صار لها وقتذاك السيادة والسلطان في أوروبا . ولذلك اعتبرت هذه الحملة من الناحية الروحية أقل شأنًا من الحملة الصليبية الأولى التي نبعثت من البابوية ، وهي السلطة الفعلية للعالم النصراني آنذاك . وبالرغم من عامل الوحدة الذي ظهرت به القيادة الصليبية لتلك الحملة إلا أن الواقع كان عكس ذلك ، لأن ملكي فرنسا وإنجلترا بمعسود أن تغيرت نواياهما ، نقلاً ما بينهما من منازعات سياسية إلى الحركة الصليبية (١) .

كان ذلك يجري على الجانب الصليبي ، بينما على الجانب الإسلامي كانت الوحدة تزداد قوة بين المسلمين ، وكان الإيمان بالله ثم بالنصر يتخاف في قلوبهم ، والتمسك بقائدهم صلاح الدين تشتد عراه وتقوى وشائجه .

(١) أرنست هاركر : الحروب الصليبية ، ترجمة د . السيد الهاز العريني ، ص ٨٧ .

إنها نفس الدعائم التي تخلى عنها المسلمون في الحملة الصليبية الأولى فانهزموا ، وخرج بيت المقدس من أيديهم ، وهي نفس الدعائم التي تمسكوا بها فانتصروا ، واستعادوا بيت المقدس من أيدي الصليبيين ، وهي نفس الدعائم التي يتشبهون بها الآن لكي يستمر النصر بإذن الله تعالى .

لقد أدركت أوروبا النصرانية أثر العقيدة الدينية فـسـى أنفسهم بالأسر عندما بدأوا غزوهم للعالم الإسلامي فانتصروا ، وهم يدركونه اليوم في المسلمين عندما تمسكوا بعقيدتهم فغلبوا الهزيمة المنكرة نصرا مبهنا .

ومن هنا أرادت أوروبا أن تشحن الرأي العام النصراني بالعقيدة الصليبية مرة أخرى حتى يتمكنوا من غزو العالم الإسلامي ، واستعادة ما ذهب منهم على يد صلاح الدين .

ولكن الوقت قد فات ، لأن الرأي العام الأوروبي لم يعد تنطلي عليه ادعاءات قادتهم ودعائهم الكاذبة ، وذلك بعد أن تأكدوا من زيفها بأنفسهم ، نتيجة لما رأوه من المسلمين وقادة المسلمين ودعائهم ، وما رأوه كان عكس ما توهموه عن الإسلام والمسلمين في الماضي .

والدليل على ذلك ، تلك العقوبات المالية التي فرضت على من لا يشترك في هذه الحملة .

يقابل ذلك اللوائح التي أصدرها البابا لصالح الدنميين الذين انحازوا إلى الحملة .

ومن تعدد الوسائل التي اتخذها العالم الأوروبي للقيام بالحملة الصليبية الثالثة يمكن أن نتبين بوضوح ما كان لهذه الحملة من مظهر طماني .

"إن أن مشروع فرض ضريبة - وهي المعروفة بعشـر صلاح الدين - على كل من لم ينهض إلى اتخاذ الصليب،

دفعت من جهة عدد اكبر إلى أن يتخذوا الصليب مشتركوا في
الحملة الصليبية حتى لا يقوموا بدفعها ، وصارت من جهة أخرى
أساسا ماليا للحملات الحربية * (١) .

ولقد ازدادت قوة الدافع الاقتصادي للاشتراك في الحملة
الثالثة ، بما أصدره البابا من لوائح لصالح المدنيين الذين
انحازوا إلى الحملة الصليبية ، فاشترك في الحملة الثالثة الألفوف
حتى يتجنبوا دفع ما هو مقرر عليهم من الضرائب أو الفوائد
المتعلقة بما عليهم من ديون ، * ولا شك أن ما قلب على الجيوش
الصليبية الثالثة من صفة السعى وراء الربح والمادة أخذ يزداد
منذ الحملة الصليبية الثالثة على سائر الحملات السابقة * (٢) .

لماذا ؟ لأن تحولاً هاماً في الرأي العام الأوروبي
قد حدث بفضل إيقافه على حقيقة الدين الإسلامي بما قدمه
السلعون من شفقة ورحمة وعدل واحسان إلى الصليبيين الذين
جاءوا من بلادهم ليدمروا الإسلام ويمسوا أهله .
وعندما سقط بيت المقدس في يد صلاح الدين ثارت
ثائرة أوروبا ، متناسية بذلك هذا التحول الذي حدث ، وعلى
الفور كونت حملتها الصليبية الثالثة بالوحد والوحد ، وخرجت
تهدد القصاص من صلاح الدين واسترداد بيت المقدس ، وحشدت
على رأسها أعظم ملوك أوروبا آنذاك :

إمبراطور ألمانيا * فريدريك بربروسا *

ملك فرنسا * فيليب أوفسطين *

ملك الانجليز * ريتشارد قلب الأسد *

واحتدم الموقف على الجانب الإسلامي وتأزم ، وأصبح حال
المسلمين كما قال الله عز وجل :

(١) أرنست هاركر : الحروب الصليبية ، ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٨٧ ، هامش رقم (١) .

” إن جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار
وغلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى
المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا“ (١) ، وهنا تتلأأ شخصية
صلاح الدين ، ويبرز منه السر الأعظم من تكوين شخصيته ، إنه
لا يخشى أحدا إلا الله .

وهؤلاء الرجال قليل ، آحاد على مدى التاريخ البشري ،
وهم أقوى وأخطر صنف على الإطلاق في البشر .

إذا اجتمع على الرجل منهم الناس جميعا ، ازداد تصلبا ،
واندفع يقاتلهم ، ولو كان وحده (٢) .

ولكن صلاح الدين لم يكن وحده ، لقد كان مع الله ، فكان
الله معه .

إلتف المسلمون حوله يجاهدون في إيمان راسخ لا يتزعزع حتى
جاءهم النصر من عند الله ، وآتت تلك الحلة الصليبية الثالثة
بالخيبة والفشل ، حيث لم يتمكنوا من استرداد بيت المقدس
أو القصاص من صلاح الدين ، الرجل الذي استصرخ به ، ووقف
شامخا يقبل التحدي .

وهذا يفسر لنا السر الكامن وراء السعي المستمر لأعداء
الإسلام حتى يبعدوا القادة المسلمين الأقوياء عن استلام الحكم في
دول العالم الإسلامي حتى لا ينهضوه بالإسلام .

لذلك نجد معظم المستشرقين والكتاب النصاري
لا يستطيعون كتمان ذلك مهما حاولوا إخفاءه ، وسرهم
ما تفضحهم أقوالهم بما تنطوى عليه نفوسهم من حقد على الإسلام
والمسلمين .

(١) سورة الأحزاب : آية ١٠ ، ١١ .

(٢) محمود شلبي : حياة صلاح الدين ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

يقول غاردنر :

" ان الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس ، إنها كانت لتدمير الإسلام " .

ويقول المستشرق البريطاني " مونتجومري وات " فى
التايمز اللندنية فى مارس ١٩٦٨ م :

" اذا وجد القائد المناسب ، الذى يتكلم الكلام المناسب
عن الإسلام ، فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى
القوى السياسية فى العالم مرة أخرى " (١) .

ويقول " جب " :

" إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بصورة مذهلة تدعو
إلى الدهشة ، فهى تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون
من أماراتها ما يدعوهن إلى الاستراة فى أمرها . فالحركات
الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزطاة . لا ينقصها إلا ظهور
صلاح الدين جديد " (٢) .

ما تقدم يظهر جليا أن الرأى العام الأوروبى قد
تغيرت فكرته عن الإسلام إلى حد ما ، بحيث أثر هذا التغيير
على نتيجة الحملة الصليبية الثالثة التى جاءت لتعيد للنصرانية
ما كانت تتمتع به قبل صلاح الدين من نفوذ وسلطة إلا أنها
وجدت من المسلمين بقيادة صلاح الدين جيشا مؤنا كل ما
يتمناه أن ينال الشهادة فى سبيل الله .

هذلك تكون الحملة الصليبية الثالثة قد اصطدمت
بتفسيرين : أحدهما داخلى والآخر خارجى . ما جعل من
نهايتها نموذجا فريدا فى القوة المادية والفشل الذريع .

(١) جلال العالم : قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبهى وأهله ص ٦٠

ط ٢ طام ١٣٩٥ هـ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦٠ .

٢ : اعتناق بعض الصليبيين الدين الإسلامي من اقتناع تام :

ظهر بوضوح كيف استطاع صلاح الدين بأفعاله وأقواله التي هزت من الإسلام أصدق تعبير ، وصححت إلى حد كبير تلك المفاهيم الخاطئة عن الإسلام ، والتي ترسبت في أذهان الرأي العام الأوربي ، ما كان له أكبر الأثر في إحجام العديد من النصارى عن المشاركة في الحملة الصليبية الثالثة ، لولا أن قاداتها ودعاتها تداركوا الأمر فوجدوا وتوعدوا .

وجدوا كل من يحمل الصليب ويخرج بالإغراءات والاستبزازات وتوعدوا كل من يحجم عن الاشتراك في تلك الحملة بالحرمان والخسارة .

كل ذلك كان نتيجة حتمية لجهاد صلاح الدين في ميدان الدعوة إلى الله عن طريق القدوة الحسنة والعدل والإحسان إلى أعداء الإسلام حتى يؤلف بين قلوبهم والإسلام ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وأثمر غرس صلاح الدين في هذا الحقل أحسن الثمر وأطيبه حين هدى الله على يديه العديد من النصارى إلى الإسلام من اقتناع تام بأنه الدين الحق .

من ذلك أن مجاعة حلت بالفرنج ، فأكلت منهم الأخضر واليابس حتى تضوروا من الضراء ، وباءوا بالهباء .

ويقول العماد الكاتب الأصفهاني :

• وهرب إلينا منهم عصابة بعد عصابة ، وقد بادوا من الضعف البادى ، وأعداهم الضرا العادى ، فمن سألناه عن مقتضى فراره ، ومقتضى قراره ، يخبر أنه طواه الطوى ، فنوى النوى حين النوى وكانت الفرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار ،

والسعر من الزيادة لديهم في استعمار . فما جاء إلا كل
ضعيف لا يقوى على النزاع والنزال ، ولا سكة لا تلاق رفق
من الاعتلال . فقبلناهم وأنفقنا فيهم ، وألفناهم بما يكف
ضررهم ويكفيهم . فتقوتوا وتقووا ، وأثروا بعد ما أقسوا .
فمنهم من أسلم وخدم ، ومنهم من ند وتندم . ومنهم من
فدا بجزيرة وطاد (١) .

يقول العماد الأصفهاني : " ومنهم من أسلم وخدم "

هذا الذي أسلم وخدم لم يجبره أحد من المسلمين على
اعتناق الإسلام ، لأن منهم من ند وتندم ، ومنهم من فدا
بجزيرة وطاد .

لقد أسلم من أسلم منهم من اقتناع تام بأن هؤلاء
المسلمين هم أصحاب الدين الحق الذي يجب أن يتبع
لأنهم لو لم يكونوا كذلك لما فعلوا معهم على الأقل ما
فعلوه من بر واحسان ورحمة ، خاصة إذا قارنوا بين ما
يفعله الصليبيون مع من يقع تحت أيديهم من المسلمين ،
وما فعله هؤلاء المسلمون معهم عندما آووا إليهم يطلبون
منهم العون والرحمة ، فوجدوا عندهم فوق ما يطلبون .

لذلك نجد صلاح الدين لا يفرط في أية فرصة قد
تسبح له من أجل تحقيق تلك الغاية التي تعتبر غاية
الدعوة الإسلامية وقمة نجاحها .

جاء ، رجاله يوما بتجار من الفرنج يحملون في البحر
على مراكب للتجارة بعد أن سحب المسلمون مراكبهم إلى
الشاطئ ، وهي مشحونة بالأواني الذهبية ، والمصوغات

(١) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القس في الفتح القدسي ص

النخارية والأواني الفضية ، وغير ذلك من النفائس الجميلة
والكرائم النادرة .

ومع ذلك يقول الكاتب الأصفهاني :

" فوفّر السلطان عليهم هذه الأكساب ، ولم يحرمهم
حيث حرّموا لكفرهم الثواب . وأظهروا لهذه النبهة أنهم
مناصحون ، ولهمين الإيمان صافحون . فلما أكرموا بتلك
المكرمة ، أثنوا على الهدى النعمة . وأسلم منهم شطرهم
وحسن بهننا ذكرهم . وهركات الكرم السلطاني كرموا ،
وأنسوا وأسلموا . وكانوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة
فضة عظيمة وطبها مكنة طالمة ، ولها قيمة غالية . ومعها
طبق يماثلها في الوزن ، ويتعذر وجود ذلك للملوك في
الخزن . ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قطارا ، فما
أطرها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم :

" خذوها فأنتم بها أولى " ، وكان أول من أسدى
هذا المعروف وأولى " (١) .

هذا هو صلاح الدين الذي يخشى أهداء الإسلام
أن يظهر في المسلمين رجل مثل صلاح الدين جديد ، رجل
يجمع شمل المسلمين ويعيد لهم حطين والقدس ، رجل يوجه
خلافات المسلمين إلى نحر أهدائهم .

وحالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين وإن كانت
قد بلغت قمتها في عهد صلاح الدين إلا أنها بدأت منذ
الحرب الصليبية الأولى . والمسلمون لا يزالون في حالة
التمزق والضعف .

(١) المصدر السابق : ص ٤٦١ .

يقول " سير توماس .و. أرنولد "

" وفي غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغربياء .
ففي الحرب الصليبية الأولى مثلاً ، إنشق على الطائفة الرئيسية جماعة من الألمان بزعامة فارس مشهور يدعى " رينود " وحاصروهم السلطان أرسلان السلجوقي في إحدى القلاع ، وتظاهر هو وخاصة أتباعه بالقيام بهجوم على محاصريهم في الخارج فتركسوا رفاقهم التحسين وانتقلوا إلى الأتراك حيث اعتنقوا الإسلام بينهم " (١) .

وقبل صلاح الدين وفي عهد نور الدين محمود كانت تحدث مثل هذه الحالات نتيجة للمعاملة الأخلاقية الحسنة التي كان يلقاها الصليبيون من المسلمين أثناء الحملة الصليبية الثانية .

وفي ذلك يقول " سير توماس .و. أرنولد " :

" وبمثل لنا تاريخ الحرب الصليبية الثانية ، تلك الحرب المشتومة ، حادثة على جانب عظيم من الأهمية وهي شبهة بتلك الحادثة " .

والقصة تتلخص في أن جماعة من الصليبيين قد منوا بهزيمة نكراء على أيدي المسلمين حينما كان هؤلاء الصليبيون يشقون طريقهم بين الجبال إلى بيت المقدس عن طريق آسيا الصغرى وقد تمكن عدد منهم من الإبحار إلى أنطاكية ، بينما خلفوا وراءهم العرضى والجرحى تحت رحمة الخونة من حلفائهم الإفريق الذين أخذوا يبلغ خسائصة

(١) سير توماس .و. أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٠٨ .

مارك من "كوبس" على شريطة أن يمدوا الحجيج بقوة من الحرس ، وأن يعنوا بالمرضى ، إلا أن الإغريق أغضبوا المسلمين بموقف الحجيج الأذل حيث وقعوا في أيدي القوات الاسلامية ، التي أشفقت عليهم ، فواست العريضة ، وأغاثت الفقير والجائع الذي أشرف على الهلاك وبذلت لهم العطاء في كرم وسخاء ، بل لقد اشترى بعض المسلمين النقود الفرنسية التي أهتزها الإغريق من الحجاج بالقسوة والخداع ، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم ، فكان البون شامعا بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من المسلمين وما عانوه من قسوة إخوانهم النصارى من الإغريق .

ثم ينهى المؤلف النصراني هذه القصة بقوله :

" حتى ان كثيرا منهم دخلوا في دين منقذهم بمحض إرادتهم " (١) .

ويتساءل المؤلف النصراني بعد ذلك في حسرة مضمرة فيقول :

" وقد لا يكون من المستع أن نعرف من هم هؤلاء المسلمون الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولكن يظهر أنهم لم يخلفوا سجلا بأعمالهم على أننا نعلم أن صلاح الدين العظيم نفسه ، كان طمس رأسهم ، وهو الذي وضعه كاتب سيرته " بهاء الدين بن شداد " بأنه قدم محاسن الإسلام بين يدي ضيفه المسيحي ، وحسنه على اعتناقه " (٢) .

(١) المرجع السابق : ص ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ١١٠ .

ولكن ما هو السر في أن صلاح الدين كان على رأس هؤلاء الذين حولوا الكثير من النصارى إلى الإسلام ؟

يجيبنا على ذلك نفس المؤلف فيقول :

” ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في مصره تأثيرا سحرها خاصا ، حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم ، وانضموا إلى المسلمين ” (١) .

إنها دعوة من صلاح الدين ، ودعوة طامة شامة على جميع الصليبيين - لو استطاع - أن يتركوا ديانتهم ويدخلوا في دين الله أفواجا .

حدث ذلك بعد أن أنزل صلاح الدين هزيمته المنكرة بالصليبيين في (حطين) حيث يقول ” سير توماس . وو. أرنولد ” :

” وكان ملك بيت المقدس بين الأسرى ، وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه ، قد حلت فيهم روح شريفة (٢) وفروا إلى معسكر صلاح الدين

(١) المرجع السابق : ص ١١١ .

(٢) نص العبارة التي أوردها المؤلف النصارى ، وطبيعة الحال لا يستغرب على مثل هذا المؤلف وأمثاله مثل هذه العبارات لأنهم لا يستطيعون كتمان ما في أنفسهم من حقد على أحقاد صلاح الدين .

حيث أسلموا ببعض إرادتهم .

ويظهر أن صلاح الدين ، كان قد تفاهم في الوقت نفسه مع " ريموند الثالث " كونت طرابلس الشام ، طلى أن يوعز إلى أتباعه بترك العقيدة المسيحية والتحول إلى جانب المسلمين ، ولكن موت هذا " الكونت " المفاجئ قد وقف بصورة فعالة في سبيل هذه الخطه " (١) .

لم يكن صلاح الدين قانعاً طلى ما يبدو بالأعداد التي تعتنق الاسلام من وقت لآخر من الصليبيين ، ولم يكن في نفس الوقت راغباً في إكراههم طلى الدخول فسى الاسلام ، فكان منه ما حدث بينه وبين " ريموند الثالث " .

رحم الله صلاح الدين الذى جاهد في الله حق جهاده ، وأثابه من أمته الإسلامية خيراً .

(١) المرجع السابق : ص ١١١ .

" خاتمة "

ظلت فترة الحروب الصليبية التي استغرقت من عمر الأمة الإسلامية زمناً طويلاً تستحوذ على تفكيرى ، وتدفعنى دافعاً إلى أن أبحث وأدقق وأعيش تلك الفترة من خلال البحث والتدقيق ، لأقف على عوامل الضعف والهزيمة التي وقفت بالمرصاد وراء الهزائم الحادة التي ابتلى بها المسلمون أمام جحافل الصليبيين في بداية شن حملاتهم على الأمة الإسلامية .

ثم أوقف مرة أخرى على تلك القوة الكامنة التي دفعت المسلمين إلى قسوة انتصارهم العسكري حين استردوا بيت المقدس من أيدي غاصبيه ، ولست أقصد من وراء ذلك القوة المادية العسكرية في ميدان الطعن والغزال ، فهذه القوة وحدها لا تساوى شيئاً أمام القوة التي كنت أبحث عنها وأدقق فيها ، وأعنى بها قسوة العقيدة والإيمان والدعوة إلى الله على بصيرة ، تلك القوة العقيدة التي تجلست في التعبئة الإعلامية الإسلامية الكاملة في عهد صلاح الدين .

ولقد أثبت في هذا البحث من خلال الأحداث والنصوص أن التعبئة الإعلامية ظاهرة كاملة متكاملة لا تنفك عراها ، وقد تظهر في قرن أو قرنين من الزمان ، وقد لا تظهر أبداً مهما طال الزمن إذا لم تتوفر لها العوامل الكاملة لحدوثها ، ولذلك لم تحدث في تاريخ الحروب الصليبية إلا مرتين : الأولى حدثت على الجانب الصليبي عند بدء الحملات الصليبية ، والثانية على الجانب الإسلامي في عهد صلاح الدين الأيوبي .

كما أثبت في البحث الأثر الذي تركته التعبئة الإعلامية في الرأي العام على كلا الجانبين عندما اكتمل صرحها ، وأبرزت قيام كل وسيلة إعلامية من وسائل الدعوة والإعلام بوظيفتها كاملة في تناسق وتعاون تامين مع الوسائل الإعلامية الأخرى داخل الهيكل العام لهذه التعبئة ، وبدون هذا التناسق والتعاون بين وسائل الإعلام المتعددة لا يمكن للتعبئة الإعلامية أن تحدث .

ولاشك أن البحث قد أسفر عن أهمية الجهاد في حياة المسلمين للدفاع عن عقيدتهم أمام جحافل الكفر والفسوق والعدوان ، وأن هذه الجحافل الآتية

قد تظنون من شكل إلى آخر لتختفى وراء أشكال أخرى أشد خبثاً ودهاءاً، ومن ذلك ما تنفخ به كتابات العديد من المستشرقين النصارى وغيرهم من حقد على تلك الفترة الإسلامية المصيرية التي استرد فيها المسلمون حطين والقدس، ولقد فعلوا ذلك تحت أربة زينوها بدعوى البحث العلمى ، وهم فى الواقع أبعد ما يكونون عن البحث والعلم.

كما كشف هذا البحث عن أثر القدوة الحسنة، ومالها من مردود لا يمكن إغفاله على مصير الدعوة، كما لا يمكن الاستعاضة عنها بأية وسيلة إعلامية أخرى، وأن الأمة الإسلامية متى وجدت القائد القدوة الذى يوحد شتاتها، ويجمع شملها، فلا بد للنصر من أن يسير فى ركابها، ومتى تعذر وجود مثل هذا القائد القدوة، وتمزقت الأمة، وشغلت بنفسها كانت الهزيمة والضياح.

ومن أهم النتائج التى كشف عنها البحث من خلال أحداث تلك الفترة ووثائقها أن الأمة الإسلامية لا يمكن لها أن تصل إلى مرحلة التعبئة الإعلامية الكاملة إلا إذا ارتكزت فى وسائلها الإعلامية على الركائز الإسلامية الثابتة التى يوجد فيها صلاح المسلم فى الدنيا والآخرة، وأن جحافل العقائد الضالة لا يهزمها إلا جحافل العقيدة الإسلامية الحققة.

وكشف البحث أيضاً من خلال الأحداث والنصوص أن الإعلام الإسلامى - بكل مقوماته وامكاناته، وبكل ما يريده رجال الإعلام المحدثون - موجود فى تاريخ المسلمين لا ينكره أو يرتاب فيه إلا كل من فى قلبه مرض.

هذه هى النتائج الرئيسة التى توصل إليها البحث، عدا النتائج الأخرى التى تخللت صفحات هذه الفصول، والتى أثبتتها فى مكانها من هذه الدراسة التى لم أهدف من وراءها إلا وجه الله تعالى، ثم الحقيقة العلمية الخالصة، وعلى الله قصد السبيل.

"وقل اعلموا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون".

"مصادر البحث ومراجعته"

- أولا : القرآن الكريم
- ثانيا : المصادر والمراجع :
- ١ - د . ابراهيم إمام :
الإعلام الإسلامي (المرحلة الشفهية) . . . مكتبة الأنجلو المصرية (١٤٠٠ هـ)
 - ٢ - ابراهيم مصطفى وآخرون :
المعجم الوسيط . . . مجمع اللغة العربية القاهرة - ط ٢ (بدون تاريخ)
 - ٣ - ابن الأثير :
الكامل في التاريخ . . . دار الفكر بيروت (١٣٩٨ هـ)
 - ٤ - د . أحمد بدر :
أ - الاعلام الدولى مكتبة غريب - القاهرة (١٣٩٧ هـ)
ب - الرأي العام مكتبة غريب - القاهرة (بدون تاريخ)
 - ٥ - أحمد بن عبد ربه :
العقد الفريد - تحقيق محمد سعيد العريان - دار الفكر العربي
بيروت (بدون تاريخ)
 - ٦ - أرست باركر :
الحروب الصليبية . . . ترجمة د . الباز العرينى - دار النهضة العربية
بيروت ط ٢ (١٣٨٦ هـ)
 - ٧ - أمين سعيد :
سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب . . مطابع نجد التجارية
الرياض (١٣٩٥ هـ)
 - ٨ - د . أنيس قاسم :
تأملات في الاحتلالين الصليبي والصهيوني الدار العربية للكتاب
ليبيا (١٤٠٠ هـ)
 - ٩ - بسام العسلى :
أ - الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية . . دار النفائس - بيروت ط ١ (١٣٩٨ هـ)
ب - صلاح الدين الأيوبي . . . دار النفائس - بيروت ط ٢ (١٤٠٠ هـ)

- ١٠- الترمذى :
الجامع الصحيح ... تحقيق : ابراهيم عطوة - دار إحياء التراث العربى
بيروت (١٣٨١ هـ)
- ١١- ابن تغرى بردى :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ... المؤسسة المصرية العامة
(بدون تاريخ)
- ١٢- توماس. و. أرنولد :
الدعوة إلى الإسلام ... ترجمة حسن ابراهيم - مكتبة النهضة المصرية (١٣٩٠ هـ)
- ١٣- ابن جبير :
رحلة ابن جبير ... ط دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠١ هـ)
ط دار صادر - بيروت (١٤٠٠ هـ)
- ١٤- ابن جرير الطبرى :
تاريخ الطبرى ... تحقيق أبو الفضل - دار المعارف بمصر (بدون تاريخ)
- ١٥- جلال العالم :
قادة الغرب يقولون : " مروا الإسلام أبداً وأهله " ط ٢ (١٣٩٥ هـ)
- ١٦- د. حسن حبشى :
أ - أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس - دار الفكر العربى (١٣٧٨ هـ)
ب - الحرب الصليبية الأولى - دار الفكر العربى (١٣٧٨ هـ)
- ١٧- أبو الحسن الندوى :
أ - الحافظ أحمد بن تيمية ... تعريب : سعيد الأعظمى
دار القلم - بيروت (١٣٩٥ هـ)
ب - صلاح الدين الأيوبي دار القلم - بيروت (١٤٠٠ هـ)
- ١٨- ابن خلكان :
وفيات الأعيان ... تحقيق : د. احسان عباس - مطبعة الثقافة
بيروت (بدون تاريخ)
- ١٩- د. سعيد سراج :
الرأى العام ... الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٨ هـ)
- ٢٠- سعيد عبد الفتاح عاشور :
أ - أوروبا فى العصور الوسطى .. مكتبة الأنجلو المصرية (١٣٩٨ هـ)
ب - الحركة الصليبية مكتبة الأنجلو المصرية (١٣٩٨ هـ)

- ٢١ - سيد قطب :
فى ظلال القرآن دار الشروق ط ٤ (١٣٩٧ هـ)
- ٢٢ - شاكرا ابراهيم :
الإعلام ووسائله مؤسسة آدم للنشر والتوزيع (١٣٩٥ هـ)
- ٢٣ - أبو شامة :
الروستين فى أخبار الدولتين دار الجيل - بيروت (بدون تاريخ)
- ٢٤ - عباس محمود العقاد :
الإنسان فى القرآن الكريم دار السلام - القاهرة (بدون تاريخ)
- ٢٥ - د . عبد الحليم عويس :
أ - أثر دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب فى الفكر الإسلامى
الإصلاحى بالجزائر - مجلة كلية العلوم الاجتماعية
(العدد الخامس) (١٤٠١ هـ)
ب - بيت المقدس فى ضوء الحق والتاريخ دار المريخ (١٤٠١ هـ)
ج - المسلمون فى معركة البقا دار الاعتصام بمصر (١٣٩٩ هـ)
- ٢٦ - عبد الله بلوان :
صلاح الدين الأيوبرى مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٣٩٤ هـ)
- ٢٧ - أبو عبد الله محمد بن حماد :
أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم دار العلوم بالرياض (١٤٠١ هـ)
- ٢٨ - د . عبد اللطيف حمزه :
أ - الإعلام فى صدر الإسلام .. دار الفكر العربى - القاهرة - ط ٢ (١٣٩٨ هـ)
ب - الإعلام له تاريخه ومذاهبه .. دار الفكر العربى - القاهرة (١٣٩٨ هـ)
ج - الإعلام والدعاية .. دار الفكر العربى - القاهرة (١٣٩٨ هـ)
- ٢٩ - د . على عبد الحليم محمود :
الغزو الصليبي والعالم الإسلامى .. دار عكاظ - الرياض (١٣٩٩ هـ)
- ٣٠ - ابن العماد :
شذرات الذهب دار المسيرة - بيروت - ط ٢ (١٣٩٩ هـ)
- ٣١ - د . عماد الدين خليل :
نور الدين محمود دار العلم - بيروت - ط ١ (١٤٠٠ هـ)

- ٣٢- الصادر الكاتب الأصفهاني :
الفتح القس في الفتح القدسي . . تحقيق - محمد صبيح
الدار القومية للطباعة والنشر
(بدون تاريخ)
- ٣٣- د . عمارة نجيب :
الإعلام في ضوء الإسلام . . مكتبة المعارف - الرياض - ط ١ (١٤٠٠ هـ)
- ٣٤- د . فايد حماد عاشور :
جهاد المسلمين في الحروب الصليبية . . مؤسسة الرسالة بيروت - ط ١ (١٤٠١ هـ)
- ٣٥- دؤاد دياب :
الرأي العام وطرق قياسه . . مطابع الدار القومية
(١٣٨٢ هـ)
- ٣٦- فيش -
تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . . تعريب : محمد زيادة - دار المعارف
بمصر (١٣٩٦ هـ)
- ٣٧- ابن كثير -
البداية والنهاية دار الفكر - بيروت (١٣٩٨ هـ)
- ٣٨- د . محمد أحمد أبو زيد :
سيكولوجية الرأي العام ورسائله . . عالم الكتب
(بدون تاريخ)
- ٣٩- محمد بن أبي بكر الرازي :
مختار الصحاح . . تحقيق لجنة من علماء العربية - دار المعارف بمصر (١٣٩٦ هـ)
- ٤٠- محمد رضا بك :
الخيفة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق . . دار بوسلامة تونس - ط ٢ (١٣٩٧ هـ)
- ٤١- د . محمد زعلول سلام :
الأدب في العصر الأيوبي . . دار المعارف - مصر (١٣٨٨ هـ)
- ٤٢- محمد أبو زهرة :
الوحدة الإسلامية . . دار الفكر العربي - القاهرة - ط ٢ (١٣٩٧ هـ)
- ٤٣- محمد سيد كيلاني :
الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي . . دار الكتاب العربي مصر (١٣٦٩ هـ)
- ٤٤- د . محمد عبد الغادر حاتم :
الاعلام والدعاية مكتبة الأنجلو المصرية (١٣٩٢ هـ)

- ٤٥- محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي :
مشكاة المصابيح - تحقيق : محمد الألباني - المكتب الاسلامي - بيروت - ط ٢ (١٣٩٩ هـ)
- ٤٦- د . محمد بن علي الهرفي :
أ - الحروب الصليبية وأثرها في الشعر العربي . . النادي الأدبي بالرياض (١٤٠٠ هـ)
ب - شعر الجهاد في الحروب الصليبية . . مؤسسة الرسالة - بيروت (١٤٠٠ هـ)
- ٤٧- د . محمد ماهر حمادة :
وثائق الحروب الصليبية . . مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٣٩٩ هـ)
- ٤٨- محمود شلبس :
حياة صلاح الدين . . . دار الجيل - بيروت (١٤٠٠ هـ)
- ٤٩- محمود مهدي الاستنبولي :
ابن تيمية . . . مكتبة دار المعرفة - دمشق - ط ٢ (١٣٩٧ هـ)
- ٥٠- د . محي الدين عبد الحليم :
الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية . . مكتبة الأنجلو المصرية (١٤٠٠ هـ)
- ٥١- د . مختار التهامي :
الرأي العام والحرب النفسية دار المعارف - مصر (١٣٩٤ هـ)
- ٥٢- الإمام مسلم :
أ - الجامع الصحيح . . المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت (بدون تاريخ)
ب - صحيح مسلم بشرح النووي . . . دار الفكر - بيروت ط ٢ (١٣٩٢ هـ)
- ٥٣- د . مصطفى الشكعة :
إسلام بلا مذاهب . . دار النهضة العربية - بيروت (١٣٩٣ هـ)
- ٥٤- ابن منظور :
لسان العرب . . . الدار المصرية للتأليف والترجمة (بدون تاريخ)
- ٥٥- ابن هشام :
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم . . . تحقيق : محي الدين
عبد الحميد - دار الفكر - بيروت (بدون تاريخ)

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة :	١٤-٣
تمهيد	
* مبحث فى مصطلحات الدعوة والدعاية والإعلام والرأى العام	٨١-١٧
أولا : الدعوة	٣٣-١٧
ثانيا : الدعاية	٤١-٣٤
ثالثا : الإعلام	٥١-٤٢
رابعا : الرأى العام	٨١-٥٢
الباب الأول :	
* التعبة الإعلامية الأوربية وأثرها فى التصيد للحروب الصليبية	١٧٩-٨٢
الفصل الأول :	
تصور عام للحروب الصليبية التى شننها نعارى أوربا على الأمة الإسلامية ٨٣-١١٥	
١- حقيقة الحروب الصليبية	٨٤
٢- من هم الصليبيون ؟	٨٥-٨٤
٣- دوافع الحروب الصليبية	٨٩-٨٥
الحملات الصليبية التى تنالت على العالم الإسلامى	١١٥-٩٠
- الحملة الصليبية الأولى	٩٣-٩٠
- الحملة الصليبية الثانية	٩٩-٩٤
- الحملة الصليبية الثالثة	١٠٢-٩٩
- الحملة الصليبية الرابعة	١٠٥-١٠٢
- الحملة الصليبية الخامسة	١٠٨-١٠٥
- الحملة الصليبية السادسة	١١١-١٠٨
- الحملة الصليبية السابعة	١١٥-١١١
الفصل الثانى :	
* الدعاية للحملة من قبل الصليبيين	١٥١-١١٦

الموضوع	رقم الصفحة
١- البابا "أوريان الثاني" وعلان الحرب الصليبية" . . .	١١٦-١٥١
٢- حملات العامة التي تزعمها "بطرس الناسك" وغيره . . .	١١٧-١٣٤
٣- الرؤى والتنبؤات وأثرها في بث الحماسة الجماهيرية . . .	١٤٢-١٥١
الفصل الثالث :	
"وسائل الدعاية التي استغلها الصليبيون في حربهم ضد المسلمين" ١٥٢-١٧٩	
١- إتيان الصليب رمزا إعلاميا لستر الأطماع الحقيقية للصليبيين	١٥٣-١٦٠
٢- رفع الشعار الإعلامي الصليبي القائل بإنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين	١٦١-١٦٩
٣- إنتشار الشائعة التي تقول بظهور السيد المسيح في بيت المقدس على رأس ألف من التاريخ الميلادي	١٧٠-١٧٩
الباب الثاني :	
"التمهيط الإعلامي في الجبهة الإسلامية"	١٨٠-٢٩٠
الفصل الأول :	
"حالة المجتمع الإسلامي في الشام ومصر عند بدء الحملات الصليبية" ١٨١-٢٠٨	
١- تمزق الرأي العام الإسلامي نتيجة لما ساد الأمة الإسلامية من خلافات	١٨٢-١٩١
٢- الفرنج يحتلون القدس بينما محمد بن طكشاه يحارب أخشاه بركياروق	١٩٢-٢٠٠
٣- الفاطميون في مصر يمزقون الرأي العام بعقائدهم الخالصة	٢٠١-٢٠٨
الفصل الثاني :	
"الركائز الإسلامية التي اعتمد عليها المسلمون في تعبئتهم الإعلامية ضد الصليبيين"	٢٠٩-٢٣٩
أولا : مرحلة عدم الرؤية وتمثل عدم الوضوح في الاعتماد على الركائز الإسلامية	٢١٠-٢١٣
١- التصوف والزهد في الدنيا هربا من المشاركة في الجهاد ضد الصليبيين	٢١٠-٢١١
٢- ترك الجهاد والاستعاضة عنه بالاعتكاف في المساجد للعبادة وتلاوة القرآن دافعا للخطر الصليبي	٢١١-٢١٣

الموضوع	رقم الصفحة
ثانيا : بداية وضوح الرؤية والانطلاق من الركائز الإسلامية	
في عهد عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود	٢١٨-٢١٤
ثالثا : مرحلة الوضوح الكامل للاعتماد على الركائز الإسلامية فسي	
التعبئة الإعلامية في عهد صلاح الدين	٢٤٣-٢١٩
١- القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة	٢٣١-٢١٩
٢- المسجد والعودة به إلى ما كان عليه في صدر الإسلام .	٢٣٦-٢٣١
٣- موسم الحج واستغلاله في الدعوة إلى الجهاد	٢٤٣-٢٣٧
الفصل الثالث :	
"الوسائل الإعلامية التي استغلها المسلمون في تعبئتهم	
الإعلامية ضد الصليبيين"	٢٩٠-٢٤٤
أولا : الوسائل الإعلامية في الجبهة الإسلامية قبيل صلاح الدين	٢٥٢-٢٤٥
١- إنشاء المدارس	٢٤٧-٢٤٥
٢- الرسائل وأثرها في نقل الأخبار	٢٥٠-٢٤٨
٣- الشعر يتصدر التعبئة الإعلامية منذ البداية	٢٥٢-٢٥١
ثانيا : الوسائل الإعلامية التي استغلها صلاح الدين ضد الصليبيين	٢٩٠-٢٥٣
١- التوسع في إنشاء المدارس لنشر عقيدة الجهاد ضد الصليبيين	٢٥٩-٢٥٣
٢- مشاركة العلماء والأئمة بأنفسهم في المعارك حتى يصبحوا	
قوة إعلامية كبرى بين المجاهدين	٢٦٤-٢٥٩
٣- تأليف الكتب التي تحت المسلمين على الجهاد والفروسيمة	٢٧٢-٢٦٥
٤- موازنة الشعر في خصائصه وموضوعاته مع مرحلة التعبئة الإعلامية	
ضد الصليبيين	٢٨١-٢٧٢
٥- الرسائل تواصل وظيفتها الإعلامية	٢٩٠-٢٨١
الباب الثالث :	
"الرأي العام الإسلامي في مرحلة التعبئة الإعلامية الكاطة"	٣٩٥-٢٩١

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول :	
" توحيد الرأي العام الإسلامى على يدى صلاح الدين الأيوبي "	٢٩٢-٢٣٢
أولا : القدوة الحسنة وسيلة من أقوى الوسائل الإعلامية	٢٩٣-٣٠٥
١- صلاح الدين القدوة الحسنة فى الجهاد فى سبيل الله	٢٩٥-٢٩٨
٢- صلاح الدين القدوة الحسنة فى التقوى والتواضع والسور	٢٩٩-٣٠٢
٣- صلاح الدين القدوة الحسنة فى البذل والعطاء	٣٠٢-٣٠٥
ثانيا : الإصلاح العقدي :	٣٠٦-٣١٩
١- القضاء على الإلحاد ونسف قواعد الزندقة	٣٠٦-٣١٠
٢- القضاء على غلاة الشيعة ودعاة الاسماعيلية	٣١٠-٣١٣
٣- إنشاء المكتبات والمدارس لتدريس الدين على مذهب أهل السنة والجماعة	٣١٣-٣١٩
ثالثا : الإصلاح الاجتماعى :	
١- القضاء على مظاهر الخلاعة والمجون فى عهد الفاطميين وخاصة فى المواسم والأعياد	٣١٩-٣٢٢
٢- القضاء على بدع المواسم كبدع يوم عاشورا	٣٢٢-٣٢٥
٣- القضاء على العديد من الضرائب التى فرضت على مصر والشام وحجاج بيت الله الحرام	٣٢٦-٣٣٢
الفصل الثانى :	
" معركة حطين مفتاح القدس عسكريا وإعلاميا	٣٣٣-٣٦٠
أولا : تصور عام للمعركة	٣٣٤-٣٤١
ثانيا : النتائج العسكرية والإعلامية لمعركة حطين على كلا الجانبين	٣٤٢-٣٥٢
ثالثا : أثر معركة حطين فى استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين	٣٥٢-٣٦٠
" مواقف صلاح الدين الإسلامية وأثرها الإعلامى فى الرأي العام الأوروبى "	٣٦١-٣٩٥

الموضوع	رقم الصفحة
أولا : شفقة صلاح الدين ورحمته وبعض الأمثلة عليهما مثل :	٣٧٢-٣٦٢
١- استجابته الإنسانية لما عانى منه المسنون الضعفاء من الصليبيين	٣٦٨-٣٦٢
٢- رحمته بالنساء والأطفال الصليبيين	٣٧٢-٣٦٨
ثانيا : عدله واحسانه وبعض الأمثلة عليهما مثل :	٣٨٢-٣٧٢
١- لإنه لرجال الدين النصارى بحمل ماشاءوا من متاعهم وأموالهم	٣٧٨-٣٧٢
٢- إعفاؤه من الفدية لأعداد غفيرة من الصليبيين غير القادرين	
على دفعها	٣٨٢-٣٧٨
ثالثا : الآثار الإعلامية لمواقف صلاح الدين في الرأي العام	
الأوربي	٣٩٥-٣٨٢
١- إيقاف الرأي العام الأوربي على حقيقة الإسلام	٣٨٨-٣٨٢
٢- إعتناق بعض الصليبيين الدين الإسلامي عن اقتناع تام	٣٩٥-٣٨٩
خاتمة	٣٩٧-٣٩٦
مصادر البحث ومراجعته	٤٠٢-٣٩٨
فهرس الموضوعات	٤٠٧-٤٠٣

